سِرُّ النَّجَاحِ

يُوزَّع مجّانًا مع العدد (128) من مجلّة «الدوحة» - يونيو - 2018

عنوان الكتاب: سِرُّ النَّجَاح
المؤلف: صموئيل سمايلز - **ترجمة**: يَعقُوب صَرُّوف

الناشر: وزارة الثقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية:
الترقيم الدولي (ردمك):

العمل الفَنّي للغلاف: Elena Polenova (1850 - 1898) روسيا
الإخراج والتصميم: القسم الفَنّي - مجلّة الدوحة

هذا الكتاب: يُعبِّر عن آراء مؤلِّفه، ولايُعبِّر -بالضرورة- عن رأي وزارة الثقافة والرياضة أو مجلّة الدوحة

صموئيل سمايلز

سِرُّ النَّجَاحِ

ترجمة
يَعقُوب صَرُّوف

كتاب الدوحة

تمهيد

ترجمت هذا الكتاب في حدود سنة 1877 بإيعاز من الدكتور كرنيليوس ڤان ديك، وطبع في بيروت سنة 1880 وقدمت له مقدمة وجيزة؛ قلت فيها إنه «من مؤلفات الفاضل صموئيل سمايلز، وقد ندبني إلى ترجمته أستاذي الأكرم الدكتور كرنيليوس ڤان ديك، فاستعنت بالله على سبكه في قالب عربي، وكنت أراعي الأصل تارة وأخالفه أخرى على ما يقتضيه اختلاف اللغتين وأفكار أهلهما، وأنا أشهد لأبناء وطني أنني لم أنتفع بكتاب قدر ما انتفعت بهذا الكتاب».

ومهّد له الدكتور فان ديك حينئذ تمهيداً وجيزاً قال فيه، «إني

طالعت هذا الكتاب بما يستحقه من التروي فوجدته من أنفع الكتب التي يحتاج إليها كل أحد من أهل هذه البلاد وغيرها، وقد رأى ذلك كثيرون من علماء أوروبا، وترجموه إلى أكثر لغاتها، فسعيت أنا في ترجمته إلى العربية وطبعه فيها، أملاً أن ينتفع أهلها به كما انتفع غيرهم من الأمم الغربية».

ونفدت نسخ الطبعة الأولى فطبع ثانية في بيروت، ثم أضفت إليه ترجمات كثيرة شرقية ومعجماً يشرح ما فيه من الإعلام، وطبع في مطبعة المقتطف بالقاهرة سنة 1886، ولما نفدت نسخه هذه طالبني كثيرون بإعادة طبعه ولكنني لم أجد فرصة لذلك إلّا في الصيف الماضي، فراجعته وتوسعت في معجمه وأعدت طبعه، وأنا أرجو أن ينتفع به قارئوه الآن كما انتفع الذين قرؤوه قبلهم.

يعقوب صرُّوف

(1852-1927)

الفصل الأول

في الاعتماد على النفس

قال يوحنا ستورت مل: «قيمة المملكة تتوقّف على قيمة أفرادها».

وقال دزرائيلي: «إننا نعتمد على القوانين أكثر مما يجب، وعلى الإنسان أقل مما يجب».

اعتماد الإنسان على نفسه أصل لكل نجاح حقيقي، وإذا اتّصف به كثيرون من أمة من الأمم ارتقت تلك الأمة وتقوّت، وكان هو سرَّ ارتقائها وتقويها، وما ذلك إلّا لأن الإنسان يقوي عزمه باعتماده على نفسه، ويضعف باعتماده على غيره؛ ألا ترى أن المساعدة التي ينالها الإنسان من غيره تذهب بنشاطه غالباً لأنها لا تدع موجباً لسعيه في خير نفسه فتغادره ضعيفاً عاجزاً ولا سيما إذا فاقت حدّ الاقتضاء، وما أحسن ما قاله الطغرائي في هذا المعنى:

وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل

وأفضل الشرائع لا يجدي الإنسان نفعاً أكثر من جعله حرّاً ليعتمد على نفسه وينكبّ على إصلاح شأنه، غير أن البشر قد اعتقدوا في كل أين وآن أن خيرهم وراحتهم منوطان بشرائع بلادهم لا بسلوكهم، فحسبوا الشرائع علة لتقدمهم، وبالغوا في الاعتماد عليها أيَّ مبالغة، ولكن كاد يتقرر عند أهل هذا العصر أنه ليس لشرائع الدول من فائدة سوى حماية رعاياها بتأمينهم على حياتهم وحريتهم ومالهم؛

فالشرائع التي يتولّاها حكام أمناء تمكّن الإنسان من اجتناء ثمار أتعابه العقلية والجسدية بقليل من الخسارة، ولكنها ما كانت لتصير البليد نجيبا والكسلان مجتهداً والمبذر مقتصداً مهما كانت عادلة؛ لأن هذا منوط بالإصلاح الشخصي، أي بالاجتهاد والاقتصاد وإنكار الذات وما أشبه ذلك.

وما حكومة الشعب سوى صورة أفراده؛ فإذا فاقت الشعب لم تلبث أن تنحط إليه، وإذا انحطّت عنه لم تلبث أن ترقى إليه مع الزمن، ومهما تكن أخلاق الشعب فإنها تظهر في حكومته؛ فإذا كان مستقيماً حكم بالاستقامة، وإذا كان معوجا حكم بالاعوجاج. والاختبار يدلنا على أن قوة الشعوب ودرجتها لا تتوقفان على حكوماتها كتوقفهما على أخلاق أفرادها؛ إذ ليس الشعب سوى مجموع أفراده وليس تمدّنه سوى تمدُّن أفراده، كباراً وصغاراً ذكوراً وإناثاً؛ فتقدّم الشعب هو مجموع علم أفراده، واجتهادهم واستقامتهم، وتأخره هو جهل أفراده وكسلهم والتواؤهم، وإذا دققنا النظر وجدنا أن أكثر الشرور التي اعتدنا على نسبتها إلى الشعب إجمالاً هي شوائب نامية في حياة آحاده، وإذا استؤصلت بواسطة الشرائع عادت فنمت من ناحية أخرى بهيئة أخرى ما لم تتغيّر طباع الناس وأخلاقهم، ويترتب على ما تقدم أن الغيرة الوطنية لإصلاح الوطن يجب أن لا تبذل في إصلاح سياسته وشرائعه بل في إنهاض أهله لكي يصلحوا شأنهم بيدهم.

إذا كان التقدّم كله معلقاً على كيفية حكم الإنسان على نفسه فلا أهمية كبيرة للحكام المتسلّطين عليه؛ إذ ليس العبد من يستعبده غيره، بل من يستعبد لجهله وكبريائه وهواه؛ فهذا هو العبد الذليل، والشعب المستعبد على هذا النمط لا يحرّره تغيير الشرائع

والمسلطين عليه، ولا سيّما إذا ظلّ يتوهم أن حريته متوقفة على كيفية حكومته، لأن أساس الحرية الثابت قائم على صلاح الشعب الذي هو السند الوحيد لنظام الاجتماع الإنساني والتقدم الوطني، ولقد أجاد الفيلسوف يوحنا ستورت مل إذ قال: «إن الاستبداد لا يضر كثيراً مادام كل شخص مستقلاً بنفسه، ولكن كل ما يحطم الاستقلال الشخصي هو استبداد مهما اختلفت أسماؤه»، وما أحسن ما قاله وليم درغن- أحد مشاهير المحامين- عن استقلال أيرلندا في معرض دبلن الأول؛ قال: «إنني لم أسمع قط لفظة الاستقلال إلّا خطر على بالي وطني وأهله، وكثيراً ما سمعت عن الاستقلال الذي سوف تفوز به بمساعدة الآخر، ولا يسعني أن أنكر كم كنت أتمنى مساعدة الآخر وأحترمها على أنه لم يبرح من بالي قطّ أن استقلالنا الأدبي والمادي يتوقف كله علينا. وعندي أننا بإقبالنا على العلم والصناعة واستخدام ما لنا من الوسائل قد بلغنا درجة من التقدم لم نبلغها من قبل، والسبب الأكبر لنجاحنا مثابرتنا على ما به خيرنا، وإني لمتيقّن أنا إذا واظبنا على ما نحن عليه من الغيرة والاجتهاد وصلنا قريباً إلى درجة من السعادة والراحة لا يفوقنا فيها أحد».

إن جميع الشعوب قد اتصلوا إلى ما اتصلوا إليه من التقدم باجتهاد ألوف من رجالهم زماناً طويلاً؛ فالفَعَلَة وحارثو الأرض ومستخرجو المعادن وأرباب الصنائع والمخترعون والمستكشفون والمصنفون والشعراء والفلاسفة ورجال السياسة، جميع هؤلاء سعوا في تطلب تلك الغاية المجيدة التي هي ترقية شأن بلادهم وازدياد عمرانها؛ هؤلاء هم الذين أوجدوا العمران ورفعوا شأن النوع الإنساني بمثابرتهم على العلم والعمل، وكل جيل بَنَى على

أتعاب سلفه في هذا البناء العظيم، ونحن ورثنا العمران كما تركه لنا أسلافنا وعلينا أن لا نتركه لخلفائنا كما ترك لنا، بل أن نجد ونسعى في توطيده وتهذيبه كما فعل من تقدَّمَنا.

الاعتماد على النفس من أخص ما يوصف به الشعب الإنكليزي، وعليه تتوقف قوته كشعب، فإذا التفتنا إلى الخاصة منه رأينا أنه قام من بينهم أناس فاقوا من سواهم فاستحقوا الإكرام من الجميع، ولكن لم يتوقف تقدم البلاد الإنكليزية على هؤلاء الأفراد القلائل بل شاركهم فيه أناس دونهم رتبة، أي أشخاص من العامة قل ما يعرف عنهم؛ ألا ترى أن من يذكر خبر انتصار جيش في واقعة من وقائع الحرب يقتصر على ذكر قوّاد الجيش مع أن النصر تمّ على يد آحاده، كذلك الحال في هذه الحياة التي هي أشبه شيء بدار حرب دائمة، الاسم فيها لأولي المقام السامي، ولكنَّ في زوايا النسيان رجالاً لا يحصى عددهم كانوا وسائط فعّالة في إيجاد العمران ورفع شأن الشعوب، وهم أكثر عدداً من الذين أنصف التاريخ فذكرهم، بل يمكننا أن نقول إن كل من كان قدوة لغيره في الاجتهاد والنزاهة والاستقامة له يد في خير البلاد الحاضر والمستقبل، وحياتُه مثال يقتدي به معاصروه وخلفاؤهم جيلاً بعد جيل.

والاختبار اليومي شاهد بأن قدوة المجتهدين تؤثر في غيرهم تأثيراً كبيراً يفوق تأثير العلوم، بل ما من علم يؤثر في حياة الإنسان مثل العلم الذي يراه يومياً في البيوت والشوارع والحقول والمعامل؛ هذه هي العلوم الانتهائية التي يجب على كل أحد أن يتقنها لكي يحقّ له الدخول في الهيئة الاجتماعية، هذه هي العلوم التي سماها شِلر علوم الجنس البشري، وهي تقوم بالعمل والسلوك والتهذيب

والطاعة، أو بكل ما يؤهل الإنسان لتعاطي أعمال الحياة، وهذه العلوم لا تحصل في المدارس ولا تُرى في الكتب، وما أحسن ما قاله الشهير باكون، وهو: «إنَّ جلّ فائدة العلوم إرشاد الإنسان إلى حكمة فوقها لا تكتسب بالدرس بل بالملاحظة»، والاختبار يعلمنا أن الإنسان يصير كاملاً بالعمل أكثر مما بالعلم؛ أي إن شأن الإنسان يصلح بالعمل والاجتهاد والاستقامة لا بالعلم والدرس والشهرة.

لعمرك إن المجد والفخر والعلى ونيل الأماني وارتفاع المراتب
فضائلُ عزم لا تباعُ لضارع وأسرار حزم لا تذاع لعائب

ولما كانت القدوة من الأمور الفعّالة في شؤون البشر كانت كتب سير المشاهير، ولا سيما الفضلاء منهم، من أكثر الكتب فائدة، حتى إن بعضهم وضعها في المنزلة الأولى بعد الكتب المنزلة لأن فيها أمثلة كثيرة للاعتماد على النفس وثبات العزم وعلو الهمة والنشاط والاستقامة والسعي في النفع العام ونحو ذلك من المحامد التي تعلن بكلام صريح ما يستطيعه الإنسان من الارتقاء في ذوي المجد، وتبين ببلاغة فائقة أن الذي يكرم نفسه ويعتمد عليها ينال اسماً حسناً وشهرة لا تُنسى.

ورجال العلوم والفنون والآداب أرباب الأفكار وأهل الحصافة لم ينحصروا في فئة من البشر، ولم يختصوا بأهل المراتب العالية، بل نبغوا من المدارس والمعامل، ومن الدساكر والمزارع من أكواخ الفقراء الحقيرة وقصور الأغنياء الرفيعة، وكم من أناس ارتقوا من أدنى الدركات إلى أعلى المراتب ولم تصدهم المصاعب عن نيل ما شمروا له الذيل، بل كثيراً ما كانت تستحيل إلى أكبر مساعد لهم بإثارتها قوتهم ونشاطهم وإيقاظها ما ربما كان يخمل من قواهم

لو لم تكن الحال كذلك، وأمثلة هذا كثيرة جدّاً لا يسعنا تعدادها، وجميعها يثبت صحة المثل القائل كل من جد وجد؛ ألا ترى أن جرمي تيلر الملقب عند الإنكليز بفم الذهب، والسر وتشرد أركريت مخترع آلة الغزل ومؤسس معامل القطن، واللورد تنتردن قاضي القضاة وترنر المصور الشهير نبغوا من دكان حلّاق. وشكسبير رأس شعراء الإنكليز لا تعلم حقيقة أمره ولكن لا خلاف في أنه نبغ من أصل وضيع على حد قول ابن الوردي:

ينبتُ الورد من الشوك وما ينبت النرجسُ إلّا من بصلْ

فإن أباه كان راعياً وجزاراً، وهو نفسه كان يعمل في صباه بممشطة الصوف على ما يُظن، ومن الناس من قال إنه كان خادماً في إحدى المدارس ثم صار كاتباً، وقد اجتمع في هذا الرجل الشهير كل اختبار بني البشر كأنه تعاطى أعمالهم كلها. ولا شبهة أنه كان ذا قريحة وقّادة وذكاء مفرط ففاق من سواه في سرعة الخاطر، وبنى كل كتاباته على الملاحظة والاختبار فخدم بها جيله، ولم تزل لها السلطة القوية على الشعب الإنكليزي.

وقام من العرب وغيرهم من أمم المشرق أناس عصاميون لا يحصى عددهم داسوا الفقر الذي ولدوا فيه وجعلوه مرقاة إلى ذرى المجد، فأبو الطيب المتنبي كان ابن سقّاء ولكنه رقي بتوقد ذهنه وبلاغة شعره اسمى المراتب، وجمعت حكمه فكانت مثل حكم أرسطاطاليس كبير الفلاسفة حتى قال فيه بعضهم:

ما رأى الناس ثاني المتنبي أي ثان يُرى لبكر الزمان
هو في شعره نبيٌّ ولكن ظهرت معجزاته في المعاني

وأبوالعتاهية الشاعر المشهور كان يبيع الجرار فقيل له الجرّار،

وأبوتمام حبيب الطائي نشأ بمصر وكان يسقي الناس ماء بالجرة في جامع مصر، وقيل إنه كان يخدم حائكا ويعمل عنده بدمشق وكان أبوه خمّاراً بها، ثم قال الشعر البليغ وجمع الكتب النفيسة وكان واحد عصره في ديباجة لفظه وبضاعة شعره وحسن أسلوبه، وله كتاب الحماسة الذي دل على إتقان معرفته بحسن اختياره، وله مجموع آخر سمّاه فحول الشعراء وكتاب الاختيارات من شعر الشعراء، ولما مات رثاه الحسن بن وهب بقوله:

فُجع القريض بخاتم الشعراء وغدير روضتها حبيب الطائي
ماتا معاً فتجاورا في حفرة وكذاك كانا قبلُ في الأحياء

وجرير الشاعر كان أبوه فقيراً مدقعاً؛ ذكر أبوالفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني أن رجلاً قال لجرير «من أشعر الناس فقال له قم حتى أعرّفك الجواب، فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها وجعل يمصُّ ضرعها، فصاح به اخرج يا أبت فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته، ثم قال أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم به فغلبهم جميعاً».

والزجَّاج النحوي الشهير كان يخرط الزجاج ثم تركه واشتغل بالأدب فنال منه الحظ الأوفر، والسيرافي كان يتعيش بنسخ الكتب، وابن الحاجب صاحب الكافية كان أبوه حاجباً للأمير عزالدين الصلاحي.

والإمام أبوحنيفة كان خزازاً أي يبيع الخز، والحكيم ثابت بن قرّة الفلسفي كان صيرفياً بحران ثم انتقل إلى بغداد واشتغل بعلوم الأوائل فمهر فيها وبرع في علم الطب والفلسفة، وهو الذي قيل

فيـه:

هل للعليل سوى ابن قرّة شافي بعد الإله وهل له من كافي

وأبوبكر الرازي الطبيب المشهور كان في شبيبته يضرب بالعود، ثم أقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة فقرأها قراءة رجل متعقب على مؤلفيها فصار إمام عصره في علم الطب، وصنّف فيه الكتب النافعة كالحاوي والجامع ونحوهما.

وياقوت الحموي المؤرّخ المشهور صاحب معجم البلدان؛ أسر من بلاده صغيراً واشتراه تاجر ببغداد اسمه إبراهيم الحموي، فلما كبر شغّله بالأسفار في متاجره فأحرز أشتات الفوائد التي دوّنها في مصنفاته الجليلة، وكتابه معجم البلدان من أجل الكتب الموضوعة في الجغرافية.

ونشأ من بين العبيد والمماليك جمهور غفير من الأمراء والعظماء كبدر الجمالي الذي كان عبداً عند جمال الدولة بن عمّار، فصار بحده وزير السيف والقلم عند المستنصر وهو الملك الأفضل، والأمير أبوشجاع فاتك الكبير؛ أسر صغيراً من بلاد الروم ثم اشتهر بالشجاعة والإقدام، وصار من الأمراء العظام، وهو الذي مدحه أبوالطيب المتنبي بقصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:

لا خيل عندك تهديها ولامال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

ولما مات رثاه بقصيدته التي مطلعها:

الحزن يقلق والتجمّل يردع والدمع بينهما عصي طيّع

وقال فيه أيضاً:

لا فاتك آخر في مصر نقصده ولا له خلفٌ في الناس كلهم

والملك العادل سيف الدين ابن السلار كان من آحاد الجند وهو كردي الأصل.

والحجاج ابن يوسف الثقفي كان يعلّم الصبيان هو وأبوه بالطائف، ثم لحق بروح بن زنباع الجذامي وزير عبدالملك بن مروان فكان في عديد شرطته، ثم رقي المناصب العالية بهمته وإقدامه حتى صار أمير العراق وخراسان وسائر المشرق.

ونظام الملك الطوسي كان من أولاد الدهاقين، وابن الزيات وزير المعتصم كان أبوه زيَّاتاً، وهو كان كاتباً بباب المعتصم فاستوزره لأدبه وعلو همته، وهو الذي مدحه البحتري بقوله:

وأرى الخلق مجمعين على فض لك ما بين سيد ومسود

وقام من بين الفعلة أناس يستحقون الذكر الجميل؛ منهم برندلي المهندس وكوك الخبير بسلك البحر وبَرْنَس الشاعر. ومن بين البنائين وصافِّي القِرميد بن جنصن الذي عمل في بناء منزل لنكلن وفي يده ملعقة البناء، وفي جيبه الكتاب، وإدوردس وتلفرد المهندسان، وهيوملر الجيولوجي وألن كتهام المؤلف النقاش. ومن بين النجارين أنيغو جونس وهريسن صانع الخرونومتر، ويوحنا هنتر الفسيولوجي ورُمني وأوبي المصوران، والأستاذ لي البارع في اللغات الشرقية، ويوحنا جبسن النقاش. ومن بين الحاكة سمسن الرياضي وباكن النقاش، وفستر المؤلف وولسن العارف بالطيور والدكتور لِقنِسْتُن الرحّالة الإفريقي، وتَنَاهِل الشاعر. ومن

بين الأساكفة السر كلودسلي شوڤل أمير البحر الكبير، وسترجن الكهربائي وصموئيل درو المؤلف وجيفُرد محرر جريدة كورترلي رفيو وبلمفيلد الشاعر ووليم كاري وموريسن المبشران، وموريسن لم يكن سكافاً بل صانع قوالب للأساكفة. ومنذ سنين قليلة قام من بين الأساكفة الطبيعي الشهير توما إدوردس الذي درس العلوم الطبيعية بفروعها وهو يعمل في حرفته واكتشف نوعاً جديداً بين الحيوانات القشرية الصغيرة سماه الطبيعيون پرانيزا إدوردسي (Praniza Edwardsii) نسبة إليه.

وقام من بين الخياطين يوحنا ستو المؤرخ، وجكسن المصور والبطل السر يوحنا هكسود الذي أعطاه الملك إدورد الثالث لقب النَّيْط جزاء لشجاعته، والأميرال هبصن كان صانعاً عند خياط في جزيرة وَيْط فحدث أن أسطولاً بحرياً اجتاز أمام تلك الجزيرة فذهب مع بعض الفتيان إلى الشاطئ ليراه، ولما شاهده تحرك فيه ميل شديد إلى سفر البحر، فنزل في قارب كان هناك وأخذ يجذف إلى أن وصل إلى سفينة الأميرال فصعد إليها وعرض نفسه متطوعاً ولم تمض عليه إلّا سنوات قليلة حتى صار أميرالاً.

وأشهر الذين قاموا من بين الخياطين بالإجماع أندرو جنسن رئيس الولايات المتحدة الأميركية المشهور بالحزم والذكاء، قيل إنه ألقى خطبة في مدينة واشنطون قصبة الولايات المتحدة وأخذ يراجع فيها تاريخ حياته وكيف ارتقى من درجة إلى أخرى إلى أن صار رئيساً للولايات المتحدة فضج المحفل الحاضر بصوت واحد «من الخياط فصاعداً». ولم يكن يعتد بتعبير خصومه بل يحوله من القدح إلى المدح؛ قال مرة «يعيرني البعض بأنني كنت خياطاً ولكنني لا أرى في ذلك شيئاً من العار لأنني كنت مشهوراً

بالأمانة والمهارة في صناعتي، وكنت دائماً أخيط الثياب وأعطيها لأصحابها في الأجل المعين، علاوة على أنني كنت أخيطها محكمة متينة».

والكردينال ولسي العظيم كان ابن جزار وكذلك كان «ده فو» مؤلف كتاب روبنصن كروزو وإكنسيد الطبيب الشاعر، ويوحنا بَنْيَن كان تنكارياً ويوسف لنكستر كان سَلاّلاً. ومن الذين لهم اليد الطولى في اختراع الآلة البخارية نيوكمن ووط وستفنسن، والأول كان حداداً والثاني نجاراً والثالث وقاداً. وبويك شيخ النقاشين في الخشب كان يعمل في معادن الفحم، وددسلي الفيلسوف كان خادماً، وهُلكرفت المؤلف كان سائساً، وبَفِن كان خادماً في سفينة، وكذلك كان السر كلودسلي شفل. وهرشل الفلكي الشهير كان ينفخ بالمزمار، وتشنتري كان نقاشاً وإتي طبّاعاً، وفرداي تعلم تجليد الكتب وعمل فيه إلى أن بلغ الثانية والعشرين من عمره، ولكنه يُعد الآن من الطبقة الأولى بين الفلاسفة الطبيعيين حتى إنه يفضّل على أستاذه السر همفري داڤي.

وبين الذين لهم اليد الطولى في تقدم علم الهيئة كوبرنيكس وهو ابن خباز من بولونيا، وكبلر وهو ابن خمار من المانيا، ودالمبر، وهو لقيط وُجد ليلاً على درج كنيسة مار يوحنا في باريز، ورُبي عند امرأة زجَّاج. ونيوتن ابن فلاح غير غني، ولابلاس ابن فلاح فقير، وهذان الشهيران نَشَئا في العسر ولكنهما حصّلا باجتهادهما شهرة لا تساويها كنوز العالم، والمرجح أنهما لو كانا من ذوي الثروة ما اتصلا إلى ما اتصلا إليه، ويؤيد ذلك الحادثة الآتية وهي: أن أبا لكرَنج الفلكي الرياضي الشهير كان مستلما خزينة الحرب في تورين فاشتغل بالكيتراتات وخسر خسارة فاحشة أوصلت بيته إلى

الفقر الشديد فصار ذلك سبباً لافتخار لكرنج لأنه كان يقول: «لو كنت غنياً ما صرت رياضياً».

ومن الذين اشتهروا في بلاد الإنكليز من غيرهم أولاد القسوس وخدمة الدين؛ لأننا نرى بينهم دراك ونلس الشهيرين بين رجال البحر، وولستن وين وبلفير وبل المشهورين بالعلوم، ورن ورينلدز وولسن وولكي المشهورين بالتصوير، وترلو وكمبل بالشريعة، وأديسن وثمسن وكلدسمث وكلردج وبنين بالإنشاء. واللورد هردنج والكلونل إدوردس والماجور هدسن الذين اشتهروا في حروب الهند، وقد استولت الدولة الإنكليزية على بلاد الهند بواسطة أناس من الطبقة الوسطى مثل كليف وورن وهستنس وخلفائهم؛ رجال تربوا في المعامل وتعاطي الأعمال.

وتجد بين أولاد المحامين والصناع والباعة أدمند برك السياسي الفيلسوف وسميتن المهندس وسكوت وَوُردسورث الشاعرين والسر وليم بلاكستن واللورد جيفرد. واللورد دنمن ابن طبيب والقاضي تلفرد ابن خمّار واللورد بُلُك ابن سرّاج (صانع سروج) وملتن ابن كاتب وبوب وسوذي أبناء بائعي أنسجة واللورد ماكولي ابن تاجر إفريقي. وليرد مكتشف خرائب نينوى كان كاتبا والسر وليم أرمسترنغ مخترع الآلة الهيدروليكية والمدفع المسمى باسمه؛ درس الفقه في صغره ومارس المحاماة مدة. وكيتس الشاعر كان صيدلياً والسر همفري داڤي كان صانعاً عند صيدلي، وهو الذي قال: إني بلغت ما بلغت بسعيي، ولا أقول ذلك بعُجْب بل ببساطة قلب. ورتشرد أون كبير علماء التاريخ الطبيعي كان في إحدى السفن الحربية ولم ينتظم في سلك طلبة العلم إلّا بعد أن تقدّم في السن، ويظهر أنه وضع أساس معارفه لما كان يرتّب مجموع البقايا الذي جمعه يوحنا هنتر.

إذا التفتنا إلى تواريخ الأمم المختلفة غير الأمة الإنكليزية رأيناها مفعمة بذكر رجال كثيرين شرفوا الفقر الذي كان نصيبهم من الدنيا باجتهادهم وحذقهم؛ فمن الذين اشتهروا في الصناعات كلود وهو ابن حلواني، وجيفس وهو ابن خباز وليوبلد روبرت وهو ابن صانع ساعات وهيدن وهو ابن صانع دواليب، والبابا غريغوريوس السابع ابن نجار وسكستوس الخامس ابن راع، وأدريانوس السادس ابن بحري، ويروى أنه لما كان صغيراً لم يستطع أن يبتاع مصباحاً ليدرس على ضوئه، فكان يدرس دروسه على ضوء المصابيح المعلقة في الأزقة، (وهذا يماثل ما قيل عن أبي نصر الفارابي الفيلسوف الشهير، الذي اتّبع الفلسفة أقصاها وأدناها، وألّف كتباً فيها لا تعد لكثرتها، مع ما كان عليه من العوز؛ فإنه كان يسهر الليل للمطالعة والتأليف، ويستضيءُ بقنديل الحارس، وبقي على ذلك إلى أن عظم شأنه، وظهر فضله، واشتهرت تصانيفه، وكثر تلاميذه، وصار وحيد زمانه).

ومن الذين نبغوا من أصل حقير أيضاً هوي المعدني وهو ابن حائك، وهتفيل الميكانيكي وهو ابن خبّاز، ويوسف فريه الرياضي وهو ابن خياط، ودوران وهو ابن إسكاف، وجسنر الطبيعي وهو ابن دباغ؛ قيل إن هذا خطا الخطوة الأولى في سلم الحياة يحيط به كل ما يضعف الهمة كالفقر والمرض وانشغال البال، ولكن لم تكن هذه المصاعب لتوهن عزمه وتصده عن النجاح. وممن كانت أحوالهم مثل أحوال جسنر: بطرس رامس، وهو ابن رجل مسكين من بيكردي، وكان عمله في حداثته رعاية الغنم، ولكنه لم يرض بها حرفة ففر هارباً إلى باريز، وبعد معاناة مشاق جزيلة دخل المدرسة الكلية في ناڤار خادماً، ولكنه انتهز كل فرصة للدرس

والمطالعة، ولم يمض عليه وقت طويل حتى عد من أشهر رجال عصره.

وڤوكولين الكيماوي الشهير ابن فلاح، ويروى أنه لما كان يتعلّم في المدرسة وهو فتى حديث السن لم يكن له من الثياب ما يستر عريه، ولكن أمارات الذكاء كانت تلوح على وجهه، فكان معلمه يقول له عندما يريد مدحه على اجتهاده: «نِعِمّا يا ولدي؛ واظب على ما أنت فيه من الاجتهاد فتلبسَ يوماً ما ثياباً حسنة مثل ثياب خفير الكنيسة»، وزار تلك المدرسة أحد الصيادلة فأعجبته قوة ذراعيه، فأخذه واستخدمه لسحق العقاقير، ولكنه منعه من الذهاب إلى المدرسة فتركه ڤوكولين وتوجه إلى باريز، ولما وصل إليها أخذ يعرض نفسه على الصيادلة خادماً فلم يجد من يستخدمه، ولكثرة ما ألمّ به من التعب والجوع أصيب بمرض، فأخذه بعض أهل الشفقة إلى أحد المستشفيات حيث ظن أنه يقضي نحبه، ولكن العناية كانت معدة له شيئاً آخر؛ فلم يمض عليه إلّا وقت قصير حتى شفي من مرضه، فرجع إلى ما كان عليه من التفتيش عن مكان يخدم فيه، فوجد مكاناً عند أحد الصيادلة، وبعد برهة يسيرة عرف به فركروي الكيماوي الشهير، فضمه إليه وبالغ في إكرامه، حتى جعله كاتباً له، ولما مات ذلك الكيماوي الفيلسوف خلفه ڤوكولين في تدريس الكيمياء، وسنة 1929 انتخبته مقاطعة كلڤادو نائباً عنها في مجلس النواب.

وليس في البلاد الإنكليزية أناس ارتقوا من أدنى مراتب الجند إلى أعلاها كما شاع في فرنسا بعد الثورة؛ فإن هُش وأُمبر وبشغرو كانوا من عامة الجند فكان هُش يطرز الصدرات ويبتاع بما يكسبه كتباً في علم الحرب، وأُمبر هرب من بيت أبيه وهو

في السادسة عشرة ودخل في خدمة تاجر، ثم في خدمة عامل، ثم في خدمة بائع جلود أرانب، ثم تطوّع جندياً، ولم تمض عليه سنة من الزمان حتى صار قائد لواء، وقس عليهم كلابر ولفاقر وسوشي وڤكتور ولان وسُلت وماست وسان سير ودرلون وموورا وأوجرو وبسير وناي، وغيرهم ممن نشؤوا من أدنى الرتب وارتقوا إلى أسماها؛ فمنهم من كان ارتقاؤه سريعاً، ومنهم من كان بطيئاً، لأن سان سير كان ابن دباغ، فانتظم في سلك الفرسان ولم يلبث سنة حتى صار قبطاناً، وفكتور دوك بلونو دخل في الطبجية سنة 1781، ثم رُفض من الجيش في الحوادث السابقة للثورة، ورجع إليه عند افتتاح الحرب، وفي برهة قصيرة صار أركان حرب ورئيس أورطة. أما موورا، وهو ابن صاحب خان، فانتظم أولاً في سلك الفرسان وطرد لعدم طاعته، ثم انتظم ثانية فارتقى سريعاً إلى رتبة أمير ألاي. وثاي انتظم في سلك الاي من الفرسان وعمره ثماني عشرة سنة، ولما رأى الجنرال كلابر إقدامه رقاه درجة فدرجة، إلى أن صار في رتبة أدجوتانت جنرال وهو ابن خمس وعشرين.

هذا من جهة الذين تقدموا بسرعة، أما الذين تقدموا ببطء فمنهم سُلت الذي مضى عليه أكثر من ست سنوات قبلما ارتقى إلى رتبة جاويش، وهي الأولى فوق الجندي، ولما صار وزير الخارجية أخذ يدرس الجغرافيا، لأنه لم يكن يعرف شيئاً من العلوم، فوجد فيها لذة كبيرة. ومسينا خدم في الجندية أربع عشرة سنة قبلما يرتقي إلى رتبة جاويش ومع أنه ارتقى أخيراً بالتوالي إلى منصب أمير ألاي وجنرال ومرشال قال إن رتبة جاويش كلفته تعباً أكثر من كل هذه الرتب. ولايزال هذا الارتقاء بين رجال فرنسا إلى يومنا هذا، لأن المرشال بوجو ظل نفراً أربع سنوات قبلما يصبح ضابطاً،

والمرشال رندون الذي صار وزير الحربية دخل في الخدمة ولداً يضرب الطبل، ولاتزال صورته في فرساليا ويده على طبل، وقد صُوّرت كذلك بطلب منه. فأمور مثل هذه تضرم نار الغيرة والحمية في نفوس الجنود الفرنسوية، رجاء أن كل واحد منهم قد يصير مرشالاً إن لم نقل امبراطوراً.

وهؤلاء الرجال أمثلة قليلة جدّاً في جانب الذين ضربنا صفحاً عن ذكرهم؛ فليس ارتقاؤهم من الأمور النادرة التي لا يُبْنَى عليها حكم، بل من الأمور الشائعة جدّاً، حتى يمكننا أن نقول إن كل من سعى في طلب المجد بهمة عالية وواظب على السعي نال مبتغاه، بل إذا نظرنا كثيرين من الذين نجحوا بسعيهم رأينا أن الصعوبات والمتاعب التي صادفوها في أول سعيهم كانت لازمة لنجاحهم.

ولم يخلُ مجلس النواب في بلاد الإنكليز من رجال كثيرين من هذا النوع، نشؤوا من بين أصحاب الصنائع والحرف؛ قيل إن يوسف برذرتن نائب مقاطعة سلفرد قام في إحدى مباحثات هذا المجلس، وجعل يعدد المشاق التي قاساها وهو صانع في معمل قطن، فقال: ومن ثم صممت على أنه إذا ساعدتني التقادير أبذل قصارى جهدي في إصلاح شأن العمّال الذين كنت أعمل بينهم، فما أتم كلامه حتى وقف السر يعقوب غريهم وقال: إني لم أعرف قط أن أصل مستر برذرتن وضيع إلى هذا الحد، ولكن الآن زاد افتخاري بمجلس النواب؛ إذ رأيت فيه إنساناً ارتقى من درجة وضيعة حتى ساوى عظماء الأرض. ويماثل ذلك قول مستر فكس نائب الدهام، الذي كان يردده كثيراً وهو: «لما كنت صانعاً عند حائك في نوروك».

ولـم يـزل فـي مجلـس نـواب الإنكليـز أعضـاء أصلهـم حقيـر مثـل هذيـن وربمـا أحقـر؛ قـصّ المسـتر لندسـاي نائـب سـندرلند سـيرة حياتـه لمنتخبـي «ويمـوث»، محبيبـاً خصومـاً لـه فـي أمـور سياسـية؛ فقـال: توفّـي والـدي ولـي مـن العمـر أربـع عشـرة سـنة، فتركـت غلاسـكو وقصـدت ليفربـول، ولـم أكـن قـادراً علـى دفـع أجـرة السـفر، فارتضـى ربـان السـفينة أن أخدمـه بمـا يقـوم بأجـرة سـفري، واسـتخدمني فـي تنقيـة الفحـم، فوصلـت إلـى ليفربـول وأقمـت فيهـا سـبعة أسـابيع قبـل أن أجـد عمـلاً أعملـه، وكنـت أنـام فـي الخـلاء، ولـم أكـد أحصّـل مـا يسـد رمقـي، ثـم اسـتخدمت فـي إحـدى السـفن، ولكنـي لـم أبلـغ التاسـعة عشـرة حتـى ارتقيـت إلـى رئاسـة مركـب بِجِـدّي واسـتقامتي، ولمـا بلغـت الثالثـة والعشـرين تركـت البحـر، ومـن ثـم أخـذت فـي التقـدم السـريع، وأؤكـد لكـم أن السـبب الحقيقـي لتقدمـي اجتهـادي وسـعيي وجريـي علـى موجـب تلـك القاعـدة الذهبيـة التـي جعلتهـا دسـتوراً لـكل أعمالـي، فكنـت أعامـل الغيـر كمـا أريـد أن يعاملونـي.

ومما يقارب ذلك تقدم مستر وليم جكسن، عضو نورث دربيشير؛ فهذا كان ابن جرّاح في لنكستر، توفي أبوه عن أحد عشر ولداً وهو سابعهم، فأخرج من المدرسة قبل أن يبلغ الثانية عشرة، ووُضع في معمل وكان مضطراً أن يعمل فيه أربع عشرة ساعة كل يوم، أي من قبل الظهر بست ساعات إلى ثمان بعده، وبعد وقت قصير مرض معلمه فأخرج من عنده، ووضع في بيت المحاسبات حيث كان له شيء من الحرية، فأكب على الدرس، وحينئذ تمكن من الوصول إلى كتاب الإنسيكلوبيديا البريطانية فقرأه كله وكان أكثر قراءته فيه ليلاً، ثم أكبّ على التجارة فأفلح فيها أي إفلاح، وصارت له سفن في كل البحار وعلاقات تجارية مع كل بلاد على وجه الأرض.

ويماثل ذلك تقدم رتشرد كبدن، وهو ابن فلاح من مدهرست في سسكس، فإنه أرسل في حداثته إلى لندن، ودخل خادماً في بعض المخازن، وكان حاذقاً ذكياً حسن السيرة كثير المطالعة، وكثيراً ما كان ينهاه معلمه عن كثرة الدرس إلّا أنه لم يمتثل أمره، بل واظب على ما كان فيه مالئاً عقله بما في الكتب من كنوز المعرفة، فتقدم من عمل إلى آخر، إلى أن تعاطى المسائل السياسية وخصص لها نفسه وكل ما كان يملكه، ويروى أن أول خطبة خطبها لم تستحق أن يلتفت إليها أحد، ولكنه لم ينفك يمارس الخطابة حتى صار من أشهر الخطباء وأقواهم حجة، وأنفذهم كلمة، وذاع صيته في الآفاق، حتى استحق مديح السر روبرت بيل الشهير؛ قال المسيو درون ده لِيس، سفير فرنسا في إنكلترا: إن مستر كبدن هذا خير مثال لفعل الآداب والمواظبة والاجتهاد، وهو مثال من أتم أمثلة الرجال الذين ارتقوا من أدنى الرتب إلى أعلاها، باستحقاقهم وخدمهم الشخصية التي خدموا بها وطنهم، ومثال من أندر الأمثلة للصفات الثابتة الموروثة في الشعب الإنكليزي.

وخلاصة ما تقدم أنه ما من أحد نال المجد والشرف إلّا بعد السعي والكدّ، وما من أحد قدر على نيلهما بالكسل والتواني، وما أحسن ما قاله أبوالطيب المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام الكرائم

ويد الإنسان ورأسه يصيرانه حكيماً غنياً، وإن ولد في الغنى والسعة وكان من قوم لهم اسم وفضل لا يحصل على شهرة ما لم يكن مستحقاً لها، لأن الغنى يتصل بالإرث وليس كذلك العلم والحكمة، والغنى يستأجر من يعمل له أعماله ولكنه لا يستطيع

أن يستأجر من يفتكر عِوَضاً عنه، ولا أن يشتري العلم والتهذيب ولا الشهرة التي يستحقها لأجلهما؛ فلا شهرة إلّا بالسعي والاجتهاد وذلك يصدق على أصحاب الثروة كما يصدق على درو وجيفورد اللذين درسا في دكان السكاف، وعلى هيو ملر الذي درس دروسه الانتهائية في مقلع الحجارة .

والغنى والراحة ليسا ضروريين لبلوغ المراتب العليا من الرقي، وإلا لما كان الناس مدينين دائماً للذين نشؤوا من أدنى الرتب، وذلك لأنه إذا كان الإنسان غنيّاً مترفهاً لم يضطر أن يقاوم الصعوبات؛ فلا تقوى عزيمته ولا تصيره من ذوي الإقدام، وإذا كان الفقر عدواً فالاعتماد على النفس يجعله صديقاً يولي العزم والإقدام ومناضلة الدهر وما يتبعها من الظفر والمجد؛ قال الفيلسوف باكن إن الناس لا يقدرون غناهم ولا قوتهم قدرهما؛ لأنهم يقدرون الغنى أكثر مما يستحق والقوة أقل مما تستحق، أما الاعتماد على النفس ومقاومة الأهواء فيعلّمان الإنسان أن يشرب ماء من جبه، وأن يشتغل ويتعب لتحصيل معيشته وإنفاق ما يصل إلى يده بالحكمة والاقتصاد.

والغنى يقود إلى الكسل والبطر، وهما أمران نرى الإنسان مائلاً إليهما طبعاً، حتى إن الذين ولدوا في نعمة وافرة إذا استهانوا بالراحة ولم يأنفوا من التعب في خدمة جيلهم كان لهم الفخر الأعظم، وما أكثرَ الأغنياءَ الذين تجشموا أشد المشاق في خدمة جيلهم؛ قيل إن أحد القواد الأغنياء كان ماشياً إلى جانب فرقته في حرب إسبانيا، فخاضت تلك الفرقة في بالوعة وخاض هو معها، فقيل: إن خمسة عشر ألف جنيه سنوياً تخوض في تلك البالوعة؛ (يراد بذلك أن دخل القائد كان خمسة عشر ألف جنيه في السنة)، ومن عهد قريب شاهدت أحادير سفستوبول ورمال الهند والسودان

المحرقة البسالة الفائقة التي أظهرها شرفاء الإنكليز وأغنياؤهم فكم؛ من شريف وغني خاطر بنفسه أو فقدها في تلك المعامع الهائلة خدمة لوطنه.

وما الأغنياء بمعزل عن اتّباع العلم والفلسفة، وإلّا فمن هو باكن أبو الفلسفة الحديثة، ووستر وبويل وكاڤنديش وتلبت وَرُصّ، ورُصُّ هذا يلقّب «ميكانيكي الأشراف»، ولو لم يولد شريفاً لحاز أسمى الرتب بين المخترعين؛ قيل إنه كان ماهراً مهارة فائقة في صناعة الحدادة، حتى طلب منه رجل يجهل نسبه أن يتولى إدارة معمل حديدي له، ومن المعلوم أن تلسكوب هذا الشريف الذي عمله بيده من أعجب ما صنع من نوعه إلى يومنا هذا، غير أننا نجد أن الفريق الأكبر من كبراء الإنكليز قد تعاطى فنون السياسة والأدب، ولا يخفى أن النجاح في هذه أيضاً متوقف على الاجتهاد والدرس والمزاولة، فعلى الوزير أو الرئيس أن يكون من أكثر الناس اشتغالاً وجدا كبامرستون ودربي ورسل ودزرائيلي وغلادستون، ومن عرف هؤلاء الرجال وأشغالهم الكثيرة رأى أنهم كانوا لا ينفكون عن الاشتغال نهاراً وليلاً.

ومن أشهر رجال السياسة بالإجماع السر روبرت بيل؛ فقد كان له جلد على مزاولة أشغاله العقلية، يكاد يعد من خوارق العادة؛ فإنه لازم البرلمنت أربعين سنة، واشتغل في غضونها أشغالاً لا تكاد تصدق لكثرتها وعظمتها؛ قيل إنه لم يشرع في أمر إلا أتّمه، وكلّ خطبه تشهد له أنه درس درساً دقيقاً في كل ما تكلم به أو كتب فيه، وكان من المفرطين في الشغل والمفرّطين في صحتهم ومصالحهم لكي يتمم كل ما شرع فيه، وفاق كل معاصريه في قوة الحجة وسمو الأفكار والمقدرة على امتلاك عقول سامعيه، وكان

كلّما تقدم في السن ازدادت معارفه ولانت عريكته، واستمرّ إلى آخر نسمة من حياته فاتحاً باباً في ذهنه لقبول الآراء الجديدة. كان نَفُوراً من التطرف في المسائل، إلّا أنه لم يقع في ما وقع فيه غيره من التعصب للآراء القديمة، الذي هو فالج يصيب عقول الأكثرين عند تقدمهم في السن.

وممّن يضرب بهم المثل في الاجتهاد وعدم الملل اللورد بروم الذي خدم جيله أكثر من ستين سنة، تعاطى فيها الفقه والأدب والسياسة والعلم، وأتقن كل ما تعاطاه؛ قيل: سئل السر صموئيل روملي أن يعمل عملاً جديداً فاعتذر بضيق وقته، ثم قال عليكم بهذا بروم، لأنه يخلق وقتاً لكل شيء، والسر في ذلك أن اللورد بروم لم يدع دقيقة من وقته تمضي سدى، ولما بلغ السن الذي يتنحى فيه الناس عن الأعمال شرع في عمل شاق إلى الغاية، وهو البحث في نواميس النور فجاءت أبحاثه مكلَّلة بالنجاح، وشهد له فيها أشهر علماء باريز ولندن، وكان آخذاً حينئذ في طبع كتابه الشهير في العلماء والأدباء الذين نبغوا في عصر الملك جورج الثالث وقائماً بعبء منصبه في مجلس الأعيان، حتى قيل إن سدني سمث أشار عليه مرة أن يقتصر على أعمال لا يقدر على القيام بها أقل من ثلاثة رجال، إلّا أنه كان لا يستكثر أعماله مهما كثرت وشقت، فضلاً عن أنه كان مطبوعاً على إتقان الأعمال حتى قال بعضهم: إنه لو كانت حرفته صبغ الأحذية لصار أول صباغ أحذية في المسكونة.

ومنهم السر بلور لتون الذي قلّ مَنْ ماثله في تعاطي أعمال كثيرة، وأفلاحه فيها كلها؛ لأنه كان شاعراً وروائياً ومؤرخاً ومؤلفاً وخطيباً وسياسياً، ولم يكن يسأل عن الراحة، ولا يكترث للتعب،

وقل من جاراه من مؤلفي الإنكليز في كثرة التآليف، أو ساواه في سموها، وكان من ذوي الثروة الرابين في مهد التنعم، ولكنه أنكر نفسه ولم يمتعها بشيء مما يتمتع به أهل الغنى والقصوف بل سار في طريق المؤلفين الحرج، فكانت تآليفه الأولى على جانب من الركاكة فرمقها الناس بعين الازدراء، ولكن ذلك لم يثن عزمه فواظب على الدرس والتأليف حتى حاز قصب السبق، وصار يعد من أبرع المؤلفين.

ومنهم دزرائيلي الشهير الذي رقي إلى أسمى المناصب بجده وكده؛ ألّف في أول الأمر كتباً ازدراها الناس وعدوها من آثار الجنون، فغير نسق تأليفه وألّف ثلاثة كتب دلت على أن فيه جوهراً مكنوناً، ولما دخل مجلس النواب وخطب فيهم الخطبة الأولى ضحكوا على كل جملة منها هزءاً بها، على فخامتها، ولكنه ختم خطبته بهذه العبارة التي تحسب إنباء بما وصل إليه، وهي قوله: «إني شرعت في أمور مختلفة مراراً كثيرة، ولم أنفك عنها حتى نجحت فيها النجاح المطلوب، فسيأتي وقت تصغون فيه إليّ»، ثم جاء الوقت المشار إليه، وصار كل أهل المسكونة يصغون إلى قول ذلك الرجل العظيم، ولكنه لم ينل ما ناله من المجد والسؤدد إلا بجده وحزمه؛ فإنه لما كانت تحبط مساعيه لم يفعل ككثيرين من الشبان الذين إذا فشلوا مرة وهت عزائمهم، ووقعوا في بالوعة اليأس، بل كان يقرن العزم بالحزم، ويفتش عن عيوبه ويصلحها، ودرس أطوار سامعيه، ومارس الخطابة طويلاً وملأ رأسه بما يحتاج إليه من المعارف، ففاز بأمانيه وضحك له مجلس النواب بعد أن ضحك عليه، وصار أعظم الخطباء ورجال السياسة.

يظهر من الأمثلة المتقدمة أن النجاح موقوف على الاجتهاد،

وسنورد أمثلة أخرى تؤيد ذلك أيضاً، ولكن لا ينكر أن الإنسان يحتاج أيضاً إلى من يعضده ويعينه، ولقد أجاد الشاعر وردزورث إذ قال «إن افتقارنا إلى الغير واستقلالنا بأنفسنا لابد من أن يسيرا معاً ويصطحبا، ولو كان بينهما مناقضة ظاهرة»؛ فكل واحد مفتقر إلى غيره في التغذية والتهذيب من طفوليته إلى شيخوخته، وإن تفاوت مقدار هذا الافتقار باختلاف الأشخاص، وأفضل الناس أقربهم إلى عرفان ما عليهم لغيرهم من الجميل والإحسان. قيل إن المسيو ألكسيس ده توكڤيل الشريف الفرنسوي المُعَمّ المُخَوَّل دُعِي إلى منصب في محكمة ڤرساليا وهو في الحادية والعشرين من عمره، فرأى أنه غير أهل لذلك المنصب وقد دعي إليه لشرفه الموروث فرفضه عازماً أن يتأهل له بجده، ثم ترك فرنسا وقصد الولايات المتحدة الأميركية، واستصحب صديقه كستاف ده بومون؛ قال كستاف هذا: «إن توكڤيل مطبوع على عداوة الكسل؛ فلا تراه بلا عمل في حال من الأحوال، في حضر كان أو في سفر، وأطيب الحديث عنده أنفعه، وأسوأ الأيام أيام العطلة؛ فيغتم لإضاعة كل دقيقة من الوقت»، وكتب توكڤيل إلى أحد أصدقائه يقول: «الإنسان لا يفرغ من العمل في حياته، ولابدّ له من الجهاد الداخلي، ولا سيما في الحداثة، كما أنه لابد له من الجهاد الخارجي؛ وما الإنسان في هذه الدنيا سوى مسافر في بلاد يزداد بردها كلما تقدم في سفره، فعليه أن يزداد حركة وسرعة كلما تقدم، وإلا فاجأته منيته في هيئة البرد، وأشد أمراض النفس مرض البرد، إلّا أن قوانا العقلية والجسدية لا تكفينا لمقاومة هذا العدو الألد، فعلينا أن نستعين بغيرنا».

وقد جزم توكڤيل أن الاعتماد على النفس واجب على كل أحد،

إلّا أنه لم يحط من قيمة المساعدة التي ينالها الإنسان من غيره، ولو تفاوتت مقاديرها؛ فإنه كثيراً ما أقرّ بجميل «ده كرغورلي وستوفلس»؛ الأول لأجل مساعدته العقلية، والثاني لأجل معاضدته الأدبية؛ وكتب إلى كرغورلي يقول: «إني مدين لكثيرين بأمور كثيرة فرعية، ولكني لست مديناً لأحد بقدر ما أنا مدين لك بالمبادئ الأساسية، التي هي قاعدة السلوك»، وأقر أيضاً بفضل امرأته؛ لأنها ساعدته على مواظبة دروسه وأعماله، وكان يعتقد أن المرأة الفاضلة تشرف اسم زوجها، وتعلي آدابه، والسليطة تدنيه وتحقّره، وفي ذلك يقول: «إنني كثيراً ما شاهدت رجالاً من فضلاء الناس ونبلائهم، وإنما كانوا كذلك لأن لهم زوجات يعنّهم، لا بإرشادهن وتحذيرهن لهم كأن لهن السيادة عليهم، بل بميلهنّ الطبيعي إلى الأعمال النبيلة. وشاهدت رجالاً آخرين كانوا على جانب من الشهامة والاستعداد الطبيعي للارتقاء، ثم صاروا بواسطة نسائهم لؤماء أدنياء، لا يهتمون بشأن وطنهم إلّا إذا عاد اهتمامهم بالنفع عليهم».

والخلاصة أن الفواعل التي تفعل بأخلاق البشر كثيرة؛ فمنها العلم والعمل والقول والقدوة والأصحاب والجيران والدنيا وسكانها من حاضرين وغابرين، ولكن، مهما كان لهذه الفواعل من التأثير الشديد، يبقى سعي الناس واعتمادهم على أنفسهم أقدر على رفع شأنهم من كل الفواعل الخارجية.

الفصل الثاني

في أرباب الصنائع وهم المخترعون والمستنبطون

قال ابن خلدون: لا بُدّ في طلب الرزق من سعي وعمل.

وقال ده سلفندي: العلم والعمل يسودان العالم من الآن فصاعداً.

وقال آرثرهلبس: ألغ من بلاد الإنكليز كلّ ما صنعهُ لها المخترعون الذين نبغوا من بين السوقة، وانظر كيف تبقى

الاجتهاد صفة من أشهر صفات الشعب الإنكليزي؛ فقد امتازوا بها في الأزمنة الغابرة، كما هم ممتازون بها الآن، فتوطّدت أركان مملكتهم باجتهاد عامتهم، وازدادت عظمة أمتهم باجتهاد آحادهم، سواءٌ أكانوا من حارثي الأرض أم كانوا من صانعي الأمتعة، أم كانوا عاملي الآلات، أم من مؤلفي الكتب، ولم يقتصر اجتهادُهم في الأعمال على ترقيتهم، بل أنقذهم من شرّ ما وقع في سياستهم وشرائعهم من الخلل حيناً بعد حين، وهذّب أخلاقهم، ونظم أحوال مملكتهم. والاجتهاد في الأعمال رفيق لإتمام الواجبات، وقد قرنتْهما العناية بالنجاح والسعادة؛ قال شاعر الأعاجم: إنّ الآلهة وضعت العمل في طرق الفردوس، وقال الشاعر العربي:

إنْ كنت تطلبُ عزّاً فادّرعْ تعباً

أو فَارْضَ بالذُّل واَخْتَر رَّاحةَ البدنِ

هذا، ولا خلاف في أنّ الإنسان لا يأكل خبزاً ألذّ من خبز تعبه؛

عقليّـاً كان أم جسـديّاً، والاجتهـاد فـي العمـل أسـاس كل تقـدُّم؛ فيـه ذُلّلـت مصاعـب الطبيعـة، وارتقـى الإنسـان مـن وهـاد الجهـل والخشـونة إلـى ذرى الحضـارة والعمـران، وهـو مـن الواجبـات والضروريـات، وتراه مكتوبـاً علـى كل جارحـة مـن جـوارح الجسـد، وكل لفافـة مـن تلافيـف الدمـاغ، وهـو أيضـاً بركـة مـن البـركات، ولا يسـتثقله إلّا كلُّ بليـد خامـل الذكـر، كسـلان كافـر بالنعـم.

والعمـل لا يحُـط مـن شـأن الإنسـان، ولـو كان أذكـى النـاس عقـلاً وأوسـعهم علمـاً؛ قـال هيوملـر، الـذي لا يضاهيـه أحـد فـي معرفـة العمل، ومـا يتأتّـى عنـه للعامـل مـن القـوة والضعـف: «إنّ أتعـب الأعمـال مفعم باللـذة، وإصـلاح شـأن العامـل أدبيّـاً وماديّـاً، والعمـل أحـذق معلـم، ومدرسـته أفضـل مدرسـة بعـد مدرسـة الديانـة؛ لأننـا نتعلـم فيهـا أن نكـون مفيديـن ومسـتقلين ومجتهديـن»، وكان هـذا الفاضـل يذهـب إلـى أنّ الصناعـة تهـذب أهلهـا، وتجعلهـم رجـالاً أكثـر مـن غيرهـا مـن أسـباب المعايـش، ولا حـرج؛ فـإن الحكمـة العمليـة، التـي هـي أفضـل أنـواع الحكمـة، تُـدرّس فـي مدرسـة العمـل.

ويظهـر ممّـا ذكرنـاه مـن أمـر الرجـال الذيـن نبغـوا مـن بيـن أهـل الأعمـال، ثـم امتـازوا بالعلم أو التجـارة أو الأدب أو الفنون، أنّ الاجتهاد يذلـل الصعوبـات مهمـا كانـت، وأنّ ارتفـاع الأخطـار باقتحـام الأخطار. هـذا، فضـلاً عـن أنّ الاختراعـات والاكتشـافات، التـي أغدقـت علـى الأمـة الإنكليزيـة ينابيـع الثـروة والعـزة، أكثرهـا لأنـاس مـن العامّـة، بـل مـن السُّـوقة، وإذا حذفنـا مـا فعلـه هـؤلاء الرجـال لايبقـى شـيء يُذكـر؛ لأنهـم أوجـدوا صنائـع مـن أوسـع صنائـع الدنيـا، ونفحـوا العالـم بكثيـر مـن الضروريـات والكماليـات، وروّجـوا الأعمـال، وزادوا راحـة البشـر ورفاهتهـم، وطعامنـا ولباسـنا وأثـاث بيوتنـا وزجـاج شـبابيكنا، والغـاز

الـذي نُنيـر بـه شـوارعنا، والبواخـر التـي نسـافر فيهـا بـرّاً وبحـراً، وكل الآلات والأدوات التـي جنـى العالـم أثمارهـا، ولا يـزال ولـن يـزال، هـي ثمـرة تعـب أولئـك المخترعيـن .

ومـن المخترعـات التـي نذكرهـا أولاً، الآلـة البخاريـة؛ فقـد اختُرعـت هـذه الآلـة فـي عصرنـا الحاضـر، إلّا أنّ مبدأهـا وُجـد منـذ مئـات مـن السـنين، ثـم ظهـرت فـي حيّـز الوجـود رويـداً رويـداً، كغيرهـا مـن المخترعـات، فـكان العامـل الواحـد يعمـل ويتعـب فـي هـذا الاختـراع الخطيـر زمانـاً طويـلاً، ولا يصـل إلـى الغايـة المطلوبـة، ثـم يمضـي ويتـرك عملـه لآخـر، فيأتـي ويحسّـنه، ويزيـد عليـه مـا أمكنـه، ودام الحـال علـى هـذا المنـوال قروناً عديـدة، وعليـه تـرى أنّ الأمـر الـذي خطـر علـى بـال هيـرو الإسـكندري قبـل المسـيح بأكثـر مـن مائـة وثلاثيـن سـنة، كان كحبـوب الحنطـة فـي مدافـن المصرييـن الأقدميـن، التـي يقـال إنهـا نمـت عندمـا زُرعـت بعدمـا مضـى عليهـا أكثـر مـن ألفـي سـنة، وهـي مدفونـة فـي الأرض. وهـذا الاختـراع العظيـم مرّ عليـه أكثـر مـن ألفـي سـنة متروكاً فـي زوايـا الإهمـال، ثـم نمـا بنـور العلـم فـي عصرنـا، وقـد حـال دون إخراجـه مـن القـوة إلـى الفعـل صعوبـاتٌ تفـوق الوصـف، ولكـن ذوي الهمـة قـووا عليهـا، ودكُّوهـا بمـا بذلـوا مـن الصبـر والمزاولـة، وكأنـي بالآلـة البخاريـة بيـن الآلات سـلطان محفـوف برجالـه العظـام، الذيـن بذلـوا حياتهـم فـي تشـييد ملكـه. وإنْ تسـأل عـن أسـماء رجالهـا فهـم سـاقري المهنـدس، ونيوكمـن الحـداد، وكولـي الزجـاج، وبُتـر الصانـع، وسـميتون المهنـدس، وفـي صدرهـم جميعـاً رجـل الصبـر والكـد الـذي لـم يملّ مـن عمـل قـط النجّـار جمـس وط.

هـذا هـو جمـس وط أكثـر النـاس اجتهـاداً، هـذا هـو الرجـل الـذي أثبتـت سـيرتُه مـا طالمـا أثبتـه الخَبْـر والخَبَـر مـن أنّ الأمـور العظيمـة

لا يعملها ذو المقدرة والمهارة الفطرية، بل من يستعمل قواه بما اكتسبه بالاجتهاد والحذاقة من المزاولة والاختبار؛ لأن كثيرين من معاصريه كانوا أعلم منه جداً، ولكن لم يجتهد أحدٌ اجتهاده في تحويل كلّ علومه وقواه إلى غايات مفيدة، فإنه كان يواظب على تتبع النتائج أشد المواظبة، وقد مرّن قوة الانتباه فيه أشد التمرين، وعلى الانتباه يتوقف فعل كل قوى العقل المتممة للأعمال، ولقد أجاد المستر إدجورث إذ قال: إنّ الفرق بين عقول البشر يتوقف على اختلاف قوة الانتباه فيهم أكثر مما يتوقف على اختلاف بقية قوى العقل.

ورضع وط العلوم مع اللبن؛ لأن أباه كان يصنع آلات فلسفيّة وفلكيّة، وكان في دكانه كثير من الأرباع[1]، فنبهت ابنه إلى درس علم البصريات والهيئة، وكان جسمه نحيفاً، فحمله ذلك على درس علم الفسيولوجيا، وكان يحب الجولان في القفار، فقاده ذلك إلى درس علمي النبات والتاريخ، وطُلب منه مرةً أنْ يصنع أرغناً؛ لأنه احترف حرفة أبيه - عمل الآلات الرياضية- ولم يكن يعرف علم الإيقاع، فدرسه وصنع الأرغن المطلوب، فجاء بديع الإتقان، وطُلب منه ذات يوم أنْ يصلح مثالاً من آلة نيوكمن البخارية لمدرسة غلاسكو الكلية، فانكبّ على درس كلّ ما كان يُعرف حينئذ من نواميس الحرارة والبخار، واصطناع الآلات الميكانيكية، وظهرت نتيجة درسه أخيراً في الآلة البخارية المكثفة التي صنعها.

قضى في صنع هذه الآلة عشر سنوات، وهو بين مكتشف ومخترع، ولا نتيجة تسره، ولا صديق ينشطه، وكان يحصّل ما يقوم

(1) نوع من الآلات الفلكية.

بنفقاته ونفقات أهله من اصطناع الأرباع والأعواد وغيرها من آلات الطرب، ومارس أيضاً مساحة الأراضي، وتخطيط الطرق، وإدارة حفر التُّرع، وكل ما يعود عليه بالربح، ثم وجد مُعيناً له؛ رجلاً حاذقاً نشيطاً محبّاً للاختراع يُسمّى بلتن، فأخذ هذا على نفسه استخدام آلة وط لتحريك الآلات المختلفة، ثم تداولت هذه الآلة أيدي المخترعين، فزادوا عليها وأصلحوا فيها كثيراً، إلى أنْ جعلوها صالحة لكل الأعمال تقريباً، وهي الآن تدير الآلات، وتُسيّر السفن، وتطحن الحبوب، وتطبع الكتب، وتسكُّ النقود، وتطرق الحديد، وترفع الأثقال، وتنسج الأقمشة، وتحرث الأراضي، وتعمل كلّ عمل يُحتاج فيه إلى قوة، ومن أفضل التحسينات فيها جعلها صالحة لسير المركبات البريّة، وهذا شرع فيه ترفيثك، وأتمه ستفنسن وابنه، ويصحُّ أنْ نحسب هذا التحسين اختراعاً جديداً، وربما فُضّل على اختراع آلة وط لما نتج عنه من اتساع الحضارة.

ومن أعظم النتائج التي نتجت من اختراع وط، إنشاء معامل القطن ومُنْشـئُها السر رتشرد أركريت، الذي يُعجب لأجل همّته وزكانته أكثر مما يُعجب به لأجل مقدرته على الاختراع، بل إنّ من الناس من لا يقرُّ له بالاختراع، كما أنّ منهم من لا يقر لِوُط، ولعلّ نسبة أركريت إلى آلة الغزل كنسبة وط إلى آلة البخار، ونسبة ستفنسن إلى قاطرات سكة الحديد؛ لأنه جمع شتيت خيوط متفرقة، ونسج منها هذا الاختراع العظيم.

قيل إنّ رجلاً يُسمّى لويس بول نال امتيازاً بآلة للغزل، تغزل بواسطة البكرات قبل أركريت بثلاثين سنة، ولكن آلته كانت ناقصة من وجوه كثيرة فأُهمل أمرها، وقيل إنّ رجلاً آخر اسمه توما هايس اخترع آلة للغزل، والظاهر أنّ اختراعه لم ينجح أيضاً، وكأنه

لا يُخترع اختراع إلّا بعد أنْ يخطر على بال كثيرين حينما تُمسُّ الحاجة إليه، فيخطو كلٌّ منهم فيه خطوة أو أكثر، كما جرى في الآلة البخاريّة، وقنديل الأمانة، والتلغراف الكهربائي، وغيرها من المخترعات، ويدوم الأمر على مثل ذلك إلى أنْ يقوم رجل يفوق أقرانه في العقل والإقدام، فيسبقهم ويستخلص كل ما استنبطوه، ويضيفه إلى ما ارتآه هو أو استنبطه، فيتم به الاختراع، وحينئذ يعلو صراخ أولئك المقصرين في ميدان هذا الاختراع، ويصوبون نحوه سهام ملامهم، فيضطرُّ أنْ يدافع عن اسمه وحقه.

هذا، ولنرجع إلى رتشرد أركريت، فنقول إنه وُلد في برستون سنة 1732 من أبوين فقيرين جدّاً، وكان صغير إخوته وأخواته، وهم ثلاثة عشر، ولم يدخل مدرسة قط، وبقي حتى وفاته لا يحسن الكتابة، وكانت صناعته الحلاقة، فلما تعلّمها فتح دكاناً في بلتن تحت الأرض، وكتب فوق بابه «هلمُّوا إلى الحلاق الأرضي؛ فإنه يأخذ على الرأس عشرين درهماً»، فاضطرّ رصفاؤه الحلّاقون أنْ يقلّلوا أجرة الحلاقة مجاراةً له، فأعلن أنه يحلق حلاقة جيدة بعشر بارات، وشاع حينئذ لبس الشعور العارية، فترك صناعة الحلاقة، وأخذ يجول في البلاد يبيع الشعر والخضابات الكيماوية.

وما طالبُ الحاجات من كلّ وجهة من الناس إلّا من أجدّ وشمّرا

ومع كل إقدامه واجتهاده، لم يكن يكسب أكثر مما يكفي للقيام بمعيشته.

ونحو ذلك الوقت بطل لبس الشعور العارية، فاضطر أنْ يترك تجارتها ويأخذ في عمل آخر، وهو اصطناع الآلات، أو- كما كان يُقال- اختراع الاختراعات، وفي غضون ذلك كان قد جُرّبت

التجارب الكثيرة لاختراع آلة للغزل، فعزم أنْ يزج نفسه بين المجرّبين، فألقى دلْوه في الدلاء عازماً ألّا يرجع إلّا غانماً، وكان قد أضاع قسماً كبيراً من وقته في اصطناع آلة تتحرك حركة دائمة، كما هو شأن أكثر محبي الحرف، فأعدّ عقله لاختراع أهمّ وأثبت، وهو اختراع آلة الغزل، ولما أخذ فيه انكبّ عليه برغبة شديدة إلى أنْ نفد ما جمعه من المال اليسير، فلما رأت زوجته ذلك فرغ ما عندها من الصبر، فاختطفت جميع آلاته ورسومه وأطعمتها النار؛ آمِلةً أن تصرفه عنها إلى اتباع حرفة تقوم بحاجات بيته، فاستشاط منها غيظاً، وهجرها.

وكان قد استعان برجل صانع ساعات اسمه كاي على عمل الآلة التي قدّر لها الحركة الدائمة، فظنّ بعضهم أنّ كاي هذا أخبره بمبدأ الغزل بالبكرات، وقيل بل خطر على باله مبدأ آلة الغزل عند رؤيته قطعة حديد محماة قد استطالت بمرورها بين اسطوانتين من حديد، وكيفما كان اتصاله إلى مبدأ آلة الغزل فمن المعلوم أنه تفرّغ لها بكليته، ولم ينفك عنها حتى جاء بالنتيجة التي ليس لكاي من فضل عليه بها سوى عمله له المثال حسب إرشاده، إلّا أنه صادف مصاعب كثيرة في إشهار آلته هذه؛ لأن من عادة الصنّاع أنْ يقاوموا كلّ آلة جديدة خوفاً من أنْ تكسد بضاعتهم بها، فاضطرّ أنْ يترك وطنه ويلتجئ إلى نوتنهام التي كانت آمن قليلاً.

وكان قد وصل إلى حالة يُرثى لها من الفقر، حتى اضطرّ البعض أنْ يتصدقوا عليه بيسير من المال لابتياع ما يحتاج إليه من الأكسية، فطلب الإمداد من بيت ريط؛ فأمدوه بمبلغ من المال مشترطين عليه أنْ يقاسمهم الربح، ولكن لم يمكنه إتقان آلته كما انتظروا، فأوعزوا إليه أنْ يلتجئ إلى بيت سترت وتيد، وسترت هذا

مخترع حاذق، وهو الذي اخترع آلة لعمل الجوارب، فحالما رأى آلة أركريت عرف قيمتها، فاشترك مع تيد وساعده على إتقانها، وأخرجا له امتيازاً بها سنة 1769، (وفي تلك السنة أعطي الامتياز لوط بآلته البخارية)، والآلة الأولى التي صنعها أركريت كانت تديرها الخيل، ثم صنع أُخرى أكبر منها يديرها الماء.

وبقي على أركريت أنْ يحسّن هذه الآلة؛ لأنها لم تزل تحتاج إلى إصلاحات وتحسينات كثيرة، وكانت نفقتها كثيرة على قلة ربحها، فلم ينفك عن إصلاحها وتحسينها حتى جاءت كاملة متقنة جزيلة النفع، ولكن عندما أتقنت وحان له أنْ يجتني ثمار أتعابه، قام الصنّاع عليه وهجموا على محل الآلة، ودكوه إلى الأرض على مرأى من جنود الدولة، وتفاقم الخطْب حتى لم تعد مغزولاته تباع في السوق، مع أنها كانت أحسن من غيرها وأرخص، ثم تعصّبوا عليه وأبوا أنْ يعطوه المال المفروض على من يستعمل آلته، بل قاموا عليه في المحكمة وألغوا الامتياز الذي ناله. قيل إنه مرّ مرة بخصومه الذين غلبوه، فقال أحدهم على مسمع منه لقد غلبنا هذا الحلّاق، فأجابهم لا بأس؛ فلم يزل معي موسى لأحلقكم كلكم، ثم عاد فأقام معامل أُخرى في لانكشير، ودربيشير، ونيولانارك بعد انحلال شركته مع سترت، وازدادت مغزولاته ووصلت إلى درجة رفيعة من الإتقان، فصارت له السلطة المطلقة على هذه البضاعة، وصار يحدد ثمنها كما يشاء.

وكان أركريت من أمضى الناس عزيمة، وأكثرهم إقداماً، وأقواهم جلداً، فتراكمت عليه الأعمال حتى كان يضطر أنْ يشتغل من الساعة الرابعة صباحاً إلى الساعة التاسعة مساءً؛ أي من قبل الظهر بتسع ساعات إلى تسع بعده، ولما صار له خمسون سنة من العمر

شرع في درس النحو، وتصليح خطه وتهجئته، فغلب كلّ المصاعب التي قامت في وجهه، واجتنى ثمار أتعابه، ولم يمض عليه ثماني عشرة سنة منذ صنع آلته الأولى حتى بلغ درجة سامية من المجد والجاه في عيون أهل بلاده، فعين حاكماً لمقاطعة دربيشير، وبعد مدة أنعم عليه الملك جورج الثالث بلقب الفارس، وكانت وفاته في سنة 1792، ومهما كانت مقاصده فلا يشك في أنه أقام في البلاد الإنكليزية صناعة أكسبتها غنى وافراً.

وإذا التفتنا إلى بقية الصناعات التي أغنت الأمة الإنكليزية، رأينا أنها ابتدأت على يد أناس من العملة والصنّاع؛ مثل بيت سترت وبلبر وتنت ومرشل وغت وبيل وانسورث الذين قام من خلفائهم رجال كثيرون اشتهروا في السياسة مثل بيت بيل، وهذا البيت الشهير أي بيت بيل نشأ نحو أواخر القرن الثامن عشر، ومُنشئه فلاح اسمه روبرت بيل من مكان بقرب بلكبرن، وكانت بلكبرن والضياع المجاورة لها مشهورة بنسج المنسوجات من القطن والكتان، وكان من عادة الفلاحين أنْ يستعملوا الحياكة في أوقات الفراغ من عمل الحقول، لأن الزراعة لم تكن تأتي بما يكفيهم، فوضع روبرت بيل نولاً في بيته، وكان أميناً مجتهداً فأفلح، وهو أول من استعمل اسطوانة الندف المخترعة حديثاً.

وكانت أفكاره متجهة إلى كيفية طبع الأنسجة؛ لأن هذه الصناعة لم تكن شائعة حينئذ، وكانت الأطعمة تُسكب في صحاف من المعدن، فرسم صورة على صحفة من هذه الصحاف، وخطر على باله أنْ يطبع بها المنسوجات، وكانت تسكن على مقربة من بيته امرأة عندها آلة لصقل الثياب، فقام إليها ووضع الصحفة في الآلة، ووضع فوقها قطعة من النسيج، ثم ضغطها بالآلة فانطبعت الصورة

عليها، فلما رأى ذلك جعل يجرّب ويمتحن، إلى أنْ صنع آلة مُتقنة لطبع المنسوجات، وأول قطعة طبعها بها طبع عليها صورة ورقة بقدونس، واسمه بالإنكليزية «بارسلي»، فلقب بارسلي بيل إلى هذا اليوم، وعند ذلك ترك الفلاحة، وانتقل إلى قرية تبعد نحو ميلين عن بلكبرن، وأخذ يطبع المنسوجات هو وأولاده ولم يكن أولاده أقلّ منه نشاطاً، ودام على ذلك بضع سنوات، ولما بلغ أولاده أشدّهم أنشأ كلّ منهم معملاً خاصّاً به، واستخدم عدداً كبيراً من العمال، ويبين من أمر روبرت بيل أنه كان فطناً ذكياً، بعيد النظر؛ قال ابنه السر روبرت بيل: إنّ أبي مؤسس بيتنا كان يعرف فائدة الربح التجاري للأمة، وكثيراً ما كان يقول إنّ الربح الذي يربحه الأفراد من التجارة لا يعد شيئاً في جنب ربح الأمّة إجمالاً.

أمّا السر روبرت بيل بن روبرت بيل الأول، فورث عن أبيه الإقدام والاجتهاد، ولما استقلّ بنفسه لم يكن له مال ولا ثروة؛ لأن أباه لم يكن قد أثرى، فاشترك مع خاله ورجل آخر اسمه وليم يتس، وكان رأس مالهم خمس مائة جنيه، وأكثرها من وليم يتس، ولم يكن روبرت قد ناهز العشرين، ولكنه قام بهذا العمل العظيم مع حداثة سنه، ومما قيل فيه إنّ له رأس شيخ وبدن شاب، فاشترى هؤلاء الثلاثة مطحنة منهدمة، وأرضاً مجاورة لها وجعلوها معملاً لطبع المنسوجات وذلك سنة 1770، ثم بعد سنوات أضافوا إليه معمل غزل. ويظهر شكل معيشتهم حينئذ مما يأتي: كان وليم يتس متزوجاً، ففتح بيتاً وضمّ روبرت بيل إليه لأنه كان عزباً، فكان يدفع له ثمانية شلنات كلّ أسبوع عن أكله وسكناه، ولكنّ وليم يتس وجد هذا المبلغ قليلاً، وطلب أنْ يزاد عليه شلن كلّ أسبوع فلم يقبل بيل بذلك، ووقع بينهما الخلاف فآل الأمر إلى

الانفصال، ولكنهما اتفقا بعد مدّة على أنْ يدفع بيل نصف ثلن فوق الثمانية الثلنات. وكان ليتس ابنةٌ صغيرة اسمها ألن، فعلق بها قلب بيل، وانتظرها عشر سنوات إلى أنْ أتمت السابعة عشرة فاتخذها له زوجة، فكانت من أكبر مساعديه لأنها كانت تكتب مكاتيبه وحساباته؛ فإنه لم يكن يحسن الكتابة، وهي أم السر روبرت بيل رئيس وزراء إنكلترا، وتُوفّيت سنة 1803 بعد أنْ قُلّد زوجها رتبة البارونية. قيل إنّ المعيشة في لندن أضرّت بصحتها؛ لأنها كانت مخالفة لما اعتادته في بيت أبيها، فجعل أبوها يقول لو لم يجعل روبرت ابنتنا ألن سيدة ما ماتت باكراً.

واستمر يتْس وبيل وشركاؤهما مدة طويلة جارين في سبيل النجاح، وكان بيل مقدامهم باجتهاده وانصبابه، وحكمته ومهارته في البيع والشراء، وقدرته على مواظبة أعماله إلى حدّ يفوق التصديق، والخلاصة أنّ نسبة هذا الرجل إلى طبع المنسوجات نسبة أركريت إلى غزل القطن، ومما يستحق الالتفات أنّ بيل وشركاءه لم يقتصروا على تحسين مصنوعاتهم، وجعلها من الطراز الأول، بل اجتهدوا أيضاً في ترقية شأن عمالهم، فزادهم ذلك شهرة وشرفاً.

ومن مزايا السر روبرت بيل التفاته إلى كلّ اختراع جديد، فعندما اختُرعت مادة تُطلى بها المنسوجات، حيث يراد إبقاؤها بيضاء، اشتراها من مخترعها بمبلغ كبير من المال، وأخذ في امتحانها مدة سنة أو سنتين، إلى أنْ بلغت غاية الإتقان، فجعلت معامله في رأس كل معامل طبع المنسوجات.

ومن جملة مؤسسي الصنائع القس ولْيم لي، مخترع آلة عمل الجوارب، ويوحنا هثكوت مخترع آلة حبك الخرج. أمّا الأخبار

التـي وصلـت إلينـا عـن اختـراع آلـة الجـوارب ففيهـا بعـض الريـب والتناقـض، ولكنهـا تتفـق فـي اسـم المختـرع وهـو وليـم لـي، وفـي أنـه كان فقيـراً ودخـل خادمـاً وتلميـذاً معـاً فـي مدرسـة كمبردج سـنة 1579، ثـم انتقـل إلـى مدرسـة مـار يوحنـا، ونـال رتبـة بكلوريـوس فـي العلـوم سـنة 1583، وحينمـا اختـرع آلـة عمـل الجـوارب كان قسيسـاً لقريـة كلفرتـون بقـرب نوتنهـام. قيـل إنه شـغف حينئـذ بحب فتـاة، وكان حينما يزورهـا لا تلتفـت إليـه كثيـراً، بـل تبقـى محدقـة فـي الجـوارب التـي كانـت تعملهـا، فاسـتاء مـن عمـل الجـوارب باليـد وعـزم مـن يومـه علـى اختـراع آلـة لعملهـا، وأخـذ يجـرب ويمتحـن مـدة ثـلاث سـنوات، إلـى أنْ نجـح فتـرك القسوسـية، وجعـل يتعاطـى عمـل الجـوارب بالآلـة التـي اخترعهـا، ومـن رأى هـذه الآلـة وسـهولة العمـل بهـا، عـرف مـا لمخترعهـا مـن الفضـل، ولا سـيما إذا قابلهـا بعمـل النسـاء البطـيء الممـل، ومـن تـراه يسـتطيع تعـداد المصاعـب التـي صادفهـا هـذا الرجـل، ولا سـيما أنه كان فـي عصـر معرفـة الآلات فيـه فـي درجـة واطئـة، فاضطـر أنْ يصنـع كل أجزائهـا بيـده، بـل أنْ يصنعهـا كلهـا مـن الخشـب، وهـو أمـر يـكاد يفـوق التصديـق، وبعـد أنْ تعـب فـي عملهـا ثـلاث سـنوات كمـا قلنـا سـابقاً صـارت صالحـة للعمـل، فاسـتعملها سـنوات متواليـة، وعلّـم أخـاه وكثيريـن مـن أقربائـه اسـتعمالها، وكان يرغـب فـي إحـراز حمايـة الملكـة اليزابيـث المالكـة حينئـذ، المشـهورة بميلهـا إلـى عمـل جـوارب الحريـر، فأتـى لنـدن لكـي يريهـا إياهـا، وأراهـا للبعـض مـن رجـال البـلاط، ومنهـم اللـورد هندسـن، فلـم يكتـف هـذا برؤيتهـا، بـل تعلـم العمـل بهـا، ثـم اسـتأذن لـه بالمثـول لـدى الملكـة، فأراهـا الآلـة وعمـل بهـا أمامهـا، فلـم تلتفـت إليـه الالتفـات الـذي انتظـره، بـل اعترضـت عليـه، علـى مـا قيـل، مُدّعيـة أنّ آلتـه تبطـل عمـل كثيـرات مـن اللاتـي يتكسـبن مـن عمـل الجـوارب، فلمـا رأى منهـا ذلـك أوجـس خيفـة، وعـزم علـى مباينة

بلاده، وكان سُلّي الحكيم- وزير هنري الرابع ملك فرنسا- قد طلب منه أنْ يأتي إلى روان، ويعلّم أهاليها كيفية عمل هذه الآلة والعمل بها، وكانت روان حينئذ من أكثر مدن فرنسا معامل، فأجاب طلبه ورحل إلى فرنسا سنة 1605، واستصحب معه أخاه يعقوب وسبعة فعلة، فقُوبل في روان بالترحاب وراجت مصنوعاته كثيراً، ولكن السعد أبى إلّا الابتعاد عنه؛ لأن الملك هنري الرابع الذي توقع منه أنْ يُسبغ عليه النعم الوافرة، حسبما وعدهُ، قُتل غيلة فخاف من ضياع حقوقه، وأتى باريز قاصداً إثباتها في المحكمة، فلم يعبأ به أحد، لأنه أجنبي ومن البروتستانت، فقضى نحبه في باريز وهو في غاية المسكنة، وهرب أخوه مع سبعة من العمال بآلاتهم إلى بلاد الإنكليز، واشترك مع رجل اسمه أشتون، وهو الذي زاد على الآلة الرصاصات التي تخفض إبرها، ثم شاع استعمال هذه الآلة، وكثر العاملون بها، حتى صارت صناعة عمل الجوارب فرعاً مهمّاً من صنائع الإنكليز.

ومن أهم تنوُّعات آلة الجوارب آلة عمل الخرج أو الدنتلّا، وصانعها فرُست وهُلْمس؛ فإنهما أصلحا آلة الجوارب حتى صار يُنسج بها نوع من الخرج، وشاعت هذه الآلة كثيراً، حتى استُعمل منها أكثر من ألف وخمس مائة آلة في أقل من ثلاثين سنة، وكان عدد الصنّاع العاملين بها يزيد على خمسة عشر ألفاً، ثم أُهملت بسبب الحروب المتواصلة وتغيُّر الأزياء، وما زالت في زوايا النسيان إلى أنْ قام جون هثكوت واخترع آلة جديدة، ومن ثمّ ثبت هذا النوع من الصناعة على أساس وطيد، وهاك تاريخ اختراعه بالاختصار:

ولد جون هثكوت سنة 1873، وكان يلوح عليه سمات النجابة،

وهو يتعلم مبادئ العلوم، ولكن لم يسمح له والداه أنْ يقيم في المدرسة مدة طويلة، بل وضعاه عند صانع أنوال ليتعلم حرفته، فلم يمض عليه وقت طويل حتى حذق استعمال الآلات والأدوات المختلفة، وعرف كلّ الأجزاء المركبة منها آلة الجوارب، وأخذ يحاول إصلاحها كلما سنحت له الفرصة، ثم عزم وهو في السادسة عشرة على عمل آلة تصنع خرجاً، مثل خرج بكنهام وفرنسا الذي كان يصنع باليد، فأصلح نوْل السّدى حتى صار يمكنه أنْ يعمل به كفوفاً للراحة نسيجها كنسيج الخرج، ومن ثمّ وطّن نفسه على اصطناع آلة لعمل الخرج. وكانت آلة الجوارب قد أُصلحت، حتى صار يمكن أنْ يصنع بها خرج منقط، عراه معكوفة كعرى الجوارب، لكنه كان سريع العطب، كثير الإفلات، وبالتالي غير مرضيّ، فاجتهد كثيرون من صنّاع نوتنهام في اختراع آلة تثني العرى بعضها على بعض كما في عمل الشبكة، فذهب تعبهم سدًى، ومنهم من أنفق كل أمواله، ومات فقيراً أو جُنّ وهام على وجهه.

ولما ناهز هثكوت الحادية والعشرين مضى إلى نوتنهام، وكان يعمل فيها الأنوال، فاحترم كثيراً لأجل مهارته وذكائه، وكان لم يزل عاقداً قلبه على عمل آلة تثني العُرى، فتعلّم عمل خرج بكنهام، الذي كان يصنع على المخدة قاصداً أنْ يصنع آلة تحبك خرجاً مثله، وكان هذا العمل صعباً مملاً، يقتضي مزاولة كثيرة وحذاقة شديدة إلّا أنه صبر وتأنّى فنال ما تمنّى، وقد وصفه معلمه بقوله: إنه رجل صبور مواظب منكر نفسه، كثير الصمت، شديد الأمل، يثق كلّ الثقة أنّ أتعابه ستكلل بالنجاح، وقد تكلّلت وصنع آلة لعمل الخرج يعجز القلم عن وصفها، وأُجيز له بها وعمره أربع وعشرون سنة.

ولـم تكـن امرأتـه أقـل اهتمامـاً منـه بإتمـام هـذه الآلـة؛ فقالـت لـه ذات ليلـة بعـد أنْ تعـب فيهـا أشـهراً وأعوامـاً: هـل صـارت تشـتغل، فقـال لا؛ بـل يجـب أنْ أفككهـا وأركبهـا ثانيـة، فلـم تقـدر أنْ تضبـط نفسـها عـن البـكاء، ولكنـه أتاهـا بعـد أسـابيع قلائـل وفـي يـده قطعـة مـن الخـرج صنعهـا بهـا. وقـد أصـاب هـذا الرجـل مـا أصـاب أكثـر المخترعيـن؛ أي إنـهُ لـم يُعتـرف لـه بأوليـة الاختـراع، ولـم يعـط امتيـازاً بهـا إلّا بعـد المحاكمـة وصـدور الحكـم لـه؛ قيـل إنّ السـر جـون كبلـي الـذي حامـى عنـه رأى أنـه يلزمـه أنْ يعـرف كيفيـة تركيـب هـذه الآلـة والعمـل بهـا، لكـي يمكنـه أنْ يدافـع عنـه فركـب إلـى نوتنهـام، حيـث كانـت الآلـة ونـزل فـي النـول، ولـم يخـرج حتـى عـرف وظيفـة كلّ جـزء مـن أجزائهـا، وتعلّـم العمـل بهـا، ثـم رجـع إلـى المحكمـة ووضـع مثـال الآلـة أمـام أربـاب المجلـس، وأخـذ يعمـل بـه ويشـرح تركيبـه وأفعالـه بمهـارة حيـرت عقـل القاضـي وعقـول أربـاب المجلـس وكلّ الحاضريـن، فخـرج الحكـم لـه.

ولمـا نـال هثكـوت الامتيـاز المذكـور وجـد أنّ الصنّـاع قـد صنعـوا أكثـر مـن سـتمائة آلـة مثـل آلتـه، ففوضـت الحكومـة إليـه أنْ يأخـذ مـن أصحابهـا ضريبـة ماليـة، فحصـل لـه مـن ذلـك ربـح وافـر، وكانـت مكاسـب العامليـن بهـذه الآلـة وافـرة جـدّاً، فانتشـر اسـتعمالها كثيـراً، وانحـطّ ثمـن ذراع الخـرْج مـن خمسـة جنيهـات إلـى غرشـين، وذلـك فـي أقـل مـن خمـس وعشـرين سـنة، وبلـغ معـدّل الدخـل السـنوي مـن عمـل الخـرج فـي هـذه المـدة أربعـة ملاييـن مـن الجنيهـات الإنكليزيـة، وعـدد العامليـن بـه مائـة وخمسـين ألفـاً. وأقـام هثكـوت معامـل فـي لوبـرو سـنة 1809، وبقـي هنـاك سـنوات وهـو فـي أوج النجـاح، وعنـده عـدد غفيـر مـن الفعلـة، وأجـرة الواحـد منهـم فـي الأسـبوع مـن خمسـة

جنيهات إنكليزية إلى عشرة.

ثم قام العمال وزعموا أنّ هذه الآلة قطعت رزقهم، مع أنها فتحت باباً لتشغيل كثيرين منهم، وعقدوا اجتماعاً اتفقوا فيه على تخريب كلّ آلة يستطيعون الوصول إليها،. وسنة 1811 حدثت منازعة بين المعلمين والعمال في معامل الجوارب والخرج في الأقسام الجنوبية الغربية من نتنهمشير، ودربيشير، وليسسترشير، فتجمّع الفعلة وتحالفوا على تكسير كلّ آلات الجوارب والخرج وأجروا ذلك فعلاً، ولكنّ الحكومة ألقت القبض على بعض رؤسائهم وعاقبتهم، فصاروا يفعلون ذلك خفية لا جهاراً كلما سنحت لهم الفرصة، وكانت الآلات دقيقة جدّاً فضربة واحدة كانت تعطلها، وكانت الأبنية الموضوعة فيها منفردة عن بيوت السكن، فكان الهجوم عليها سهلاً.

واجتمع مكسرو الآلات في جوار نتنهام التي هي مركز الشغب، وتنظموا في فرق، وعقدوا جمعيات ليلة دبروا فيها دسائسهم، وأقاموا عليهم قائداً يُدعى لد، ومن ثمّ دُعوا «لديين»، وعاثوا في البلاد، وقطعوا رزق عدد كبير من العمال، فاضطر أصحاب المعامل إلى نقلها من الضياع والأماكن المنفردة، إلى أماكن حصينة داخل المدن. ويظهر أنّ اللديين تشجعوا بخفّة العقاب الذي عوقب به من قبض عليه منهم، فلم يمض إلّا وقت قصير حتى انتشروا في كلّ الجهات الشماليّة والمتوسطة، وخربوا كلّ ما وصلت إليه يدهم من المعامل. وكان تحالفهم سريّاً آلوا فيه على أنفسهم أنْ يطيعوا قوادهم طاعة عمياء في كلّ ما يأمرونهم به، وأنْ يميتوا كلّ من يفشي مقاصدهم، وحكموا بملاشاة كلّ الآلات، سواءٌ أكانت لنسج الجوخ أو الشيت، أو الخرج، وقضوا على أصحابها بالقتل. فيا لها

من سنين مهولة تمرّد فيها هؤلاء الأشقياء، وجالوا يفسدون في البلاد، حتى تلافت الحكومة أمرهم، وألقت القبض على كثيرين منهم وعاقبتهم بالموت، وبعد تعب سنين عديدة أخمد هيجانهم وتلاشت قوتهم.

وأتْلف اللديون معامل هثكوت مخترع آلة الخرج؛ لأن جمهوراً منهم دخلوا معمله في لوبرو في إحدى الليالي والمشاعل في أيديهم، وأضرموا فيه النار فحرقوا ستّاً وثلاثين آلة، ومصنوعات ثمنها عشرة آلاف جنيه، فقُبض على عشرة، وعوقب ثمانية منهم بالقتل. ورفع هثكوت دعواه على البلاد المجاورة، فغُرمت عشرة آلاف جنيه، إلّا أنّ القضاة طلبوا منه أنْ ينفق هذا المال داخل حدود لستر، فلم يجبهم إلى طلبهم؛ لأنه كان قد عزم على نقل معامله إلى مكان آخر، فانتقل إلى تيفرتون في ديفنشير، وابتاع بناءً كبيراً كان معملاً للصوف ورمّمه ووسّعه، وأقام فيه أكثر من ثلاثمائة آلة لعمل الخرج، وآلات أخرى لثني الغزل، وحل الحرير، وعمل الشباك، وأنشأ أيضاً مسبك حديد ومعامل لاصطناع أدوات الفلاحة، وكان يرى أنّ كلّ الأعمال الكبيرة يمكن إدارتها بواسطة البخار، فصنع محراثاً بخاريّاً ونال امتيازاً به سنة 1833، وبقي محراثه أفضل ما صنع من نوعه إلى أنْ صُنع محراث فولر.

وخلاصة ما يقال عن هذا الرجل العظيم أنه كان ثاقب الفكر سديد الرأي، سريع الخاطر، محبّاً للعمل، أميناً مستقيماً، ولما كان قد نال ما ناله باجتهاده، كان إذا رأى شابّاً من العاملين عنده مجتهداً، نشّطه وقوّى عزمه حتى يزيد اجتهاداً وتقدُّماً. وأكبّ مع كثرة أعماله على تعلُّم اللغة الفرنسوية والإيطالية، فأحسنهما وطالع تآليف كثيرة، وأغنى عقله بكنوز المعرفة، وكان في معامله

أكثر من ألفي عامل كانوا جميعاً ينظرون إليه كأب لهم لاهتمامه براحتهم ورفاهتهم كاهتمامه بنفسه، فإن نجاحه لم ينزع الشفقة من قلبه، بل زاده ليناً وحنوّاً حتى صار عضداً للفقراء وملجأً للبائسين، وبنى مدارس لتعليم أولاد العمال العاملين في معامله، أنفق عليها ستة آلاف جنيه، وكان مع ما ذُكر بشوش الوجه، أنيس المحضر، محبوباً ومكرماً من الجميع. وسنة 1831 اختاره أهالي تيفرتون نائباً عنهم في البرلمنت، فأقام في هذا المنصب نحو ثلاثين سنة، وحينما تنحى عنه بسبب شيخوخته، أهدى إليه ألف وثلاثمائة من الفعلة العاملين في معامله دواة من الفضة، وقلماً من الذهب علامة لإكرامهم له، وتُوفّي سنة 1861، ولهُ من العمر سبع وسبعون سنة، وترك بعدهُ اسماً تفتخر به ذريته.

والآن نلتفت إلى شخص آخر ليس أقل شهرة من هثكوت، ولو كان أقل سعداً منه، وهو جكار الشهير؛ ولد جكار بمدينة ليون من أبوين فقيرين، صناعتهما الحياكة، ولما بلغ سن الرشد وضعه أبوه عند مجلد؛ ليتعلم تجليد الكتب، وكان له ميل شديد إلى عمل الآلات، فأشار بعضهم على أبيه أنْ يعلمه صناعة توافق ميله، فوضعه عند سكّان (صانع سكاكين)، وكان هذا السكّان شرس الطباع، فتركه جكار، وخدم عند صانع حروف، ثم تُوفّي أبواه فاضطر أنْ يحترف الحياكة في نوليهما، ولكنه ما لبث حتى خطر له أنْ يحسن هيئة النولين ويصلحهما، وأكب على ذلك، فنسي نفسه، ولم يشعر إلّا والفقر قد دهمه فباع النولين لكي يفي دينهُ. ونحو ذلك الوقت اقترن بامرأة فصار عليه أنْ يعولها أيضاً، فباع بيته وأخذ يفتش عن عمل فلم يستخدمه أحد؛ لأن الجميع كانوا يعدُّونه كسلان كثير الأوهام، فلبث يتضوّر جوعاً إلى أنْ وجد عملاً

عند صانع حبال، وبقيت امرأتهُ في ليون، وكانت تعول نفسها بعمل برانيط القش. ولا يُعرف من أمره شيء إلّا بعد مضي سنوات أتمّ في غضونها عمل نول لنسج المنسوجات الموشاة، ولم يمض على هذا النول عشر سنوات حتى شاع كثيراً، وصُنع منه في ليون أربعة آلاف نول، ثم حدثت الثورة في فرنسا، فانقطع عن عمله، وتطوّع للحرب بين المتطوعين الليونيين، ولما أُخذت مدينتهم هرب وانضم إلى جنود الرن، فارتقى إلى رتبة جاويش، وقُتل ابنه بجانبه في إحدى المعارك، فترك الجند ورجع إلى ليون، وافتقد امرأته فوجد أنها لم تزل تعمل برانيط القش، فأقام معها ولكنه لم ينفك عن النظر في أمر الاختراع، حتى اضطرّ أنْ يخرج من مخفاه، ويسعى في عمل يعيش به، فانضمّ إلى صانع ماهر، وكان يعمل عنده في النهار، ويرجع إلى اختراعه في الليل حاسباً أن نول المنسوجات الموشاة يحتمل إصلاحات كثيرة.

وحدث يوماً أنه ذكر لمستأجره، متأوهاً على ضيق ذات يده، المانعَ له من إتمام مقاصده، فأصغى إليه مستأجرهُ ومدّهُ بمال كاف؛ لكي يتمّم اختراعه في ساعات العطلة، فلم تمض عليه ثلاثة أشهر حتى اخترع نولاً بديع الصنعة، وعرضه في معرض الصنائع، الذي أقيم في باريز سنة 1801، ونال عليه نيشاناً، وزاره الوزير كرنو في ليون، وهنّأه بنجاحه في اختراعه هذا. وفي السنة التالية أعلنت لجنة الصنائع في لندن أنها تعطي جائزة لمن يخترع آلة لعمل الشباك، فأخذ جكار ينظر في هذا الموضوع، ولم تمض عليه ثلاثة أسابيع حتى اخترع الآلة المطلوبة، فبلغ ذلك الإمبراطور نبوليون، فدعاهُ إلى باريز وقابلهُ بالترحيب والإكرام، كما يليق بمخترع عظيم، ودام الحديث بينهما ساعتين، فشرح جكار للإمبراطور كلّ ما يتعلق بنول

المنسوجات الموشاة، وما يحتمله من الإصلاح، فأمر الإمبراطور أنْ يُعطى مكاناً في معهد الفنون والأدوات، وأنْ يُقدّم له كلّ ما يحتاج إليه من الآلات، وأمر لهُ بمعاش كاف، فوجد جكار في ذلك المعهد آلات لا تُحصى وجميعها تشهد بفضل صانعيها وحذقهم وفي جملتها نول لنسج الحرير المشّجر من عمل ڤوكنصُن الشهير.

أمّا ڤوكنصُن هذا فهو من الطراز الأول بين المخترعين، بل هو مخترع مطبوع على الاختراع؛ روي أنه رأى في حداثته ساعة كبيرة تتحرك من نفسها، فأخذ يفكر في سبب حركتها، ولم ينفك عن تأملها حتى فهم سبب حركتها فعمل ساعة من خشب تدل على الساعات، وعمل أيضاً ملائكة تحرك أجنحتها، وكهنة يتممون بعض الفرائض الدينية، ثم أخذ في تعلُّم التشريح والموسيقى والميكانيكيات لكي يتسهل عليه أمر اختراع الآلات، ورأى ذات يوم مغنياً يغني بالفلوت في بساتين التويلري، فصنع شخصاً مثله يغني الغناء نفسه، ولكنه اضطرّ أنْ يعمل فيه سنين عديدة، ثم صنع بطة تسبح وتشرب، وتبطبط كبطة حيّة، وصنع صلّا لرواية كليوبترا يفحُّ ويثبُّ إلى صدر المشخّصة، كأنه صلٌّ حقيقي. ولكنهُ لم يقتصر على عمل آلات كهذه؛ لأن الكردينال دِه فلري عينهُ مفتشا لمعامل الحرير في فرنسا، فما لبث أنْ تولج هذا المنصب حتى أخذ يدخل الإصلاحات الكثيرة في آلات الحرير. ومن الآلات التي اخترعها آلة لغزل مشاقة الحرير، ولكنها هيّجت عليه صنّاع ليون، فرجموه بالحجارة وكادوا يقتلونه، غير أنه لم ينفك عن الاختراع؛ فاخترع آلة لنسج الحرير المشجر، وأوجد طريقة لجعل كلّ الوشائع من ثخن واحد، ثم تُوفّي سنة 1782، وأوصى قبل وفاته بكل آلاته للمملكة، غير أنّ المملكة لم تعن بها فذهبت أدراج الرياح.

أمّا آلة نسج الحرير المشجر، فحفظت لحسن الحظ في خزانة الآلات والأدوات؛ لتكون مرشداً لجكار في عمل نوله، ومن أهم أجزائها أُسطوانة ذات ثقوب، إذا أُديرت حركت إبراً حركات معلومة بواسطة ثقوبها، وفرّقت السدى على نوع يجعل رسماً معلوماً. فلما رأى جكار هذه الآلة طار فرحاً، وأخذ من ساعته في إصلاحها بهمة مخترع حقيقي، فأكمل إصلاحها في أقل من شهر، وزاد عليها قطعة من الكرتون، مثقوبة ثقوباً كثيرة تدخل فيها الأسدية وآلة أخرى تري الحائك لون الوشيعة التي يلزم طرحها في النول، فاستغنى بذلك عن واحد يسحب الخيوط وآخر يقرأ الرسوم، وأهدى أوّل قطعة نسجها إلى الإمبراطورة جوزفين زوجة نبوليون بونابارت، فسرّ نبوليون لها سروراً عظيماً، وأمر أحذق الصنّاع أنْ يصنعوا عدداً من الأنوال حسب مثال جكار وأهداها إليه، فأخذها ورجع إلى ليون، فصادف في ليون ما لا بُدّ منه لكلّ مخترع؛ فإن صناعها حسبوا نوله عدوّاً يقطع رزقهم، فتجمهروا وعزموا أنْ يقتلوه ويلاشوا آلاته، فجرُّوه إلى النهر ليغرقوه، لكن التقادير ساعدته فنجا من أيديهم.

ولم يمض وقت طويل حتى عُرف فضل نوله، وألحّ عليه حاكة الحرير بإنكلترا أنْ يأتي ويسكن في بلادهم، ولكنه أبى ذلك حبّاً بوطنه، إلّا أنّ الحاكة الإنكليز استعملوا نوله واعتمدوا عليه، فرأى ذلك أهل ليون وعلموا أنّ الإنكليز غالبوهم لا محالة، فأقبلوا على نول جكار برغبة شديدة، واستعملوهُ لكل المنسوجات تقريباً، وثبت لهم أنّ خوفهم من انحطاط أجور الصنّاع كان في غير محله؛ لأن هذا النول زاد أعمال الصنّاع عشرة أضعاف، وكان في ليون وحدها سنة 1833 ستون ألف عامل بحسب إحصاء مسيو ليون فوشه، ثم

زاد عن ذلك كثيراً.

وعاش جكار بعد ذلك بالهدوء والسكينة محبوباً من الجميع، والعمال الذين جرُّوهُ قبلاً ليغرقوه أرادوا أن يحملوه يوم عيد ميلاده ويطوفوا به الطريق التي جرُّوه فيها قبلاً، فلم يجبهم إلى ذلك تواضعاً منه، ثم عرض عليه ديوان البلدية في ليون أنْ يتفرغ لإصلاح نوله لخير الوطن بالأجرة التي يختارها، فقبل بذلك وأدخل فيه كلّ الإصلاحات اللازمة، ثم تنحّى عن الأعمال وله من العمر ستون سنة ورجع إلى أولينس ليقضي ما بقي له من العمر في مولد أبيه، فمنح لجيون دونر (نيشان الشرف) سنة 1820، وتُوفّي هناك سنة 1834، وأُقيم له نصب تذكاراً له، إلّا أنّ أقاربه بقوا في الفقر الشديد، وبعد موته بعشرين سنة باعت ابنتا أخيه النيشان الذهبي الذي قلّده به الملك لويس الثامن عشر، قال أحد الفرنسويين: هذا هو جزاء أهل ليون لمن كان سبباً لغناهم ومجدهم.

وفي استطاعتنا أنْ نذكر سير كثيرين من المخترعين، وما احتملوه من المشاق وعانوه من المضض ولم يجنوا شيئاً من ثمار أتعابهم، بل ذهبوا وتركوها لغيرهم، ولكنّا نجتزئ عن ذلك بذكر سيرة مخترع آخر حديث العهد، وهو يشوع هلْمن مخترع الممشطة.

ولد هلمن هذا في ملهوسي من الألزاس سنة 1759، ودخل معمل قطن وهو في الخامسة عشرة وأقام فيه سنتين، وكان يشغل أوقات العطلة برسم الآلات، ثم انتقل إلى بيت عمه في باريز ودرس هناك الرياضيات، وأنشأ بعض أقاربه معملاً لغزل القطن، فوضعوه في معمل الخواجات تسو وراي في باريز ليتعلم هذا العمل ثم يرجع ويدير معمل أقاربه، فتعلم كلّ ما يحتاج إليه من تركيب

الآلات وما أشبه، ورجع إلى الألزاس مديراً للمعمل، ولكن حدثت حوادث تجارية أخسرت أقاربه، فاتصل المعمل إلى غيرهم فخرج منه ورجع إلى بيته في ملهوسي، وكان يحاول اختراع آلة للتطريز تحرك عشرين إبرة في وقت واحد، ويقضي أكثر أوقات العطلة في عملها، فأتمها في ستة أشهر وعرضها في معرض سنة 1834، فنال عليها نيشاناً ذهبيّاً ونيشان الشرف، ثم اخترع مخترعات أخرى كثيرة منها نول وآلة لقياس النسيج وطيه، وأدخل إصلاحات كثيرة في آلات كب الحرير والقطن وإعداد غزلها ونسج الحرير والقطن. ومن أعظم اختراعاته آلة تنسج طاقين من المخمل أو من كلّ نسيج ذي خمل في وقت واحد، ثم تفصلهما بأداة فيها كسكين حادّ، وأفضل اختراعاته كلها وأعظمها آلة التمشيط، وهاك تاريخ اختراعها.

خطر على باله قبل ذلك استنباط آلة لمشط القطن، وفصل الألياف الطويلة من القصيرة قبل غزله، وكان العملة يستعملون لذلك آلة غير متقنة كثيرة الخسارة، فعرض مجمع النسج في الألزاس جائزة خمسة آلاف فرنك لمن يخترع آلة للمشط أتقن من الآلة المستعملة، فتفرّغ هلمن لهذا الاختراع لا طمعاً بالمال؛ (لأنه كان قد تزوّج بامرأة غنيّة)، بل حبّاً بشرف الاختراع؛ لأنه كان يقول: إنّ طالب المال لا يمكنه أنْ يعمل أعمالاً جليلة. وبعد أنْ تعب في هذا الاختراع سنين عديدة، نفد ما معهُ من المال، ولم يحصل على نتيجة مرضية، فاعتمد على مساعدة أصدقائه الذين قدموا له المساعدة اللازمة لإتمام اختراعه، ثم ماتت امرأته متيقنة أنه على حافة الخراب، فأتى بعد موتها إلى إنكلترا، وأقام في منشستر، وعمل مثالاً لما اتصل إليه من الاختراع في هذه الآلة

عنـد أمهـر صناعهـا، لكنـهُ لـم يكـن مرضيـاً فعـاد إلـى إصلاحـه، وبعـد تعـب جزيـل كاد ييـأس مـن إصلاحـه، ثـم رجـع إلـى فرنسـا لكـي يـرى عائلتـه وعقلُـه مشـغول بهـذا الاختـراع، وإذ كان جالسـاً ذات ليلـة فـي بيتـه متأمـلاً فـي نصيـب المخترعيـن وسـوء حظهـم، التفـت إلـى بناتـه فرآهـنّ يمشّـطن شـعورهن، فخطـر علـى بالـه حينئـذ أنـه لـو صنـع آلـة تمشـط الشـعر الطويـل، وترجـع القصيـر إلـى الخلـف وهـي راجعـة كمـا يفعـل بناتـه لجـاءت بالمطلـوب، فصنـع آلـة تمشـط القطـن وتفصـل الألِيـاف الطويلـة عـن القصيـرة، وتجمـع الطويلـة وحدهـا والقصيـرة وحدهـا، كأنهـا شـخص عاقـل دقيـق الصنعـة، هـذه هـي الآلـة التـي صـار ينسـج بهـا مـن ليبـرة واحـدة مـن القطـن خيـط طولـه 334 ميـلاً، حتـى إنّ مـا ثمنـه شـلن واحـد ينسـج خرجـاً ثمنـه نحـو أربعمائـة جنيـه.

وحالمـا اشـتهر اختـراع هلمـن عـرف غزّالـو القطـن فـي بـلاد الإنكليـز مقـدار قيمتـه، فاجتمـع أصحـاب سـتة معامـل مـن معامـل لنكشـير، وأعطـوه ثلاثيـن ألـف جنيـه لكـي يجيـز لهـم اسـتعمال هـذه الآلـة لمشـط القطـن، وأعطـاه غازِلـو الصـوف مقـدار ذلـك، والخواجـات مرشـل عشـرين ألـف جنيـه ليجيـز لهـم اسـتعمالها فـي مشـط الكتـان، فانهـال عليـه الغنـى بغـزارة، ولكنـه لـم يعـش ليتمتـع بـه، فوافتـه المنيـة بُعيـد ذلـك، ثـم لحـق بـه ابنـه الـذي شـاركه فـي الضـرّاء.

الفصل الثالث

في الخزافين الثلاثة العظام وهم بالِسي وبُتْغَر ووذْجود

قال يوحنا رسكن: الصبر أفضل ما في العزم، وما من لذة ولا قوة إلّا والصبر أساس لها، والرجاء نفسه لا تطيب به النفس إذا صحبه الضجر.

وقال الشاعر العربي:

لأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْب أو أُدرِكَ المُنَى فَمَا انْقَادَتِ الآمَالُ إلّا لِصَابِرِ

في تاريخ صناعة الخزف أمثلة على الصبر والمواظبة من أشهر ما جاء في سير البشر، وقد انتخبنا من بينها ثلاثة، وهي ترجمة برنارد بالسي الفرنساوي، وجوان فردريك بُتغَر الجرماني، ويوشيا ودْجود الإنكليزي.

إن عمل الآنية الفخارية البسيطة كان معروفاً ومشهوراً من قديم الزمان عند أكثر الشعوب القديمة، وأما عمل الآنية المدهونة بالمينا فأقلُّ قدمية واشتهاراً، على أنه كان معروفاً عند قدماء الترسكانيين، الذين كانت تُباع مصنوعاتهم في عهد أوغسطس قيصر بثقلها ذهباً، ولم يزل شيء منها محفوظاً في محلَّات التحف في أوروبا.

ومن الأمم التي اشتُهرت بهذه الصناعة عرب الأندلس، وكان لهم معامل في جزيرة ميورقا حينما استولى عليها أهل بيزا سنة 1115، وقيل إن البيزيين أخذوا من جملة الغنيمة بعضاً من الآنية المدهونة، ووضعوها في جدران كنائسهم القديمة في بيزا علامة لظفرهم، ولم تزل فيها إلى يومنا هذا، وبعد ذلك بنحو قرنين أخذ الإيطاليون

يمثلون صناعة العرب، وسموا مصنوعاتهم ماجولكا نسبةً إلى محلّ معامل العرب، ومحيي هذه الصناعة في إيطاليا هو لوقا دلّا روبيا النقاش الفلورنسي، قال ڤزاري في وصفه: إنه رجل لا يملُّ من العمل؛ يقضي النهار وإزميله في يده، ويحيي الليل في رسم ما يريد نقشه، وإذا خاف على رجليه من برد الليل القارس وضعهما في سلة ملأى من النشارة، وما ذلك بعجيب؛ لأني أرى الناس الذين لا يتعوَّدون احتمال مشقة البرد والحر والجوع والعطش وما أشبه لا يمكنهم أنْ ينجحوا، والذين يظنون أنه يمكنهم أنْ ينجحوا ويشتهروا إذا كانت كلُّ أمورهم مسهلة يخدعون أنفسهم؛ لأن النجاح والشهرة لا يُنالان بالنوم والراحة، بل بالسهر والتعب، وما أحسن ما قالهُ أبو الطيب المتنبي:

تُريدينَ إدْراكَ المَعَالِي رَخيصَةً وَلا بُدّ دُونَ الشَّهدِ مِنْ إبَرِ النَّحلِ

إلّا أن لوقا هذا لم يقدر أنْ يكسب من صناعة النقش ما يقوم بمعيشته مع كلّ ما كان عليه من الاجتهاد، فخطر له أنْ يجد مادة أقل ثمناً وأسهل مراساً من الرخام لعمل التماثيل؛ فأخذ يصطنعها من الطين، وكان همه الأكبر أنْ يشوبها ويدهنها دهناً ثابتاً لكي تقوم مقام الرخام، وبعد تعب شديد وتجارب كثيرة اكتشف مادةً إذا دَهَن الطين بها وعرَّضه لحرارة شديدة جدّاً ذابت، وصارت دهاناً زجاجياً ثابتاً، ثم اكتشف طريقة لتلوين هذا الدهان بألوان مختلفة وبذلك ازداد جمالهُ جمالاً، فامتد صيته في كلّ جهات أوروبا، وانتشرت مصنوعاته في أقطار فرنسا وإسبانيا وغيرهما، وكانت تُباع بأثمان فاحشة، ولم يكن يُصنع في ذلك العصر في فرنسا إلّا جرار وقدور بسيطة خالية من الدهان، ودام الحال على هذا المنوال إلى أنْ ظهر فريد عصره ونابغة عصره ونابغة دهره

الشهير بالسي، الذي حارب الصعوبات بعزم وهمة تستفز كلّ مُطِّلع على حياته إلى العجب والانذهال؛ كيف لا وهو رجل:

هَيْهاتَ أَنْ يَأْتِيَ الزَّمانُ بِمِثْلِهِ إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلُ

وهاك طرفاً من ترجمة هذا الرجل، وما احتمله من المتاعب، وكابدهُ من المشقات إلى أنْ نال الغاية التي شمَّر لها الذيل.

وُلد برنارد بالسي في جنوبي فرنسا، نحو السنة العاشرة بعد الخمسمائة والألف للميلاد، من أبوين فقيرين جدّاً، لم يمكنهما أنْ يعلماه في مدرسة، ويشهد بذلك ما قاله بعدئذ، وهو: «ليس لي كتب سوى كتابَي السماء والأرض، اللذين يشترك فيهما الجميع»، وكان أبوه زَجَّاجا؛ (صانع الزجاج)، على ما يُظن، فتعلم صناعته وزاد عليها علم تلوين الزجاج وعلم الرسم والقراءة والكتابة، ولما بلغ الثامنة عشرة كسدت صناعة الزجاج، فاضطرَّ أنْ يترك بيت أبيه ويحمل وطابه، ويسعى في طلب رزقه في مكان آخر، فسار نحو غسكوني، وكان يعمل في صناعته حيثما وجد عملاً، وأحياناً كان يعمل في مساحة الأراضي، وجال مدة طويلة في فرنسا وهولندا وألمانيا، ودام على ذلك نحو عشر سنين، ثم رجع إلى وطنه وتزوج واستقر في مدينة سنتس، وأخذ يعمل في تلوين الزجاج ومساحة الأراضي، ولم يمض عليه وقت طويل حتى عال وزادت نفقاته، فأخذ يُعمل فكرته في إيجاد وسيلة لتكثير دخله، فلم يجد أفضل من دهان الخزف وتلوينه إذا استطاع إليه سبيلاً، وكان يجهل هذه الصناعة كلّ الجهل حتى إنه لم يكن يعرف كيفية جبل الطين؛ فلذلك اضطر أنْ يتعلم كلّ شيء بلا معلم، ولكن علوّ همته وشدة أمله هوّنا عليه كلّ أمر عسير.

روى بعضهم أن بالسي رأى ذات يوم كأساً إيطالية بديعة، (ولعلها من عمل لوقا المتقدم ذكره)، فأعجبه منظرها ورغب في تمثيلها رغبة شديدة، ولا يبعد أن ألوفاً من الناس قد رأوا تلك الكأس فلم تؤثر فيهم كما أثرت فيه، وما ذلك إلّا لأنه كان مهتماً حينئذ بإبدال صناعته بصناعة أخرى، ولو كان عزباً لترك وطنه وذهب إلى إيطاليا، وتعلَّم سرّ صناعتها، ولكنه كان مقيَّداً بزوجة وأولاد، فاستحضر جميع العقاقير التي ظنّ أنها تسيل على الخزف فتدهنه كدهان الكأس التي رآها، واشترى آنية خزف وكسَّرها كسراً صغيرة، ورشّ عليها من تلك العقاقير، وبنى لها أتوناً وشواها فيه مدةً من الزمان، فلم يذب الدهان عليها، بل كانت النتيجة تكسير الآنية وإضاعة الحطب والعقاقير والوقت والتعب، ومن المعلوم أن النساء اللاتي لا يهمهنّ إلّا تحصيل الدراهم لابتياع القوت والكسوة لأولادهنّ، لا يعبأن بالامتحانات العلميّة، وكانت امرأة بالسي كذلك؛ فلم تسلّم له بابتياع آنية أخرى، زاعمة أنها إنما تُشترَى لتُكسَّر، فقام بينهما النزاع، ولكن لما رأته منشغفاً في التفتيش عن هذه الصناعة التي أخذت منه كل مأخذ تركته إلى هواه، فبنى أتوناً آخر، وأتلف فيه مقداراً وافراً من الوقود والعقاقير والآنية، وبعد تجارب كثيرة يطول شرحها دهمه الفقر الشديد، ومما قاله في صدد ذلك: «إنني عكفت سنوات على التفتيش عن المينا بحزن وتنهُّد». وكان عندما تسمح له الفرصة يعود إلى حرفته الأولى؛ أي تلوين الزجاج ورسم الصور ومساحة الأراضي، غير أن ما يربحه منها كان يسيراً جدّاً، وأخيراً عجز عن الامتحان في أتونه؛ بسبب غلاء الوقود، فاشترى مقداراً كبيراً من الآنية المكسرة، وكسرها نحو أربعمائة شقفة، ودهنها بمواد كيماوية مختلفة، ومضى بها إلى معمل خزف يبعد عن سنتس نحو غلوة ونصف وشواها فيه، ولما تمّ الشواء وجدها

كما كانت، فصمَّم من ساعته على إعادة التجارب من جديد.

قلنا إنه كان خبيراً بفن المساحة؛ ففي ذلك الوقت صدر أمر الدولة بمسح الممالح التي في جوار سنتس فعينته لذلك، فكسب ما مكنه من مراجعة امتحاناته؛ فاشترى نحو ثلاثين إناءً وكسَّرها شقفاً صغاراً، ودهنها بمواد مختلفة، وشواها في أتون زجاج بالقرب من سنتس، فذاب بعض هذه المواد من حرارة الأتون، وانفتح أمامه باب الأمل، إلّا أن الدهان الأبيض كان لم يزل محجوباً عنه، فلبث سنتين أُخريين يمتحن ويجرّب على غير فائدة، إلى أنْ نفد كلُّ ما كسبه من مساحة الممالح، فعزم على أنْ يمتحن الامتحان الأخير، فكسر مقداراً وافراً من الآنية نحو ثلاثمائة شقفة، ودهنها بالمواد المختلفة، وشواها في أتون الزجاج، ولمّا فتح الأتون وجد الدهان ذائباً على واحدة منها فقط، ولما بردت ابيضَّ صقيلاً لامعاً جميلاً، فحملها وهرول إلى بيته، وهو يكاد يطير فرحاً وأراها لزوجته، ولكن لم يكن ذلك الدهانُ الدهان الحقيقي، بل واسطة لإثارة رغبته وتحميله مشقات يعجز القلم عن وصفها؛ لأنه لما رأى نجاحه هذه المرة بنى لنفسه أتون زجاج بجانب بيته؛ لكي يجري امتحاناته سرّاً، وقضى على عمله نحو ثمانية أشهر؛ لأنه كان يعمل فيه وحده ولم يستخدم إنساناً ولا بهيمة، ولما أتمه عمل آنية خزف بيده، وشواها ودهنها بالمركّبات التي ظن أنها تأتي بالمطلوب، ووضعها في الأتون، وأضرم النار النهار بطوله، ولم يذب شيء من الدهان، فأحيا الليل كله وهو يوقد، ولكن على غير نتيجة، فأتته زوجته في الصباح بشيء من الطعام؛ لأنه لم يستطع أنْ يفارق الأتون، ثم مرّ اليوم الثاني ولم يذب شيء من الدهان، وخيَّم الظلام، ومضى الليل، وأشرقت الشمس، ولم يذب

منه شيء، ومرّ اليوم الثالث والرابع والخامس والسادس مع لياليها، ولكن على غير نتيجة.

فمن يقدر أنْ يصف مقدار التعب الذي كابده هذا الرجل في تلك الأيام الطويلة، فقال في نفسه لا بُدّ من نقص في هذه المركبات التي دهنت الخزف بها، فأخذ يركب غيرها لكي يمتحن امتحاناً آخر، فمضى عليه ثلاثة أسابيع وهو يسحق ويمزج ويركب، وبقي عليه أنْ يجلب آنية أخرى؛ لأن الآنية الأولى التي عملها بيده تلفت من تواصل النار عليها، وقد نفد كلُّ ما معه من النقود، فاقترض من صاحب له مبلغاً من المال، واشترى به آنية ووقوداً، ودهن الآنية بالمركَّبات الجديدة، ورتبها في الأتون وأضرم النار، فنفد الوقود الذي اشتراه ولم يذب الدهان، فنزع سياج جنينته وأوقده، ولكن على غير فائدة، فلم يبق أمامه شيء يقبل الاشتعال إلّا أثاث بيته، فنزع الرفوف وكسرها هي والموائد والكراسي وأطعمها النار، فصرخت امرأته بالويل والحرب، ونادت الجارات قائلة هَلْمُمْنَ لمعونتي على هذا المجنون، وهاك كلام بالسي نفسه، وهو مأخوذ من الصفحة 315 من الكتاب المدعو «أعمال بالسي في صناعة الخزف»، المطبوع في باريز سنة 1844؛ قال «وإذ أعوزني الوقود اضطررت أنْ أحرق سياج جنينتي، ثم موائد بيتي، وكنت في ضيقة لا أستطيع وصفها من شدة ما اعتراني من التعب وحرارة الأتون، ومضى عليّ شهر لم يجف قميصي فيه، وعوضاً عن أن أُعزّى كنت أُعَبَّر، حتى إن الذين كان يجب عليهم أنْ يساعدوني كانوا يجولون في المدينة، ويقولون إنه أحرق أثاث بيته، فثلموا صيتي وحمّقوني في عيون القوم، وقد اتهمني البعض بسك النقود الزائفة فآلمني ذلك كثيراً، حتى كنت إذا مشيت في الشوارع أمشي مطرق

الرأس كمن ارتكب نقيصة ... ولم يُعنّي أحد من الذين حولي بل استهزءوا بي، قائلين: لا بأس إذا مات جوعاً فإنه أهمل صناعته، وكنت أسمع هذه الأقوال وأنا مارٌّ في الشوارع».

ومع كلّ ذلك لم ينثن عن عزمه، بل دام على هذه الحال بضعة أشهر إلى أنْ أخذ التعب والأرق منه كلّ مأخذ، وكاد يهلك جوعاً، وحينئذ ذاب الدهان، فأخرج الآنية سنجابية اللون، وتركها حتى بردت فإذا بها مكسوّة قشرة زجاجية بيضاء، فصدق فيه المثل القائل من تأنى نال ما تمنَّى.

فاستأجر حينئذ فخاريّاً ليصنع له آنية بحسب إرشاده، وصنع بيده أشكالاً من الخزف قاصداً أنْ يدهنها بالدهان الذي اكتشفه، فبقي عليه أنْ يجد من يعوله هو وعائلته ريثما تكمل الآنية وتباع، ولحسن الاتفاق بقي له في سنتس صديق واحد يعتقد باستقامته، ولو لم يعتقد بسداد رأيه، وهو صاحب فندق، فاتفق معه على أنْ يعوله ستة أشهر، وأمّا الفخاري الذي استأجره فأعطاه قسماً من ثيابه بدلاً عن أجرته، فعرّى جسده من الثياب، كما عرّى بيته من الأثاث.

ثم بنى أتوناً على شكل منتظم، ولسوء حظّه بطّن قسماً منه بحجارة صوانية، فحالما أضرم النار فيه تشظّى الصوان وطارت شظاياه إلى الآنية، وحينما تمّ شيُّها وأُخرجت من الأتون، كان الدهان ذائباً عليها حسب بغيته، إلّا أنه كان مخمشاً ومشققاً مما لحقه من الصوان فخسر تعب ستة أشهر، لكنّ الناس أقبلوا عليه راغبين في ابتياعها فلم يبعهم إياها زاعماً أن ذلك يثلم صيته.

ومما قاله في وصف حالته حينئذ الكلام الآتي: «إني مع كل ما

ألـمّ بـي لـم يـزل رجائـي قويّـاً وأملـي وطيـداً، أبـشُّ فـي وجـوه النـاس إذا زارونـي، وأطايبهـم فـي الـكلام وقلبـي مـلآن كآبـة وغمّـاً، وأصعـب مـا قاسـيت تهكـم أهـل بيتـي علـيّ واسـتخفافهم بـي، وكانـت أُتنـي مكشـوفة سـنوات عديـدة، وأنـا واقـف أمامهـا تحـت رحمـة العواصـف والأمطـار بـلا معيـن ولا مسـلّ، سـوى مـواء القطـاط وهريـر الـكلاب، حتـى إذا ثـارت الزوابـع وتعـذّر علـيّ القيـام أمامهـا، هرولـت إلـى بيتـي مبلـلاً بالأمطـار، ملطخـاً بالأوحـال، مترنحـاً مـن النعـاس ترنح السـكران، فـلا أرى فيـه غيـر الملامـة والتعييـر، وإنـي حتـى السـاعة لأعجـب مـن بقائـي حيّـاً مـع كلّ مـا قاسـيت».

ويقـال إنـه أصيـب حينئـذ بمالنخوليـا شـديدة، فهـام علـى وجهـه فـي القفـار القريبـة مـن سـنتس بثيـاب أخـلاق كأنـه هيـكل مـن عظـام، ومـا زال أهلـه وجيرانـه يعيّرونـه ويسـتهزئون بـه، حتـى رجـع إلـى صناعتـه الأولـى ولازمهـا بجـدّ نحـو سـنة مـن الزمـان، فأصلـح شـأنه وسـكّت عنـه ألسـنة النـاس، ثـم عـاد إلـى دهـن الخـزف، ولـم يـزل يجـرب فيـه ويمتحـن، حتـى أتقنـه غايـة الإتقـان فـي مـدة ثمانـي سـنوات، بعـد أنْ أضـاع فـي اكتشـافه عشـر سـنوات. وبرع فيـه بكثـرة المزاولـة والاختبار، جامعـاً ثمـار المعرفـة مـن فيافـي الفشـل، فتعلّـم فـي مدرسـة الاختبـار ماهيـة الدهـان والأتربـة الصالحـة لـه وكيفيـة بنـاء الأتـن. وبعـد أنْ مضـى عليـه سـت عشـرة سـنة يتعلّـم فـي مدرسـة الاختبـار اجتـرأ أنْ يدعـو نفسـه خزافـاً، وصـار يبيـع مصنوعاتـه بقيمتهـا، ويعـول عائلتـه بالسـعة، ولكنـه لـم يكتـف بمـا وجـده، ولـم يفتُـر عـن بـذل الهمّـة فـي تحسـين هـذه الصناعـة وإيصالهـا إلـى أسـمى درجاتهـا؛ فـدرس الكائنـات الطبيعيّـة لكـي يرسـم أشـكالها علـى مصنوعاتـه، وقـد شـهد لـه بيفـون الشـهير أنـه كان مـن البارعيـن فـي علـم التاريـخ الطبيعـي، ومصنوعاتـه تُعـدُّ الآن

من التحف النادرة، وتباع بأثمان تكاد تفوق التصديق؛ فإنه بيع في لندن منذ سنين قليلة صحفة من عمله، قطرها اثنتا عشرة بوصة بمائة واثنين وستين جنيهاً إنكليزية، وجميع النقوش التي على مصنوعاته منقولة عن صور الحيوانات والنباتات التي في جوار سنتس، وهي في غاية من الإتقان رسماً ووضعاً.

ولم تنته مصائب بالسي هنا؛ لأنه كان من طائفة البروتستانت التي ثار عليها الاضطهاد في جنوبي فرنسا في ذلك الحين، وكان جسوراً لا يجزع من بث آرائه، فقام عليه خصومه وطرحوه في سجن بُردو، ودخل أهل الفتنة معمله وكسّروا كلّ ما فيه من الآنية، ثم حكم عليه بالحرق، لكن توسّط أمره الكنستابل منمورنسي لا إكراماً له ولا لمذهبه بل لأنه لم يكن حينئذ صانع ماهر مثله لعمل بلاط قصره الفاخر الذي كان آخذاً في إقامته في أكون، فأخرج له أمراً ملكيّاً يعيّنه مخترعاً له وللملك، فأُنْقذ من محكمة بُردو ورجع إلى سنتس، ولكنه رأى بيته ومعامله مفتوحة منهوبة، ومصنوعاته مكسرة، فنفض غبار سنتس عن رجليه، وانتقل إلى باريز وأقام في التويلري، وكان يعمل للكنستابل ولأم الملك[1].

وألف بالسي في أواخر حياته كتباً كثيرة في صناعة الخزف؛ لكي يعلّم أبناء وطنه هذه الصناعة، ويرشدهم إلى تجنُّب الأغلاط التي وقع هو فيها. وألّف أيضاً في الزراعة وبناء الحصون والتاريخ الطبيعي، وألقى خطباً في هذا العلم الأخير، وكتب في تفنيد التنجيم والكيميا (بمعناها القديم)، والسحر وما أشبه ذلك من

(1) من برهة وجيزة اكتشف رجل مغرم باكتشاف آثار البروتستانت في فرنسا يسمى تشارلس ريد الأفران التي كان بالسي يشوي مصنوعاته فيها واحتفر من هناك عدداً من القوالب عليها رسم وجوه ونباتات وحيوانات ونحو ذلك، وعليها سمة بالسي المعروفة.

الخزعبلات، فأهاج عليه خصوماً كثيرين فاتهموه بالهرطقة، وأودعوه سجن البستل وهو في الثامنة والسبعين، وهددوه بالموت إذا لم يرتد عن مذهبه، لكنه كان متمسكاً به كتمسكه بالتفتيش عن دهان الخزف، فأتى الملك هنري الثالث إلى سجنه، وطلب منه أنْ يرتد عن مذهبه بقوله له أيها الرجل الصالح، إنك خدمت أمي وخدمتني خمساً وأربعين سنة، وقد حميناك في وسط النيران والمذابح، والآن قد ألزمني الشعب وحزب غيز أنْ أتركك في قبضة أعدائك، وغداً تُحرق ما لم ترتد عن مذهبك، فأجابه أيها المولى، أنا مستعد أنْ أضحي بحياتي لأجل مجد الله، ولقد قلت لي مراراً كثيرة إنك تشفق عليّ، وأنا أقول لك الآن إني أشفق عليك أنت الذي قلت قد ألزمني الشعب، فإن كلامك هذا ليس كلام ملك، أما أنا فلا أنت ولا شعبك ولا أحد يقدر أنْ يثني عزمي، وإني أعلم كيف أموت. وحسبما قال مات؛ مات شهيداً ولكن ليس حرقاً، بل في السجن بعد أنْ سجن فيه نحو سنة، وهكذا انقضت حياة هذا الرجل الذي لا يضارعه أحد في الهمة والاستقامة والإقدام.

الرجل الثاني جون فردريك بُتغر مكتشف صناعة الخزف الصيني الصلب؛ وُلد هذا الرجل في شليتز سنة 1685، ولما بلغ الثانية عشرة وُضع عند صيدلاني في برلين، فأظهر من صغره رغبة شديدة في الكيمياء؛ فكان يقضي أكثر أوقات العطلة في التجارب الكيمياوية، وجلّ مقصده اكتشاف الإكسير الذي يزعم أهل الكيمياء القديمة أنه يحيل كل المعادن إلى ذهب، وبعد مضي بضع سنوات ادّعى أنه اكتشف هذا الإكسير وصنع به ذهباً، ويقال إنه امتحن ذلك أمام معلمه الصيدلاني وجماعة من الشهود، واحتال عليهم حتى أقنعهم جميعهم أنه صيّر النحاس ذهباً.

وانتشر خبره في الآفاق، وتقاطر إليه الناس من كلّ فجّ عميق، ملقبين إياه «بطابخ الذهب»، حتى إن الملك رغب في رؤيته والتكلم معه. وعُرضت قطعة من الذهب التي زعم أنه حوّلها من النحاس على فردريك الأول، فحدثته نفسه بعمل ما لا يقدّر من الذهب ولا سيما أن خزينة بروسيا كانت محتاجة إلى النقود حينئذ، فعزم على وضع بتغر في حصن سبندر ليعمل له الذهب فيه، ولما بلغ بتغر ذلك خاف من الفضيحة، وهرب إلى سكصونيا، فعيّن الملك ألف ريال لمن يأتي به، ولكن مسعاه خاب لأن بتغر دخل سكصونيا وطلب حماية منتخبها فردريك أوغسطس الأول، الملقب بالقوي ففرح به جدّاً لأنه كان محتاجاً إلى النقود احتياجاً شديداً، وأرسله سرّاً إلى درسدن مصحوباً بحرس ملكي، وعندما خرج من وتنبرج جاءت فرقة من الفرسان البروسيانيين وطلبت أنْ يُسلّم صانع الذهب ليدها، فأُوصل إلى درسدن وأُنزل في البيت الذهبي، وعُومل بكلّ نوع من الإكرام إلّا أنه كان عليه حرس شديد.

ونحو ذلك الوقت اضطرَّ المنتخب أنْ يذهب إلى بولونيا، فكتب إلى بُتغَر يطلب منه أنْ يفشي له سرَّ عمل الذهب، فبعث إليه بتغر بخنجر ملآن من سائل يضرب إلى الحمرة زاعماً أنه يصير كلّ المعادن ذهباً إذا كانت ذائبة، فأخذ البرنس فرست فن فرستنبرغ هذا الخنجر ومعه كتيبة من الحرس، وأتى به إلى ورسو، فعزم المنتخب أنْ يجرب ذلك على الفور، ودخل هو والبرنس إلى غرفة سرية وأتزرا بمئزرين من الجلد، وأخذا في صهر النحاس، فلما ذاب سكبا عليه من سائل بتغر فلم يتغير، وكان بتغر قد سبق؛ فقال إن ذلك لا يتم إلّا بنقاوة القلب، أمَّا المنتخب فكان قد قضى ليله مع أناس أشرار، فنسب عدم نجاحهما إلى ذلك، فاعترف ونال

الحلة، ثم عاودا الامتحان في اليوم الثاني فلم ينجحا، فغضب غضباً شديداً، وعزم أنْ يجبر بتغر على إفشاء هذا السر له ظنّاً منه أن ذلك هو السبيل الوحيد لتخليصه من الإفلاس، ولما بلغ بتغر قصد المنتخب عزم على الفرار فتغفَّل الحراس وفرَّ هارباً، وبعد مسير ثلاثة أيام وصل إلى أنس في النمسا؛ حيث ظن نفسه آمناً، فتأثَّره رجال المنتخب، وقبضوا عليه وهو نائم، ورجعوا به إلى درسدن رغماً عن مقاومته واستغاثته بالنمسا، ومن ثمَّ أُقيم عليه حرس شديد.

ثم نُقل إلى حصن كونجستين المنيع، وقيل له إن الخزينة فارغة من النقود، وإن عشر كتائب من البولونيين لم يُدفَع لها شيء من رواتبها وهي منتظرة ذهبه، ثم زاره المنتخب بنفسه، وتكلم معه بشأن الذهب، وهدده بالقتل إنْ لم يعمل له ذهباً.

ولكن مرّت السنون، ولم يعمل ذهباً ولم يُقتل، بل حفظت حياته لكي يكتشف شيئاً أنفع من تحويل النحاس إلى ذهب، وهو تحويل التراب إلى خزف صيني، فإن البرتوغاليين كانوا قد جلبوا آنية صينية من بلاد الصين، وكانت تُباع في أوروبا بأكثر مما يعادل ثقلها ذهباً، وقد وجَّه أفكار بتغر إلى هذا العمل العظيم كيماوي شهير يُسمَّى ولترفون تشرنهس، وكان هذا الرجل مشهوراً بعلمه ومحترماً جدّاً في عيني البرنس فرستنبرغ وفي عيني المنتخب، فقال ذات يوم لبتغر إذا لم تقدر أنْ تصنع الذهب فاصنع شيئاً آخر؛ اصنع خزفاً صينيّاً، فكان لكلامه وقعٌ عند بتغر، فأخذ من تلك الساعة يجرب ويمتحن عساه أنْ يجد المواد التي يصنع منها الخزف الصيني، ودام على ذلك زماناً طويلاً على غير نتيجة، وأخيراً أتاه رجل بقليل من الطين الأحمر ليعمل منه بواتق، فوجد

أنـه إذا عُـرّض لدرجـة عاليـة مـن الحـرارة تحـوّل إلـى مـادة شـبيهة بالزجـاج، وصـار كالخـزف الصينـي إلّا فـي اللـون والشـفافية.

وهـذا هـو الخـزف الصينـي الأحمـر وقـد اكتشـفه اتفاقـاً، ومـن ثـمّ أخـذ يصطنعـه بكثـرة، ويبيعـه كالخـزف الصينـي، إلّا أنـه كان يعلـم أن اللـون الأبيـض ضـروري لـه، ولذلـك لـم ينفـك عـن الامتحـان آمـلاً أن يعثـر عليـه، فمضـى سـنون كثيـرة ولـم يبلـغ مـراده، وأخيـراً أعانتـه الصدفـة فاكتشـف الصينـي الأبيـض، وذلـك أنـه كان يلبـس لمّـة مـن الشـعور العاريـة حسـب عـادة تلـك الأيـام، فوجـد ذات يـوم أن لمتـه أثقـل مـن المعتـاد، فسـأل خادمـه عـن السـبب، فأجابـه: إن ذلـك مـن ثقـل المسـحوق الموضـوع بيـن الشـعر، وكان هـذا المسـحوق نوعـاً مـن التـراب، فخطـر علـى بالـه حينئـذ أنـه ربمـا كان نفـس التـراب الـذي يُصنـع منـه الصينـي. وهكـذا كان لأن هـذا التـراب كان محتويـاً علـى الكاولـين، الـذي هـو تـراب الخـزف الصينـي، وكانـت النتيجـة مـن هـذا الاكتشـاف أنفـع مـن اكتشـاف الإكسـير بمـا لا يُقـدّر.

وفـي أكتوبـر مـن سـنة 1707، أهـدى إلـى المنتخـب أول قطعـة مـن الخـزف الصينـي، فسـرّ بهـا المنتخـب سـروراً جزيـلاً، وأمـر أنْ يُقـدّم لـه كل مـا يلزمـه لإتقـان اختراعـه هـذا، فاسـتخدم خزّافـاً ماهـراً وشـرع فـي عمـل الخـزف الصينـي، وحينئـذ أهمـل الكيميـاء وكتـب علـى بـاب معملـه مـا ترجمتـه:

قـد عاضنـي اللـهُ العظيـمُ الجبَّـار مـن صنعـة النضـار صُنْـعَ الفخَّـار

إلّا أنـه كان لـم يـزل تحـت الحفـظ الشـديد مخافـة أنْ يفشـي سـره لآخـر أو يفـرَّ مـن قبضـة المنتخـب، وكانـت معاملـه وأُتنـه محروسـة بالجنـود نهـاراً وليـلاً، وعُيّـن لحفظـه سـتة مـن الضبـاط كانـوا مطالبيـن

بـه.

ولمـا رأى المنتخـب نجـاح بتغـر ورواج مصنوعاتـه، عـزم علـى إقامـة معمـل ملكـي مؤمـلاً أنْ يغتنـي بذلـك، كمـا اغتنـت هولنـدا مـن معامـل الخـزف المدهـون (القيشـاني)، فأصـدر أمـراً ملكيّـاً فـي الثالـث والعشـرين مـن فبريـه (شـباط) سـنة 1701 لإقامـة معمـل كبيـر للصينـي فـي البرختسـبرغ، وتُرجـم هـذا الأمـر إلـى اللاتينيـة والفرنسـوية والدنماركيـة، ووزعـه سـفراء المنتخـب فـي كل قصبـات أوروبـا، وفيـه يقـول: إن المنتخـب فردريـك أوغسـطوس قـد نظـر إلـى خيـر سـكصونيا التـي أصابهـا ضـرر كثيـر مـن الغـزوة الأسـوجيَّة، ووجَّـه التفاتـه إلـى الكنـوز التـي تحـت الأرض، وأقـام رجـالاً ماهريـن للبحث فيهـا، فصنعوا لـه نوعـاً مـن الآنيـة الحمـراء أفضـل كثيـراً مـن الخـزف الهنـدي[1]، وصحافـاً ملونـة قابلـة للقطـع والصقـل، وليسـت دون الآنيـة الهنديـة، وصنعـوا لـه قليـلاً مـن الخـزف الأبيـض وهـو يرجـو أنهـم سـيصنعون منـه شـيئاً كثيـراً. وختـم هـذا المنشـور بدعـوة الصنَّـاع الأجانـب، ليأتـوا إلـى سـكصونيا وينتظمـوا فـي سـلك العَمَلـة، واعـداً إياهـم بأجـرة كبيـرة وبحمايـة الملـك. ويظهـر مـن هـذا المنشـور أن اختـراع بتغـر كان لـه قيمـة كبيـرة فـي عينـي المنتخـب وعيـون شـعبه.

قـال المؤلفـون الألمـان إن المنتخـب رفـع منزلـة بتغـر كثيـراً لأجـل خدمتـه لوطنـه، وجعلـه مديـراً لـكل معاملـه الصينيـة، ولقّبـه بلقـب بـارون. ولا ريـب أنـه يسـتحق هـذا الإكـرام إلّا أن المعاملـة التـي عاملـه بهـا كانـت تناقـض ذلـك كلّ المناقضـة؛ لأنـه أقـام عليـه اثنيـن جعلهمـا

(1) إن جميع الآنية الصينية واليابانية كانت تدعى في ذلك الوقت هندية، وربما كان ذلك لأنها اتصلت إلى أوروبا من الهند.

مديريـن، وجعـل بتغـر رئيسـاً علـى الخزّافيـن لا غيـر، وحسـبه أسـيراً؛ فكانـت الجنـود حولـه فـي دخولـه وخروجـه، بـل كان يُقفـل عليـه فـي غرفـة حصينـة حينمـا ينـام، فاغتـاظ مـن هـذه المعاملـة، وجعـل يكتـب إلـى الملـك ويتضـرّع إليـه أنْ يرفـق بـه بـكلام يليـن لـه الجمـاد؛ قـال فـي إحـدى رسـائله: إننـي أقـف نفسـي لصناعـة الخـزف، وسـأفعل أكثـر ممـا فعـل أيُّ مختـرع كان ممّـن تقدّمنـي، ولا أطلـب منـك إلّا الحريـة. فـأدار إليـه الملـك أذنـاً صمـاء، بـل كان يريـد أنْ يعطيـه كلّ الأمـوال التـي يقترحهـا عليـه، والألقـاب التـي يطلبهـا منـه، أمّـا الحريـة فبخـل عليـه بهـا لأنـه اعتبـره عبـداً لا يُعتـق.

ودام بتغـر علـى ذلـك مـدة طويلـة إلـى أنْ سـئم الحيـاة فعكـف علـى المسـكر واقتـدى بـه أكثـر العملـة، فقامـت بينهـم الخصومـات والمنازعـات، حتـى دعـت الحـال أنْ تأتـي الجنـود مـراراً كثيـرة وتفصـل بينهـم، ولمـا لـم يرتدعـوا سُـجنوا كلهـم فـي البرختسـبرغ، وعُوملـوا معاملـة الأسـرى، وفـي غضـون ذلـك مـرض بتغـر مرضـاً شـديداً وأشـرف علـى المـوت، فأشـفق الملـك أنْ يفقـد هـذا العبـد النافـع، فـأذن لـه أنْ يتنـزه فـي مركبـة، ومعـه بعـض الجنـود لحراسـته فتعافـى قليـلاً، ثـم أذن لـه أنْ يذهـب أحيانـاً إلـى درسـدن، ووعـده بالحريـة التامـة فـي كتـاب كتبـه لـه فـي أبريـل سـنة 1714، ولكـن هـذا الوعـد أتـى بعـد وقتـه لأن بتغـر عـاش بعـد ذلـك سـنين قليلـة فـي الـذل والهـوان عقـلاً وجسـداً مـن تأثيـر السـكر والمـرض والحبـس، وفـي الثالـث عشـر مـن مـارس سـنة 1719 وافتـه المنيـة فحرّرتـهُ مـن سـجنه، ولـه مـن العمـر خمـس وثلاثـون سـنة، فدُفـن ليـلاً فـي مقبـرة جونيـس فـي ميسـن كأنـه كلـب، هـذه هـي سـيرة أعظـم مسـببي غنـى سـكصونيا، وهـذه هـي المعاملـة التـي عُومـل بهـا، والنهايـة التـي وصـل إليهـا.

أمّا معامل الخزف الصيني فكانت سبباً لاتساع ثروة سكصونيا ومنتخبها، فاقتدى به أكثر ملوك أوروبا، وكان الخزف الصيني غير الصلب يعمل في سنت كلود قبل اكتشاف بتغر بأربع عشرة سنة، إلّا أن الصيني الصلب الذي اكتشفه بتغر أفضل منه كثيراً، فأُنشئت له معامل في سڤر سنة 1770، وهو الآن من أعظم ينابيع ثروة فرنسا؛ لأنه أفضل من كلّ ما يُصنع في بقية الممالك.

الرجل الثالث يوشيا ودجود، الخزّاف الإنكليزي، الذي لم تصبهُ مصائب شديدة بمقدار ما أصاب بالسي وبتغر، ولكنه نجح أكثر منهما، ولا سيما أن الزمان الذي نشأ فيه كان موافقاً لنجاحه كما سترى.

بقيت البلاد الإنكليزية حتى أواسط القرن الثامن عشر دون أكثر البلدان الأوروبية صناعة، وكان في ستفوردشير كثير من الخزَّافين، ومنهم بيت ودجود هذا، إلّا أن مصنوعاتهم كانت بسيطة إلى الغاية، فكانت البلاد تجلب خزفها الجيد من دلفت ومن كولون، ثم أتاها خزَّافان من نورمبرج، وبعد أنْ أقاما مدةً في ستفوردشير انتقلا إلى شلسي واقتصرا على عمل الآنية المزخرفة، ولم يكن يُصنَع في كلّ إنكلترا شيء من الخزف الصيني. وأمَّا الآنية البيضاء التي كانت تُعمَل في ستفوردشير فلم تكن بيضاء تماماً بل ذات لون ترابي يضرب إلى الصفرة؛ فهذه كانت حالة صناعة الخزف في إنكلترا لما ولد يوشيا ودجود، وذلك سنة 1730 إلّا أنه لم يمُت حتى غيَّرها تغييراً تامّاً مع أنه لم يعش أكثر من أربع وستين سنة. وباجتهاده ومهارته قامت هذه الصناعة على أسس وطيدة، أو كما قيل في رثائه: إنه حول عمل الخزف من حرفة خشنة لا شأن لها إلى صناعة بديعة، ذات قدر وطائل في تجارة البلاد.

وهـذا الرجـل مـن جملـة الرجـال الذيـن ينبغـون حينـاً بعـد حيـن مـن بيـن عامـة الشـعب، ويعلمونهـم الاجتهـاد بالفعـل لا بالقـول، ولا يقتصـرون علـى ذلـك، بـل يؤثـرون فـي هيئـة المملكـة كلهـا بقدوتهـم فـي الاجتهـاد والثبـات، وهـم دعائـم المملكـة وأركان عزهـا. كان لأبيـه ثلاثـة عشـر ولـداً وهـو أصغرهـم، وكان أبـوه خزَّافـاً وكذلـك جـده وأخـو جـده، ومـات أبـوه وتـرك لـه ميراثـاً يسـاوي عشـرين جنيهـاً فقـط وهـو فـي الحاديـة عشـرة مـن عمـره، وكان يتعلـم القـراءة فـي مدرسـة صغيـرة، فأُخـذ منهـا ووضـع عنـد أخيـه الأكبـر ليعمـل معـه فـي صناعـة الفخَّـار، وبعـد مـدة قصيـرة أصيـب بالجـدري، ونشـأ عـن الجـدري مـرض فـي ركبتـه اليمنـى كان يخطـر عليـه مـرة بعـد أخـرى، حتـى اضطـرَّ إلـى بترهـا. قـال كلادسـتون فـي ترجمـة ودجـود التـي تلاهـا فـي برسـلم: «لا يبعـد أن مـرض رجلـه كان سـبباً لشـهرته؛ لأنـه منعـه عـن اسـتعمال كلّ أعضائـه، وبالنتيجـة مـن أنْ يكـون عامـلاً نشـيطاً كغيـره مـن العمَّـال الإنكليـز، فاضطـرَّ أنْ ينصـبَّ علـى أمـر آخـر فأعمـل فكرتـه فـي سـر صناعتـه، فبلـغ مـا لـو بلغـه خـزاف آثينـي لحسـدته عليـه المسـكونة».

ولمـا تعلَّـم ودجـود هـذه الصناعـة مـن أخيـه اشـترك مـع إنسـان آخـر وأخـذا يصنعـان نُصُبـاً للسـكاكين وصناديـق وغيرهـا مـن الأدوات، ثـم تركـه واشـترك مـع إنسـان آخـر يصنـع قناديـل وعلبـاً للسـعوط ومـا أشـبه، ولكنـه لـم ينجـح كثيـراً، وسـنة 1759 فتـح معمـلاً خاصّـاً بـه فـي برسـلم، وأخـذ يعمـل فـي صناعـة الخـزف بنشـاط، وكان جـلُّ مقصـده أنْ يصنـع آنيـة أفضـل مـن الآنيـة المصنوعـة فـي ستفوردشـير؛ هيئـة ولونـاً ودهانـاً ومتانـة، ولذلـك أكـبَّ علـى درس الكيميـاء فـي أوقـات العطلـة، وامتحـن امتحانـات كثيـرة فـي الدهـان والمذوبـات وأنـواع الأتربـة، وكان لـه حـذق شـديد ونظـر دقيـق؛ فلاحـظ أن نوعـاً مـن

التراب الأسود المحتوي على السلكا يبيضُّ بالتكليس في الأتون، وبعد أنْ لاحظ هذا الأمر ودقَّق فيه النظر، استنتج أنه إذا مُزجت السلكا بتراب الخزف الأحمر ابيضَّ مزيجهما بالتكليس، وهكذا كان؛ فلم يبقَ عليه سوى أنْ يدهن هذا الخزف بدهان إذا ذاب صار شفافاً، فيحصل على ما يماثل الصيني، أو على الصيني نفسه، أو ما سُمي فيما بعد بالخزف الإنكليزي، وفُضّل على كلّ ما سواه.

ووجد صعوبات كثيرة في أُتُنه مثل بالسي، إلّا أنها لم تطل كما طالت صعوبات ذاك، بل تغلَّب عليها سريعاً، وذلك بالامتحانات المتتابعة، والمواظبة الدائمة، والفشل المتواتر لأنه كثيراً ما كان يضيع تعب شهر في يوم واحد، وبعد امتحانات كثيرة وإضاعة الكثير من الوقت والمال والتعب، عرف نوعاً مناسباً من الدهان.

ثم أخذ في تحسين هذه الصناعة وانشغف قلبه بذلك، وما زال واضعاً نصب عينيه إيصالها إلى الدرجة العليا، حتى بعد أنْ صار يصنع كثيراً من الآنية البيضاء والحمراء، وراجت مصنوعاته في إنكلترا وأوروبا؛ فأنشأ فرعاً عظيماً من الصناعة الإنكليزية وأقامه على دعائم راسخة، وكان يقول إن ترك عمل الشيء أفضل من عمله عملاً غير متقن، فذاع صيته في الآفاق واقتدى به كثيرون.

وكان لودجود مساعدون كثيرون من أولي المقام والسيادة، ومن الصنَّاع الحاذقين أيضاً، فعمل للملكة تشرلوت آنية المائدة الملكية الأولى من الخزف الذي لُقّب فيما بعد «خزف الملكة»، فلُقّب خزَّافاً ملكيّاً، واعتبر هذا اللقب أكثر مما لو لقب أميراً، وكثيراً ما كان يُسلَّم آنية صينية فيصنع مثلها تماماً، الأمر الذي أدهش الجميع، وأعاره السر وليم هملتون آنية قديمة من هركولانيوم فعمل

مثلها. ولما عرضت القارورة البربرينية للمبيع دفع بها ألفاً وسبعمائة جنيه إنكليزي، فدفعت أميرة بُرتلند ألفاً وثمانيمائة جنيه وابتاعتها بهذا الثمن الفاحش، ولكنها لما علمت أن قصده تمثيلها أعارته إياها، فصنع خمسين قارورة مثلها أنفق عليها ألفين وخمسمائة جنيه، وباعها بأقل من ذلك ولكنه نال غايته؛ إذ أثبت أن كلّ ما عملته الأمم لا تعجز عنه اليد الإنكليزية، وكأنه كان يتمثل بقول المتنبي القائل:

تُحَقِّرُ عندي هِمَّتِي كُلَّ مَطْلَبٍ وَيَقْصُرُ فِي عَيْنِي الْمَدَى المُتَطاوِلُ

وكان لودجود مشاركة في الكيمياء وعلم الآثار القديمة، ومهارة تامة في صناعة الأيدي، فاستخدم كلّ ذلك لصناعة الخزف، واستخدم أيضاً نقَّاشاً ماهراً لعمل الأشكال والصور الجميلة، فصارت أشكال مصنوعاته وسيلة لإحياء صناعة النقش القديمة بين قومه، وتمكَّن أيضاً بواسطة الدرس والامتحان من كشف صناعة تلوين الخزف التي كانت مفقودة حينئذ، بل كانت قد فقدت من أيام بلونيوس، وخدم العلم خدمة نصوحاً وخلد ذكره بالبيرومتر الذي اخترعه، وكانت له يد طائلة في كلّ مصلحة تؤول إلى خير البلاد؛ فهو السبب في فتح ترعة ترنت ومرسي من شرقي الجزيرة إلى غربيها، وما زال يزداد شهرة ومقاماً حتى صارت معامله في برسلم واتروريا نادياً يتقاطر إليه مشاهير الزوار من كلّ أقطار أوروبا.

ونتيجة أتعاب هذا الرجل أن الصناعة التي شرع فيها، وهي في حالة دنيئة جدّاً، صارت من أهم صنائع إنكلترا، وصارت إنكلترا تصنع من الخزف ما يزيد على حاجتها، فترسله إلى البلدان البعيدة التي كانت تجلب خزفها منها، وراج خزفها في تلك البلدان رغماً

عـن المكـوس الباهظـة التـي كانـت تُضَـرب عليـه. وأثبـت للبرلمنـت بعـد أنْ ابتـدأ فـي عملـه بنحـو ثلاثيـن سـنة، أنـه بعـد أنْ كانـت هـذه الصناعـة فـي حالـة دنيئـة جـدّاً، وكان يعمـل فيهـا رجـال قلائـل فقـراء الحـال، وأكثرهـم فـي حالـة يرثـى لهـا مـن الجهـل والمسـكنة، صـار نيـف وعشـرون ألـف شـخص يعيشـون منهـا مباشـرة، هـذا فضـلاً عـن عـدد لا يُحصَـى مـن الحفاريـن والفحاميـن، والذيـن ينقلـون الآنيـة بـرّاً وبحـراً، والذيـن يتجـرون بهـا. وكان يـرى أن هـذه الصناعـة لـم تـزل فـي طفوليتهـا، وأن مـا أصلحـه فيهـا لا يحسـب شـيئاً فـي جنـب مـا تحتملـه مـن الإصـلاح بتقـدُّم صنّـاع الانكليـز واجتهادهـم وتنشـيط دولتهـم لهـم. وقـد تحقّـق قولـه تمامـاً، والشـاهد علـى ذلـك أنـه صـدر مـن بلادهـم سـنة 1852 مـا ينيـف علـى أربعـة وثمانيـن ألـف ألـف إنـاء خـزف، وهـذا التقـدم العظيـم لا يُحسـب شـيئاً إذا قوبـل بتقـدم الصنّـاع أخلاقـاً وآدابـاً؛ لأنـه لمـا باشـر ودجـود عملـه فـي ستفوردشـير كانـت ستفوردشـير فـي الحالـة الهمجيّـة، وكان أهلوهـا قليلـي العـدد، فقـراء أغبيـاء، وحالمـا تثبتـت معاملـه صـار فيهـا عمـل كاف لثلاثـة أمثالهـم بأجـرة عاليـة، وتحسـنت أخلاقهـم وآدابهـم بمواظبتهـم علـى عملهـم.

فهـؤلاء الرجـال؛ أي بالسـي وبتغـر وودجـود وأمثالهـم خليقـون بـأن يدعـوا قـادة أهـل الصناعـة بـل جبابـرة التمـدن لأن صبرهـم وثباتهـم فـي وسـط التجـارب والمصاعـب، وشـجاعتهم وجَلَدهـم فـي مسـاعيهم المجيـدة ليسـت أقـل مـن بسـالة الجنـود الذيـن يقـوم مجدهـم بالمدافعـة عمَّـا عملـه أربـاب الصنائـع.

الفصل الرابع
في المزاولة والثبات

قال دافانان: الغني من إذا انهار الرمل من ساعته الرملية انحنى وجمع رملها حبة حبة، كأنه يزر الكواكب.
وقال ده لمبر: تقدمْ والإيمان يتبعك

أكثر الأعمال العظيمة تمَّت بالوسائل البسيطة، وباستخدام القوى العادية، وفي سبيل الحياة العام فُرصٌ كثيرة للاختبار، بل إنَّ طرق الحياة المطروقة أكثر من غيرها تولي المجتهد قوة كافية ليسعى في إصلاح شأنه، والنجاح منوط بناصية الثبات والإقدام؛ فأكثر الناس ثباتاً وإقداماً أكثرهم نجاحاً.

وكثيراً ما لام الناس السعد، وعدُّوه أعمى وما العمي إلّا هم؛ فإنَّا إذا أمعنا النظر في أحوال أهل الأعمال رأينا أنَّ السعد لأكثرهم اجتهاداً، كما أنَّ الرياح والأمواج توافق الربان الماهر. بل إنَّ أسمى مطالب البشر يمكن البلوغ إليها باستخدام القوى العادية كالانتباه والاجتهاد والمواظبة، ولا لزوم لما يسمونه قريحة أو عبقرية أو موهبة فائقة. على أنَّ القريحة وإنْ كانت من أسمى القرائح لا تنافي القوى العادية ولا تزري بها. وأعظم الناس شأناً أقلهم إركاناً إلى القرائح، وأكثرهم مزاولة لأعمالهم، ومنهم مَن عرَّف القريحة بأنها ملكة قوية من الملكات العادية؛ قال أحد رؤساء المدارس: إنها قوة

السعي، وقال جون فُستر: إنها قوة يضرم بها الإنسان ناره، وقال بيفون الشهير: إنها هي الصبر.

لا يخفى أنَّ إسحق نيوتن كان من ذوي العقول الثاقبة، ولكنه سُئل مرة بماذا اكتشفت كلَّ هذه الاكتشافات الفائقة فأجاب: «بالتأمل المستمر فيها». ووَصَف في مكان آخر أسلوب بحثه، فقال: «إني أضع الموضوع نصب عيني وأنتظر حتى يبزغ فجره ويصير نوراً كاملاً». ولم ينل ما ناله من الشهرة إلّا بالاجتهاد والمواظبة مثل غيره من المشاهير، بل إنه كان إذا تعب من الدرس في علم من العلوم يستريح بإبداله بدرس علم آخر. وقال مرة للدكتور بنتلي «إنْ كنتُ قد خدمت الجمهور بشيء فباجتهادي وجَلَدي»؛ فما أشبه ذلك بما قاله الفيلسوف كبلر الفلكي المشهور باكتشاف القواعد الثلث التي هي أساس الفلك، وهو أنَّ تمعُّني في دروسي يجعلني أواصل التفكر في مواضيعها إلى أنْ أغوص في لججها بكل قوى عقلي.

لما رأى بعض المشاهير أن الاجتهاد والثبات أنتجا نتائج خارقة العادة، ارتابوا في وجود ما يُسمَّى قريحة أو عبقرية أو موهبة خاصة؛ قال فُلتير: إنَّ الحد الفاصل بين مَن له قريحة ومن ليس له يكاد لا يُرى، وقال بگاريا: إنَّ كل الناس يستطيعون أنْ يكونوا شعراء وخطباء، وقال رينلدز: إنه يمكن لكل أحد أنْ يصير مصوراً ونقَّاشاً، وقال وهلفيتيوس وديدرو ولك إنَّ كل الناس قابلون لأن يَسمُوا بالقرائح على حدٍّ سواء، وأنَّ ما يفعله البعض بواسطة عقولهم يجب أن يقدر غيرهم على فعله إذا استخدموا الوسائط التي استخدمها أولئك، إلّا أنه، وإنْ يكن، كلُّ شيء منوط بالاجتهاد، حتى إنَّ أُولي القرائح هم أكثر الناس اجتهاداً وسعياً، فلا يسعنا أنْ ننكر أنه ما لم يكن للإنسان قريحة فطرية فائقة لا يقدر أنْ يبلغ مبلغ شكسبير، أو نيوتن،

أو بيتوفن، أو ميخائيل أنجلو مهما جدَّ واجتهد.

إنَّ دَلتون الكيماوي أنكر أنَّ له شيئاً من المواهب الفائقة، ونسب كلَّ ما حصَّله إلى السعي والاجتهاد، وجون هنتر قال «إنَّ عقلي كقفير النحل يظهر مملوءاً من الطنين والارتباك، ولكنه مملوءٌ أيضاً من الهدوء والنظام، والطعام المجلوب من أفخر منتخبات الطبيعة باجتهاد جزيل». وإذا التفتنا إلى ترجمات مشاهير المخترعين والمؤلفين والصنَّاع من كلِّ نوعٍ، ولو لفتة واحدة، رأينا أنهم بلغوا ما بلغوا بجدهم واجتهادهم، وحوَّلوا كلَّ شيء ذهباً حتى الوقت نفسه. وقد ارتأى دزرائيلي الكبير أنَّ نجاح الإنسان يقوم بامتلاكه ناصية الموضوع الذي يبتغي النجاح فيه، ولا يحصل ذلك إلّا بالدرس والانصباب الدائمَينِ؛ فينتج مما تقدم أنَّ الرجال الذين حرَّكوا الدنيا بأسرها لم يكونوا من ذوي المواهب الفائقة، بل كانت قواهم العقلية معتدلة، ولكنهم كانوا من أهل الجلد والثبات، وكثيراً ما سبق البلداءُ الأذكياءَ في ميدان الحياة لأنهم كانوا أكثر منهم مواظبة؛ قال المثل الإيطالي: مَن يسر متمهلاً يسر طويلاً.

فالثبات من أول وسائل النجاح، وهو الذي يكمل الأعمال كلها؛ بالثبات نال السر روبرت بيل ما جعله زينةً وفخراً لمجلس الأعيان الإنكليزي، فإنه لما كان صبيّاً كان من عادة أبيه أنْ يقيمه على المائدة ليتكلم ارتجالاً، وعوَّده إعادة كلِّ ما يحفظه من المواعظ التي يسمعها نهار الأحد، وكان نجاحه قليلاً في أول الأمر إلّا أنَّ المواظبة على ذلك قوَّت فيه قوتي الانتباه والذاكرة، حتى صار قادراً على إعادة موعظة كاملة حرفاً حرفاً، ثم لما دخل البرلمنت، وكان يفند أدلة أضداده واحداً واحداً ببلاغة تفرَّد بها، قلَّ مَن ظن أنَّ تلك الحافظة الفريدة التي فاق بها أقرانه قد اكتسبها بإرشاد

أبيه له وهو حدَث.

وما أعجب ما تفعله المزاولة حتى في الأمور البسيطة؛ فاللعب على الكمنجة يظهر في بادئ الرأي أمراً سهلاً، لكنه يقتضي مزاولة طويلة متعبة جدّاً؛ قيل إنَّ شاباً قال لجِيَرْديني: في كم من الزمان أتعلم اللعب على الكمنجة؟ فأجابه: في عشرين سنة إذا مارسته اثنتي عشرة ساعة كلَّ يوم. ومن يجهل مقدار العناء الذي يعانيه الممثلون قبلما يتمكنون من التمثيل؛ قيل إنَّ تَغْلِيوني الشهيرة كانت قبلما تمثل شيئاً تمارسه ساعتين متواليتين، وعندما تنتهي الساعتان يغمى عليها من شدة التعب، فتجرَّد من ثيابها وترشُّ بالماء والمنعشات، وكان يصيبها مثل ذلك أيضاً عندما تنتهي من التمثيل.

والارتقاء في سلَّم النجاح أمر بطيء جدّاً، والنتائج العظيمة لا يبلغها الإنسان دفعة واحدة؛ فعلى كل أحد أنْ يقنع بالارتقاء المتدرج، قال ده مايستر: إنَّ سر النجاح هو أنْ يعرف الإنسان كيف يتوقع النجاح بالصبر؛ فعلى الإنسان أنْ يزرع قبل أنْ يحصد، وكثيراً ما يضطرُّ أن يصطبر وقتاً طويلاً قبلما يصل إلى الحصاد، وأفضل الأثمار أبطؤها نضجاً؛ قال الشاعر:

مَنْ جَعَلَ الصَّبْرَ فِي مَقَاصِدِهِ وَفِي مَرَاقِيهِ سُلَّماً سَلِمَا

وقال الآخر:

لأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْأُدْرِكَ الْمُنَى فَمَا انْقَادَتِ الآمَالُ إِلَّا لِصَابِرِ

ولا يستطيع الإنسان أنْ يتوقع بلوغ أمانيه بالصبر ما لم يجتهد في بلوغها عن طيب نفس، والاجتهاد وطيب النفس تسعة أعشار الحكمة، وهما حياة النجاح وروحه، وما من لذة في الدنيا أتم

من لذة العامل بعمله إذا كان عمله عن طيب نفس. قيل إنَّ سدني سمث الشهير لما كان كاهناً في إحدى القرى لم يحسب نفسه؛ عاملاً في العمل الذي يصلح له، لكنه أخذ فيه بسرور عازماً أنْ يبذل فيه جهده؛ فقال: «قد صممتُ على أنْ أحب هذا العمل وأوفق نفسي له؛ فذلك خير من الترفع عليه والتذمر منه»، ومما يماثل ذلك قول الدكتور هوك، عندما انتقل إلى عمل جديد؛ قال: «حيثما أكون فإني سأفعل بقوتي كل ما تجده يدي، وإنْ لم أجد عملاً أوجدت عملاً لنفسي». وعلى المشتغلين بمصلحة الجمهور أنْ يشتغلوا زماناً طويلاً بالصبر لأن كثيرين منهم قد زرعوا زرعهم فغمرته ثلوج الشتاء، وقبلما جاء الربيع وافتهم منيّتهم فمضوا ولم يروا نتيجة تعبهم، وفي مثل هذه الأحوال لا شيء أفضل من الرجاء، ولا شيء يقوم مقامه، فالرجاء أو الأمل هو الذي يشجع الإنسان ويقويه على اقتحام المصاعب؛ قال الشاعر:

أُعَلِّلُ النَّفْسَ بِالآمَالِ أَرْقُبُهَا مَا أَضْيَقَ الْعَيْشَ لَوْلَا فُسْحَةُ الْأَمَلِ

إنَّ كاري المبشر الشهير فاق أقرانه في كثرة أعماله، ولكنه كان دائماً مسروراً، وذلك لرجائه الثابت وأمله الوطيد؛ قيل إنه، وهو في الهند، كان يشغل ثلاثة كتَّاب فأكثر، وكان إذا تعب من عمل وأراد أنْ يستريح يبدله بعمل آخر، وكان معه اثنان، وهما وورد مرشام[1]، وبهمة هؤلاء الثلاثة أقيمت مدرسة كلية في سيرمبور، وستة عشر مركزاً للوعظ، وترجمت التوراة إلى ست عشرة لغة، وصار انقلاب أدبي عظيم في كلِّ الهند الإنكليزية، ومع أنَّ أصل هذا الرجل وضيع كما أشرنا، لم يكن يخجل من ذلك؛ قيل إنه دُعِي مرة

(1) إن كاري ابن سكاف، وورد ابن نجار، ومرشام ابن حائك.

إلى وليمة أولمها الوالي، فسمع وهو على المائدة أحد الضباط يقول لجاره ألم يكن كاري سكَّافاً؛ فأجابه كاري على الفور كلا يا مولاي؛ بل كنت أرقع الأحذية العتيقة. وقيل إنه حاول في حداثته طلوع شجرة فسقط وكُسر رجله، فلازم الفراش إلى أنْ جبرت، وأول ما استطاع النهوض والمشي ذهب إلى تلك الشجرة وطلعها، وما زال ذلك دأبه الذي غلب به كلَّ المصاعب التي حالت دون إتمام مقاصده.

وكان من جملة مبادئ الدكتور ينغ الفيلسوف أنَّ كل إنسان يقدر أنْ يعمل كل ما عمله إنسان آخر، وما أحسنَ ما قاله ابن الوردي:

لَا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهْ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

ومن المعلوم أنَّ ينغ هذا لم يأخذ في عملٍ وأَلَا عنه جهداً؛ روى بعضهم أنه أول ما ركب الخيل ركب فرساً جموحاً وسار بصحبة فارس شهير، فوصلا إلى جدار رفيع فوثب الفارس بجواده من فوقه، فأراد ينغ أنْ يقتدي به فسقط عن ظهر جواده، فركب وحاول ثانيةً فسقط، ولكنه نهض قبلما يصل إلى الأرض، وحاول ثالثة فنجح.

ومما يماثل ذلك الحادثة التي حدثت لأوديبون العالم بالطيور، وقد قص خبرها بقوله: «أصابتني مصيبة أتلفت مئتي رسم من رسوم الطيور التي رسمتها، ولاشت كل أتعابي في هذا الفن؛ فإنني وضعت هذه الرسوم في صندوق، وائتمنت عليه رجلاً من معارفي، بعد أنْ طلبتُ منه أنْ يحترس عليه كلَّ الاحتراس لأني ضمَّنته نتيجة أتعاب سنين عديدة، ثم مضيت لأمرٍ ما وبعد بضعة أشهر رجعت وافتقدت الصندوق الذي كنت أسميه كنزي، ولما فتحته وجدت

ما تتفتَّت له الأكباد؛ لأن كلَّ أتعابي أضحت فريسة لجرذين كبيرين دخلا الصندوق من أحد جوانبه، وقرضا كلَّ ما فيه من الأوراق، وطحناها طحناً، وولدا بينها عائلة كبيرة، فصعد الدم إلى رأسي وأصابتني رجفة ورعدة، وانطرحت على ظهري، ومضى عليَّ أيام عديدة وأنا في سبات عميق، ولما رجعت إلى نفسي أخذت بندقيتي وقلمي وانطلقت إلى الغابات، كأن لم يكن من الأمر شيء، بل كنت مسروراً بأني صرت أقدر أنْ أرسم رسوماً أفضل من الأولى، وهكذا كان؛ لأنه لم يمضِ عليَّ إلّا ثلاث سنوات حتى جمعت بدل كلِّ ما خسرته».

ومن قبيل ذلك ما أصاب أوراق السر إسحاق نيوتن، وذلك أنَّ كلبه رمى عليها شمعة مشتعلة فأحرقتها، ولاشت حسابات كبيرة كان ذلك الفيلسوف قد تعب سنين عديدة في استخراجها، ويقال إنه حزن من جَرْي ذلك حزناً مفرطاً أثَّر في صحته تأثيراً شديداً وأضعف فهمه، ومثل ذلك ما أصاب المجلد الأول من كتاب كارليل في الثورة الفرنسوية؛ فإن رجلاً استعاره ليطِّلع عليه فحدث أنه ألقاه في أرض القاعة ونسيه، وبعد مدة أرسل كارليل في طلبه ليطبعه، فورد إليه الجواب أنَّ الخادمة وجدته مُلقًى على الأرض فظنته رزمة ورق لا منفعة منها، وأخذت تضرم النار به؛ فما أشد ما أصاب كارليل عندما سمع هذا الجواب، ولا سيما لأنه لم يكن عنده شيء من أصله، فالتزم أنْ يجهد ذاكرته ويؤلفه ثانية، وتعب في ذلك تعباً لا يوصف ولا يصدق، ولكنه ألّفه ثانية، وتأليفه له في مثل تلك الأحوال يشهد له بما تفرد به من شدة العزم وعلو الهمة.

ومما يظهر قوة الثبات بأكثر إيضاح سير المخترعين؛ روى

بعضهم أنه كان من عادة جورج ستفنسن أنْ يقول للشبان، عندما ينصح لهم: «افعلوا كما فعلت: أي اثبتوا»؛ قيل إنه بقي يحسِّن في المركبة البخارية التي اخترعها خمس عشرة سنة قبلما تفوز بالسبق، وجمس وط قضى على عمل آلته البخارية ثلاثين سنة قبلما يتمها. وللثبات أمثلة كثيرة مدهشة في كلِّ نوع من العلوم والصنائع، ومن ألذها الحوادث المتعلِّقة باستخراج آثار نينوى، واكتشاف قراءة الكتابات السفينية أو المسمارية المرسومة عليها، بعد أنْ فُقدت قراءتها منذ عصر الإسكندر، أما طريقة اكتشافها فكانت كما يأتي:

كان في قرمان شاه من بلاد فارس جندي إنكليزي اسمه رولنصن من شركة الهند الشرقية، فرأى كتابة سفينية قديمة في جوار قرمان شاه فنسخها، وكان من جملة ما نسخه الكتابة المرسومة على صخر بهستون، وهو شاهق يبلغ ارتفاعه ألفا وسبعمائة قدم، وعلى سفحه كتابات بالفارسية والصقلبية والآشورية، ومن مقابلته المجهول بالمعلوم من هذه الكتابات عرف شيئاً من مجهولها، وركَّب حروفه الهجائية، ثم أرسل رسم ما نسخه إلى إنكلترا لكي يطِّلع عليه رجال العلم ويجيلوا فيه نظرهم، ولم يكن حينئذٍ أحد من أساتذة المدارس الأوروبية يعرف شيئاً من أمر هذه الكتابة، إلّا أنَّ رجلاً اسمه نورس كان قبل ذلك كاتباً عند الشركة المذكورة، وقد انتبه إلى هذه الكتابة وأمعن النظر فيها، ونجح في حلها بعض النجاح، فلما اطِّلع على الرسم الذي رسمه رولنصن وأعمل فيه نظره، قال: إنَّ في نسخه بعض الخطأ، مع أنه لم ينظر صخر بهستون قط، وكان رولنصن لم يزل في جوار ذلك الصخر فراجع الرسم فرأى أنَّ نورس مصيب في تخطئته فأصلحه، ثم قام رجل ثالث اسمه لَيَرْد وأحضر لهما شيئاً كثيراً من هذه الكتابات لكي يتسع بحثهما.

وكان ليرد هذا كاتباً عند محام بلندن، ولما كان له من العمر اثنتان وعشرون سنة طاف في بلاد المشرق قاصداً أنْ يقطع الأراضي الواقعة عبر الفرات، ولم يكن معه سوى رفيق واحد، فمرَّ في وسط قبائل كثيرة متحاربة، ونجا منها بقوة ذراعه، وطلاقة وجهه، وأنس محضره، وعلو همته، فوصل إلى أطلال نينوى ونقبها، واستخرج منها كنوزاً تاريخية جزيلة الفائدة، لم يستخرج مقدارها إنسان واحد قط، ولو وُضِعَت قطعها الواحدة حذاء الأخرى لملأت مساحة ميلين مربعين، فنُقلَت نخبة هذه الآثار إلى لندن، ووُضِعت في محل التحف البريطاني وقُرئت، فإذا بها تتفق اتفاقاً غريباً مع نص التوراة في حوادث جرت منذ ثلاثة آلاف سنة وأكثر، كأنها وحي جديد هبط على البشر، ولم يكتف ليرد باستخراج هذه الآثار، بل ألّف فيها كتاباً جليلاً صادق الرواية، حسن الانسجام، يشهد له بعلو الهمة وعظم الثبات.

ومن الذين كانوا مثالاً في الصبر والاجتهاد بيفون الشهير الذي قال إنَّ الموهبة الفائقة هي الصبر؛ فقد كانت قواه العقلية في حداثته معتدلة بل ضعيفة، وكان كسلان طبعاً عرضة لأن يعيش عيشة الترف؛ إذ كان من ذوي الثروة والوجاهة، إلّا أنه اجتنب الترف في حداثته، ولم يعطِ نفسه هواها، بل أنكر عليها لذاتها، وعكف على الدرس حاسباً الوقت كنزاً محدوداً، ولما رأى أنه يضيع ساعات عديدة لأنه لا يقوم باكراً، عزم أنْ يعتاد على القيام الباكر، وحاول ذلك مراراً فقصَّر عنه، ولم يقدر على القيام في الساعة التي عينها، فاستعان بخادمه ووعده بأن يعطيه ريالاً في كلِّ يوم يُقِيمه فيه قبل الساعة السادسة صباحاً، إلّا أنه كان عندما يدعوه الخادم للقيام يدَّعي أنه مريض أو يظهر الغضب، فلما رأى الخادم

أنه لم يربح شيئاً سوى التوبيخ، عزم على أنْ يكسب الريال على أي وجه كان، فألح عليه يوماً أنْ يقوم فلم يقم، فأتى بماء مثلج وسكبه في فراشه فنهض حالاً، فلما رأى الخادم أنه نجح بهذه الواسطة، واظب على استعمالها إلى أنْ اعتاد سيده على القيام الباكر، وكان يقول إنه مدين لخادمه بثلاثة أو أربعة مجلدات من كتابه في التاريخ الطبيعي.

وبقي العلَّامة يشتغل في الدرس والتأليف إحدى عشرة ساعة كلَّ يوم مدة أربعين سنة، إلى أنْ صار الشغل ملكة راسخة فيه؛ قال مؤرِّخ حياته: «إنَّ الشغل من لوازمه، والدرس من لذات حياته»، ولم يكن يتعب من تهذيب كتاباته؛ فكان ينقّحها مراراً كثيرة لكي يجعل عبارته بسيطة طلية. ومن كتبه ما كتبه إحدى عشرة مرة قبلما يحسبه أهلاً للنشر. وكان مع علوِّ همته كثير الترتيب والتدقيق، ومن قوله: إنَّ القريحة بلا ترتيب تخسر ثلاثة أرباع قوتها، وكل ما حصَّله إنما حصله بتعبه واجتهاده؛ قالت مدام نكر: إنَّ بيفون كان يقول: إنَّ ما يُدعَى قريحة ليس إلّا حصر الفكر في موضوع واحد، وإنه كان يمل عندما يؤلف شيئاً، ولكنه كان يعيد نظره على ما ألفه، ثم يعيده ثانية وثالثة، فيجد في تنقيحه وتهذيبه لذَّة عوضاً عن الملل. ومن المعلوم أنه ألف كلَّ ما ألفه وبه داءٌ أليم من أشد الأدواء المُعرَّض لها الجسم الإنساني، ولله دَرُّ من قال:

أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ وَمُدْمِنِ الْقَرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا

وبين الشعراء والأدباء رجال كثيرون يُتَّخذون أمثلة على الثبات والمواظبة؛ منهم السر ولتر سكوت الشاعر الأسكتسي الشهير، الذي تمرن على العمل وهو كاتب؛ بل ناسخ عند محامٍ، وكان

عمله على نسق واحد فسئمه، وكان مرتبطاً به في النهار وكان حرّاً ليعمل ما يشاء في المساء، فعكف على الدرس والمطالعة، وكان إذا أراد ابتياع كتاب يجهد نفسه في نسخ مائة صفحة أو أكثر فوق المطلوب منه، فيشتري بأجرتها الكتاب المذكور.

وبعد أنْ تقدَّم في السن والشهرة كان يفتخر بكونه كثير العمل، ويناقض القائلين إنَّ أهل المواهب الفائقة لا يُضطَرون إلى إتمام الأعمال العادية وجزم أنَّ القوى العقلية تقوى بتعاطي الأعمال. ولما دخل محكمة أيدنبرج كاتباً كان يصنف من نظم ونثر قبلما يفطر ويقيم بقية النهار في المحكمة، والظاهر أنه كان يشتغل نصف وقته فقط في التصنيف والنصف الآخر في القيام بواجبات منصبه؛ لأنه حكم على نفسه أنْ يحصل معيشته مما يعمله لا مما يؤلفه. وقال ذات مرة: إني عقدت قلبي على أنْ أجعل التأليف قضيباً أمسكه بيدي، والعمل عكازاً أتوكأ عليه، وأن لا أعتمد في معيشتي على ما أربحه من التأليف، ولو كان كثيراً.

وكان التدقيق في حفظ الوقت ملكة راسخة فيه، ولولاه ما أمكنه أنْ يصنِّف كلَّ ما صنفهُ؛ فقد آلى على نفسه أنْ يجيب عن كل كتاب يرد إليه في اليوم الذي يرد فيه، ما لم يكن فيه شيء يقتضي تأخير الجواب، ولولا ذلك ما استطاع أنْ يجيب عن الرسائل الكثيرة التي كانت تَرِد عليه؛ فكان ينهض من فراشه الساعة الخامسة، أي قبل الظهر بسبع ساعات، فيقضي ساعة في الحلاقة واللبس، ويجلس في مكتبه الساعة السادسة وأوراقه وكتبه مرتبة أمامه أكمل ترتيب، فيأخذ في أشغاله إلى أنْ يجتمع أهل بيته للفطور بين الساعة التاسعة والعاشرة، ومع كلِّ جده واجتهاده وعلمه الجزيل الذي هو نتيجة درس سنين كثيرة، لم يكن فيه شيء من الغرور، بل كان

يقول إنَّ جهله كان يعربسه في كلِّ عمل أخذ فيه.

وهذه هي الحكمة الحقيقية والاتضاع الحقيقي؛ لأنه كلما زاد الإنسان علماً قلَّ اعتداده بنفسه. قيل إنَّ أحد الطلبة ذهب إلى أستاذه واستأذنه في الانصراف قائلاً إنه أكمل علمه، أجابه الأستاذ: إني أرى عجباً فيما تقول؛ لأنني أنا أراني قد ابتدأت بالعلم الآن. ومن لم يرتشف إلّا اليسير من بحار المعارف عدَّ نفسه قد بلغ من الحكمة أقصاها، وأمَّا الحكيم الحقيقي فيقر أنه لا يعرف شيئاً، أو يقول كما قال نيوتن: إنه جامع أصداف على شاطئ بحر الحقائق.

وبين المؤلفين الذين يُعَدُّون من الطبقة الثانية كثيرون يُضرَب بهم المثل في الثبات والاجتهاد؛ منهم جون برتون مؤلف كتاب «محاسن إنكلترا وَوِلْس»، وكتب أخرى في فن البناء؛ فإنه ولد في كوخ حقير في كنستون، وكان أبوه خبَّازاً فجُنَّ بسبب خسارة مالية أصابته حينما كان ابنه صغيراً، فوضع عند عمه وهو صاحب خان، فبقي عنده أكثر من خمس سنوات، وعمله صب الخمر في القناني، وساءت صحته فتركه عمه ليهيم على وجهه وفي جيبه جنيهان فقط، وهما أجرة السنوات الخمس التي خدمه فيها، فمضى عليه وهو على هذه الحال سبع سنوات قاسى فيها مشقات لا تُوصَف، إلّا أنه سعى وراء المعرفة فنال منها الحظ الأوفر؛ قال في تاريخ حياته: «إنني كنتُ نازلاً في منزل حقير، ولم أقدر أنْ أشتري وقوداً في ليالي الشتاء فكنتُ أدرس في فراشي»، ثم سافر إلى باث ماشياً، وبعد أنْ أقام فيها برهة رجع إلى لندن حافياً لا قميص على بدنه، ثم وجد عملاً في حان لندن، وكان هذا العمل في دهليز تحت الأرض، فأثَّر في صحته تأثيراً شديداً؛ لأنه كان يعمل فيه عملاً شاقّاً ثماني عشرة ساعة كلَّ يوم فتركه ودخل كاتباً

عند محام، وكان يأخذ خمسة عشر شلناً كلَّ أسبوع لأنه كان قد أتقن الخط فصار يتردد على مخازن الكتب في ساعات الفراغ، ويقرأ ما لا يستطيع ابتياعه من الكتب، فاقتطف كثيراً من ثمار المعرفة، ولما دخل في الثامنة والعشرين من العمر كتب كتاباً سمَّاه «مساعي بيزارو»، ومن ثمَّ عكف على التأليف والتصنيف ودام على ذلك خمسين سنة إلى أنْ أدركته الوفاة. ومؤلفاته المطبوعة تنيف على سبعة وثمانين كتاباً؛ أشهرها كتاب «آثار كنائس لندن» في أربعة عشر مجلداً، وهو تذكار خالد لاجتهاده ومواظبته.

ومنهم لودُن البستاني الذي كان يدرس ليلتين كاملتين كلَّ أسبوع، وهو صانع عند بستاني فتعلم اللغة الفرنسوية، وترجم سيرة أبيلرد قبل أنْ يبلغ الثامنة عشرة، وكان مهما ذُكر حريصاً على النجاح، حتى إنه لما بلغ العشرين من عمره كتب في مفكرته: «الآن قد بلغت السنة العشرين، وربما كان ثلث حياتي قد مضى، فما هو العمل الذي عملته لإفادة بني نوعي؟»، وهذا أمر يستغرب من شاب في هذه السن. وبعد أنْ أتقن الفرنسوية درس الألمانية وأتقنها في برهة وجيزة، واقتنى أرضاً واسعة، واستعمل فيها الإصلاحات الأسكتسية في فن الزراعة فنجح وأحرز ربحاً كبيراً في وقت قصير، ثم ساح في ممالك أوروبا مرتين؛ لكي يطّلع على أحوالها الزراعية، وكتب نتائج سياحته في إنسكلوبيدياه الشهيرة التي جمع فيها من الفوائد ما يقل نظيره.

ومنهم صموئيل درو، وهو ابن فاعل فقير، وكان له أخ أكبر منه يُدعَى جابز، فوضعهما أبوهما في مدرسة صغيرة وكان يدفع عنهما أربعة مليمات كل أسبوع، فأفلح جابز في دروسه وكان هادئاً مجتهداً، وأمَّا صموئيل فلم يفلح، بل كان مشهوراً بطيشه ومحبته

للَّعب، فلما بلغ الثامنة من عمره أخرجه أبوه من المدرسة، ووضعه في منجم قصدير بأجرة ستة مليمات كلَّ يوم، ولما بلغ العاشرة وُضِع عند سكَّاف؛ ليتعلم صناعة السكافة فلقي ما لا يُقدَّر من التعب، حتى إنه عزم مراراً كثيرة على الهرب واتِّباع القرصان، وكان يتقدَّم في الطيش بتقدمه في السن، فاشتُهر بسرقة الجنائن وتهريب الأمتعة، ولما بلغ السابعة عشرة هرب عازماً أنْ يدخل خادماً في سفينة حربية، ولكنه لم ينل مأْربه، ثم انتقل إلى جوار بليموث وشرع يعمل في حرفة السكافة، وبينما هو هناك أوشك أنْ يهلك بسبب التهريب من الجمرك، وقد حمله على ارتكاب ذلك الأمر القبيح محبة اقتحام المخاطر وانتظار الربح، لأنه لم يكن يحصِّل بحرفته أكثر من ثمانية شلنات في الأسبوع. أمَّا تفصيل هذه الحادثة فكما ترى؛ بلغه مرة أنَّ سفينة تجارية أقبلت وقاربت البر، فهرع جميع الرجال الذين صناعتهم تهريب البضائع في فريقين؛

فريق بقي على الشاطئ لينذر بالخطر ويستلم البضائع، وفريق ركب القوارب التي كانت هناك وبينهم درو وكانت الظلمة حالكة جدّاً، وقبل أنْ ينزلوا قسماً كبيراً من الشحن عصفت الرياح وتعالت الأمواج، إلّا أنهم كانوا معتادين اقتحام المخاطر فلم يرعهم ذلك، بل عزموا على تفريغ الشحن كله، وفيما هم كذلك أطارت الريح قبعة أحد رجال القارب الذي فيه درو فمال لكي يمسكه، ففُقدَت موازنة القارب وقُلِب، فغرق ثلاثة من رجاله وأمسك الباقون به، ولكنهم وجدوا أنه أخذ في التوغل بهم في البحر فتركوه وشرعوا في السباحة، وبينهم وبين الشاطئ نحو ميلين، وبعد ثلاث ساعات وصل درو إلى صخر قرب الشاطئ مع ثلاثة من رفاقه وبقوا عليه إلى الصباح حتى كادوا يموتون برداً، فعلم بمكانهم بعض رفقائهم،

فأتوا إليهم وسقوهم شيئاً من البرندي الذي هرَّبوه فأفاقوا.

إلّا أنَّ هذا الإسكاف الذي شبَّ على السرقة وتهريب البضائع صار مبشراً فاضلاً ومؤلفاً بارعاً، وهاك تفصيل ذلك: لمَّا سمع أبوه بما هو عليه أرجعه إلى بيته، فصار يسمع مواعظ الدكتور آدم كلرك، فأثّرت فيه تأثيراً شديداً، ثم مات أخوه فزاد موته في تحويل أفكاره عن الجهل والطيش إلى التعقل والرزانة، وكان قد نسي ما تعلمه في صغره من القراءة والكتابة، فأخذ يدرس باجتهاد وثبات، وبعد تعب سنين عديدة أتقن القراءة والكتابة بعض الإتقان، ثم أخذ يطالع الكتب الكثيرة ويقتبس ما فيها من الفوائد، وممَّا قاله عن حاله حينئذٍ: إنني كلما أكثرت المطالعة كثر شعوري بجهلي، واشتدت رغبتي في المطالعة؛ فكنت أغتنم كلَّ فرصة للدرس، وكان الوقت الذي يمكنني أنْ أدرس فيه قصيراً جدّاً لأني كنت مضطرّاً أنْ أعمل كلَّ النهار لأجل تحصيل ما يقوم بمعيشتي؛ فكنت أفتح كتاباً أمامي وقت الأكل، فأقرأ في وقت كلِّ وجبة نحو خمس صفحات. وفي نحو ذلك الوقت قرأ مقالة الفيلسوف لوك في الفهم فكانت أول باعث على توجيه أفكاره إلى علم ما وراء الطبيعة (المتافيزيك)، وتجريده عما فيه من شوائب الأوهام.

ثم شرع يعمل في حرفته وحده لأنه كان كل هذه المدَّة صانعاً عند سكاف، وكان رأس ماله دريهمات قليلات، إلّا أنَّ أحد جيرانه، وكان طحَّاناً، عرض عليه مبلغاً من المال قرضةً فقبله منه، واشترى الأدوات اللازمة وأخذ في عمله ولم تمضِ عليه سنة حتى أوفاه، وكان قصارى رغبته الاستقلال في العملِ والاقتصاد، فكان ينام أحياناً بلا عشاء مخافة أنْ يصبح وعليه دين، ولم ينسَ تهذيب عقله، فأكثر من المطالعة ودَرَس علم الفلك والتاريخ، وما وراء

الطبيعة، وعكف بالأكثر على هذا العلم الأخير لأن كتبه التي يرجع إليها أقل من كتب الفلك والتاريخ، وقال إنني أعلم أنَّ هذا المسلك وَعِر لا يسلكه من كان مثلي ولكني عازم على الولوج فيه، ثم زاد على السكافة وما وراء الطبيعة: الوعظ والبحث في المسائل السياسية، فأضحى حانوته نادياً لرجال السياسة من أهل قريته حتى إذا انقطعوا عن المجيء إليه ذهب إليهم، فانهمك في ذلك أيَّ انهماك، وأضاع قسماً كبيراً من وقته حتى كان يضطر أنْ يعمل إلى نصف الليل بدل ما يضيعه في النهار، فحدث ذات ليلة أنه كان يطرِّق نعلاً في حانوته، فمرَّ به ولد صغير ووضع فمه في ثقب المفتاح، وصرخ قائلاً: «يا سكَّاف يا سكَّاف اشتغل في الليل ودُر في النهار»، قال درو فيما بعد: إنه لو أُطْلِقَت طبنجة حينئذٍ في أذني ما كنت انتبهت إليها أكثر مما انتبهت إلى صوت ذلك الولد، فطرحت النعل من يدي، وقلت في نفسي لقد أصاب، فلا بُدَّ من أنْ أترك هذه العادة حتى لا أدعه يقول مثل ذلك مرة أخرى ما دمت حيّاً، ولا ريب عندي أنَّ هذا الصوت من الله، فتعلمت منه أن لا أترك للغد ما يمكنني عمله اليوم، ولا أتكاسل في عملي أبداً، ومن تلك اللحظة طرح السياسة جانباً، وعكف على عمله محيياً أوقات العطلة في الدرس والمطالعة. ثم تزوَّج ومال إلى نظم الشعر، وكان مكتبه المطبخ ومكتبته المنفخ.

وفي ذلك الوقت انتشر كتاب باين المعنون بـ«عصر العقل»، ووقع عند البعض موقعاً حسناً، فألَّف درو رسالة ردّاً عليه؛ نقض فيها كلَّ أدلته، وكان يقول بعد ذلك إنَّ عصر العقل صيَّرهُ مؤلفاً.

ثم كتب كتباً أخرى ونشرها؛ منها كتابه المشهور في جوهرية النفس وخلودها، كتبه وهو يعمل في حرفة السكافة، وباعه للطبع

بعشرين جنيهاً، وكان ذلك ثمناً كبيراً. وقد طُبِع هذا الكتاب مراراً عديدة، ولم يزل من الكتب القيمة إلى يومنا هذا، ولم يغترَّ بما صادفه من النجاح، ولم ينتفخ ككثير من المؤلفين الأحداث، بل بقي يعمل في حرفته إلى ما بعد اشتهاره بالتأليف، وكان يكنس أمام باب دكانه بيده، ولم يتوقَّع أنْ يعيش من قلمه، بل من مِخْرَزه وإبرته، على أنه عزم أنْ يحيي كلَّ أوقات العطلة بالقراءة والتأليف، ولكنه زاد علماً وشهرة حتى استُخدم منشئاً لإحدى الجرائد، ومحرراً لبعض الكتب، وكان يكتب في مجلة الأكلكتك، وألَّف تاريخاً لوطنه وكتباً أخرى، وبقي يقول إلى آخر دقيقة من حياته: إني ابتدأت من أدنى الدرجات واجتهدت دائماً على البلوغ إلى أعلاها بالمواظبة والاستقامة والاقتصاد، وقد وفَّقتني العناية الإلهية وكلَّلت مساعيَّ بالنجاح.

وممن اشتُهروا بالمواظبة يوسف هيوم الذي كان الثبات شعاراً له، وفاق مَن سواه بالاجتهاد والحزم، مع أنَّ قواه العقلية كانت معتدلة، فإن أباه مات وتركه يتيماً صغيراً، فعالته أمُّه بتعب يديها، ووضعته عند جرَّاح ليتعلم الجراحة، فتعلم وسافر إلى الهند مراراً عديدة[1] جرَّاحاً في السفن، ثم دخل في خدمة الشركة الهندية، فقام بعبء منصبه بكل نشاط، ونال احترام من هم أعلى منه فرفعوا مرتبته، وسنة 1803 دخل في فرقة من الجند، فمات الترجمان فأقيم مقامه لأنه كان قد درس اللغات الهندية وأتقنها، ثم جُعِل رئيساً على أطباء الجند، وتسلَّم إدارة البريد ودفع الأجور وتعهَّد بتقديم المؤن

(1) لما كان هيوم جرَّاحاً في السفن تعلم فن الملاحة من نفسه فعاد عليه بالنفع بعد سنين كثيرة؛ وذلك أنه سافر مرة من لندن إلى ليث وصادف السفينة التي كان فيها نوء شديد، وجُنَّ الناخذاة (القبطان) فاستلم هيوم إدارة السفينة ونجَّاها من الغرق.

للجنود، وقام بعبء هذه الأعمال كلها، وبعد أنْ قضى عشر سنين في العمل المتواصل رجع إلى إنكلترا بمال وافر، وكان أول شيء عمله أنْ أعطى فقراء عائلته ما يكفيهم على حدِّ قول الشاعر:

وَإِذَا رُزِقْتَ مِنَ النَّوافِلِ ثَرْوَةً فَامْنَحْ عَشِيرَتَكَ الْأَدَانِيَ فَضْلَهَا

ولم يكن ممَّن يتمتعون بثمرة عملهم بالكسل والتراخي، بل كانت لذته العظمى في انصبابه على العمل؛ فطاف كل المدن الصناعية في المملكة لكي يطِّلع على حالتها الأدبية والمادية، ثم طاف البلدان الأجنبية لكي يطلع على أحوال صنائعها ومعاملها، ورجع إلى بلاده ودخل البرلمنت سنة 1812 وبقي فيه نحو أربع وثلاثين سنة. وأول خطبة ألقاها في البرلمنت كانت في التعليم العمومي. وكان في كلِّ مدة عضويته مهتمّاً بهذه المسألة وغيرها من المسائل التي تؤول إلى رفع شأن الأمة، كإصلاح السجون وإقامة بنوك الاقتصاد وحرية التجارة والاقتصاد في النفقات، وتوسيع نطاق الانتخاب لمجلس النواب وما أشبه. ولم يتعرض لموضوع إلّا أفرغ فيه جهده، ولم يكن فصيح اللسان إلّا أنه كان لكلامه وقع عظيم؛ لأن السامعين رأوا فيه كلام رجل مستقيم مدقّق وكثيراً ما كانوا يغلبونه بأكثرية الأصوات ولكنه كان يدافع عن آرائه بحماسة شديدة، فتحصل الفائدة من كلامه ولو غُلِب.

وكانت أعماله كثيرة جدّاً؛ فكان يقوم قبل الظهر بست ساعات، ويكتب تحاريره ويهيِّئ أوراقه للبرلمنت، ويتناول غداءه ويقابل نحو عشرين ممَّن لهم أشغال معه، ثم يذهب إلى البرلمنت، وكثيراً ما كان اجتماع البرلمنت يمتد إلى الساعة الثالثة بعد نصف الليل، فكان يلازمه من أوله إلى آخره، والخلاصة أنه باشر أعمالاً عظيمة

وواظب عليها سنين كثيرة، وكثيراً ما كان كلُّ أعضاء البرلمنت يقومون عليه ويهزؤون به ويغلبونه، ولكنه لم ينثنِ عن عزمه، ولا خارت قواه، ولا ضعفت آماله، وعاش حتى رأى الجميع يسلِّمون بأكثر مطالبه ويمدحونها ويعملون بها، وهذا من أعظم ما جاءت به ترجمات البشر وأكبر الأدلة على قوة الثبات.

ولا يحسن بنا أنْ نختم هذا الفصل قبل أنْ نضيف إليه شيئاً مما جمعناه بعد البحث والتنقيب عن الذين اشتُهروا في البلاد الشرقية وكانوا مثالاً في الثبات والمواظبة؛ فزهير بن أبي سلمى كان ينظم القصيدة الواحدة في أربعة أشهر، وينقّحها أربعة أشهر، ويعرضها على الشعراء أربعة أشهر، ثم يشهرها فسمِّيت قصائده بحوليَّات زهير، والأخطل بقي سنة كاملة يهذب قصيدته التي يقول فيها «خَفَّ الْقَطِينُ فَرَاحُوا مِنْكَ أو بَكَّرُوا» قبلما يبلغ كلَّ ما أراد.

وابن الجوزي ألّف كتباً أكثر من أنْ تعد، والناس يغالون في ذلك على ما قاله ابن خلكان، ويقولون إنه جُمِعَت الكراريس التي كتبها مدة عمره وقُسمَت على المدة، فكان ما خصَّ كلَّ يوم تسع كراريس.

وجلال الدين السيوطي كتب في كلِّ مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسيَّة، وبلغت مصنفاته نحواً من أربعمائة مصنف.

وعبد اللطيف البغدادي لم يخلِ وقتاً من أوقاته النظر في الكتب والتصنيف والكتابة، ومصنفاته عديدة تنيف على المائة والستين، وكان يُقرئ الناس في النهار بالجامع الأزهر وفي الليل يشتغل على نفسه، وكتبه تشهد له بدقة البحث، وسعة الاطلاع، وغزارة المادة، وصدق الرواية.

وأبـو الفـرج الأصبهانـي جمـع كتـاب الأغانـي فـي خمسـين سـنة، ولـم يقتصـر عليـه بـل ألـف كتبـاً أخـرى كثيـرة ككتـاب الإمـاء الشـواعر وكتـاب الديـارات وكتـاب الحانـات وآداب الغربـاء وكتـاب أيـام العـرب وكتـاب التعديـل والانتصـاف فـي مآثـر العـرب ومثالبهـا.

وابـن الأثيـر صاحـب المثـل السـائر والوشـي المرقـوم حفـظ مـن الأشـعار القديمـة والمحدثـة مـا لا يُحصَـى كثـرة، ثـم اقتصـر علـى شـعر أبـي تمـام الطائـي، وأبـي عبـادة البحتـري وأبـي الطيـب المتنبـي، وكان يكـرر عليهـا بالـدرس مـدة حتـى تمكَّـن مـن صـوغ المعانـي، وصـار الإدمـان لـه خلقـاً.

وحنيـن بـن إسـحاق المترجـم المشـهور ألّـف أكثـر مـن سـبعين كتابـاً عـدا الرسـائل الكثيـرة، ويعقـوب بـن إسـحاق الكنـدي ألّـف خمسـة عشـر كتابـاً ومائتيـن وخمسـين رسـالة فـي مواضيـع شـتَّى، وثابـت بـن قـرة الصابـئ ألّـف اثنيـن وسـبعين كتابـاً مـا عـدا الرسـائل المختلفـة، وقسـطا بـن لوقـا البعلبكـي ألّـف سـبعة وثلاثيـن كتابـاً عـدا الرسـائل الكثيـرة، والـرازي ألّـف نحـو ثمانيـن كتابـاً، وابـن سـينا ألّـف نحـو أربعيـن كتابـاً فـي مائـة وعشـرين مجلـداً عـدا غيرهـا مـن الرسـائل، والفارابـي ألّـف أكثـر مـن ثمانيـن كتابـاً، وكان فـي أول عمـره ناطـوراً (غفيـراً) فـي بسـتان بدمشـق، وهـو علـى ذلـك دائـم الاشـتغال بالحكمـة والنظـر فيهـا والتطلُّـع علـى آراء المتقدميـن وشـرح معانيهـا، وكان ضعيـف الحـال يسـهر للمطالعـة والتصنيـف ويسـتضيء بالقنديـل الـذي للحـارس، وبقـي علـى ذلـك مـدة، ثـم عظـم شـأنه، وظهـر فضلـه واشـتُهرت تصانيفـه، وكثـرت تلاميـذه، واجتمـع بـه الأميـر سـيف الدولـة وأكرمـه إكرامـاً كثيـراً، وعظُمـت منزلتـه عنـده، ويُذكَـر أنـه لـم يكـن يتنـاول مـن سـيف الدولـة سـوى أربعـة دراهـم فضـة فـي اليـوم يخرجهـا

فيما يحتاجه من ضروري عيشه. ويُذكَر عنه أيضاً أنه قال: قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة، وأرى أني محتاج إلى معاودته، وهذا يماثل ما ذكره ابن سينا عن نفسه، قال: إني قرأت كتاب ما بعد الطبيعة، فما كنت أفهم ما فيه والتبس عليَّ غرض واضعه، حتى أعدت قراءته أربعين مرة، وصار لي محفوظاً، وأنا مع ذلك لا أفهمه، وأيست من نفسي، وقلت هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه، وإذا إنه يوماً حضرت وقت العصر في سوق الوراقين وبيد دلّال مجلَّد ينادي عليه، فعرضه عليَّ فرددته ردَّ متبرم، معتقد أنْ لا فائدة في هذا العلم، فقال لي اشترِ مني هذا فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج إلى ثمنه، فاشتريته فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة، فرجعت إلى بيتي وأسرعت إلى قراءته، فانفتح عليَّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب؛ بسبب أنه قد صار على ظهر القلب، وقال (أي ابن سينا) واصفاً كيفية انكبابه على الدرس: «كنت أرجع بالليل إلى داري وأضع السراج بين يديَّ وأشتغل بالقراءة والكتابة حتى إذا غلبني النوم أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح من الشراب، ريثما تعود إليَّ قوتي، ومتى أخذني النوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها، حتى إنَّ كثيراً منها انفتح عليَّ وجوهها في المنام»، وهذا شأن كلِّ العلماء العظام، فإن العلم لا يهبط عليهم بالوحي، والشهرة لا تأتيهم عفواً، بل لا بُدَّ لهم من الدرس الكثير نهاراً وليلاً. وأكثر الذين ألّفوا في التاريخ والجغرافية من علماء الإسلام كانوا ينزعون إلى الارتحال والتجوال طلباً لأسباب العلم، والتقاطاً لدرره، ويجمعون في أسفارهم شتات الأخبار ونوادر الآثار، ويتفحصون خواص البلدان وأمزجة الأقاليم؛ فالمسعودي لم يؤلف كتبه النفيسة حتى طاف أكثر الممالك الإسلامية، ودخل الهند وتفحص عن أقطارها،

وجاب سواحل إفريقية الشرقية، واجتاز منها إلى جزيرة العرب.

وابن حوقل كان تاجراً من تجار بغداد، فأقبل على التجوُّل في البلدان، واستمر في حلٍّ وارتحال ثماني وعشرين سنة، ثم دوَّن أخبار رحلته في كتاب المسالك والممالك ووصف فيه الأقطار والأصقاع التي طاف فيها ومدنها وأنهارها، ومناهلها، وغدرانها، وسباسبها وقفارها، وألمع في ثروتها وتجارتها.

والهروي جاب بلاد الشام ومصر والمغرب وجزائر البحر وبلاد الروم، والجزيرة، والحرمين واليمن وبلاد العجم والهند قبلما يؤلف كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات.

وياقوت الحموي الرومي كان يشتغل في التجارة، فقضى سنين كثيرة في الرحلة والتجوال في بلاد العرب، ومصر، والشام، والجزيرة، وخرسان حتى تمكن من تأليف كتابه «معجم البلدان»، وهذا الكتاب من أجلِّ الكتب الموضوعة في فن الجغرافية لأنه «أحاط بجميع أقسام المعمورة، وذكر أسماء البلدان والجبال والأودية، والغيطان والقرى، والمحال والأوطان، والبحار والأنهار والغدران، والأصنام والأوثان، وتعرَّض للكلام على صفة الأرض وما فيها من الجبال والبحار، وذكر أمزجة البلدان وأهواءها ومطالع نجومها وأنواءها». ولقد لقي في تأليفه من المشقة والعناء ما يحله في المحل الأول بين رجال الإقدام والثبات.

وابن بطوطة الرحَّالة الشهير، صاحب تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، خرج من طنجة مسقط رأسه عام 725 للهجرة، وله من العمر اثنتان وعشرون سنة، وتجوَّل في المغرب، وإفريقية، وطرابلس، وبرقة، ومصر، والشام، والعراق، واليمن،

وسـواحل إفريقيـة الشـرقية وجزائـر بحـر فـارس ودخـل الأناضـول وتجوَّل فيها، وقدم بلاد القرم وتسوَّح في جنوبي روسيا ورحل إلى بـلاد البلغـار والقسـطنطينية ثـم جـال فـي البـلاد الواقعـة شـرقي بحـر الخـزر، ودخـل خـوارزم وبخـارى وخراسـان وقندهـار ووادي السـند، وأقـام بدلهـي حاضـرة ملـك الهنـد ونُصِـب علـى القضـاء فيهـا، ثـم سـاح فـي الأقطـار الصينيـة والتتريـة ودخـل سـيلان وسـمطرة وجـاوة وباكيـن قاعـدة الصيـن، ثـم انقلـب إلـى المغـرب وكان قـد بـارح بـلاده منـذ 24 سـنة، ومـا لبـث أنْ وصـل طنجـة حتـى عـاد إلـى الرحلـة، فدخـل الأندلـس وتطـوَّف فيهـا، وذهـب رسـولاً مـن سـلطان مراكـش إلـى بـلاد السـودان ثـم عـاد إلـى فـاس وألـف رحلتـه المشـهورة ووصـف فيهـا مـا شـاهده مـن الأمصـار، ومـا علـق بحفظـه مـن نـوادر الأخبـار.

الفصل الخامس

في الفُرص ومعدَّات النجاح

قال الفيلسوف باكون: لا يقدر العقل ولا اليد أنْ يفعلا كثيراً إذا تُركا وحدهما، ولا يتم عمل إلّا بأدوات ومعونات يحتاج إليها العقل كما تحتاج إليها اليد.

وقيل في اللاتينية: إنَّ الفرصة عجوز شمطاء، قد تناثر شعر قَذَالها وتكاثر شعر ناصيتها؛ فإن ابتدرتها من قبل مَسَكتَها وإذا تركتها حتى جاوزتك لم تقدر على مسكها أنت ولا زفس نفسه

فِعْل الصدفة في الأعمال العظيمة طفيف جدّاً، والسبيل الأكيد للنجاح إنما هو الاجتهاد والثبات، وأكثر ما يُنْسَب إلى الصدف أو ما يقال عنه إنه رمية من غير رام إنما هو نتيجة مزاولة طويلة؛ يُحْكَى أنَّ المصوِّر ولسن كان إذا صوَّر صورة يبعد عنها قليلاً، ويضع قلماً في رأس عصاً طويلة، ويحدق بنظره إلى الصورة، ثم يلمسها برأس القلم لمسات قليلة فتزيد جمالاً ورونقاً، ولكن ما كلُّ مَنْ وضع قلماً في رأس عصاً يقدر أنْ يفعل كما فعل ولسن، لأن ولسن لم يبلغ هذا المبلغ إلا بعد المزاولة الطويلة، فمن حاول ذلك ولم يكن متمرناً كان خطؤه أكثر من صوابه.

والانتباه الشديد والاجتهاد الدائم صفتان لازمتان للعامل الحقيقي، والرجال العظام لا يغفلون عن أمرٍ مهما كان صغيراً، ولا يملون من التعب والمزاولة. حكي أنَّ الشهير ميخائيل أنجلو كان مرة يبيِّن لأحد أصحابه ما فعله في تمثال كان أمامه بعد زيارة ذلك الصديق له؛ فقال: إنني قد رفعتُ هذا الجزء، وخفضت ذاك، ودققت هذا

وغلَّظْتُ ذاك، فقال صاحبه: ولكن ذلك أمر طفيف جدّاً، فقال: لعلك مصيب فيما قلت، ولكن اعلمْ أنَّ الكمال مجموع أمور طفيفة، ويُرْوَى أنَّ المصور نقولا بوسن جعل دستوراً لأعماله: أن كل ما يستحق أن يُعْمَل يجب أنْ يُعْمَل جيداً. وقيل إنه بعد أنْ تقدَّم في السن سأله صاحبه ده مرفيل: بم حصَّلتَ هذا الاسم العظيم بين مصوري إيطاليا؟ فأجابه على الفور: بعدم إهمالي شيئاً.

ومن الاكتشافات ما ينسب إلى الصدفة، ولكننا إذا أمعنا النظر وجدنا أنه قلَّما يوجد فيها ما يستحق أنْ يُنسَب إلى الصدفة، ويمكننا أنْ نقول إنَّ ما يُدعَى صدفة ليس إلا فرصة مناسبة انتهزها أولو الدراية، ومن هذه الاكتشافات التي ينسبها البعض إلى الصدفة سقوط التفاحة أمام نيوتن، ولكن ألا يعلم هؤلاء أنَّ عقل نيوتن كان مشتغلاً منذ سنين عديدة بالبحث عن سبب الثقل، وكان سقوط التفاحة وسيلةً لتوجيه أفكاره إلى حقيقة هذا الموضوع؛ ومن ظن أنَّ فقاقيع الصابون تقود الفيلسوف يَنغ إلى اكتشافه المتعلق بانحلال النور؛ والمتعارف أنَّ الرجال العظام لا يلتفتون إلّا إلى الأمور العظيمة، ولكن ذلك ليس بسديد؛ لأن نيوتن ويَنغ كانا يلتفتان إلى الأمور الصغيرة كما يلتفتان إلى الكبيرة، وهما من أعظم رجال الدنيا.

إنَّ من أكبر علل التفاضل بين الناس عدم تساويهم في الانتباه؛ قال المثل المسكوبي: «إنَّ عديم الانتباه يطوف الغابات، ولا يرى فيها خشباً يصلح للوقود»، وقال الجامعة: «الحكيم عيناه في رأسه، أما الجاهل فيسلك في الظلام»، وقال جونسن لظريف عند رجوعه من إيطاليا: «قد يستفيد البعض من مرسح همستد أكثر مما يستفيد غيرهم من السياحة في كلِّ أوروبا»، وحيث لا يرى الجهال شيئاً

يرى العقلاء أموراً كثيرة، ويخترق نظرهم ما أمامهم من الحوادث، فيرون ما بينها من المشابهة والمخالفة، ويقيسون بعضها على بعض ويعرفون أسبابها؛ مثال ذلك أنَّ كثيرين رأوا جسماً معلقاً بحبل يتحرك إلى الأمام والوراء، ولكن ما منهم من استنتج من ذلك شيئاً سوى غاليليو؛ فإنه رأى يوماً قنديلاً يتحرك في قبة كنيسة بيزا، فانتبه إليه مع أنه كان فتًى في الثامنة عشرة، وما زال يُعمِل فيه فكرته مدة خمسين سنة حتى اسْتَتبَّ له أنْ يستخدم حركته لقياس الوقت. وما من أحد من رجال العلم ينكر أهمية هذا الاكتشاف، أو يقيس به اكتشافاً آخر. وسمع غاليليو مرة أنَّ إنساناً هولنديّاً اسمه ليبرشي، صانع عوينات، أهدى للكونت موريس آلة إذا نظر بها إلى الأشباح البعيدة بانت قريبة، فاشتغل في هذا الموضوع، وما زال يعمل فكرته حتى صنع التلسكوب الذي هو أساس علم الهيئة الحديث؛ فلا يمكن لأحد أنْ يكتشف اكتشافات مثل هذه ما لم يكن شديد الانتباه.

قيل إنَّ السر صموئيل برون كان يتأمل كثيراً في إقامة قنطرة لنهر تويد، تكون متينة وقليلة النفقة، فحدث أنه شاهد عنكبوتاً مادَّةً خيطها من شجرة إلى أخرى، وكانت تسير عليه كما تسير على جسر، فخطر على باله أنه يمكن أنْ تُصْطَنَع حبال أو سلاسل من حديد وتعلق من جانب إلى آخر فيكون منها جسر متين رخيص، فاصطنع الجسر (الكبري) المسمى بالجسر المعلق على هذا المبدأ، وقد تعلم السر إيسمبرت برتل طريقة عمل النفق المشهور تحت نهر التمس من الأرَضة التي تنقر الخشب بمشفريها وتدهن الأزج الذي تنقره بمادة لزجة القوام، فمثَّل هذا العمل تماماً واحتفر ذلك السرب العجيب.

والرجل النبيه يستفيد من الحوادث التي يراها مهما كانت طفيفة؛ ألا ترى أنْ كولمبس مكتشف أميركا سكَّت شغب بحارته وأقنعهم أنهم مصيبون برّاً إذ رأى شيئاً من العشب طافياً على وجه الماء؛ وما من أمر إلا وله شيء من المنفعة مهما كان طفيفاً؛ فعلى بال من خطر أنَّ أكثر الجبال والصخور الكلسية بَنَتها حيواناتٌ صغيرة لا تُرَى إلّا بواسطة الميكرسكوب؛ فليس بعجيب إذا تولدت الكبائر من الصغائر، ونتجت النتائج العظيمة من المبادئ الطفيفة، بل إنَّ سرَّ تقدم العلوم والفنون والصنائع والحرف هو ملاحظة الأمور الدقيقة الطفيفة. وما العلوم إلا مجموع ملاحظات الأجيال السالفة والحاضرة واختباراتها وقد جمعت حتى صار منها بناء فخم كالأهرام، مع أنَّ كثيراً بانَ في أول الأمر طفيفاً لا طائل تحته، وربما بقي زماناً طويلاً من غير أنْ تنتج منه فائدة؛ ألا ترى أنَّ علم القطوع المخروطية الذي وضعه أبولونيوس برجيوس بقي أكثر من عشرين قرناً قبل أنْ يُسْتَخْدَمَ لشيء، أما استخدامه فكان في علم الفلك الذي لا ينكر أحدٌ فائدته في أمور كثيرة، ولاسيما في سلك البحار، ولو لم يشتغل الرياضيون قروناً عديدة ليعرفوا نسبة الخطوط والسطوح بعضها إلى بعض ما تمت كلُّ الاختراعات الميكانيكية التي نراها في هذا العصر.

قيل إنه لما اكتشف فرنكلين وحدة البرق والكهربائية، قال له البعض ازدراءً: ما منفعة هذا الاكتشاف؟ فأجاب: إنه سيشب كما يشب الطفل فتُرَى منفعته. وعلى بال مَنْ خطر أنَّ اكتشاف كلفني لحركة عضلات الضفدع إذا اتصل بها معدنان مختلفا النوع تنتج منه نتائج عظيمة؛ مثل التلغراف الذي ربط العالم بعضه ببعض كما تربط الأعصاب أعضاء الجسد؛ أو أن نقْبَ قطع صغار من

الحجارة والأحافير يولِّد علمين جليلين، وهما علم الجيولوجيا وعلم المعادن؛ وفوائد هذين العلمين أشهر من أنْ تذكر، ولا سيما علم المعادن. والآلات العظيمة التي تدير المعامل، وتسيِّر المراكب، وتخترق الجبال، وتعمل كلَّ عمل صغيراً كان أم كبيراً، يتوقف فعلها على نقط صغيرة من الماء، تمددت بالحرارة حتى صارت بخاراً، وهي على صغرها إذا حُصرت في آلة فعلت بقوة تزيد على قوة ربوات من الخيل، وهذه القوة نفسها تفعل في جوف الأرض، فتسبب براكينها وزلازلها.

قيل إنَّ مركيز وستر انتبه إلى موضوع البخار لمَّا كان مسجوناً في برج لندن من ملاحظته ارتفاع غطاء إناءٍ فيه ماء يغلي، وبحث في هذا الموضوع طويلاً ودوَّن كلَّ ما لاحظه في كتابه المسمى عصر الاختراعات، ثم قام سفري ونيوكمن وغيرهما وحاولوا استخدام ملاحظات وستر، فاصطنعوا الآلة البخارية، وأوصلوها إلى الدرجة التي رآها فيها وط لما استُدعي لإصلاح آلة نيوكمن الخاصة بمدرسة كلاسكو الجامعة كما تقدم، أما وط فلم يدع هذه الفرصة تذهب سُدًى بل انتهزها، فجعلته يقضي عمره في إصلاح الآلة البخارية.

وانتهاز الفرص ومراقبة الحوادث العرضية وتحويلها إلى مقصد من المقاصد، سرٌّ عظيم من أسرار النجاح. ومن قصد النجاح في أمر لا بدَّ من أنْ يجد فرصاً تُيسِّر له ذلك الأمر، وإن لم يجدها أوجدها لنفسه، وليس النجاح متوقفاً على الدرس في المدارس الكبيرة والانتظام في المجامع العلمية لأن أكثر العلماء والمخترعين لم يكن لهم شيء من الوسائل العلمية، بل إنهم أفلحوا بواسطة المصاعب، وأفضل الصنَّاع لم يكن له أدوات تصلح للعمل، ولكن

ليس الصانع بأدواته بل بحذقهِ ومواظبته.

قيل: سأل بعضهم أوبي المصوِّر بِمَ تمزج الألوان حتى تصير بديعة بهذا المقدار؟ فأجابه على الفور: «إني أمزجها بدماغي»، وهذا شأن كلِّ صانع ماهر؛ ألا ترى أنَّ فرغوسن صنع ساعة من خشب، ولم يكن معه من الأدوات غير سكين صغيرة مما يوجد مع كلِّ ولد، ولكن ليس كلُّ ولد فرغوسن، والدكتور بلاك اكتشف الحرارة المختفية بواسطة كوبة من الماء وثرمترين فقط، والفيلسوف نيوتن حل النور وعرف أصل الألوان بواسطة موشور وعدسيات وقرطاس. قِيل: زار أحد العلماء الدكتور وُلَستون العالم الطبيعي وطلب إليه أنْ يريه محل امتحاناته الذي اكتشف فيه تلك الاكتشافات العظيمة، فأدخله إلى غرفة صغيرة، وأراه طبقاً عتيقاً عليه قليل من زجاجات الساعات وأوراق الكشف وميزان صغير وبوري، وقال له: هذه كلُّ الآلات التي أستعملها. وستوثرد تعلم صناعة تركيب الألوان من أجنحة الفراش، وقد قال: ما من أحد يعرف كم أنا مدين لهذا الحيوان الصغير. وولكي شرع يتعلم التصوير وقلمه فحمة وقرطاسه باب مذود، وبيوِك تعلم الرسم وقلمه الطباشير وقرطاسه الأبواب أيضاً، وفرغوسن عمل خريطة للأجرام السماوية على هذه الكيفية، وهي أنه كان يذهب إلى البرية، ويلتحف بإزار، وينام على ظهره، ويقيس البعد النسبي بين كوكب وآخر بواسطة السبحة، وفرنكلين عرف ماهية الصاعقة بواسطة الطيارة، ووط استعمل حقنة صغيرة في مثال الآلة البخارية التي صنعها، وجفُرد كان يحل المسائل الرياضية وهو صانع عند إسكاف على قطعة من جلد بعد أنْ يصقلها بالتطريق، ورتنهوس الفلكي كان يحسب الكسوفات والخسوفات على مقبض المحراث.

وحوادث الحياة التي اعتدنا على مشاهدتها يوميّاً فيها ما يكفي الإنسان من الفُرَص والوسائل إذا لم يتأخر عن انتهازها؛ فالأستاذ لي الشهير تَنَبَّه إلى درس اللغة العبرانية إذ كان نجاراً برؤيته توراةً في العبرانية في كنيس دُعِيَ إليه ليصلح مقاعده، فاشترى كتاب نحوٍ عتيقاً في العبرانية بثمن زهيد، وأخذ يدرس تلك اللغة بجد حتى أتقنها، وصار مدرّساً فيها. قيل: سأل ديوك أرجيل أدمندَ ستون: كيف أمكنك، وأنت ولد فقير، أنْ تقرأ كتاب «المبادئ» لنيوتن في اللاتينية؟ فأجابه: «إذا تعلَّم الإنسان الحروف الهجائية أمكنه أنْ يتعلم كلَّ ما يريد».

إنَّ السر ولتر سكت وجد سبيلاً لتوسيع معارفه في كلِّ عمل أخذ فيه، وكان يستفيد من كلِّ حادثة ولو حدثت صدفة، فلما كان كاتباً اضطره عمله أنْ يزور البلاد العالية «في أسكتسيا»، فتعرف بمن بقي من الأبطال الذين خاضوا معامع الحروب سنة 1745، واقتبس منهم أخباراً كثيرة، جعلها أساساً لأكثر تآليفه. ثم لما تقدم في السن جُعل رقيباً على جراية الفرسان في أدنبرج، فاتفق أنَّ فرساً لَبَطَه فتعذر عليه المشي فلازم بيته مدة، ولكنه كان مطبوعاً على بغض الكسل، فأخذ في التأليف ونظم الجزء الأول من شعره المسمى أغنية المغني الأخير في ثلاثة أيام، وهذا الشعر من أول مبتكراته التي اشتُهر بها.

وأول شيء نبَّه الدكتور بريستلي إلى موضوع الكيمياء رؤيتُه ألواناً مختلفة في الأقباس التي تنطفئ في الغازات المتصعدة عن السائلات المختمرة، وعندما لاحظ ذلك كان ابن أربعين سنة، ولم يكن يعرف شيئاً من علم الكيمياء، فأخذ يفتش في الكتب عساه أنْ يجد سبباً لذلك لأنه لم يكن يُعرَف شيء من هذا الموضوع

حينئذ، فصنع بعض الأدوات وشرع يمتحن بها، وتدرَّج من امتحان إلى آخر، فأوجد علماً قائماً بنفسه هو علم الكيمياء الغازية، وفي ذلك الحين كان شيل الأسوجي يشتغل بهذا الموضوع في قرية من أسوج فاكتشف غازات كثيرة ولم يكن عنده من الأدوات سوى قليل من الزجاجات والمثانات.

والسر همفري داڤي امتحن امتحانات كثيرة، وهو صانع عند صيدلاني بأدوات صغيرة جدّاً مثل المقالي والقدور والحناجر وغيرها، وحدث مرة أنَّ سفينة فرنسوية غرقت قرب لندس أند، ونجا جراحها، فتعرف بداڤي وأهدى إليه حقنة عتيقة كان قد خلَّصها من الغرق، ففرح بهذه الهدية فرحاً لا مزيد عليه، وصنع بها آلة لتفريغ الهواء، استخدمها في البحث عن ماهية الحرارة ومصدرها.

والأستاذ فَردَاي خليفة السر همفري داڤي امتحن أول امتحان في الكهربائية بزجاجة عتيقة وهو صانع عند مجلد كتب. ومن الغريب أنه مال إلى درس الكيمياء بسماعه خطبة فيها من السر همفري داڤي في المدرسة الملكية، وفي ذات يوم أتى إلى حانوت الجلد رجل من عمدة تلك المدرسة، فوجد داڤي عاكفاً على درس الكهربائية في إنسكلوبيديا كان يجلدها، ثم وجد أنَّ له رغبة شديدة في درس هذا العلم، فأذن له بدخول المدرسة، فدخل وسمع فيها أربع خطب من السر همفري داڤي، فدَوَّن شيئاً من هذه الخطب، وأراه للخطيب فوجده صحيحاً وانذهل لما علم أنَّ ذلك الشاب لم يكن سوى صانع عند مجلد كتب. ثم إنَّ فَرَداي أطلع السر همفري على قصده، وهو إيقاف نفسه على الدروس الكيماوية، فنهاه عن ذلك فلم ينته، بل لازم الدرس إلى أنْ صار معاوناً للسر همفري،

وأخيراً جلس صانع مجلد الكتب في منصب صانع الصيدلاني؛ أي السر همفري.

وكتب داڤي في مفكرته وهو ابن عشرين سنة «ليس لي غنًى ولا قوة ولا نسب، ولكن إذا فسَّح الله لي في الأجل خدمت جيلي أكثر مما لو كنت غنيّاً قويّاً ذا حسب ونسب». وكان له استطاعة على توجيه كلِّ قوى عقله إلى الموضوع الذي يبحث فيه وإلى كلِّ متعلقاته، ومَن كانت هذه الصفة صفته فلا بدَّ أنْ يأتي بنتائج كثيرة؛ قال كلردج في وصف داڤي ما معناه: إنَّ عقله كسيف فيه صفتا المرونة والصلابة، فلم ينبُ عن مسألة إلا رجع إليها حالاً وفصلها؛ كيف لا، ولم يُعرَض عليه مشكل إلا حلَّه، وأنار ظلمته بنور حكمته وبرهانه السديد.أما داڤي فقال في كلردج ما مفاده: إنه شديد الذكاء، واسع الفكر، رحب الصدر، ولكنه عديم النظام، قليل التدقيق.

وكيفيه العظيم كان من أشد الناس اعتناء، وأكثرهم اجتهاداً وتدقيقاً؛ قيل إنه مال إلى درس التاريخ الطبيعي وهو صبي برؤيته مجلداً من كتاب بفون، فأخذ من ساعته في نقل الصور التي فيه وتلوينها حسب الشرح، ولما كان في المدرسة أهدى إليه أحد معلميه كتاب نظام الطبيعة للينيوس النباتي، فكان هذا الكتاب كلَّ ما يملكه من الكتب في التاريخ الطبيعي مدة عشر سنين، ولما بلغ الثامنة عشرة جُعل مُعلماً لأولاد عائلة ساكنة قرب البحر، وكان ماشياً ذات يوم على شاطئ البحر فرأى أخطبوطة مطروحة على الشاطئ واستغرب منظرها، وأخذها إلى بيته ليُشَرِّحها، ومن ثَمَّ شرع في درس الحيوانات الرخوة، وهو العلم الذي اشتُهر به بعدئذ شهرة فائقة، وكان كلَّ يوم يرى أموراً جديدة، فتؤثر فيه رؤيتها أكثر من

صورها وأوصافها، فمرّ عليه ثلاث سنوات قابل فيها بين الحيوانات البحرية والأحافير (ما يحفر من الأصداف والأسماك المتحجرة) التي في تلك النواحي، وشرَّح كلَّ حيوان بحري وصلت إليه يده، وبعد البحث المدقق مهَّد السبيل للإصلاح الكامل في ترتيب أنواع المملكة الحيوانية. ونحو ذلك الوقت تعرَّف بالعالم الشهير الأب تسيه، فكتب هذا إلى أصدقاء له في باريس، من جملتهم جسيو يمدح كيڤيه ومعارفهُ الطبيعية، وبالغ في مدحه حتى إنهم طلبوا من كيڤيه أنْ يرسل بعض ما كتبه إلى جمعية التاريخ الطبيعي، ثم عيَّنوه معاوناً لمدير جردن ده بلنت (بستان الحيوانات). قال تسيه في كتابه إلى جسيو: «ألا يخطر ببالك أنني أنا الذي قدَّمْتُ دلمبر إلى الأكادمي، وأنا الآن أقدم لها دلمبراً آخر»، ومن ينكر أنَّ نبوءة تسيه قد تَمّت وزادت عما قدّر.

يظهر مما تقدم أن ليس الفضل للصدفة في نجاح الذين نجحوا، ولا للفرص بل للاجتهاد والمواظبة. وأحسن الفرص وأفضل الوسائط لا تنفع الكسلان المهمل لأنه يتجاوزها ولا يرى فيها نفعاً، ولكن النجاح الذي يحصل من اغتنام الفرص والانتفاع بها يفوق التصديق، فإن وط مثلاً درس الكيمياء والميكانيكيات وهو يصنع الآلات الرياضية، وكان في ذلك الحين يتعلم اللغة الألمانية من صبَّاغ سويسراني، وستفنس درس الحساب والمساحة في بدل الليل وهو يوقد في آلة بخارية، وكان يحل المسائل الحسابية في فرص الأكل بقطعة طباشير على جوانب مركبات الفحم. ويُروى عن دلَتن الشهير أنه كان يقيم في المدرسة شتاءً ويعود في الصيف إلى معاونة أبيه في الزراعة، وكان يتبارى هو ورفاقه في الدرس على رهان يكسبه السابق، فكسب مرة ما مكَّنه من ابتياع شموع

تكفيه فصل الشتاء، وقيل إنه دام على أخذ الأرصاد الميتيورولوجية إلى يوم أو يومين قبل وفاته وبلغ الأرصاد 200000 رصد.

إنَّ أهل المواظبة يستخدمون فضلات الوقت لمقاصد جليلة، وينتفعون بها نفعاً عظيماً، والإنسان الذي قواه العقلية في درجة متوسطة يقدر أن يتقن بعض العلوم في أقل من عشر سنوات إذا درسها ساعة فقط كلَّ يوم. ويجب أن لا تُصرَف ساعة من الوقت بدون ثمرة عقلية أو مادية، ولله در القائل:

إِذَا فَاتَنِي يَوْمٌ وَلَمْ أَصْطَنِعْ يَدا وَلَمْ أَكْتَسِبْ عِلْماً فَمَا ذَاكَ مِنْ عُمْرِي

قيل إنَّ الدكتور مازون غود ترجم لكرتيوس في جولانه من بيت مريض إلى بيت مريض آخر. والدكتور دارون أَلَّفَ كلَّ كتبه تقريباً على هذه الطريقة، والدكتور برني تعلم الفرنسوية والإيطالية وهو ذاهب إلى بيوت تلامذته ليعلمهم الموسيقى. وكرك هوَيت تعلم اليونانية في ذهابه إلى مجلس القضاء وإيابه. والمؤلف يعرف رجلاً معتبراً تعلم اللاتينية والفرنسوية وهو يحمل التحارير إلى أربابها في أسواق منشستر. ودَغَسُّو أحد مشيري فرنسا ألّف كتاباً ضخماً في الفترات بين طعام وطعام وهو على المائدة. ومدام ده جنلي صنفت كثيراً من كتبها في الدقائق القليلة التي كانت تمضيها في انتظار الأميرة التي كانت تدرسها. وإليهو بُرِث نَسَبَ نجاحه إلى اغتنامه فضلات الوقت، فإنه أتقن ثماني عشرة لغة قديمة وحديثة عدا عشرين لهجة من لهجات أوروبا وهو يحصل معيشته من صناعة الحدادة.

الوقت ثمين وهو رأس مالنا الوحيد، وإن فات لا يرجع؛ قال جكسن الأكستري إذا أسرف الإنسان في ماله اليوم أمكنه أنْ يقتصد

غداً بما يعوض الخسارة، ولكن مَن يمكنه أنْ يقول سأقتصد في ساعات الغد ما يعوض عن ساعات اليوم. قيل إنَّ ملنكثون كان يُدَوِّن كلَّ ساعة أضاعها حتى يزيد اجتهاداً بما يعوض عنها. كتب أحد العلماء الإيطاليين على بابه: مَنْ دخل هذا البيت يجب أنْ يشترك مع الذين فيه في عملهم. وقيل إنَّ قوماً دخلوا مكتبة بكستر قصد الزيارة، وقالوا له من باب التجمُّل: نخاف أنْ نكون قد أضعنا وقتك، فأجابهم: حقّاً قد أضعتم.

وقد يعاني بعض الناس في إتمام عملهم تعباً يفوق التصديق؛ فإن نيوتن كتب كتابه المسمى بالخرونولوجيا خمس عشرة مرة قبلما يتم تهذيبه، وغبون كتب مذكراته تسع مرات، وهَل درس سنين عديدة، وكان معدل درسه ست عشرة ساعة كلَّ يوم، ولما كان يتعب من درس الحقوق كان يريح نفسه بدرس الفلسفة والرياضيات، وهيوم كان يكتب ثلاث عشرة ساعة كلَّ يوم وهو يؤلف تاريخ إنكلترا، وقال مُنتسكيو لأحد أصحابه: إنك تقرأ هذا الكتاب في ساعات قلائل، ولكني أؤكد لك أنني قد تعبت في تأليفه تعباً شيَّب رأسي.

ومن الأمور المفيدة التي يمارسها أكثر رجال العلم تدوين كل ما يخطر لهم من الأفكار، أو يسمعونه من الفوائد مخافة أنْ يضيع من حيِّز الذاكرة؛ فإن اللورد باكون ترك بعد وفاته كتب خطٍّ كثيرة سمَّاها: أفكار فجائية كُتبت لتُستعمَل. والدكتور باي سمثٍ كان يلخص كلَّ الكتب التي يقرؤها وهو عامل مع أبيه في صناعة التجليد وينتقدها ويكتب الملخص والانتقاد وجرى على ذلك حياته كلها، حتى قال فيه كتَّاب سيرته إنه كان على الدوام عاملاً جامعاً متقدماً. أما الكتب التي جمعها على هذا الأسلوب فكمعدن

للعلم والمعرفة، وقد جرى هذا المجرى الشهير جون هنتر تعويضاً عمَّا به من ضعف الذاكرة، وشبَّه من يقرأ كتاباً ولا يُدَوِّن ما يُبقِي في ذاكرته منه بتاجر لا يكتب أسماء بضائعه ليعلم كم عنده من كلِّ صنف، ويليق بنا أنْ نذكر طرفاً من سيرة هذا الشهير؛ فنقول:

إنه لم يتعلم إلا بعد أنْ بلغ السنة العشرين من عمره، ثم بالنجارة في كلاسكو، ثم انضم إلى أخيه الذي كان مقيماً في لندن معلماً في التشريح العملي لكنه فاقه بميله الطبيعي وخصوصاً باجتهاده ومواظبته. وكان أول من وَقَف نفسه في البلاد الإنكليزية على علم تشريح المقابلة، وجمع فيه مجموعاً كبيراً رتبه فيما بعدُ الدكتور أُوِن، ولكن لزم له لترتيبه مدة عشر سنين. وفي هذا المجموع أكثر من عشرين ألف راموز، ولم يجمع إنسان واحد مجموعاً مثله قط. وكان مع ذلك يمارس صناعة التطبيب في بيته والجراحة في مستشفى مار جرجس وبين الجنود، ويخطب خطباً في هذا الفن، ويدير مدرسة تشريحية في بيته.ومع هذه الأشغال الكثيرة ألّف كتباً علمية وامتحن امتحانات عديدة في نظام الحيوان. وكان ينام أربع ساعات فقط في الليل وساعة بعد الغداء، ولولا ذلك ما قام بهذه الأعمال الكثيرة العظيمة. قيل سأله بعضهم ماذا فعلت حتى نجحت في كلِّ أعمالك؟ فقال إني قبل أنْ أشرع في عمل أقف وأتأمل في إمكانيته، فإن لم يكن ممكناً تركته وإلا أخذت فيه، وما زلت حتى أكمله مهما نالني منه من التعب والعناء؛ هذا هو سر نجاحي.

وأقام زماناً طويلاً يجمع أموراً كثيرة، يعدها أهل عصره طفيفة لا طائل تحتها، ولا يُرجَى منها كبير فائدة، فقد اتهمه معاصروه أنه أضاع وقته في ملاحظة نمو قرن الغزال، إلّا أنه كان يرتئي أن

لا شيء من التدقيق في الأمور العلمية خال من الفائدة. وكانت نتيجة بحثه في نمو قرن الغزال أنه عرف كيف تضيق الشرايين وتتسع حسب دواعي الحال، فتجاسر مرّة على ربط جذع شريان فرعي حدث فيه أنيورزم، فأنقذ العليل من الموت، ولم يجسر أحد على هذه العملية قبله، وسار كلَّ حياته معتمداً على نفسه، ولم يرَ معاصروه غاية أبحاثه إلا أنه واظب عليها بهمة عالية حاسباً الجري فيها من الواجبات التي لا يفشل مَنْ يهتم بها.

وهاك مثالاً آخر للانتباه والصبر والإقدام والمواظبة في حياة أمبروز باري الجراح الفرنساوي الشهير؛ وُلِدَ هذا الرجل في لافال سنة 1509 من أبوين فقيرين جدّاً، فلم يقدرا أن يرسلاه إلى مدرسة، بل وضعاه عند كاهن قريتهما خادماً أملاً بأن يقتبس منه شيئاً من العلوم. ولكن الكاهن المذكور استخدمه في سياسة بغلته وغيرها من الأعمال الدنيئة حتى لم يجد وقتاً للدرس. وبينما هو في خدمته دُعي الشهير كوتو لعملية حصاة المثانة في لافال، وكان باري حاضراً مع من حضر، فرأى من تلك العملية ما جعله يعزم من ساعته على درس فن الجراحة، فترك خدمة الكاهن وخدم عند حلَّاق جراح، وتعلم منه الفصد وقلع الأسنان وعَمَل بعضِ العمليات الصغيرة. وبعد مضي أربع سنوات انتقل إلى باريس، وطلب في مدرسة التشريح والجراحة، وكان يحصّل من الحلاقة ما يقوم بمعيشته، ثم صار معاوناً في مستشفى هوتل ديه، وكان يُضرَب المثل بحسن سلوكه واجتهاده حتى إن كوبِل رأس الجراحين سلَّمَهُ المرضى الذين لم يقدر أنْ يقف عليهم هو. ولما انتهت المدة المعينة للطلب عُيِّن معلماً في المدرسة، ثم عُيِّن جراحاً لجنود منمورنسي، فلم يكتفِ بما اقتبسه من العلم ولا بالسبيل الذي سار

فيه مَن تقدمه من الأطباء، بل كان كثير الافتكار والتأمل في أسرار صناعته وأصولها ومصدر الأمراض ومسيرها والبلوغ إلى العلاج الشافي.

وكان الجراحون في أيامه وما قبلها يعذبون جرحى الحرب أكثر مما يعذبهم الأعداء؛ لأنهم كانوا يوقفون الدم من جروح الرصاص بالزيت المغلي، ويوقفون النزف الدموي بالكي بالحديد المحمي. وإذا ألجأهم الأمر إلى بتر عضو كانوا يبترونه بسكين محماة إلى درجة الحمرة. وكان باري يداوي الجروح على هذا الأسلوب، ولكنه حدث يوماً أنه لم يكن تحت يده زيت مغلي، فآسى الجرح بمضادات الالتهاب، ونام ليلته في قلق عظيم مخافة أنْ يكون أخطأ في العلاج، ولكنه رأى في الصباح أنَّ الذي عالجه هذه المعالجة مقبلٌ على الشفاء، والذين عالجهم المعالجة المعتادة في عذاب أليم. هذا أصل الإصلاح الذي أحدثه في علاج جروح الرصاص فصار يعتمد عليه دائماً، ثم أدخل إصلاحاً آخر أهم من الأول، وهو قطع النزف بربط الشرايين بدلاً من الكي، فقام عليه الجراحون وقالوا إنَّ معالجته هذه شديدة الخطر وغير أصولية واعتصبوا ضده عصبةً واحدة، وطعنوا فيه، وقالوا إنه عديم العلم، ولا سيما لجهله اللاتينية واليونانية، وأثبتوا غلطه بعبارات اقتبسوها من كتب الأوائل، لم يقدر أنْ يثبتها ولا أنْ ينفيها. وأفضل ما قدر أنْ يجيبهم به هو نجاح معالجته. وكان الجرحى يدعون باسمه دائماً، ولم يقبلوا علاج أحد غيره. فعالجهم بالشفقة والحنو، وكان بعد أنْ يضمد جراحاتهم يقول لهم: قد عملت ما عليَّ وعلى الله الشفاء. وبعد أن مضى عليه ثلاث سنوات في خدمة الجند رجع إلى باريس وله شهرة عظيمة فأُقِيم جرَّاحاً للملك.

ولما أتى كارلوس الخامس بجيوش إسبانيا وحاصر متس، هلك من المحاصَرين خلق كثير، وكان الذين ماتوا بيد الجراحين أكثر من الذين قتلهم العدو، فأرسل دوك غيز قائد المحاصَرين يتضرع إلى الملك أنْ يرسل إليه باري فأرسله. وبعد معاناة مشاق كثيرة وأخطار عديدة اخترق جيوش العدو ودخل متس، فرحّب به الدوق والقواد والرؤساء، وأما الجنود فلما سمعوا بقدومه صرخوا: «لسنا نخاف الموت من جراحنا بعد الآن لأن صديقنا صار بيننا».

وفي السنة التالية كان باري في مدينة هسدن، ففتحها دوق سافوي وأخذه أسيراً، إلا أنه شفى بعض قواد جنده، فأطلق سبيله بلا فدية، فرجع إلى باريس، وقضى غابر حياته في الدرس والتأليف والمبرَّات. وألح عليه البعض من أشهر علماء عصره أنْ يكتب نتائج أعماله الجراحية، فكتبها في ثمانية وعشرين مجلداً، طُبعت في أيامه. وكتاباته من الطراز الأول، ولا سيما لكثرة ما فيها من الحوادث التي عالجها ونجح، مجتنباً كل علاج لم يتأكد فعله بالتجربة. وبقي جرَّاحاً للملك مع أنه كان بروتستنتي المذهب. ونَجَّاه الملك شارل التاسع من القتل في مذبحة مار برثلماوس؛ لأنه كان قد شفاه من جرح مميت أوقعه به جراحٌ غبي في فصدهِ إياه. وقد ذكر برَنْتُوم في كِتاب السِّيَر قصة إنقاذ الملك لباري في ليلة مار برثلماوس، فقال إن الملك أرسل فدعاه إليه، وأبقاه معه كلَّ الليل، قائلاً إنه ليس من العدل أنْ يُقتل إنسان قد خلَّص حياة كثيرين. فنجا من أهوال تلك الليلة الرهيبة، وعاش بعدها سنين عديدة ومات حتف أنفه بشيبة صالحة وإكرام يليق بمثله.

ومن الذين اشتغلوا بلا ملل في ترقية صناعة الطب هارفي الشهير مكتشف دورة الدم، فإنه بحث وامتحن ثماني سنوات قبلما يشهر

هذا الاكتشاف، وقد أشهره على أسلوب بسيط مقنع، ولكنه عومل بكل نوع من الإهانة والاحتقار، وبقي وقتاً طويلاً، ولم يصادف إنساناً يختم على صحة قوله، بل كان الجميع يزعمون أنه جاء أمراً فريّاً مناقضاً آراء الأوائل والكتاب المقدس والديانة والآداب، ورماه البعض بالجنون والخداع، وهجره أصحابه وخلَّانه، وآل حاله إلى أسوأ الأحوال، ولكن هذا الحق المبين الذي دافع عنه سنين عديدة دخل بعض العقول وأينع فيها، ولم يمض عليه إلّا خمس وعشرون سنة حتى عُدَّ من أثبت الحقائق الطبية.

والمصاعب التي قاساها الطبيب إدورد جنَّر مكتشف تطعيم الجدري، كانت أشد من المصاعب التي قاساها الدكتور هارڤي وهاك طرفاً من سيرته:

لا بد من أنَّ كثيرين شاهدوا جدري البقر قبل هرڤي، وسمعوا الكلام الجاري على ألسنة الحلَّابات، وهو أنَّ الذي يُجدَّر بجدري البقر يسلم من الجدري العادي، ولكنهم عدوه إشاعة كاذبة، وما منهم من ظنه يستحق الامتحان حتى طرق مسامع جنر. وذلك أنَّ ابنة دخلت حانوت معلمه لكي تستشيره في مسألة ما، وحدث حينئذٍ أنَّ بعض الحاضرين ذكر ما كان من أمر الجدري، فقالت الابنة: أنا لا أُعْدَى بهذا المرض؛ لأنني جدرت بجدري البقر، فانتبه جنَّر إلى هذا الأمر، وأخذ من ساعته يراقبه ويبحث عنه، ثم كاشف البعض من أصحابه الأطباء بذلك، فضحكوا منه وتهددوه بالطرد من بينهم إذا تجاسر مرة أخرى وذكر لهم ذلك. ثم درس على جون هنتر الفسيولوجي وكاشفه بما في نفسه، فقال له: لا تظن ظنّاً بل امتحن امتحاناً، وكن صبوراً مدققاً في بحثك. فَتَقَوَّت عزائمه بهذا الكلام، وأخذ من وقته يمارس صناعته ويمتحن التطعيم، ودام على

ذلك عشرين سنة، وكانت ثقته في التطعيم قوية جدّاً، فطعَّم ابنه، ونشر وصف تجاربه في رسالة ذكر فيها أنه طعَّم ثلاثة وعشرين شخصاً بجدري البقر، فلم يُعْدَ أحد منهم بالجدري العادي بعد ذلك لا بالمخالطة ولا بالتلقيح. فلم يكترث له أحد في أول الأمر.

ثم قام عليه خصوم كثيرون حتى إنه لما أتى لندن بقصد استعمال التطعيم بقي ثلاثة أشهر بدون أنْ يطعم أحداً، ولم يقبل أحد من الأطباء أنْ يستعمل التطعيم، فرجع على عقبيه، وقام عليه خصومه، ونسبوا إليه أموراً يضحك منها الأطفال في هذا العصر، مثل أنه قصد أن يحول البشر إلى بهائم بإدخال مادة بقرية إلى بنيتهم. ونادى رجال الديانة في الكنائس بأن التطعيم صناعة شيطانية شريرة، وتطرَّف بعضهم فقال إنَّ الأولاد المتطعمين تصير وجوههم مثل وجوه البقر، وينبت لهم نتوءات على شكل قرونها، وتتغير هيئتهم رويداً رويداً إلى هيئة البقر، ويصير مزاجهم بقريّاً وصوتهم خواراً. وكانوا يرجمون المتطعم إذا خرج من بيته، ومع كلِّ هذه المقاومات وهؤلاء الأضداد كان التصديق بالتطعيم يمتد يوماً بعد يوم، وأول من أقدم على استعماله السيدتان الشريفتان، السيدة دوسي والكونتة بركلي فطعمتا أولادهما، فانكسرت شوكة المقاومين، ومال الأطباء إلى تصديق جنَّر، ومنهم من حاول أنْ يسلبه شرف هذا الاكتشاف، ولكن خاب مسعاهم، وثبت الحق لجنر وجُوزِي علانية. ثم دُعِي للسكنى في لندن، وأكَّد له البعض أنه يكتسب هناك عشرة آلاف جنيه سنويّاً، فأجابهم إنني في شبيبتي فضَّلت وادي الحياة على جبلها، والآن في شيخوختي لا يليق بي أنْ أطمع بثروة ولا بشهرة.

أما التطعيم فانتشر في كلِّ البلدان المتمدنة في حياة جنَّر، وأقر

لـه الجميـع بالفضـل مـن عـالٍ ودون. قـال كيفيـه: إذا كان التطعيـم هـو الاكتشـاف الوحيـد الـذي اكتُشِـف فـي ذلـك العصـر، فبـه الكفـاءة لإشـهاره إلـى الأبـد، ولـو أنـه قـرع أبـواب المـدارس عشـرين مـرة قبلمـا قبلتـه.

ومـن الذيـن أظهـروا حزمـاً وعزمـاً ومواظبـة وإقداماً السـر تشـارلس بِـل الـذي اكتشـف أمـوراً كثيـرة فـي المجمـوع العصبـي، فـإن كلَّ مـا عرفـه العلمـاء قبـل أيامـه عـن هـذا الجهـاز أوهـن مـن بيـت العنكبـوت، ولـم يزيـدوا شـيئاً تقريبـاً علـى مـا كان يعرفـه ديموقريطـس وإنكسـاغوراس مـن مضـي ثلاثـة آلاف سـنة. وأمـا السـر تشـارلس بِـل هـذا فابتـدأ سـنة 1821 ينشـر رسـائل فـي هـذا الموضـوع مبنيـة علـى أبحـاث مدققـة وامتحانـات متواليـة، تتبَّـع فيهـا ارتقـاء المجمـوع العصبـي مـن أدنـى الحيوانـات رتبـةً حتـى الإنسـان أعلاهـا، وشـرح ذلـك شـرحاً وافيـاً. وهـو الـذي قـال: إنَّ الأعصـاب الشـوكية مزدوجـة الوظيفـة، وإنهـا تنشـأ بأصليـن مـن الحبـل الشـوكي، وإن أحدهمـا للحـس والآخـر للحركـة. ودام هـذا الموضـوع شـاغلاً ذهنـه أربعيـن سـنة. ولكـن أصابـه مـا أصـاب هارڤـي وجنَّـر، وهـو أنـه بعـد أنْ تعـب تعبـاً جزيـلاً فـي إسـكات المسـتهزئين وإفحـام المضاديـن، وجـد أناسـاً كثيريـن قـد قامـوا وادَّعـوا اكتشـافاته. ثـم ثبـت أنـه هـو المكتشـف، وأقـر لـه الجميـع بالفضـل مـن قـاصٍ ودانٍ، حتـى إن كيڤيـه لمـا رأى وجهـه قـد انحـرف وهـو علـى فـراشِ المـوت أشـار إلـى الحاضريـن، وقـال إنَّ هـذا برهـان قاطـع علـى صـدق مذهـب السـر تشـارلس بِـل.

ومـن الذيـن يجـب ذكرهـم فـي هـذا المقـام الطبيـب مرشَـل هُـل، فـإن هـذا الفاضـل مـارس صناعـة الطـب بنشـاط وأمانـة، وكان يبحـث فـي أسـرارها، ويتعمـق فـي غوامضهـا باجتهـاد لا يفوقـه اجتهـاد، منتبهـاً

إلى كلِّ حادثة مهما كانت طفيفة. والاكتشاف العظيم الذي اكتشفه وخلَّد به اسمه بين رجال العلم وهو الفصل العصبي المنعكس، نبهته إليه أسباب بسيطة لأنه كان مرة يمتحن الدورة الرئوية في عظاية من نوع السمندل فقطع رأسها، ونزع ذنبها ووكزها صدفة في غشائها الخارجي. فتحركت وتلوَّت مرات كثيرة، ولم يكن قد لمس عضلة ولا أعصاباً عضلية. ويحتمل أنَّ كثيرين شاهدوا هذه الحادثة قبله، ولكنه كان أول من نظر إليها نظر الخبير المدقق، وأخذ من تلك الساعة يجرب ويمتحن عساه أنْ يعرف سبب هذه الحركة. ويقال إنه أقام خمسة وعشرين ألف ساعة باحثاً في هذا الموضوع حتى عرفه تماماً، وكان في ذلك الوقت يطبب ويُدَرِّس في مستشفى مار توما وفي مدارس أخرى طبية. ومن العجيب أنَّ الجمعية الملكية رفضت التسليم باكتشافه هذا، ولم تسلم به إلّا بعد مضي سبع عشرة سنة حينما قبل في كلِّ الأقطار.

وممن هم مثال للاجتهاد والمواظبة أيضاً السر وليم هرشل الألماني الشهير الأصل. كان أبوه موسيقياً فقير الحال، وله أربعة بنين علمهم حرفته، فأتى أحدهم وليم إلى إنكلترا في طلب الرزق وانتظم في جوقة فرقة حربية، وفي أحد الأيام مرَّ به الدكتور ملر، فسمعه يغني على الكمنجة فأعجبه غناؤه وتحدث معه مدة فَسُرَّ بحديثه، وطلب إليه أنْ يقيم في بيته، فأجابه إلى طلبه وكان في بيته مدة وهو يستغنم كلَّ فرصة للدرس في كتب ذلك الدكتور، وحينئذ صُنع أرغنٌ لكنيسة هليفكس، وطُلب له موسيقي يعزف عليه فوقع الانتخاب على هرشل هذا. ونحو ذلك الوقت اكتُشفت اكتشافات جديدة في علم الهيئة، فانشغل باله بها، ومال إلى البحث في هذا العلم، فاستعار من أحد أصدقائه نظارة من النوع الغريغوري وكان

يرصد بها، ثم سامَ تلسكوباً لابتياعه، فطُلب فيه مبلغ كبير جدّاً، فعزم من ساعته على اصطناع تلسكوب مهما كلفه من التعب. والذين يعرفون ما هو تلسكوب الانعكاس وما يقتضي لعمل مرآته من العناء والمهارة يعرفون عظم العمل الذي أقدم عليه هرشل، ولكنه نجح ولو بعد تعب شاق، وصنع تلسكوباً عاكساً طوله خمس أقدام، نظر به حلقات زُحَل وأقماره، ولم يكتف بذلك بل صنع نظارات عديدة منها ما طوله سبع أقدام وعشر أقدام، وأخيراً صنع واحدة طولها عشرون قدماً. ولما كان يعمل التي طولها سبع أقدام صنع أكثر من مائتي مرآة قبل أنْ يجد واحدة صالحة وهذا دليل قاطع على شدة مواظبته، وكان في غضون هذه المدة يحصّل معيشته من الموسيقى. ثم اكتشف السيار أورانوس وحسب فلكه ومعدَّل حركته، وأرسل النتيجة إلى الجمعية الملكية فاشتُهر بذلك شهرة عظيمة، وعُيِّن فلكيّاً ملكيّاً، ورقَّاه الملك جورج الثالث إلى منصب يليق به. فبقي مع ما حازه من الرفعة والشهرة متضعاً رقيق الجانب، كما كان قبل أنْ يُعرَفَ شيء من أمره، ولعله لا يوجد بين البشر من ضاهاه في الرقة والصبر والنجاح.

وممن هم مثال للصبر والاجتهاد وانتهاز الفرص وليم سمث أبو الجيولوجيا الإنكليزية، فإنه وُلِدَ سنة 1769 من فلَّاح ومات أبوه وهو صبي صغير فكان يُرسل إلى مدرسة في قريته، فلم يتعلم إلا شيئاً يسيراً لأنه كان طائشاً يفضل اللعب على الدرس، ثم تزوجت أمه وتركته، فضمه عمُّه إليه وهو فلاح أيضاً. وكان مغرماً بجمع الحجارة المتنوعة، فلم يستحسن عمُّه ذلك، بل اشترى له كتباً في مبادئ الهندسة والمساحة؛ لكي يدرس فيها، ويصير مسَّاحاً. وامتاز وهو حدَثٌ بدقة النظر وحسن الذاكرة، حتى إنه لم يَنْسَ شيئاً

أمعـن فيـه نظـره. ثـم أخـذ يتعلـم صناعـة الرسـم والتلويـن والمسـاحة وقيـاس الأراضـي، كلُّ ذلـك بـدون أنْ يـدرس علـى أسـتاذ، فصـار معاوناً لمهنـدس كبيـر، فدعـاه عملـه أنْ يجـول مـراراً كثيـرة فـي مقاطعـة أكسـفُرْد ومـا جاورهـا، وكان أول شـيء وجَّـه إليـه أفـكاره أنـواع تربـة تلـك الأراضـي وترتيـب طبقـات صخورهـا، ودُعـي مـراراً كثيـرة لمسـاحة مناجـم الفحـم فـزاد فحصـاً واختبـاراً، حتـى إنـه لمـا بلـغ السـنة الثالثـة والعشـرين مـن عمـره، عـزم أنْ يصنـع مثـالاً يمثـل طبقـات الأرض.

وبينمـا كان يمسـح بعـض الأراضـي لحفـر ترعـة لاحـظ أنَّ الطبقـات التـي فـوق الفحـم الحجـري لـم تكـن أفقيـة بـل مائلـة إلـى الشـرق، وتأكَّـد ذلـك فيمـا بعـد بملاحظتـه الطبقـات فـي واديـن متوازيـن، فـرأى أنهـا جميعـاً تنحـدر نحـو الشـرق، فتغـور مـن طرفهـا الشـرقي، ويظهـر فوقهـا نَضَـد آخـر، ثـم مكنتـه الفرصـة أنْ يتأكـد مـن ذلـك، إذ عُيـن لفحـص الأراضـي الموافقـة لحفـر التـرع فـي إنكلتـرا وويلـس. فجـال فيهمـا، وكان يراقـب هيئـة أراضيهمـا وصخورهمـا، ويعـي كلَّ مـا يـراه فـي ذاكرتـه، فأثبتـت لـه المراقبـة أنَّ الصخـور فـي الأنحـاء الغربيـة مـن إنكلتـرا تميـل إلـى الشـرق والجنـوب الشـرقي، وأنَّ الحجـر الرملـي الأحمـر الـذي فـوق طبقـات الفحـم يمـر تحـت الطبقـات الطفاليـة والكلسـية، وهـذه تمـر تحـت الرمـال والصخـور الكلسـية الصفـراء، وهـذه تمـر أيضـاً تحـت الرواسـب الطباشـيرية فـي الأجـزاء الشـرقية مـن إنكلتـرا. ولاحـظ أيضـاً أنَّ لـكلّ طبقـة من الطفـال والرمـل والكلس نوعاً خاصّـاً مـن الأحافيـر. وبعـد التأمـل الطويـل فـي هـذا الأمـر اسـتنتج منـه نتيجـة لـم يسـبقه إليهـا أحـد قـط، وهـي أنَّ كلَّ مجتمـع مـن الحيوانـات البحريـة المتحجـرة فـي هـذه الطبقـات يـدل علـى أنهـا كانـت فـي قـاع البحـر وقتـاً مـا، وأنَّ كلَّ طبقـة مـن الطفـال والرمـل والطباشـير والحجـر

تـدل علـى حصـة مخصوصـة مـن تاريـخ الأرض.

فشـغف بهـذا الموضـوع حتـى لـم يعـد يفتكـر ولـم يعـد يتكلـم إلا بـه، فصـار إذا حضـر حفـر التـرع أو جـز الغنـم أو غيـر ذلـك مـن الأعمـال يطـرق هـذا الموضـوع ويفيـض فيـه، فلُقِّـب سـمث الطبقـات، ومـع هـذا كله بقـي مجهـولاً لـدى رجـال العلـم. ثـم أخـذ فـي عمـل خريطـة لإنكلتـرا حسـب ترتيـب طبقاتهـا. ولـم ينفـك عـن البحـث والتنقيـب والمراقبـة حتـى صـار يعـرف بنـاء طبقـات الأرض مـن هيئتهـا الظاهـرة وصـار النـاس يستشـيرونه فـي نـزح ميـاه الأرض، واشـتُهر بذلـك شـهرة فائقـة.

وحـدث ذات يـوم أنـه اطَّلـع علـى مجمـوع الأحافيـر الـذي جمعـه القـس صموئيـل رتشردسـن فـي بـاث، فقلـب ترتيبـه ورتبـه ترتيبـاً آخـر، قائـلاً إنَّ هـذه الأصـداف خرجـت مـن الطبقـة الفلانيـة، وتلـك مـن الطبقـة الفلانيـة، فانذهـل القـس المشـار إليـه كلَّ الانذهـال، وصَـدَّقَ قـول سـمث، وصـار مـن أنصـاره. إلّا أنَّ جيولوجـي العصـر لـم يقبلـوا آراءه، بـل لـم يريـدوا أنْ يعرفـوا أنَّ مساحـاً خامـل الذكـر يقـوم ويعلمهـم علـم الجيولوجيـا، وكانـوا يجهلـون أنَّ لـه عينـاً حـادة البصـر تختـرق طبقـات الأرض وتكشـف خفياتهـا، كيـف لا وقـد أملـى مـرة علـى رتشردسـن شـرح ثـلاث وعشـرين طبقـة متواليـة ومـا فيهـا مـن الأحافيـر فكتـب رتشردسـن ذلـك وطبعـه سـنة 1801.

ثـم شـرع فـي فحـص الأراضـي التـي تبعـد عـن بـاث حسـبما سـمحت لـه وسـائطه، فجـال سـنين عديـدة وهـو يعتـاض بسـرى الليـل عمَّـا يضيـع مـن سـير النهـار، وكان إذا دُعـي إلـى أماكـن بعيـدة لعمـل مسـاحي يعتسـف عـن الطريـق لكـي يلاحـظ صفـات الأرض الجيولوجيـة، وبقـي

سنين عديدة يسافر من مكان إلى آخر في إنكلترا وأيرلندا. وكان يقطع أكثر من عشرة آلاف ميل سنويّاً، وفي كلِّ ذلك لم يدع أمراً يتخطى عينيه مهما كان طفيفاً، بدون أنْ يمعن فيه نظره، ولم يترك فرصة تذهب سدًى، وتظهر شدة سعة معرفته الجيولوجية من القصة الآتية، وهي أنه كان مارّاً ذات يوم بقرب تلال طباشيرية، فقال لرفاقه: إذا رأينا أرضاً مكسورة عند سفح هذه التلال وجدنا فيها أسنان كلب البحر، فلم يتقدموا مسافة طويلة حتى التقطوا ستّاً منها من جانب حفرة محفورة حديثاً.

وكان يقول إنَّ عادة الملاحظة رسخت في ذهنه، وصارت ملكة فيه، وكانت تهيج عند أول فكر بالسفر، حتى إنه كثيراً ما كان يسير مصحوباً بخريطات، وقد كتب عليها موضوع بحثه في سيره، والأمور التي يشاهدها، فصار ذهنه كقرطاس معد لرسم كلِّ شيء يراه من أول وهلة.

ولكن مع كلِّ اجتهاده ومهارته تصدَّت له موانع كثيرة منعته من إشهار خريطة طبقات إنكلترا وولس التي صنعها، ودام على ذلك إلى سنة 1814 حينما تمكَّن من نشر ثمرة أتعابه بمساعدة بعض أصدقائه، وقد التزم أنْ ينفق كلَّ ما حصله من صناعته، وأن يبيع ما له من الأملاك؛ لكي يتمكن من الطوفان في الأماكن البعيدة. ونحو ذلك الوقت فتح مقالع الحجارة بقرب باث، فخسر بها والتزم أن يبيع مجموعه الجيولوجي للميوزيوم البريطاني، وباع أيضاً أثاث بيته ومكتبته، ولم يبق إلا أوراقه وخرائطه التي لا تنفع أحداً غيره. واحتمل كلَّ هذه المصائب والخسائر بصبر جميل، ولم ينفك عن البحث برغبته المعتادة، وتُوفِّي في شهر آب أحد شهور سنة 1839 وهو ذاهب ليحضر مجمع تقدم العلوم البريطاني في برمنهام.

أما الخريطة الجيولوجية التي صنعها، فإنها، وإن كانت الأولى من نوعها، فهي في غاية الدقة حتى يعجز القلم عن وصفها وهي أساس كلِّ ما تلاها من الخرائط الجيولوجية. ولم تزل في الجمعية الجيولوجية شاهدة بفضل مخططها مع ما مرَّ عليها من السنين، لأننا إذا قابلناها بالخرائط الحديثة وجدنا بينها موافقة عجيبة في كلِّ الأمور الجوهرية. وقد فاتنا أنْ نذكر أنَّ أهل عصره أقروا له بالفضل، ففي سنة 1831 أهدى إليه مجمع لندن الجيولوجي بنيشان وُلَسْتن على اكتشافاته الجيولوجية كوحدة طبقات الأرض في كلِّ الجهات، وتمييزها بما تتضمنه من الأحافير. ولقد أجاد من قال إنه ما من اكتشاف في العالم يضاهي هذا الاكتشاف إلا إذا اكتُشف أصل الحياة. وسيبقى اسم هذا الفاضل مكرَّماً مشرَّفاً ما دام هذا العلم.

ومن الذين كانت قوة الانتباه قوية فيهم جدّاً وبلغوا بها شأواً بعيداً هيو مِلَّر الذي درس العلوم برغبة وصبر لا مثيل لهما، وكتب تاريخ حياته في كتاب قيم هو غاية في الفائدة، ويظهر منه ما كان في هذا الإنسان من التعويل على نفسه. وهاك جملة وجيزة في سيرته وهي أنه لما كان فتًى صغيراً مات أبوه غرقاً، فلم تمكنه الفرص من الدرس على أساتذة كبار، إلا أنه طالع كتباً كثيرة، فارتشف اليسير من بحر المعرفة من مصادر مختلفة، وعاشر أقواماً متنوعة صناعاً ونجارين وصيادين وملاحين، واستفاد منهم جميعاً، وكان يجول وبيده مطرقة كبيرة يكسر بها الحجارة ويجمع كسرها. وكان في بعض الأيام يقضي يوماً كاملاً في الغابات متأملاً في مناظرها الجيولوجية، ولما ترعرع وُضع عند بنَّاء ليتعلم صناعة البناء وكان مغرماً بها فابتدأ يعمل في مقلع (محجر) فانفتح له

بـاب واسـع لتعلـم الجيولوجيـا فـي ذلـك المقلـع، وكان يـرى فيـه أمـوراً كثيـرة تدهشـه، بينمـا لا يـرى أحـد مـن العامليـن شـيئاً. فأخـذ يقابـل بيـن مـا يـراه مـن طبقـات الأرض، فيـرى مـا بينهـا مـن المطابقـة والمخالفـة، ومـا يمتـاز بـه بعضهـا عـن بعـض، وجـرى علـى هـذا النمـط معتمـداً علـى بصـره وبصيرتـه، وكان رصينـاً مجتهـداً مواظبـاً، وهـذا هـو سـر نجاحـه.

وممـا زاد تعجبـه وانتباهـه البقايـا الآليـة التـي رآهـا فـي الحجـارة التـي كسـرها، أو فـي الصخـور التـي سـحلتها أمـواج البحـر كالأسـماك والأصـداف والأشـنان. ودام هـذا الموضـوع شـاغلاً عقلـه سـنين عديدة، وفـي آخرهـا ألّـف كتابـه فـي الحجـر الرملـي الأحمـر القديـم، فحـاز بـه شـهرة عظيمـة بيـن رجـال العلـم وعـدُّوه مـن علمـاء الجيولويجيـا. وكان هـذا الكتـاب ثمـرة اشـتغاله سـنين عديـدة، قضاهـا فـي التفتيـش والتنقير بصبـر وجَلَـد عظيميـن. ولقـد قـال فـي سـيرته التـي ألّفَهـا «إننـي أنسـب نجاحـي إلـى اعتمـادي فـي البحـث والتنقيـب علـى الصبـر، الأمـر الـذي يقـدر كلُّ إنسـان أن يجارينـي أو يفوقنـي فيـه، ولا ريـب عنـدي أنَّ الصبـر إذا اسـتُعمل حـقَّ الاسـتعمال نتجـت منـه نتائـج خارقـة العـادة، لا يقـدر علـى بلوغهـا مـن كانـت لـه موهبـة خاصـة».

وكان جـون بـرون الجيولوجـي فـي أوَّل حياتـه بنَّـاءً مثـل مِلَّـر، فنبهتـه الأحافيـر الكثيـرة التـي كانـت تقـع تحت نظره إلى درسـها، فدرسـها وجمع منهـا مجموعـاً كبيـراً مـن أفضـل المجاميـع الإنكليزيـة. وهـو الذي اكتشـف بقايـا عظميـة من بقايـا الفيل والكركدن، وأهداها إلـى المتحف البريطاني. ثـم عكـف فـي آخـر حياتـه علـى درس الأصـداف التـي فـي الطباشـير، واكتشـف اكتشـافات مهمـة فـي ذلـك. وتوفّـي سـنة 1859، ولـه مـن العمـر ثمانـون سـنة، وكان شـهماً مفيـداً لأبنـاء جيلـه ومكرَّمـاً مـن الجميـع.

من مدة وجيزة اكتشف السر رُدرك مرتشسن رئيس الجمعية الجيولوجية جيولوجيّاً كبيراً وهو خبَّاز في شمالي إسكتسيا يُسمَّى روبرت دِك، ولما زاره في فرنه رسم له (روبرت دك) هيئة بلاده الجيولوجية بالطحين، وأشار إلى الخطاءِ الذي في الخريطات الموجودة حينئذٍ، قائلاً: إنه قد تأكد ذلك بطوفانه في البلاد في أيام العطلة. وبعد البحث وجد السر ردرك أنَّ ذلك الخباز الشهير كان جيولوجيّاً بارعاً ونباتيّاً من الطراز الأول، وهاك ما قاله في هذا الصدد، وهو: إنني وجدت ذلك الخبَّاز يعرف علم النبات أحسن مما أعرفه بعشرة أضعاف، وعنده مجموع نباتي يحوي كل أنواع النبات إلّا عشرين أو ثلاثين صنفاً من ذوات الأزهار، وهو مرتب أفضل ترتيب، وتحت كل صنف اسمه العلمي.

أما السر ردرك مرتشسن المذكور فعالم مشهور بهذه العلوم وأشباهها، وهاك ما قاله فيه بعضهم في جريدة الكورترلي رفيو؛ قال: إنَّ هذا الفاضل كان في أوائل حياته جنديّاً، ثم عكف على طلب العلم باجتهاد ورغبة لا مثيل لهما، فنال شهرة بعيدة واسماً خالداً، وذلك لأنه ابتاع أرضاً قفراء، وأقام سنين كثيرة يبحث في تركيب صخورها، ثم رتبها حسب بنائها الطبيعي، مشيراً إلى ما في كلِّ طبقة منها من أنواع الأحافير. وهو أول من حلَّ قضيتين كبيرتين من تاريخ الأرض الجيولوجي، وهما تذكار لا يُمْحَى لاسمه وعلمه، ولم يكتف بذلك؛ بل جال بلداناً كثيرة وفحصها فحصاً جيولوجيّاً مدققاً، واكتشف أموراً كثيرة في هذا الفن، ولم يقتصر على الجيولوجيا، بل عكف على علوم كثيرة حتى عُدَّ من أشهر رجال العلم.

وهنا يجدر بنا أنْ نذكر شيئاً من أقوال العرب وطرفاً من ترجماتهم ممَّا يناسب المقام، فنقول: قال الإمام علي كرَّم الله وجهه: «قليلٌ

مُدامٌ عليه خيرٌ من كثير مملول»، وقال أيضاً: «من أطاع التواني ضيَّع الحقوق»، وقال الإمام الشافعي: «احرص على ما ينفعك، ودع كلام الناس»، وقال الشيخ السابوري:

وانتهز الفرصة إمَّا مَرَّتْ فربما طلبتها فأعيت
والأمر إنْ أعيا عليك من عِلِ فاطلبه قبل فوتِهِ من أسفل

وقال بعضهم:

على المرء أنْ يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أنْ يساعده الدهر

وقال ابن لئون التجيبي:

زاحم أُولِي العلم حتى تُعَدَّ منهم حقيقَهْ
ولا يردَّك عجز عن أخذ أعلى طرِيقَهْ
فإنَّ مَنْ جدَّ يُعطى في ما يحبُّ لحوقهْ

وقال ابن سعيد المغربي في وصيته لابنه:

ولا تزل مجتمعاً طالباً من دهرك الفرصة في وثبتك
وكلما أبصرتها أمكنتْ ثبْ واثقاً بالله في مكنتك
ولج على رزقك من بابه واقصد له ما عشتَ في بكرتك
وانمُ نموَّ النبت قد زاره غبُّ الندى واسمُ إلى قدرتكْ
ولا تضيِّعْ زمناً ممكناً تذكاره يذكي لظى حسرتكْ

وقد اشتهر كثيرون من أهل العربية بانتهاز الفرص، فإن ابن خلدون المؤرخ المشهور اضطرته أحوال السياسة مرة أنْ يقيم في البادية أربع سنوات، فاتخذها فرصة أَلَّف في غضونها مقدمته

المشهورة، واستقصى حينئذٍ أحوال العرب والبربر وزنانة، وكتب أخبارهم في تاريخه كما فعل ولتر سكوت عندما كان في جبال اسكتلندا. ثم انتهز فرصة إقامته بالقاهرة، فأكمل تاريخه فيها معتمداً على ما وجده في مكاتبها من الكتب. وياقوت الحموي كان مولاه ينفذه للاتجار إلى البلدان البعيدة، فانتهز هذه الفرصة، وراقب أحوال هذه البلدان وأثبتها في معجمه، ثم اتَّجر بالكتب، فلم يرضَ لنفسه أنْ يحمل أسباب العلم لغيره ولا ينتفع بها هو، بل أكب على الدرس حتى أحاط بعلوم كثيرة.

وقال إبراهيم الصولي المغني: إنَّ أول شيء أُعطيته بالغناء أني كنت بالري أنادم أهلها، وأنفق من بقية مال كان معي من الموصل، فمرَّ بنا خادم أنفذه أبو جعفر المنصور إلى بعض عماله برسالة فسمعني أغني فشغف بي، وخلع عليَّ دواج سمور له قيمة ومضى بالرسالة، ورجع وقد وصله العامل بسبعة آلاف درهم، وكساه كسوة فاخرة، فجاءني إلى منزلي، فأقام عندي ثلاثة أيام، ووهب لي نصف الكسوة وألفي درهم، فكان ذلك أول ما اكتسبته بالغناء، فقلت: لا أنفق هذه الدراهم إلا على الصناعة التي أفادتنيها، قال ذلك وفعل ففاق كلَّ المغنِّين.

وممن اشتهر بانتهاز الفرص ومعرفة قيمة الوقت ابن رشد الفيلسوف الأندلسي المشهور، قال ابن الأبَّار: إنه سوَّد في التأليف عشرة آلاف طبق ورقاً، وإنه لم يصرف ليلة من عمره بلا درس أو تصنيف إلا ليلة عرسه وليلة وفاة أبيه. ويُرْوَى أنَّ ابن الصابوني لما صار خازناً للكتب المستنصرية ببغداد لم يرتض أنْ يكون خازناً لكتب ينتفع بها غيره، ولا ينتفع بها هو، بل أكبَّ على الدرس والتحبير، فألّف مجمع الآداب في خمسين مجلداً، ودر الأصداف في عشرين مجلداً.

ومما يدل على الثبات في الأعمال وتوخي إتقانها أنَّ ابن القسيس البغدادي نسخ قانون ابن سينا كلَّه بخطه، وهو كتاب ضخم يقع في عشرين مجلداً، ثم خرجت النسخة منه بحكم شرعي، وحصلت لخزانة المدرسة المستنصرية، فلما أسنَّ طلبها وقابلها وصححها، وأعادها إلى مكانها، فنسبه مبغضوه إلى فضول، ومحبوه إلى مثوبة يتوخاها. فقال: كلا الفريقين مخطئ وإنما فعلت ذلك لئلا يُزرَى عليَّ بعد موتي.

الفصل السادس

في المصورين والنقّاشين

قال الشاعر ملنس ما معناه:

على الإنسان بالدأب إذا أخطأ ولم يصب
فإن الفضل في الطلب وليس الفضل في الجلب

وقال جوبر: ارتق تَحْيَ

لا يفوق الإنسان غيره إلا بالاجتهاد سواءٌ أكان في التصوير والنقش أم كان في غيرهما. ولا يمكن لأحد أن يصور صورة جميلة بالصدفة، ولا أن ينقش تمثالاً بديعاً بالاتفاق لأن كل لمسة من لمسات قلم المصوّر، وكل ضربة من ضربات أزميل النقاش نتيجة درس متصل. كان من رأي السر يشوع رينلدز أحد آحاد المصورين أن كلّ إنسان يقدر أن يكون مصوراً ماهراً ولو نُسبت المهارة في التصوير إلى الموهبة أو العبقرية أو العطية السماوية، وكتب إلى بري يقول «كلُّ من يقصد أن يمهر في التصوير أو في أي صناعة كانت يجب أن يوجه كلّ انتباهه إلى تلك الصناعة من ساعة قيامه إلى ساعة منامه». وقال في مكان آخر «إن الذين يقصدون أن يمهروا يجب أن يأخذوا في عملهم نهاراً وليلاً إن اختياراً وإن قسراً». إننا لا ننكر أن الاجتهاد والانصباب لا يُصيّران الإنسان مصوراً إذا لم يكن ذا قريحة للتصوير، ولو كانا ضروريين لجعله مصوراً ماهراً، لأن النبوغ أمر طبيعي، ولكنه يتقوّى بالتهذيب الشخصي الذي هو أقوى من كل تهذيب المدارس.

والبعـض، وهـم مـن أعظـم المصوريـن، نبغـوا مـن وسـط الفقـر والمسـكنة، ونجحـوا رغمـاً عـن الصعوبـات الكثيـرة المحيقـة بهـم مثـل: كلودلوريـن الحلوانـي، وتنتورتـو الصبـاغ، وكرفدجيـو سـاحق الأصبـاغ، وكرفدجيـو حمّـال الطيـن، وسـلفاتور روزا رفيـق اللصـوص، وجيتـو الفـلاح، وزنـكارو الغجري، وكافدونـا الشـحاذ، وكنوفـا القطاع، فهـؤلاء، وكثيـرون غيرهـم، برعـوا بواسـطة الاجتهـاد تحـت أشـدّ المصاعـب.

والذيـن اشـتهروا فـي التصويـر فـي البـلاد الإنكليزيـة أكثـر مـن غيرهم، لـم تكـن أحوالهـم أفضـل مـن أحـوال هـؤلاء كثيـراً، فـإن غنسـبرو وباكـون ابنـا خياطيـن، وبـري ابـن بحـري أيرلنـدي ومكليـز كان صانعـاً عنـد بنكـي. وأوبـي ورُمنـي وأنيغـو جونـس كانـوا نجاريـن ووسـت ابـن فـلّاح، ونُرثكـوت كان صانـع سـاعات، وجكسـن خياطـاً، وإتـي طباعـاً، ورينلـدز وولسـن وولكـي أولاد قسـوس، ولورنـس ابـن صاحـب خـان، وترنـر ابـن حـلّاق، وفلكسـمن كان أبـوه يبيـع تماثيـل جبسـين. وبـرد كان ينقـش صوانـي الشـاي، ومرتـن كان يدهـن المركبـات، وريـت وكلبـن كانـا يدهنـان المراكـب، وتشـنتري كان حفـاراً ومذهبـاً، وداود كوكـس وسـتنفيلد وروبرتـس كانـوا يصـورون صـور المراسـح. فلـم يتقدم هـؤلاء الرجـال كلهـم، ويمهـروا فـي التصويـر بالصدفـة ولا بالاتفـاق، بل بالجهـد الجهيـد والتعـب والنصـب والسـهر والأرق. والبعـض منهـم أثروا ولكنهـم قلائـل جـدّاً بالنسـبة إلـى البقيـة، بـل لا يمكـن أن ينكـر الصانـع نفسـه، ويعكـف علـى صناعتـه إذا كان طامعـاً بالربـح. ومـا مـن جـزاء انتظـره هـؤلاء الصنـاع أو نالـوه إلا اللـذة التـي يجدهـا كلٌّ عامـل فـي عملـه. أمـا مـا كان يتبـع ذلـك مـن الغنـى فأمـر ثانـوي لا يُعتـدُّ بـه فضـلاً عـن كونـه نـادراً، وقـد آثـر كثيـر مـن الصنـاع اتبـاع ميلهـم فـي إتقـان

صناعتهم على مساومة الناس. قيل سُئل ميخائيل أنجلو ذات يوم عن رأيه في مُصوّر صوّر صورةً وتعب فيها تعباً جزيلاً قصد الربح، فقال سيبقى فقيراً ما دام راغباً في الربح.

وكان ميخائيل أنجلو هذا يعتقد مثل السر يشوع رينلدز أن كلّ ما تتصوره المخيلة تستطيع اليد عمله على شرط أن تكون مطيعة للعقل. وكان لا يتعب من العمل ولا يمل، ونسب قدرته على مداومة العمل إلى بساطة معيشته، فإنه لم يكن يأكل في أكثر الأيام إلا قليلاً من الخبز والخمر. وكثيراً ما كان يقوم في منتصف الليل ويأخذ في عمله، وهو لابس قلنسوة من الورق الثخين في رأسها شمعة مضيئة. وكان ينام أحياناً بالثياب التي يلبسها وقت العمل، لكي يقوم إلى عمله حالما يرى أنه قد استراح. وكان عنده صورة مجسمة وهي صورة شيخ في مركبة عليها ساعة رملية، وعلى الساعة هاتان الكلمتان Ancora imparo أي لم أزل متعلماً.

وتيشان الشهير كان لا يمل من العمل، وقد عمل في صورة بطرس الشهيد ثماني سنوات، وفي صورة العشاء الأخير سبع سنوات. وقال في كتاب أرسله إلى الملك كارلوس الخامس: إنني مرسل إلى جلالتكم صورة العشاء الأخير، بعد أن عملت فيها سبع سنوات كاملات.

وقليلون يعرفون مقدار الصبر والجلد والمزاولة الطويلة التي يصرفها المصور حتى يتمرن على صناعته، وتصير فيه ملكة، أو حتى تسهل عليه. قال بعضهم لنقاش «أتطلب مني خمسين ديناراً بتمثال عملته في عشرة أيام» فأجابه النقاش «ألا تعلم أنني تعلمت ثلاثين سنة حتى أمكنني عمل هذا التمثال في عشرة أيام». وقيل

إن السر أوغسطس كلكوت صنع أكثر من أربعين رسماً قبلما يكمل صورته الشهيرة بصورة روشستر ولا عجب لأن التكرار الكثير شرط لازم للنجاح في الصناعة وفي غيرها.

ولا بدّ من العناء الطويل في إتقان الصناعة، مهما كانت مواهب الإنسان عظيمة وقريحته متوقدة. وكثيرون من الصناع كانوا أذكياء من صغر سنهم ولكن الذين لم يجتهدوا منهم لم ينفعهم ذكاؤهم شيئاً. قيل إن المصور الشهير وست رأى وهو في السابعة من عمره ابن أخته نائماً، فأخذ قلماً وقرطاساً، ورسم صورته بحبر أسود وأحمر، ثم عكف على الرسم والتصوير حتى صار صرفه عنهما متعذراً. ولكن نجاحه وهو صغير أضر به كثيراً لأنه لم يصادف صعوبات كثيرة، ولم تعلمه التجارب بل اكتفى بما وصل إليه بغير تعب.

ورتشرد ولسن كان وهو ولد صغير، يمسك فحمة، ويرسم بها صور الرجال والحيوانات على جدران بيت أبيه، وكان مغرماً برسم الأشخاص ولكن حدث مرة وهو في رومية أنه أتى بيت زُكارلي وكان زكارلي غائباً فأخذ يصور الأراضي التي تجاه كوة الغرفة التي كان فيها. ثم أتى زكارلي ورأى الصورة فاندهش من حسن منظرها، وقال له: هل تعلمت تصوير الأراضي؟ فأجابه كلّا، فقال له إذن أنصحك أن تتعلمه، وأؤكد لك أنك مصيب نجاحاً عظيماً، فانتصح بهذه النصيحة، وتعلم هذا الفن، وتعب على إتقانه تعباً جزيلاً، فصار رأس مصوري الإنكليز في تصوير الأراضي.

ولما كان السر يشوع رينلدز صغيراً كان يترك دروسه ويلتهي بالرسم، وقد نهاه أبوه عن ذلك مراراً كثيرة، فلم يزدد إلّا ولعاً

وانشغافاً، وبقي على ذلك حتى صار مصوّراً شهيراً. وغنسبرو كان يمضي إلى الغابات وهو ولد، ويمارس التصوير، ولم يبلغ الثانية عشرة حتى صار مصوراً ماهراً. قيل إنه لم ير منظراً يستحق التصوير إلا صوّره. ووليم بلاك كان أبوه يبيع الجوارب، وكان هو يسلي نفسه وهو صغير برسم صور على ظهر قوائم أبيه وعلى مائدته. وإدوارد برد كان يصعد على كرسي وهو ابن أربع سنوات، ويرسم على الحائط ما دعاه صور الجنود الفرنساوية والإنكليزية ولما كبر قليلاً وضعه أبوه عند رجل يصنع صواني الشاي، فتعلم هذه الصناعة، ثم ارتقى بدرسه واجتهاده حتى صار من أعضاء مدرسة التصوير الملكية. وهوغرس لما كان في المدرسة كان مشهوراً بالكسل، وكان متأخراً في دروسه، إلا أنه كان متقدماً على كلّ التلامذة في الكتابة وفي تجميل ما يفرض عليه المعلم كتابته، ثم وضعه أبوه عند صائغ حيث تعلم الرسم على الملاعق والنقش عليها. وأُولع بنقش صور الغيلان والتنانين، وما أشبه مما كان يستعمله أهل الفروسة سمةً لهم، ومن ثمّ تقدم إلى رسم الصور البشرية وإظهار ما فيها من الأمارات، فبلغ في ذلك شأواً بعيداً باجتهاده وتدقيقه. وكان إذا رأى صورة غريبة رسخت في ذهنه بكلّ تفاصيلها حتى يرسمها على القرطاس حينما يريد. ومرّن هذه العادة وقوّاها بالممارسة الطويلة حتى صارت فيه ملكة. وكان إذا رأى صورة بديعة أو هيئة نادرة يرسمها حالاً على ظفر إبهامه لكي ينقلها على القرطاس عندما تمكنه الفرصة، وكان يجد لذة خاصة في كلّ شيء جديد أو غريب حتى لم يفت نظره شيء. وكثيراً ما كان يعرج عن الطريق لكي يرى المناظر الجديدة، فخزن في ذاكرته كثيراً من الرسوم والأوصاف التي ظهرت أخيراً في مصنوعاته، فلذلك ترى في تصاويره رسماً واضحاً لعادات أهل عصره وأخلاقهم وأفكارهم.

ولقد كان من رأيه أن لا مدرسة لتعليم التصوير إلا مدرسة الطبيعة. غير أنه لم يكن متضلعاً من العلوم والمعارف لأنه لم يتعلم في المدرسة أكثر من القراءة والكتابة. ولم يكن ذا ثروة، لكنه كان مقتصداً وكان يفتخر بذلك حتى بعد أن صار من ذوي الشهرة واليسار. وقال من كلام له: إنني لم أنس الزمان الذي كنت أطوف فيه الأسواق منكسر الخاطر، صفر اليدين، ولكنني كنت إذا حصلت بضعة دنانير تقلدت سيفي، ومشيت بين الناس كمن في جيبه ألف دينار.

قيل إن النقاش بنكس الشهير جعل شعاره هاتين الكلمتين: «الاجتهاد والمواظبة»، وجرى على موجبهما وحثّ الغير على ذلك. ولقد اشتُهر أمره باللطف والأنس وسداد الرأي وإخلاص النصح حتى كان يقصده الشبان ليستنصحوه ويستعينوا به. رُوي أن فتًى قصده ذات يوم لهذه الغاية، فقرع الباب شديداً، فخرجت إليه الخادمة مغضبة وانتهرته، وأوشكت أن تطرده، فسمعها بنكس وخرج بنفسه، وقال للفتى: ماذا تريد يا بني؟ فقال يا مولاي: أرغب في أن تدخلني إلى مدرسة التصوير. وكان بيده بعض الصور التي صورها، فقال بنكس (بعد أن أفهمه أن إدخال التلاميذ غير منوط به): أرني هذه الصور، فأخذها وتروّى فيها ثم التفت إليه، وقال له لا تستعجل في الدخول إلى المدرسة، بل اذهب الآن إلى بيتك، وواظب على دروسك واجتهد لكي تصور صوراً أحسن من هذه وتعال إليّ بعد شهر وأرني تصويرك. فذهب وعكف على التصوير باجتهاد شديد ورجع إليه بعد شهر، فرأى بنكس أن تصويره صار أحسن إلا أنه نصحه لكي يداوم على الدرس والتصوير، فرجع إليه بعد أسبوع وإذا بتصويره قد تحسن كثيراً فطيّب قلبه، وقال له إذا

فسح الله لك في الأجل صرت من المصورين العظام وهكذا كان.

إن السبب الأكبر لشهرة كلود لورين اجتهاده العظيم، فإنه وُلد في شمبانيا من والدين فقيرين، ووضع في صباه عند حلواني ليتعلم صناعته، وكان له أخ أكبر منه، حرفته نقش الخشب، فنقله إلى حانوته ليتعلم هذه الحرفة، فأظهر فيها مهارة فائقة. وحدث أن رجلاً مسافراً مرّ به، وطلب من أخيه أن يسمح له باستصحابه معه إلى إيطاليا، فقبل طلبه، وأرسله معه، فوصلا إلى رومية، ودخل كلود في خدمة أغستينوتسي مصور الأراضي، فتعلم منه هذه الصناعة. وطاف في إيطاليا وفرنسا وألمانيا، وكان ينفق من بيع ما يصوره في طريقه من المناظر الطبيعية. ثم رجع إلى رومية، فتقاطر الناس عليه يطلبون صوره، فحاز شهرة عظيمة انتشرت في كلّ أوروبا. وكان يقضي جانباً كبيراً من وقته في تصوير الأبنية والأراضي والأشجار والأوراق وما أشبه. ويبقي صورها إلى حين الحاجة لكي يدخلها في ما عساه أن يصوره. وكان يراقب الجو أياماً كثيرة من الصباح إلى المساء، ويلاحظ تغيراته بمر السحاب واختلاف النور. وبمواظبته على ذلك مهر في صناعته مهارة فائقة، فنال الاسم الأول بين مصوري الأراضي.

وتُرنر الذي لُقب كلود الإنكليز لم يكن دون كلود هذا جدّاً واجتهاداً. قيل إنه كان مراد أبيه أن يعلمه حرفته وهي الحلاقة ولكن حدث أنه رسم صورة على صينية من الفضة، فرآها واحد من زبائن أبيه، وأعجبه منظرها، فعزم أبوه أن يدعه يتعلم التصوير حسب ميله وفعل. فصادف صعوبات كثيرة كغيره من الصنّاع، ولاسيما لضيق ذات يده، إلّا أنه كان يحب العمل، ولا يستعفي منه مهما كان حقيراً لأنه كان يربح به شيئاً من المال ويمهر في صناعته. ومما اشتُهر به

أنه لم يتهامل قط في إتقان صورة من الصور، ولو كانت أجرتها بخسة، بل كان يعمل كلّ شيء بكل ما يمكنه من الإتقان، حتى إنه لم يترك رسماً إلا بعد أن أجاده أكثر من سلفه. ومن يا تُرى يشك في نجاح شخص هذا حاله. فنجح نجاحاً عظيماً، وخلد اسمه بما صوره، ولاسيما في الصور التي وهبها للأمة.

ولطالما كانت بغية المصورين والنقاشين زيارة رومية لأنها مركز أرباب الفنون. والسفر إليها يقتضي نفقة كبيرة والصناع غالباً فقراء، إلا أنهم كثيراً ما كانوا يأتونها رغماً عن كلّ الموانع كما فعل فرنسوا بريه المصور الفرنساوي الذي تمكن من بلوغها قائداً لشحاذ أعمى، وكما فعل جاك كالو الذي كان أبوه من أكبر مضاديه ومُمانعيه عن تعاطي التصوير، إلا أن ذلك لم يكن ليثني عزمه، لأنه هرب إلى إيطاليا، ولما لم يكن معه نفقة السفر اختلط بقوم من الغجر (النور) وجال معهم من مكان إلى آخر شريكاً لهم في السراء والضراء. ودرس في غضون ذلك هيئات البشر وأطوارهم، وظهرت نتيجة درسه في الصور التي حفرها بعدئذ. ولما وصل إلى فلورنسا راقت حذاقته في عيني رجل من أعيانها، فوضعه صانعاً عند حفار، إلا أنه لم يقنع بالإقامة هناك، بل طلب البلوغ إلى رومية، فسدد خطواته إليها، ولم يلبث أن دخلها حتى تعرف ببوريجي وثومسين اللذين تنبئا أنه سيكون من رجال الفن الماهرين لمّا رأيا الرسوم التي رسمها بالكريون. وصادفه هناك أحد أصحاب عائلته، فألزمه أن يرجع معه إلى بلاده وأهله، وكان قد أُولع بالجولان، فترك البيت ثانية، وضرب في البلاد، فذهب أخوه في طلبه، وأرجعه قسراً، ولما رأى أبوه منه ذلك سلم له مكرهاً بالذهاب إلى رومية والدرس فيها. فمضى إليها وأقام فيها

مدة طويلة، وهو يدرس الرسم والحفر على مهرة رجال الفن. ولما كان راجعاً إلى فرنسا شجعه كسمو الثاني على الإقامة في فلورنسا، فأقام فيها سنين عديدة ممارساً صناعته. ولما تُوفّي كسمو المذكور عاد كالو إلى بيت أبيه في ننسي، فاشتُهر فيها شهرة عظيمة، وأثرى إثراءً وافراً. ثم لما أُخذت ننسي في الحروب الأهلية طلب منه رشليه أن يحفر رسم تلك الحادثة فلم يجبه إلى طلبه لأنه لم يرد أن يُبقي ذكراً لما أصاب وطنه من البلايا، فلم ينثن رشليه عن طلبه، ولذلك طرحه في السجن فوجد في السجن بعضاً من أصحابه الغجر الذين سافر معهم. ولما بلغ أمر سجنه الملك لويس الثالث عشر أمر بإطلاقه ووعده بأن يعطيه مهما اقترح عليه، فلم يقترح سوى أن يُطلق سبيل أصحابه الغجر ويؤذن لهم في الاستعطاء في باريس فأُعطي طلبه بشرط أن يحفر صورهم فحفرها وطبعها في كتاب سماه الشحاذين. وقد عرض هذا الملك على كالو ثلاثة آلاف جنيه جُعلاً سنويّاً بشرط ألّا يباين باريس، فلم يرتض محبة بوطنه فرجع إلى ننسي، وواظب على حرفته إلى أن أدركته الوفاة، فترك وراءه ما ينيف على ألف وستمائة صورة محفورة، وهذا يدل على أنه كان من أحذق الحفارين وأكثرهم جلداً وانصباباً، هذا فضلاً عما في صوره من الدقة والإتقان العظيمين.

وهاك سيرة من فاق كلّ من ذكرناهم في اقتحام المخاطر، وهو بنفنيتو سليني الصائغ والمصور وصانع التماثيل والحفار والمهندس والمؤلف، كان أبوه جوفاني سليني من اللاعبين على آلات الطرب في بلاط لورنزودي مديشي في فلورنسا، وكان يود أن يعلم ابنه العزف بالفلوت، ولكنه لم يلبث طويلاً حتى أُخرج من منصبه، فاضطُر أن يعلمه حرفة أخرى، فوضعه صانعاً عند صائغ، وكان

لـه رغبـة شـديدة فـي الرسـم والتصويـر، فمهـر فـي صناعـة الصياغـة. وحـدث ذات مـرة أنـه دخـل فـي خصـام حـدث فـي المدينـة، فنُفـي مـن وطنـه سـنة فذهـب إلـى سـينّا، وكان يعمـل عنـد صائـغ فيهـا، فـازداد خبـرة فـي فنّـي الصياغـة والجوهريـة.

وكان لـم يـزل مـن عـزم أبيـه أن يعلمـه الغنـاء، فبقـي يمـارس العـزف بالفلـوت كرهـاً لأنـه لـم يكـن يلتـذ إلا بالنقـش. ثـم رجـع إلـى فلورنسـا، ودرس أعمـال ليونـردو دافنشـي وميخائيـل أنجلـو، ومـن ثـمّ قصـد رومية ليتقـن صناعـة الصياغـة، فأتقنهـا ورجـع إلـى فلورنسـا ولـه شـهرة عظيمة. ولكنـه كان نزقـاً سـريع الغضـب، فوقـع فيمـا ألجـأه إلـى الهـرب مـن فلورنسـا بـزي راهـب، فأتـى إلـى سـينّا وسـار منهـا إلـى رومية. وصـادف فـي رومية حظّـاً وافـراً، وأُدخـل فـي خدمـة البابـا كصائـغ وموسـيقي. وكان يـدرس مصنوعـات أمهـر رجـال الفـن. ويرصـع بالجواهـر، وينقـش الخواتـم، ويحفـر الذهـب والفضـة والنحـاس، ففـاق كلّ معاصريـه، ولـم يسـمع بصائـغ مشـهور فـي عمـل مـن أعمـال الصياغـة إلّا عـزم أن يفوقـه فيـه، ولـم يتـرك فرعـاً مـن صناعتـه إلا حـاز فيـه قصـب السّـبق، وكان مـع اجتهـاده الجزيـل سـريع التنقـل لأننـا نـراه مـرة فـي فلورنسـا، وأخـرى فـي رومية وأخـرى فـي منتـوا ثـم فـي رومية فنابولـي ففلورنسـا فباريـس. وكان يسـافر مـن مـكان إلـى آخـر علـى ظهـر الخيـل، فلـم يسـتطع أن يأخـذ معـه أمتعـة كثيـرة ولا أدوات، ولكـن كان حيثمـا حـلّ صنـع الأدوات اللازمـة لـه، ولـم تخـرج مـن يـده قطعـة مـن الحُلـي كبيـرة كانـت أم صغيـرة إلا وهـي فـي غايـة الإتقـان فـي شـكلها وصوغهـا ونقشـها لأنـه كان يصنـع كلّ شـيء بيـده. قيـل إنـه دخـل جـراح ذات يوم دكان صائـغ ليعمـل عمليـة جراحيـة فـي يـد ابنتـه، فالتفت سـليني (وكان مـع مـن حضـر) إلـى سـكين الجـراح، وإذا بهـا ضخمـة عديمـة الإتقـان،

فطلب إليه أن يتمهل بضع دقائق، ثم هرع إلى دكانه، وأخذ قطعة من الفولاذ الجيد، وصنعها سكيناً جميلة المنظر بديعة الإتقان، وأعطاها للجراح فعمل العملية بها.

ومن أعظم التماثيل التي صنعها سليني تمثال جوبيتر؛ صنعه للملك فرنسيس الأول، وتمثال فرساوس من النحاس؛ صنعه للغران دوق كسمو الفلورنسي، وصنع تماثيل أخرى من المرمر لأبلُّو وهياسنثوس ونرسسوس ونبتون. أما تمثال فرساوس فإنه صنعه أولاً من شمع وأراه للغران دوق، فقال: إنه لمن المحال أن يُسبك تمثال من نحاس مثل هذا، فدبّت الحمية في رأس سليني، وقال لا بد من أن أسبكه هكذا. ومضى من ساعته، وصنع تمثالاً من خزف وسواه ثم غطاه بالشمع، وجعل ظاهر الشمع بهيئة التمثال تماماً، ثم غطى الشمع بطبقة أخرى من الخزف وشواه ثانية في حفرة محفورة تحت الأتون الذي ذوّب فيه النحاس فذاب الشمع وترك خلاءً بين الخزفين لكي يسكب فيه النحاس المصهور، ولكنه أوقد حطباً من الصنوبر وهو كثير المواد القلفونية، فاحتدمت النار حتى احترق المكان الذي كان العمل فيه، ثم عصفت الرياح، وهطلت الأمطار، فأخمدت النار ولم يُصهر المعدن. فمضى عليه ساعات كثيرة وهو يحاول إبقاءها محتدمة، وقاسى في ذلك تعباً شديداً، فأعيا من شدة التعب حتى خاف أن يقضي نحبه قبل أن يكمل سبك التمثال. فترك العمل إلى معاونيه ومضى إلى سريره، ولكن لم يمض إلا برهة يسيرة حتى دخل واحد منهم وقال له: قد فسد كلُّ عملك. فهرع لساعته إلى الأتون، وإذا بالنار قد خمدت والمعدن قد جمد، فأتى بحطب سنديان يابس من عند جار له، وأخذ يوقد بكثرة فاحتدمت النار وصهر المعدن، إلّا أن الرياح كانت لم تزل تعصف شديداً والأمطار

تهطل غزيرة، فأقام سترة من الموائد والنُّسُج، وجلس تحتها يزج بالوقود ثم رمى في الأتون قطعة من اللحام فوق المعدن، وحرّكه جيداً، فذاب كله، وحان الوقت لسبكه في القالب، وإذا بصوت عظيم أشبه بالرعد القاصف ووميض برق لاح أمام عينيه، فالتفت وإذا بسدادة الأتون قد انفتحت وانبثقت منها الصهارة، ولكنها لم تجر بالسرعة المطلوبة، فأسرع إلى المطبخ وأخذ كل آنيته النحاسية والمصنوعة من القصدير والرصاص، وكانت تنيف على مائتي إناء وطرحها في الأتون، فاستقام جريان الصهارة، وهكذا سبك تمثال فرساوس الشهير. وإسراع سليني إلى المطبخ وتعريته إياه من آنيته يذكرنا بما فعله بالسي لما حرق أثاث بيته كما تقدم في الفصل الثالث.

وممن لهم المقام الأول بين المصورين نيقولا بوسن الذي كان من كبار العقول الرائعي المناقب. وهاك طرفاً من سيرته. ولد في أندليس قرب روان. وكان أبوه يُعلّم في مدرسة صغيرة، فتعلم فيها إلّا أنه كان يتغاضى عن دروسه، ويقضي أكثر وقته في التصوير على حواشي كتبه. فحدث أن مصوراً رأى صوره فأعجبته وطلب من والديه ألّا ينهياه عن التصوير، ثم أخذ يتعلم عند هذا المصور، فنجح نجاحاً عظيماً حتى إنه فاق معلمه. وكان قد زاد ولعه بهذا الفن، فترك معلمه ومضى إلى باريس، وهو إذ ذاك ابن ثماني عشرة سنة، وكان يحصل ما يقوم بمعيشته من تصوير أرمات الحوانيت. فصادف في باريس ميداناً واسعاً للتصوير والنقش، ووجد فيها ما أذهله، فدخل مجامع التصوير، ونقل صوراً عديدة، ولم يلبث طويلاً حتى عزم على زيارة رومية، أم المدائن ومرضعة المصورين، فحرك ركابه نحوها، ولكنه عجز عن البلوغ إليها، وأبعد مكان

وصل إليه فلورنسا، فأقام فيها برهة يسيرة، ثم قفل راجعاً إلى باريس، وبعد قليل سدد خطواته مرة أخرى نحو رومية، فلم يمكنه أن يتخطى ليون إلا أنه لم يدع باباً يُستفاد منه إلّا قرعه، ولم يترك ينبوعاً يُستقى منه إلا ورده.ومضى عليه اثنتا عشرة سنة يعمل في إتقان فن التصوير، وهو بين تصويب وتصعيد إلى أن ساعدته التقادير، فأتى رومية العظمى وأجال طرفه مليّاً في أعمال أرباب الفن ولاسيما في التماثيل القديمة العهد. وأقام عند دوكانوى النقاش الشهير، وساعده في تمثيل أشهر أصنام رومية القديمة. ودرس في غضون ذلك علم التشريح ومارس تصوير الأشخاص، وطالع مؤلفات كثيرة في فن التصوير، استعارها من أصحابها. وكان كل هذه المدة في غاية الفقر إلّا أنه لم يضجر من ذلك لأنه كان يتقدم في إتقان الفن. وكان يبيع صوره بأيّ ثمن كان، فباع صورة نبي بثماني جنيهات وباع صورة الوباء الذي أصاب الفلسطينيين بستين ريالاً، وقد بيعت هذه الصورة ثانية للكردينال ده رشليه بألف ريال. ثم اعتراه مرض شديد فوق ما ألمّ به من التعب، فأنهك جسمه، ولكن رزقه الله من اعتنى به، وهو الشافليه دل بُسُّو فلما نقه صوّر له صورة الراحة في البرية مجازاة له على اعتنائه به فوفّاه وأوفى. ولم يكتف بما حازه من النجاح، فانطلق إلى فلورنسا والبندقية ووسع دائرة معارفه فظهرت أثمار جهاده في صور كبيرة أخذ في تصويرها نحو ذلك الوقت. منها صورة موت جرمانيكس وصورة المن وغيرهما من الصور الشهيرة. فاشتهر صيته ولكن بطيئاً لأنه كان مائلاً إلى العزلة ومجانبة الناس حتى وصفه بعضهم بالتفكير أكثر مما وصفه بالتصوير، فإنه كان يقضي أوقات العطلة جائلاً في البراري متأملاً في كيفيات جديدة للتصوير، وكان يحب رومية ويفضلها على ما سواها لأن ليس فيها تغيرات كثيرة

تزعج البال، فآلى على نفسه أنه إذا حصّل فيها ما يقوم بمعيشته لا ينتقل إلى غيرها. وكان في هذا الوقت قد انتشر صيته إلى خارج رومية، وعُرض عليه أن يرجع إلى باريس، ويكون رأس مصوري الملك، فتردد في أول الأمر في قبول هذه الدعوة، قائلاً إنه عاش خمس عشرة سنة في رومية، وتزوج فيها، فلا ينتظر إلا دنوّ الأجل، ولكن كثُر الإلحاح عليه فترك رومية، وعاد إلى باريس، فصادف فيها الجم الغفير من الحاسدين، وود الرجوع إلى رومية. وصوّر مدة إقامته في باريس صوراً عديدة مثل صورة القديس زفير، وصورة المعمودية، وصورة العشاء الأخير، وكان يصور كلّ ما يُطلب منه مثل الصور التي توضع في فاتحة الكتب الملكية. والرسوم اللازمة لنقش اللوقر والبسط وغير ذلك، فتشكى إلى دوشنتالوب قائلاً «إنني لا أستطيع القيام بهذه الأعمال كلها على اختلاف أنواعها لأن ليس لي إلا يدان ورأس ضعيف، ولا أحد يساعدني ويخفف أتعابي».

قلنا إن نجاحه في باريس أهاج عليه كثيراً من الحاسدين، فلم تطب له الإقامة فيها ولذلك تركها حالما سنحت له الفرصة، ورجع إلى رومية، وسكن في بيته القديم على تل بنشيو، وواظب على صناعته باجتهاد، وكان يعيش بالبساطة، ويقضي القسم الكبير من وقته في المطالعة. وقال من جملة كلام له: إنني كلما أتقدم في السن تزيد رغبتي في إحراز الدرجة العليا بين المصورين. فدام على اجتهاده إلى أن حضرته الوفاة سنة 1665 ولم يخلف ولداً، وكانت زوجته قد تُوفّيت قبله، فأُرسلت تركته إلى أقربائه في أندليس، وكانت تبلغ عشرة آلاف ريال.

ومن المتأخرين الذين تستحق سيرهم أن تُدوّن في بطون التاريخ

آري شفر الذي وقف نفسه على فن التصوير. وُلد في درترخت من والد ألماني حرفته التصوير، فأظهر في حداثته ميلاً إلى هذا الفن، ومات أبوه وهو حدث، فانتقلت به أمه إلى باريس لكي تمكنه من الدرس فيها مع أنها لم تكن من ذوي اليسار، فباعت كلّ حُليِّها، وأنكرت على نفسها كلّ تنعُّم لكي يمكنها أن تقوم بتعليم أولادها. فوضعته عند غارن المصور، ولكن لم يمكنها أن تسمح له بتخصيص كلّ وقته لتعلُّم التصوير. فلما بلغ الثامنة عشرة شرع يصور صوراً صغيرة، ويبيعها بأثمان بخسة، فراجت رواجاً عظيماً. ومارس أيضاً تصوير الأشخاص فربح وتقدّم في إتقان صناعته. وأول صورة عرضها واشتهر بها صورة المعمودية. وما زال يتقدم في صناعته إلى أن بلغ صيته الدرجة العليا، ولا سيما حينما صور صورة الفوست وصورة فرنسيسكا ده ريميني وصورة يسوع المعزي، وصورة النساء القديسات، وصورة القديسة مونيكا والقديس أوغسطينوس وغيرها.

قال المستر غروت: إن مقدار التعب الذي كابده شفر في عمل صورة فرنسيسكا يفوق الوصف وذلك لأن معرفته بأصول العلوم اللازمة لفن التصوير كانت نزرة جدّاً، حتى إنه اضطر أن يتسلق في عراقيبها الشاهقة وليس له دليل سوى عقله الثاقب. وكان عليه أن يجرب أموراً كثيرة في تركيب الألوان قبل أن يصل إلى المطلوب. وكثيراً ما كان يصور الشيء ثم يمحوه ويصوره ثانياً وثالثاً حتى يوافق ذوقه. فكأن الطبيعة قد وهبته قوة الصبر والمزاولة بدل نقص معارفه.

ومن الصنّاع الذين كان شفر يُعجب بهم فلكسمن. قال مرة لأحد أصحابه: إذا كنتُ قد اقتبست شيئاً في صورة فرنسيسكا، وإن يكن

عـن غيـر قصـد، فمـن صـور فلكسـمن. أمـا فلكسـمن هـذا فهـو ابـن رجـل فقيـر، حرفتـه بيـع تماثيـل الجبسـين، وكان فـي صغـره نحيـف الجسـم فـكان يُوضـع فـي دكان أبيـه ويُسـند بالمسـاند، ويتسلّى بالقـراءة والرسـم. وحـدث ذات يـوم أن زار دكان أبيـه الفاضـل القـس متيـوس، وهـو رجـل فاضـل، فـرأى هـذا الولـد عاكفـاً علـى قـراءة كتـاب، فتطلـع وإذا الكتـاب نسـخة مـن كُرنيليـوس نبـوس، اشـتراها لـه أبـوه مـن بعـض المكاتـب، فتحـدث معـه قليـلاً، ثـم قـال لـه: إن هـذا الكتاب لا يناسـبك قراءتـه، ولكنـي سـآتيك بكتـاب أفضـل منـه. فأتـاه فـي اليـوم الثانـي وبيـده نسـخة مـن هوميـرس ونسـخة مـن دون كـوزوت، فقرأهمـا بلـذة وللحـال شـغفت قلبـه حماسـة هوميـرس، وكان فـي دكان أبيـه كثيـر مـن التماثيـل التـي تشـخص أجكـس وأكلـس، فعـزم أن يصـور صـور الأبطال الذيـن قـرأ سـيرهم. فكانـت هـذه الصـور خاليـة مـن كلّ إتقـان مثـل صـور غيـره مـن الأحـداث المبتدئيـن. وفـي أحـد الأيـام أخـذ أبـوه هـذه الصـور، وأراهـا لروبليـاك النقـاش، فتأفّـف مـن رؤيتهـا، ولكـن مـا كان ذلـك ليوهـن عـزم فلكسـمن بـل زاده رغبـة، ومـا لبـث أن صـار يصنـع تماثيـل مـن الجبسـين والشـمع، وبعـض هـذه التماثيـل بـاق تـذكاراً لأول أثمـار قريحتـه.

ثـم إن القـس متيـوس، المتقـدم ذكـره، دعـاه إلـى بيتـه، فقـرأ علـى امرأتـه هوميـرس وملتـون، وعلمـاه كلاهمـا اليونانيـة واللاتينيـة، وكان تصويـره قـد تحسـن فـي هـذا الوقـت، حتـى إن إحـدى السـيدات طلبـت منـه أن يصـور لهـا سـت صـور تشـخص أمـوراً مذكـورة فـي هوميـرس، فصنعهـا وأجـاد، فأعطتـه أجـرة حسـنة، وأثنـت عليـه ثنـاءً جميـلاً، وكانـت هـذه الأجـرة باكـورة مـا كسـبه مـن التصويـر.

ولمـا بلـغ الخامسـة عشـرة تتلمـذ فـي المدرسـة الملكيـة، وفـي وقـت

قصير اشتُهر أمره بين الطلبة مع أنه كان يحب العزلة، فانتظروا منه أموراً كثيرة، ولم يخب انتظارهم لأنه نال الجائزة الفضية وهو في الخامسة عشرة، وكان في السنة التالية بين المستحقين الجائزة الذهبية، وظن الجميع أنه سينالها، ولكن نالها تلميذ آخر لم يُعرف عنه شيء بعد ذلك. واستفاد فلكسمن كثيراً من خيبته هذه لأن الفشل لا يوهن عزم أولي الهمة، بل يزيدهم حزماً وإقداماً، فاسمع ما قاله لأبيه حينئذ، قال «أعطني وقتاً، فأصنع أعمالاً تفتخر بها مدرسة التصوير». ثم أخذ يرسم ويصور باجتهاد لا يفوقه اجتهاد، ولكن كان بيت أبيه في ضنك عظيم لأن تجارة التماثيل الجبسينية لم يكن منها ربح كاف، فطرح هوميرس جانباً، وأخذ يسعف أباه في عمله، فتدرب على احتمال المشقات واستقبالها بالصبر الجميل.

وحدث أن شهرته في الرسم طرقت أذني يوشيا ودجود الخزاف، المار ذكره في الفصل الثالث، فاستدعاه لكي يصنع له رسوماً للخزف الصيني الذي كان يصنعه. وربما ظهر أن هذا العمل لا يليق بمصور ماهر كفلكسمن، وليس الأمر كذلك لأن الآنية التي يقع نظر الناس عليها دائماً تفيدهم رؤيتها ماديّاً وأدبيّاً أكثر من الصور الثمينة، التي تُباع بألوف من الدنانير لتعلق في بيت رجل غني، حيث لا يراها إلا قليلون. وكانت رسوم الآنية الخزفية قبل أيام ودجود بل قبل فلكسمن شنيعةً إلى الغاية، فأبدلها فلكسمن برسوم جديدة تمثل أشخاصاً وحوادث مذكورة في كتب الأقدمين. واقتبس أمثلة من الكؤوس الأترسكانية ونقشها نقشاً جميلاً. وحينئذ نشر ستورت كتابه عن أثينا، وفيه رسوم الآنية اليونانية فاقتبس فلكسمن أجملها منظراً، وتفنّن في رسمها ونقشها، فوضح له أنه عامِلٌ عملاً ذا طائل، لا يقل عن تهذيب الجمهور كله. وكان يفتخر عندما تقدم

في السن أنه هذب ذوقه بهذا العمل، وبثّ محبة التصوير والرسم في أذهان العامة، وكسب مالاً غير قليل، وأغنى ودجود مستخدمه.

وسنة 1782 ترك بيت أبيه، واستأجر بيتاً صغيراً ثم تزوج بفتاة تُدعى حنة دنمن، وكانت تحب الشعر والتصوير وتُعجب بمهارة زوجها، ويقال إن السر يشوع رينلدز المصور الشهير التقى بفلكسمن بعد زواجه بأيام قليلة وقال له: بلغني أنك تزوجت، فإذا كان الأمر كذلك فلم تعد من رجال الفن. وكان رينلدز عزباً. فمضى فلكسمن إلى بيته، وجلس إلى جانب امرأته، وقال لها: ألا ترين يا حنة أني قد عدمت صناعتي، فقالت: من أعدمكها قال: أنت. قالت: وكيف ذلك؟ اصدُقني الخبر، فقص عليها ما قاله له السر يشوع رينلدز، وأخبرها بما يرتئيه، وهو أن من يقصد إتقان الفن يجب أن يصبّ كلّ قوى عقله عليه من الصباح حتى المساء وأنه لا يتسنى لأحد أن يكون من رجال الفن الماهرين ما لم يذهب إلى رومية وفلورنسا، ويشاهد أعمال رافائيل وميخائيل أنجلو وغيرهما، ثم التفت إليها، وقال: وأنا مرادي أن أكون مصوراً ماهراً. فقالت: وستكون وتزور رومية إن كان ذلك لا بدّ منه للمهارة. قال: وبم؟ قالت: بالاجتهاد والاقتصاد لأني لا أريد أن يقال إن حنة دنمن أعدمت يوحنا فلكسمن صناعته. فقال: إذن أمضي إلى رومية وتكونين معي، وسوف أُري الرئيس، يريد به رينلدز لأنه كان رئيس مدرسة التصوير، أن الزواج يؤول إلى خير الرجل لا إلى ضره.

فبقيا خمس سنوات في بيتهما الصغير، واضعين زيارة رومية نصب أعينهما، ولم ينفقا درهما واحداً في غير محله، بل كانا يدّخران كلّ ما يمكنهما ذخره لينفقاه في ذلك السفر الطويل، ولم يكاشفا أحداً بما أضمراه، ولم يطلبا مساعدة المدرسة بل اعتمدا

على عمل أيديهما وميل قلبيهما. ولم يكن فلكسمن قادراً على ابتياع المرمر ونقش التماثيل المبتكرة، ولكنه صنع عدة تماثيل مما يوضع فوق اللحود حسب طلب أهلها، فكسب بها ما يكفي لنفقة بيته، وذخر أجرته التي كان يأخذها من ودجود.

ولما صار لديه ما يكفيه للسفر قام هو وامرأته وتوجها إلى رومية، ولما وصلاها أخذ ينسخ المصنوعات القديمة ويبيع ما ينسخه للزوار وفي ذلك الوقت رسم هوميروس وأسكيلوس ودنتي، وباع كلّ رسم بخمسة عشر شلناً، وصنع رسماً لكوبد (إله الحب) وأورورا (إلهة الفجر)، وصنع صورة فوري (إلهة النقمة)، ثم أخذ يتأهب للرجوع إلى إنكلترا لأنه كان قد نال بغيته. وقبلما يترك إيطاليا انتخبته جمعيتا فلورنسا وكارارا عضواً فيها. ولما وصل إلى لندن وجد أن شهرته قد سبقته إليها، وأن أعمالاً كثيرة مهيأة له، منها التمثال العظيم الشهير الذي صنعه لِيُنصب فوق لحد لورد منسفيلد في وستمنستر، ولم يزل هذا التمثال تذكاراً لمهارة فلكسمن. قال بنكس النقاش، وهو في معظم شهرته عندما رأى هذا التمثال: «قد قصّرنا كلنا عن هذا القصير». (يريد به فلكسمن).

ولما سمع أعضاء مدرسة التصوير والملكية برجوعه، ورأوا ما أذهلهم من المهارة التي أظهرها في تمثال منسفيلد، طلبوا إليه بلجاجة أن يدخل بينهم عضواً، ولم يمض عليه إلا وقت قصير حتى انتُخب أستاذاً للنقش في المدرسة الملكية، ولم يكن أليقَ منه لهذا المنصب، كيف لا وقد حصل ما حصله بالسعي والاجتهاد متغلباً على ما حال دونه من المصاعب.

وعاش فلكسمن زماناً طويلاً في الراحة والتوفيق، ولم يكدر

صفاء عيشه إلا موت امرأته، وعاش بعدها سنين عديدة صنع فيهما شيئين من أعظم ما صنعه وهما ترس أكلس وتمثال ميخائيل رئيس الملائكة قاهراً الشيطان.

وهاك ترجمة نقاش آخر، وهو تشنتري الشهير الذي كان يفتخر بأنه تغلب على الصعوبات الكثيرة المحدقة به باجتهاده. مات أبوه وهو صغير فتزوجت أمه، وكان عمله حينئذ أن يحمّل حماراً وطبي لبن ويسوقه إلى شفيلد فيبيعهما فيها، ولكن زوج أمه تذمر من وجوده في بيته، فوضعه صانعاً عند بدّال (بقال)، فمرّ يوماً أمام دكان نقاش ينقش الخشب ويذهبه فرأى فيه من المصنوعات المذهّبة ما أذهله، فأحب أن يتعلم هذه الصناعة، وأخذ يتوسل إلى أصدقائه لكي يضعوه عند النقاش، فاستحسنوا ذلك، ووضعوه عنده صانعاً ليتعلم النقش والتذهيب على شرط أن يبقى عنده سبع سنوات وكان يقضي كلّ ساعات العطلة في الرسم والتمثيل والدرس حتى إنه كان يُحيي جانباً كبيراً من الليل في مثل ذلك. ولما بلغ الحادية والعشرين، وكان لم ينه الأجل المعين لبقائه تلميذاً عند معلمه، دفع له كلّ ما كان يملكه حينئذ، وهو خمسون جنيهاً لكي يفاسخه العقد الذي بينهما ففسخه، وانطلق إلى لندن، وأخذ يعمل عند نقاش فيها، وكان يمضي أوقات الراحة في درس فن التصوير والتمثيل. ومن جملة الأعمال التي عملها وحده نقش غرفة المائدة لرجرس الشاعر. وكثيراً ما كان يُدعى بعد أن اشتهر أمره ليأكل في تلك الغرفة، فكان يُري المدعوين معه عمله الذي عمله في أوائل حياته.

ثم اقتضى عمله أن يذهب إلى شفيلد، فذهب إليها وأعلن في الجرائد أنه يصور الناس بالكربون وبالزيت، وأول صورة صورها

بالكربون باعها بجنيه إنكليزي، وأول صورة صورها بالزيت باعها بخمس جنيهات وحذاء. ثم رجع إلى لندن ليدرُس في المدرسة الملكية، ولم يلبث طويلاً حتى عاد إلى شفيلد، وأعلن في الجرائد أنه يصنع تماثيل الناس بالجبسين، ويصورهم تصويراً. فطلب منه أن يعمل تذكاراً لقسيس مُتوفًّى فعمله عملاً متقناً. ولما كان في لندن صنع تمثال رأس الشيطان لكي يعرضه في معرض التصوير، وهو أول مبتكراته، وكان في غاية المهابة والغرابة. قيل إن صاحباً له زاره في أواخر حياته والتفت إلى هذا الرأس فاندهش من منظره، فقال تشنتري: إن هذا الرأس أول مصنوعاتي في لندن، وقد صنعته وأنا ساكن بين السقف والقرميد، وعلى رأسي قلنسوة من الورق ولم يمكني حينئذ أن أشتري أكثر من شمعة واحدة فكنت أركزها في قلنسوتي لكي تدور معي كيفما درت. ولما عُرض هذا الرأس في معرض المدرسة الملكية رآه فلكسمن، المار ذكره، فأعجبه حسن صنعته، وكان قوم يطلبون منه نحاتاً ليعمل أربعة تماثيل نصفية لأربعة قواد، فأشار عليهم بتشنتري، فعمل التماثيل وأجاد. وحينئذ دُعي لعمل تماثيل أخرى فترك فن التصوير وأخذ في النحت، مع أنه كان قد استعمل النحت قبل ذلك ثماني سنوات، ولم يكسب منه أكثر من خمسة جنيهات. ومن أشهر ما نحته رأس هورن توك، وكان هذا التمثال سبباً لتشغيله باثني عشر ألف جنيه. فعُدّ بين مهرة النحاتين، واختير من بين ستين نحاتاً لعمل تمثال الملك جورج الثالث لمدينة لندن. وبعد ذلك بقليل عمل التمثال البديع تمثال الأولاد النائمين. ومن ثمّ أخذ صيته ينتشر في الآفاق وشهرته تزيد يوماً فيوماً. وقد نال كلّ ما نال بالصبر والمواظبة. نعم إنه كان ذا موهبة طبيعية فائقة، ولكنه اجتهد في استعمالها حق الاستعمال. وقد أدخل البساطة التامة في جميع مصنوعاته، فإن تمثال وط

الذي صنعه لكنيسة هنسورث بلغ فيه الدرجة القصوى من الإتقان والبساطة. وكان كريماً على أبناء فنه، ووهب الجانب الأكبر من تركته لمدرسة الفنون الملكية لترقية فني التصوير والنحت.

وهاك مثالاً آخر للاجتهاد والمواظبة في حياة داود ولكي المصور، وهو ابن قسيس اسكتلندي، فقد لاحت عليه منذ حداثته أمارات الذكاء والميل إلى فنّ التصوير، فكان يمضي أكثر أوقاته في رسم الوجوه والأشكال مغتنماً كلّ فرصة لذلك، فكنت ترى جدران البيوت ورمال الأنهار مغطاة برسومه. وكان يستعمل كلّ قلم صادفه ولو قطعةً من الفحم، ويصور على كلّ سطح وجده ولو صخراً أملس. وقلما زار بيتاً إلا رسم شيئاً على جداره علامة لمجيئه إليه، ولو على غير إرادة صاحبة البيت. وكان أبوه يكره هذه الصناعة محرّماً إياها، ولكن ما كان ولكي ليرتدع بردع أبيه له، بل أعطى نفسه هواها، وركب مركباً خشناً محفوفاً بالمصاعب. فعرض نفسه عضواً على مدرسة الفنون في إيدنبرج فرُفض لأن صوره كانت بعيدة عن الإتقان فأخذ يجتهد في إتقان التصوير إلى أن قُبل فيها. وكان نجاحه بطيئاً جدّاً إلّا أنه عقد قلبه على النجاح التام، فنجح ولم يقتد بغيره من الشبان الذين لا يبالون بالاجتهاد لزعمهم أن لهم موهبة فائقة، بل كان ينسب كلّ نجاحه إلى اجتهاده الدائم. ثم عزم على المجيء إلى لندن لأن فيها باباً واسعاً للعلم والعمل، فأتاها وصوّر فيها صورته المسماة بفلدج بوليتيشنس (أي رجال السياسة القرويين)، فراقت هذه الصورة في عيون الجمهور، وفتحت له باباً واسعاً للعمل، ولكنه بقي فقيراً وذلك لأنه كان يقيم وقتاً طويلاً على تصوير كلّ صورة فمهما كان ثمنها كثيراً يصير قليلاً نظراً إلى الوقت الذي يضيعه فيها. ووضع لنفسه قاعدة

مثل قاعدة رينلدز، وهي أن كلّ ما يستحق أن يُصنع يجب أن يصنع جيداً. وكان يكره المصورين الثرثارين، ويقول إن المتكلم يزرع والساكت يحصد. ويوبّخ الذين يلهونه بالحديث بقوله لهم هلموا نعمل عملاً ما. وقال مرة لأحد أصحابه إنني لما كنت أدرُس في المدرسة الأسكتسية كان من عادة المعلم غراهم أن يقول لنا بكلام رينلدز: إذا كان لكم موهبة، فالاجتهاد يقويها، وإن لم يكن لكم موهبة فالاجتهاد يقوم مقامها ولذلك عزمت أن أكون مجتهداً إلى الغاية القصوى لأنني أعلم أن ليس لي موهبة.

وهاك مثالاً آخر للاجتهاد العظيم والمواظبة المستمرة في حياة وليم أَتِي وهو ابن صانع كعك وأمه ابنة صانع حبال، وقد وُضع في صغره عند طبّاع ليتعلم صناعة الطباعة، ولكنه كان يغتنم كل فرصة ويمارس الرسم، فكان يملأ الحيطان برسومه ولو بفحمة. ولما انتهت مدة تلمذته للطباعة عزم أن يتبع ميله الطبيعي، فساعده عمه وأخوه حتى طلب في مدرسة الفنون الملكية، ولم يكن ذكيّاً إلّا أنه كان مجتهداً، فارتقى باجتهاده إلى أسمى المراتب.

إن أكثر الصناع قاسوا ضيقات عظيمة، واحتملوا ضنك المعيشة الشديد قبل أن ينجحوا النجاح المطلوب، وكثيرون منهم برّحت بهم المصائب، ولم تنفرج حتى أوردتهم حتفهم. مثال ذلك أن مرتن المصور أصابته ضيقات شديدة قلّ من أصابه نظيرها لأنه مراراً كثيرة أوشك أن يموت جوعاً وهو يصور الصورة الأولى الكبيرة. روى بعضهم أنه لم يكن في كيسه إلّا شلن واحد، وكان قد عني بحفظه لأنه وجده لامعاً أكثر من غيره، ثم اضطر أن يبتاع به خبزاً لسد رمقه، فمضى إلى الخباز واشترى به خبزاً، وهمّ بالخروج، فنظر الخباز وإذا بالشلن زائف، فردّه عليه وأخذ منه

الخبـز. فرجـع إلـى منزلـه منصـدع الفـؤاد، وأخـذ يفتـش فـي مـزوده عساهُ أن يجد شيئاً من فتات الخبز يسد به رمقه. وقد احتمل هذا الضنك الشديد بالصبر الجميل، وجدّ في عمل الصورة حتى أكملها وعرضها وللحال اشتهر أمره بها، وصار يعدُّ بين المصورين العظام. وحياة هذا الرجل تبين، كما تبين حياة سائر المصورين، أن الموهبة المعززة بالاجتهاد تكفي للنجاح مهما كانت الأحوال ضيقة، وأن الشهرة وإن تأخرت فلا بدّ من أن ينالها من يستحقها.

وأفضل الوسائط التي تستعملها مدارس الفنون لا يمكنها أن تجعل الإنسان مصوراً ماهراً ما لم يجتهد هو في ذلك. وهذا الأمر يصدق على كلّ نوع من العلوم والفنون. يُروى أن بوجن المهندس البناء قال بعد أن تعلم من أبيه كلّ ما كان يعرفه من صناعة الهندسة المعمارية: إنه لا يعرف إلا شيئاً يسيراً، وإنه يجب عليه أن يبتدئ من الأول، فأخذ يعمل كمهندس بسيط في بعض المراسح، وتقدم رويداً رويداً إلى أن صار يعمل الأعمال الدقيقة ثم لما أغلق المرسح الذي كان يعمل فيه، أخذ يتاجر في سفينة شراعية بين إنكلترا وفرنسا، وكان كلما سنحت له الفرصة يرسم ما يقع نظرهُ عليه من الأبنية القديمة كالأديرة والصوامع والكنائس، وكان يضرب في البلاد طويلاً لهذا المقصد، وما زال على مثل ذلك حتى بلغ درجة عليا بين أرباب هذا الفن.

ومن قبيل ذلك نجاح جورج كمب راسم مدفن سكُت الشهير، فإنه ابن راع فقير مقامه بين تلال بنتلند، وهناك تربى غير متمتع برؤية شيء من الفنون، ولما بلغ السنة العاشرة أرسله صاحب الغنم التي كان يرعاها أبوه إلى رُزلين، فرأى قلعتها وكنيستها الشهيرتين، واندهش من حسن منظرهما، وبقيت صورتهما في فكره زماناً

طويلاً. ثم طلب من أبيه أن يضعه صانعاً عند نجار ففعل، ولما انتهت أيام تعلمه مضى إلى غلاشس يطلب عملاً، وإذ كان مارّاً في وادي نهر تويد وأدواته في صندوق على ظهره مرت به مركبة، فسأله السائق أين تقصد؟ فقال إنه ذاهب إلى غلاشلس، فأشار إليه أن يصعد إلى المركبة فصعد، وإذا بالسر ولترسكوت راكب فيها، وكان هو الذي أمر السائق أن يُصعده في المركبة. ولما كان يعمل في غلاشلس سنحت له فرص كثيرة لزيارة الأديرة القديمة والاطلاع على ما فيها من صناعة البناء. فطاف في أكثر شمالي إنكلترا، ولم يترك بناءً غوطيّاً إلا زاره ورسمه بعد أن نظر فيه نظراً دقيقاً. ولما كان في لنكشير ذهب إلى بورك ماشياً وذلك مسافة خمسين ميلاً، وبقي أسبوعاً كاملاً وهو يمعن نظره في بناء كنيستها الكبيرة ثم رجع ماشياً. وبعد ذلك انتقل إلى كلاسكو وأقام فيها أربع سنوات وكان يذهب إلى الكنيسة الكبرى كلما مكّنته الفرصة، وينظر في بنائها. ثم انتقل إلى الجنوب ودرس كنائس كنتربري وونشستر وتنترن وغيرها من الأبنية الشهيرة. وسنة 1824 عزم على الطوفان في أوروبا لهذه الغاية، وكان يعول نفسه على الطريق من عمل يديه، فوصل إلى بولون ومنها إلى باريس، فأقام فيها بضعة أسابيع، وكان يرسم كل ما ظنه يستحق الرسم، وكان ماهراً في عمل الآلات والمطاحن فوجد عملاً يعمل به حيثما توجّه، وكان يفضل الإقامة قرب بناء غوطي قديم لكي يمعن النظر فيه كلما سنحت له الفرصة. فبقي سنة في هذه السياحة، ثم انقلب راجعاً إلى اسكتلندا، وواظب على بحثه حتى صار ماهراً في الرسم. وكانت خرائب دير ملروز أحب الخرائب إليه، وقد رسم لها رسوماً عديدة، ثم أخذ يرسم رسوماً لواحد كان شارعاً في طبع كتاب مصور على مبدأ كتاب برتون في آثار الكنائس، وكان هذا العمل يلذ له جدّاً،

وقد عمل فيه برغبة شديدة، واضطر أن يطوف في نصف أراضي اسكتلندا لأجله، إلا أن المؤلف مات فجأة وتوقف عمل الكتاب فطلب كمب باباً آخر للرزق. ولم يشتهر أمره كثيراً مع ما وصل إليه من المهارة واتساع العلم وطول الباع لأنه كان يميل إلى الصمت وعدم التظاهر ولو بما في الواقع. ولما عينت لجنة مدفن سكت جائزة لمن يرسم الرسم الأفضل لذلك المدفن اختير رسمه من بين رسوم كثيرة صنعها أمهر صناع العصر، فأُرسل إليه كتاب يعلمه باختيار رسمه، ولكنه لم يعش بعد ذلك إلا وقتاً قصيراً، ولم ير شيئاً من ثمار أتعابه العظيمة راسخة في حجارة ذلك المدفن، الذي هو أعظم مدفن أقيم لرجل من رجال الإنشاء.

ومن المشهورين بين أرباب الفن جون جبسن. كان أبوه بستانيّاً فرأى ميله إلى التصوير والنقش في الخشب مما كان ينقشه بسكين صغيرة فأرسله إلى لڤربول ووضعه صانعاً عند نقاش خشب، فأتقن هذه الصناعة في وقت قصير وأدهش الجميع بجمال منقوشاته، ثم انتقل من نقش الخشب إلى نحت التماثيل في الحجارة. ولما كان ابن ثماني عشرة سنة صنع تمثالاً للوقت بديع المنظر، فأخذه أولاد فرنسيس النحاتون بعد أن أطلقوه من عند معلمه الأول، ووضعوه عندهم ست سنوات أظهر فيها الغرائب. ثم انتقل إلى لندن، ومن ثمّ إلى رومية، وحينئذ انتشر صيته في كل أقطار أوروبا.

ونوبل باتون المصور الشهير ابتدأ في صناعته يرسم رسوماً لتطريز أغطية الموائد، وكان يرسم الصور البشرية أيضاً ولم يشتهر أمره حتى عينت جوائز لصور البرلمنت، فصور صورة روح الديانة، ونال جائزة من الجوائز الأولى، واشتُهر بها شهرة فائقة، ثم عرض صورة مصالحة أوبرون وتيتانيا وصورة الوطن وغيرهما مما بان منه أنه

كان يتقدم في إتقان هذه الصناعة تقدماً مستمرّاً.

ومنهم جمس شاربلس الحداد، وُلد هذا الرجل سنة 1825 وإخوته وأخواته اثنا عشر وهو الثالث عشر، وكان أبوه يعمل في سبك الحديد، ولم يعلّم أحداً من أولاده في مدرسة، بل كان يرسلهم إلى معمل حالما يصيرون قادرين على العمل. ولذلك صار جمس هذا عاملاً في مسبك قبلما يبلغ العاشرة، ولما بلغ الثانية عشرة دخل معمل الآلات، وكان عمله فيه إحماء المسامير وتقديمها لصانع الخلاقين. وقد حاول أبوه في غضون ذلك أن يعلمه القراءة مع أنه كان يقيم في المعمل من الساعة السادسة قبل الظهر إلى الثامنة بعده. وكان من عادته أن يمسك خيط الطباشير لناظر المسبك عندما يرسم رسوم الخلاقين على الأرض ويساعده في الرسم فأُغرم بالرسم، وصار حينما يرجع إلى البيت يجلس على أرضه، ويرسم عليها رسوم الخلاقين. وذات يوم أُخبرت أمه أن واحدة من نسيباتها آتية لزيارتهم، فنظفت البيت لاستقبالها بقدر ما يمكن، وخرجت فلاقتها وأتت بها، وكان جمس قد عاد في غيبتها من المسبك، وجلس يرسم رسم خلقين على الأرض كجاري عادته، فاغتاظت أمه غيظاً شديداً، إلّا أن نسيبتهم مدحت عمله، وطلبت من أمه أن تعطيه ما يحتاج إليه من الورق والأقلام.

ثم أخذ يرسم صور الأشخاص وينقل الصور المطبوعة، وكان يجهل قوانين النور والأظلال، ولكنه استمر على ما هو فيه إلى أن برع في النقل. ولما بلغ السادسة عشرة دخل المدرسة الميكانيكية لكي يتعلم صناعة الرسم وكان معلم الرسم فيها حلّاقاً قد تعلم الرسم من نفسه، وكان جمس يتعلم في هذه المدرسة يوماً واحداً كل أسبوع، ودام على ذلك ثلاثة أشهر فنصحه معلمه أن يستعير من

المكتبة مقالات برنت في التصوير، ولم يكن يعرف القراءة فكانت أمه تقرأ له وهو يسمع، فشقّ عليه جهله القراءة وخصوصاً لرغبته في هذا الكتاب، فترك الذهاب إلى المدرسة، وأكبّ على تعلم القراءة والكتابة في البيت فنجح سريعاً ثم رجع إلى المدرسة، وصار يقرأ في كتاب برنت ولم يكتف بالقراءة، بل كان يكتب ملخص أمور كثيرة منه ويبقيها معه إلى حين الحاجة.وكان يقوم الساعة الرابعة صباحاً، ويعكف على القراءة إلى الساعة السادسة صباحاً، وحينئذ يذهب إلى المسبك، ويبقى فيه من الساعة السادسة صباحاً إلى الثامنة مساءً، فيرجع إلى البيت ويعود إلى القراءة، ويبقى قارئاً إلى نصف الليل، وكثيراً ما كان يحيي الليل كله في نقل بعض الصور. ثم قصد أن يمارس التصوير بالزيت، فاشترى قطعة جنفيص ومدّها على برواز ودهنها بالأسفيداج وابتاع أدهاناً وأخذ يصور عليها ولكنه لم ينجح لأن الجنفيص كان خشناً، ولم يجف الدهان عليه، فشاور معلمه الحلاق في ذلك، فأخبره من أين يمكنه أن يبتاع جنفيصاً وأدهاناً محضرة للتصوير. فلما صار معه ما يكفي لابتياع المواد اللازمة للتصوير ابتاعها، وأتى معلمه الحلاق، فعلمه بعض المبادئ، فلم يلبث طويلاً حتى فاق معلمه. وأول صورة صوّرها نقلها عن صورة مطبوعة تُدعى جز الغنم فباعها بستة قروش. ثم اشترى رسالة صغيرة في فن التصوير بالزيت، وصنع لنفسه الأدوات التي استطاع صنعها، واشترى البقية بدراهم حصلها مما عمله في المسبك فوق المطلوب منه، وهذا كل ما استطاع والداه أن يسمحا له به لكبر عائلتهما. وكان يذهب إلى منشستر ماشياً لكي يجلب شيئاً من الأدهان والجنفيص، وهي على بعد ثلاث ساعات، ويرجع والتعب آخذ منه كل مأخذ. وما يأتي مأخوذ من كتاب كتبه للمؤلف، قال «والصورة الثانية التي صورتها صورة أرض وأوقع

عليها نور القمر، ثم صورت صورتين أو أكثر، وحينئذ خطر ببالي أن أصور مسبكاً، وكان ذلك في فكري منذ زمان طويل، ولم أجسر عليه قبلاً خوفاً من الفشل ولكني رسمته حينئذ على القرطاس، وشرعت في تصويره على الجنفيص ولم يكن صورة مسبك خاص، ولذلك يمكنني أن أحسبه صورة مبتكرة لأنني لم أنقله عن شيء. وبعد أن رسمت حدوده رأيت أنه يلزمني أن أدرس علم التشريح لكي يمكنني أن أصور أعضاء العمال وعضلاتهم تصويراً صحيحاً. وهنا يجب أن أعترف بفضل أخي عليّ لأنه اشترى لي كتاب فلكسمن في التشريح ولم يكن في طاقتي أن أشتريه لأن ثمنه أربعة وعشرون شلناً، فاعتبرته ككنز ثمين ودرسته باجتهاد لا يفوقه اجتهاد، فكنت أقوم إلى درسه الساعة الثالثة صباحاً، وأعري أخي وأوقفه أمامي لكي أدرس عليه وأرسمه. ومازلت على ذلك إلى أن تيقنت أنني صرت كفؤاً للشروع في صورة المسبك، ولكنني وجدت صعوبة في الأظلال فاستحضرت كتاباً في هذا الموضوع، وأخذت أدرس فيه. وحينئذ طلبت من رئيس المسبك أن يسمح لي بالعمل في الأدوات الكبيرة لأنها تقتضي وقتاً طويلاً لإحمائها فيمكنني في مدة إحمائها أن أرسم رسوماً كثيرة على صفيحة الحديد التي على واجهة الكور.

وما زال يدرس ويعمل حتى أتقن فن التصوير مع كل متعلقاته، وصوّر أباهُ صورة بديعة، ثم أكمل صورة المسبك، ولما رأى رئيس المسبك منه ذلك، طلب إليه أن يصور له عائلته، فصورها صورة متقنة، فلم يكتف بإعطائه الأجرة التي قاوله عليها وهي ثمانية عشر جنيهاً بل أعطاه فوقها ثلاثين شلناً. ولما كان يصور هذه الصورة ترك العمل في المسبك، وقصد أن يتركه دائماً، ويقتصر

على التصوير، فصوّر صوراً عديدة بين منقول ومبتكر، ولما لم ترُج بضاعته كما يجب عاد إلى صناعة الحدادة. وكان يقضي أوقات العطلة في حفر صورة المسبك التي صورها. أما سبب أخذه في حفرها فهو أنه أراها ذات يوم لبائع صور، فقال له: لو حفرها حفار ماهر وطبعها لخرجت ذات رونق بديع. فقال في نفسه علام لا أحفرها أنا. إلا أنه كان يجهل صناعة الحفر على الإطلاق، وهاك وصف المشقات التي عاناها في حفرها:

قال «رأيت إعلاناً في بعض الجرائد من رجل يصنع صفائح الفولاذ لحفر الصور وقد عرضها للبيع بأثمان ذكرها في الجريدة، فاخترت واحدة ذات قدر مناسب، وأرسلت له الثمن المطلوب وزدته قليلاً من الدراهم، وطلبت منه أن يرسل إليّ بعض أدوات الحفر اللازمة، ولم يمكني أن أذكر له أنواع الأدوات لأنني لم أكن أعرف ما هي، فأتتني الصفيحة مع الأدوات. ولما كنت أحفر هذه الصورة أعلنت جمعية المهندسين أنها تعطي جائزة لأحسن صورة تشخيصية تُقدّم لها، فاعتمدت أن أتطفل على أرباب هذه الصناعة، وأطلقت فرسي في ميدانهم، ولحسن حظي نلت الجائزة. ثم انتقلت إلى بلكبرن، ودخلت معمل الخواجات يتس حداداً للآلات، وكنت أقضي أوقات العطلة في الرسم والتصوير وحفر صورة المسبك، وصادفت مصاعب كثيرة في حفرها لأنه لم يكن عندي الأدوات اللازمة، فخطر لي أن أصنع هذه الأدوات بيدي، وبعد تعب كثير صنعت منها ما يوافق ذوقي. وكنت محتاجاً إلى زجاجة مكبرة لأني حفرت قسماً كبيراً من صور المسبك بعوينات أبي قبل أن أجد زجاجة مكبرة تفي بغرضي. وحدثت حادثة بينما كنت أحفر هذه الصورة كادت تجعلني أترك حفرها وذلك أنه كان من عادتي

أن أضع الصفيحة جانباً عندما أُدعى لعمل آخر بعد أن أدهن الجزء المحفور بالزيت حذراً من الصدأ، وذات مرة افتقدتها بعد أن تركتها زماناً طويلاً، فوجدت الزيت قد جمد عليها، فحاولت إخراجه بالإبرة، فوجدت أن إخراجه يقتضي وقتاً قدر وقت الحفر، فأسقط في يدي وساءني الأمر جدّاً ولكنه خطر ببالي أن أغليها في ماء الصودا ففعلت ومسحتها بفرشاة ناعمة فزال الزيت عنها. ولما زالت هذه الصعوبة، رأيت أنه لم يبق عليّ إلا الاستمرار على حفرها بالصبر، ولم يكن من يساعدني ولا من يرشدني في شيء، ولذلك أقول بكل جراءة إنه إذا كان في هذه الصورة شيء من الفضل فجميعه لي وليس لي فيه شريك، وما من شيء يدعوني لإشهارها إلا إظهار ما يمكن أن يعمل بواسطة الاجتهاد والمواظبة وهذا هو فخري». وقال أيضاً: إن زوجته كانت تجلس إلى جانبه وهو آخذ في حفر هذه الصورة، وتقرأ له في الكتب المفيدة، فتسليه وتعينه على السهر الطويل.

وليس من قصدنا أن نطيل الكلام على هذه الصورة وما تستحقه من الإعجاب لأن جرائد التصوير قد استوفت ذلك، وإنما نقول إنه حفرها في أوقات العطلة مدة خمس سنوات، ولم ير قط صورة محفورة قبل أن يتم حفرها وأتى بها إلى المطبعة.

وما رأيناه من الاجتهاد والمواظبة بين المصورين نراه في الموسيقيين لأن فن الموسيقى من أخوات فن التصوير. والموسيقى للأصوات كالتصوير للألوان وكالشعر للكلمات. فهندل الموسيقي المشهور لم يكن يمل من المواظبة، ولم ييأس من الفشل، بل كان يزيد همة كلما زاد الدهر له عناداً، وعمل وحده أعمالاً يعجز عنها اثنا عشر رجلاً. وقال هيدن إن تعلّم فن الموسيقى يقوم

بالمواظبة. وقال موزار «إن العمل لذّتي العظمى». وقال بيتوڤن «لا شيء يصد المجتهد عن التقدم». قيل عرض مشلز كتاب موسيقى على بيتوفن، فرآه قد كتب في آخره: انتهى بعون الله. فكتب تحتها «يا إنسان أَعِنْ نفسك». وقال يوحنا سبستيان باخ «على قدر الاجتهاد النجاح». أما مير بير فقد قال فيه بيل إنه يمارس الموسيقى خمس عشرة ساعة كل يوم، وهو ليس بذي موهبة خاصة ولكنه مفطور على الاجتهاد.

ولم يشتهر الإنكليز كثيراً بوضع الألحان الموسيقية حتى الآن، ولكن قام من بينهم موسيقيون يحق لهم أن يفتخروا بهم مثل: آرن وهو ابن منجد، وكان أبوه عازماً أن يعلمه الحقوق ولكنه كان مغرماً بالموسيقى حتى لم يمكن صرفه عنها، فتعلم اللعب على الكمنجة خفية عن أبيه، وحدث مرة أن أباه دخل بيتاً، فرأى فيه نفراً من الموسيقيين وآرن بينهم، فتركه إلى هواه، فخسر الناس محامياً ولكنهم كسبوا موسيقياً حسن الذوق.

ووليم جكسن وهو ابن طحان غلب المصاعب بالمواظبة. ويظهر أن محبة الغناء كانت وراثية في بيته لأن أباه كان مرتلاً في الكنيسة وجده كان رأس المرتلين، ولما بلغ وليم السنة الثامنة من عمره كان ينفخ على صافور أبيه، وكان فيه بعض الخلل، فاشترت له أمه فلوتاً صغيراً ذا مفتاح واحد، ثم أهدى إليه رجل فلوتاً من الفضة ذا أربعة مفاتيح، فدخل في زمرة الموسيقيين وتعلم مبادئ الموسيقى حسب الأسلوب الإنكليزي القديم، ونجح سريعاً، ثم تعلم اللعب على البيانو. ونحو ذلك الوقت اشترى واحد من جيرانهم أرغناً صغيراً مختلّاً، واجتهد لكي يصلحه، فذهب تعبه سدًى، فأعطاه لجكسن هذا ليصلحه لأنه كان قد أصلح أرغن الكنيسة، فأصلحه

على أتم المراد. وحينئذ خطر ببال جكسن أن يصنع أرغناً مثله، فأخذ هو وأبوه في هذا العمل مع أنهما لم يكونا نجارين. وبعد معاناة مشقات كثيرة استتبّ لهما عمل أرغن يدق عشرة أنغام، فنظر الجميع إليه بعين الاندهاش، وصاروا يدعون جكسن لإصلاح الأراغن فكان يأتي بالغرائب.

وفي ذلك الوقت تألف صفٌّ من المغنين، فصحبهم جكسن فعينوه قائداً لهم، وكان يلعب على كل آلاتهم، ونظم لهم ألحاناً كثيرة، ثم اختير للدق على أرغن جديد، كان قد أهدي للكنيسة، وكان قد ترك صناعته الأولى الطحانة، وأخذ في عمل الشمع الأبيض، وصار يقضي أوقات العطلة في ممارسة الموسيقى. وسنة 1839 نشر أغنية مطلعها «لتغنّ الأودية المخصبة فرحاً»، وفي السنة التالية نال الجائزة الأولى لأغنية نظمها اسمها «أخوات المرج»، ثم نظم ترنيمة مطلعها «يا رب كن لي راحماً»، ونظم غناءً مزدوجاً للمزمور المائة والثالث. وفي غضون ذلك كان آخذاً في نظم خروج بني إسرائيل من بابل، ثم طبعه في أجزاء بين سنة 1844 و 1845، وقد انتهى من طبعه يوم بلوغه السنة التاسعة والعشرين.ثم صار أستاذاً للموسيقى في بردفرد، ومثل بين يدي الملكة فكتوريا في قصر بكنهام وفي قصر البلور، وغنّى لها شيئاً من نظمه، ونال منها الثناء الجميل. وقبل أن تنتهي الطبعة التي ترجم منها هذا الكتاب وردت الأخبار بموت هذا الشهير وله من العمر خمسون سنة، أما ما كتب عنه في هذا الفصل فقد نقله المؤلف عن لسانه، حينما كان يصنع الشمع. وهنا نختم الكلام عن المصورين والنحاتين والمغنين الذين ارتقوا إلى أسمى درجات المجد بواسطة اجتهادهم في العمل ومواظبتهم، وتغلبوا على كل المصاعب التي حالت في طريق تقدمهم.

وكنا نود أن نضيف إلى هذا الفصل شيئاً عن الذين اشتُهروا في المشرق بالتصوير والنحت والغناء من المصريين والآشوريين والبابليين وغيرهم من أمم المشرق، ولكن المعروف من ذلك نزر لا يُعتد به مع أن أمم المشرق أتقنت هذه الفنون إلى الغاية القصوى، ولاسيما فن النحت؛ أي عمل التماثيل كما تشهد الآثار المصرية. أما العرب ومن قام في دولهم فلم يتعاطوا فن التصوير والنحت ولكن قام من بينهم مغنون مشهورون بالغناء مثل إبراهيم الموصلي وابن جامع وغيرهما وحازوا أسمى المراتب بجدهم واجتهادهم في إتقان هذه الصناعة كما سترى.

ولد إبراهيم الموصلي سنة 125 للهجرة وتوفي أبوه بالطاعون وهو ابن سنتين أو ثلاث فنشأ مع أمه وأخواله ولما أدرك صحب الفتيان ومال إلى الغناء فضيّق عليه أخواله بذلك فهرب إلى الموصل وأقام بها فلقب بالموصلي. ثم أتقن صناعة الغناء فبلغ خبره إلى الخليفة المهدي فاستدعاه وسمع منه وأمره أن يلازمه. وكان أميّاً يجهل القراءة والكتابة وفرط منه ذنب حبسه المهدي عليه فتعلم القراءة والكتابة وهو في الحبس. ثم مات الخليفة المهدي وتولى ابنه موسى الهادي الخلافة بعده فقرّب إبراهيم لحسن غنائه وواصله بالعطايا الكثيرة. قال ابنه إسحق لو عاش لنا الهادي بنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة. وقال أيضاً إن أباه صنع تسعمائة صوت تقدّم بثلثمائة منها جميع الناس. وقيل سأل الرشيد يوماً إبراهيم الموصلي كيف تصنع إذا أردت أن تصوغ الألحان فقال يا أمير المؤمنين «أُخْرِجُ الهمّ من فكري وأُمَثِّل الطرب بين عينيّ فتسرع إليّ مسالك الألحان فأسلكها بدليل الإيقاع فأرجع مصيباً ظافراً بما أريد» وهو مثل قول الفيلسوف إسحق نيوتن عندما سُئل بم

اكتشفت هذه الاكتشافات العظيمة، كما جاء في الفصل الأول من هذا الكتاب. ومما يشهد بمهارة إبراهيم في هذه الصناعة ما رواه علي بن عبد الكريم، قال زار ابن جامع إبراهيم فأخرج إليه ثلاثين جارية فضربن جميعًا طريقة واحدة فقال ابن جامع في الأوتار وترٌ غير مستو، فقال إبراهيم: يا فلانة شدي مثناك فشدته، فعجبتُ أولًا من فطنة ابن جامع لوتر غير مستو في مائة وعشرين وترًا، ثم ازداد عجبي من فطنة إبراهيم له بعينه.

ومرض إبراهيم بداء القولنج فلزمه وعاده الرشيد يومًا في مرضه، وقال له: كيف أنت يا إبراهيم؟ فقال كما قال الشاعر:

سقيمٌ ملّ منه أقربوه وأسلمه المداوي والحميم

فقال الرشيد إنا لله، وخرج فلم يبعد حتى سمع الناعية عليه. وكانت وفاته سنة 188 هجرية، وله من العمر 63 سنة، وأسف عليه الناس، ورثاه كثير من الشعراء، من ذلك قول ابنه إسحق:

ستبكيه أشراف الملوك إذا رأوا محل التصابي قد خلا منه جانبه
ويبكيه أهل الظرف طرًّا كما بكى عليه أمير المؤمنين وحاجبه

أما ابن جامع المذكور فمغنّ من أشهر المغنين من طبقة إبراهيم الموصلي ومن معاصريه، وهو عربي الأصل قدم من مكة على الرشيد، وكان حسن السمت متضلعًا بعلوم الدين حتى ظنه أبو يوسف القاضي من الفقهاء. قيل وكان ابن جامع بارًّا بأمه فاحتال عليه الرشيد مرة، وأخبره أنها ماتت، فاندفع يغني بصوت حزين حتى أبكى كل من كان حاضرًا، فأمر له الرشيد بمال كثير، وأعلمه أن الخبر حيلة ليسمع غناءه المحزن.

ومن المغنين المشهورين إبراهيم بن المهدي أخو هرون الرشيد، كان له اليد الطولى في الغناء والضرب بالملاهي، وكان أسود اللون لأن أمه جارية سوداء. ولم يُر في أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لسانًا ولا أحسن منه شعرًا. وبويع له بالخلافة ببغداد والمأمون يومئذ بخراسان، وأقام بها خليفة نحو سنتين، ثم خلعه أهل بغداد ودعوا للمأمون بالخلافة.

ومنهم ابن سريج، وهو تركي الأصل، وكان من أحسن الناس غناءً. غنّى في خلافة عثمان بن عفان، ومات في خلافة هاشم بن عبد الملك وهو أول منْ ضرب بالعود على الغناء العربي بمكة وكان مثلًا في حسن الغناء.

ومنهم ابن مسجح، وهو أول من نقل غناء الفرس إلى غناء العرب. رحل إلى الشام، وأخذ ألحان الروم والبربطية والأسطوخوسية، وانقلب إلى فارس، وأخذ بها غناءً كثيرًا وتعلّم الضرب، ثم قدم الحجاز، وقد أخذ محاسن تلك النغم وألقى منها ما استقبحه وغنى على هذا المذهب، فكان أول من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس بعد ذلك.

والمغنون والمغنيات كُثُرٌ، ونوادرهم عديدة، وكثيرون منهم بذلوا جهدهم في إتقان هذه الصناعة، فتقربوا بها من الملوك، وأثْروا إثراءً وافرًا. ومن أراد الإسهاب في هذا الموضوع فعليه بما جاء في كتاب الأغاني.

الفصل السابع

في العمل وأعيان الأمة

قال مركيز منتروز: من لا يعرّض نفسه للربح والخسارة فهو جبان أو صعلوك. وقيل في إنجيل لوقا: أنزل الأعزاء عن الكراسي وارفع المتضعين.

وقال الإمام الأوزاعي إذا أراد الله بقوم سوءًا أعطاهم الجدل ومنعهم العمل

ذكرنا في ما مضى أن كثيرين من العامّة ارتقوا من أدنى الطبقات إلى أعلاها بالعمل والاجتهاد والآن نقول إن كثيرين من الخاصّة وأعيان الأمة نحوا هذا النحو لأننا إذا بحثنا عن سبب تقدم أشراف الإنكليز واحتفاظهم بما لهم من السيادة جيلًا بعد جيل خلافًا لأشراف سائر الممالك رأينا سبب ذلك أنهُ انتظم في سلكهم من وقت إلى آخر أناس من أعظم الناس اجتهادًا وأكثرهم عملًا.

الناس كلهم من دم واحد وإن كان كثيرون لا يقدرون أن يمتدوا في انتسابهم إلى أكثر من جد واحد فالجميع بلا استثناء يقدرون أن ينتسبوا إلى آدم وحواء. والجاه والمجد لا يدومان لفئة من الناس فكم من عظيم انحط ووضيع سما والدهر في الناس قُلَّب إن دان يوما لشخص ففي غدٍ يتغلب.

والعباد كالبلاد تشقى وتسعد والناس بين تصويب وتصعيد. فإذا راجعنا كتاب برك في نوائب الأُسَر رأينا أن بلايا الخاصّة أكثر

وأشد من بلايا العامّة. فقد ذكر مؤلف هذا الكتاب أنهُ لا يوجد الآن رجل واحد في مجلس الأعيان من نسل الخمسة والعشرين بارونًا الذين انتُخبوا ليجبروا ملك الإنكليز على العمل بالبراءة العظمى (الدستور الانكليزي) لأن الحروب الأهلية والثورات الوطنيّة أهلكت كثيرين من الأشراف، وشتت شمل أولادهم، وأكثر من بقي من نسلهم مختلط بالعامّة وعائش بين أدنى رتبها. وقال فلَر: إن كثيرين من نسل بوهن ومُرتيمر وبلنتجنت اختلطوا بالعامّة حتى عفا أثرهم. وقال برك: إنهُ رأى اثنين من نسل آرل كنت ابن الملك إدورد الأوَّل أحدهما جزار والآخر جابٍ وأن حفيد مرغريتا بلنتجنت ابنة دوق كلارنس انحط إلى أن صار إسكافًا. وأن واحدًا من نسل دوق غستر ابن الملك إدورد الثالث صار قندلفتًا في كنيسة. ويقال إن واحدًا من نسل سمعان ده منتفُرت زعيم أعيان إنكلترا يصنع الآن السروج. ويوجد واحد من عائلة برسي له حق بأن يكون دوق نُرثمبرلند وهو الآن يصنع صناديق في دبلن ومن مدة وجيزة كان واحد يعمل في منجم فحم ويدَّعي بلقب آرل برث. وقال هيوملر: إنهُ لما كان يبني بعض البيوت قرب أدنبرج كان معهُ ولد يحمل الطين يدعى بارليه كروفرد ولم يكن ينقصهُ شيء لإثبات نسبه سوى كتاب زيجة فقدهُ. وكثيرون من الأشراف ماتوا على شجرة عائلتهم بعد أن التهموا كلّ أوراقها. وغيرهم داهمتهم المصائب فحطتهم إلى حضيض الفقر والهوان. هذه نهاية أمجاد الدنيا الغرور. إن أكثر الأعيان الحاليين في البلاد الإنكليزية ارتقوا إلى رتبة الأعيان حديثًا وأكثرهم ارتقوا إليها بواسطة جدهم في عملهم. أما في قديم الزمان فكان الغنى مصدر السيادة فأول من أنشأ أرلية كرونوس هو ثوماس كرنولس التاجر وأرلية اسكس وليم كابل بائع المنسوجات، وأرلية كرفن وليم كرفن الخياط، وأرلية ورك الحديثة وليم كرفل

الصواف، ودوكية نرثمبرلند الحديثة هيوسمثْسَن الصيدلاني، والذي أسس بيت درنموث جلَّاد وبيت ردنور حائك وبيت دوسي خياط وبيت بمفرت تاجر، والذين أسسوا بيرية تنكرفل ودُرمر وكوفنتري كانوا بائعي أنسجة، وأسلاف آرل رمني ولورد ددلي وورد كانوا صاغة، واللورد داكر كان بنكيًّا في عهد الملك تشارلس الأول، كما كان اللورد أوفرستون في عهد الملكة فكتوريا، وإدورد أُسبرن مؤسس دوقية ليدس كان صانعًا عند خياط غني، وحدث أن ابنة معلمه سقطت في نهر التمس فخاطر بنفسه وانتشلها من الماء ثم تزوج بها، ومن جملة الأرليات التي أسسها أرباب الصنائع أرلية فتزوليم ولي وبيتر وكَوْبَر ودَرْنلي وهل وكرنتون، وأصل بيت فولي ونرمنبي رجلان شهيران، وفي سيرتهما فائدة جزيلة فنختار شيئًا منهما.

كان أبو رتشرد فولي مؤسس عائلة فولي ساكنًا في جوار ستوربردج في عهد الملك تشارلس الأول، وكان ذلك المكان مركز المعامل الحديدية، فتربى رتشرد في معمل منها، وتعلم صناعة عمل المسامير، وكان يلاحظ مقدار التعب الشديد الذي يقاسيه العاملون في تقطيع الصفائح وعملها مسامير، ثم أخذت المسامير ترد من أسوج، وكانت تباع بأثمان بخسة فكسدت مسامير ستوربردج، وشاع أنَّ الأسوجيين يصنعون المسامير بطريقة سهلة حتى يمكنهم بأن يبيعوها بأرخص الأثمان ويربحوا، فعزم أنْ يمضي إلى أسوج، ويكتشف سر هذه الصناعة، فأضمر ذلك في نفسه، ولم يكاشف به أحدًا مخافة أنْ يخيب مسعاه، ومضى إلى هل، ورأى سفينة ذاهبة إلى أسوج فنزل فيها، وكان يعمل فيها بما يقوم بأجرة سفره، ولم يكن معه شيء سوى عود يغني عليه، ولما

وصل إلى أسوج قوَّم خطواته نحو معادن دنمورا، وهو يتسول في طريقه ويلعب على العود، وكان جيد اللعب لطيف المحضر، فأنس به الحدادون، وأكرموا مثواه، فكان يلاحظ أعمالهم والآلات التي كانوا يستعملونها، ويذخر ذلك في ذهنه، ولما ظن أنه قد فهم كلّ شيء طلبوه فما وجدوه، أما هو فرجع إلى إنكلترا وكاشف مستر نَيْط ورجلًا آخر بما فعله، وطلب منهما بأن يمداه بالمال لبناء معمل وعمل الآلات اللازمة ففعلا، ولكن لما ترتب كلّ شيء رأى أنَّ الآلات لا تصلح للعمل فاختفى ثانية، وزعم البعض أنه هرب خجلًا ولن يرجع أبدًا، ولكن لم يكن الأمر كذلك بل إنه رجع إلى أسوج لكي يعرف ما هو النقص في الآلات التي عملها، فلما دخل معامل الحديد قابله العمال بكل ترحاب، وكان يلعب على العود كجاري عادته، فنوَّموه بينهم داخل المعامل مخافة أنْ يهرب كما هرب أولًا، ولم يخطر ببالهم أنه أتى ليسرق صناعتهم، فأخذ يمعن نظره في الآلات، فعرف سبب النقص في آلاته، وبقي زمنًا كافيًا لطبع صور الآلات في ذهنه بعد أنْ صور البعض منها حسب طاقته، ثم ترك المعامل على حين غفلة، ورجع إلى بلاده، وعاد إلى مشروعه، وأصلح خلله، ونجح فيه نجاحًا كاملًا، وكسب غنًى وافرًا، وهيَّأ عملًا لكثيرين من الصناع، وكان يساعد في كلّ الأعمال الخيرية، وأنشأ مدرسة مجانية في ستوربردج على نفقته، وابنه ثوماس أنشأ معهدًا لتربية الأولاد في أُلدسونفورد، وقد أُدخل هذا البيت في سلك البيوت الشريفة في عهد الملك تشارلس الثاني.

ووليم فبس مؤسس عائلة نرمنبي، وُلِد سنة 1651، وكان له عشرون أخًا وخمس أخوات، ولم يكن لهم ميراث من أبيهم إلا

صحة أجسادهم، أما وليم هذا فكان يحب سفر البحر، ويفضله على رعاية الغنم التي صرف صباه فيها، وكان يشتهي دائمًا أنْ يصير بحريًّا، ويجول في العالم، وحاول الدخول في مركب فلم يجد، فمضى وصار صانعًا لباني مراكب، وتعلم هذه الصناعة جيدًا، وأتقن القراءة والكتابة في أوقات الفراغ، ثم انتقل إلى بُستُن، وتزوج بأرملة غنية، وأنشأ مبنًى للمراكب، وبنى مركبًا ونزل فيه، وأخذ يتجر بالأخشاب، وبقي على ذلك عشر سنين.

وحدث أنه كان مارًّا ذات يوم في أسواق بستن، فسمع بحريًّا يقول لآخر: قد انكسر مركب إسبانيولي فيه مال كثير عند جزائر بهاما، فلما سمع ذلك جمع فرقة من البحرية، ونزل في مركبه، وقصد السفينة المكسورة، فاهتدى إليها، وخلص كثيرًا من شحنها ويسيرًا من النقود التي فيها، وكل ما خلصه لم يزد على النفقة التي أنفقها إلا أنَّ نجاحه هذا أضرم فيه رغبة شديدة في اقتحام المخاطر، ثم بلغهُ أنَّ سفينة أخرى انكسرت بقرب بورت ده لابلاتا منذ خمسين سنة، وكانت مشحونة بالذهب والفضة، فعزم أنْ يذهب في طلبها، ويصطادها اصطياد السمك، ولكن هذا العمل يقتضي نفقة وافرة، ولم يكن معه شيء منها فمضى إلى إنكلترا، وكان خبر تخليصه شحن السفينة المكسورة في جزائر بهاما قد سبقه إليها، فلما بلغها طلب مساعدة الدولة، وأقنع رجال السياسة بصحة طلبه حتى إنَّ الملك تشارلس الثاني سلمه قيادة سفينة فيها ثمانية عشر مدفعًا وخمسة وثمانون بحريًّا، فأقلع بهم إلى شاطئ هسينيولا، ولكنه رأى أمامه شاطئًا واسعًا وبحرًا لا نهاية له، فأخذت رجاله تغوص إلى أعماق البحر يومًا بعد يوم وأسبوعًا بعد أسبوع لعلها تجد أثرًا يدل على بقايا تلك السفينة فلم تجد.

وكان فبس غاية في شدة العزم وعلو الهمة وعظم الأمل فدام على هذا الأمر مدة حتى قلق النوتية أيَّ قلق، وأخذوا يتناجون قائلين: إنَّ رئيسهم من أضل الناس سبيلًا، ثم جاهروا بالعصيان، وهجم قوم منهم على القمرة، وطلبوا منه أنْ يرجع بهم، إلّا أنه لم يخف من وعيدهم، بل قبض على رؤسائهم وقيدهم، وعند ذلك اضطر أنْ يشطط على جزيرة؛ لكي يصلح السفينة فشطط، وأنزل قسمًا من المؤونة إلى البر، فاتفق أكثر البحرية على أنْ يقبضوا على السفينة ويقتلوه ويصيروا قراصنة، ويغزوا المراكب الإسبانيولية في الأبحر الجنوبية، ولكنهم رأوا أنه من اللازم أن يكون معهم رئيس نَجَّاري المركب فكاشفوه بمكيدتهم، فمضى من ساعته وأخبر فبس بذلك، فجمع فبس الذين يعلم أنهم مطيعون له، وأمر أنْ تُحْشَى المدافع التي تجاه الجزيرة وأن يرفع سلم السفينة، فلما أقبل البحرية الذين صمموا على العصيان منعهم من الدخول إليها وهددهم بإطلاق المدافع إذا اقتربوا من المؤونة التي كانت لم تزل على البر فتنحوا عنها، فأمر أنْ ترجع إلى المركب تحت حماية المدافع، فلما رأى العصاة ذلك خافوا أنْ يُتْرَكوا على تلك الجزيرة القفراء، فيموتوا جوعًا، فطرحوا سلاحهم، وتوسلوا إليه أنْ يردهم إلى السفينة، ويعفوا عن ذنبهم فعفا عنهم، وردهم. وحالما استطاع ترك المتذمرين منهم تركهم، واستخدم غيرهم مكانهم، وحينئذٍ رأى نفسه مضطرًّا أنْ يرجع إلى إنكلترا لكي يصلح السفينة فرجع وعرض كيفية بحثه على وزير البحر، وكانت الحكومة وقتئذ في اضطراب فلم تسمح له بمركب آخر، ولكنه لم يعدل عن عزمه بل أخذ يحث الأغنياء والشرفاء على مساعدته في هذا المشروع وإنشاء لجنة لذلك، وما زال يقرع آذانهم مدة أربع سنوات حتى انتظمت لجنة لهذا العمل رئيسها دوق البمارل ابن الجنرال مُنك

وجمعت له الأموال اللازمة، فكان سفره الثاني ناجحًا مثل سفر فولي؛ لأنه وصل بسرعة إلى بورت ده لابلاتا في جوار الصخور التي كان يظن أنَّ السفينة الإسبانيولية انكسرت عليها وبنى قاربًا قويًّا يسع ثمانية مجاذيف أو عشرة وكان يعمل فيه بنفسه ويقال إنه اخترع آلة تشبه ناقوس الغواصين ولم يكن هو أوَّل من اخترعها ولكنهُ لم يكن عارفًا بها والمرجح أن اختراعه إياها من باب توارد الخواطر. واستخدم أيضًا غواصين من الهنود لأنهم أقدر من غيرهم على الغوص فبقي الغواصون يغوصون ويبحثون في قاع البحر بضعة أسابيع على غير فائدة. وذات يوم كان واحد من الملاّحين يتطلع إلى البحر وهو في القارب فنظر في العمق نوعًا من النبات غريب المنظر ناميًا في شيء كنقر الصخر فطلب إلى غوَّاص هندي أن يغوص ويأتي به فغاص ولما طلع إلى وجه الماء قال: إنه رأى كثيرًا من المدافع فلم يصدق أحد قولهُ ولكنهم وجدوا لدى البحث أنه مصيب ثم وجد واحد من الغواصين سبيكة كبيرة من الفضة والنواقيس حيث وجدت السبيكة وفي أيام قلائل استخرج من الفضة والذهب ما يساوى ثلثمائة ألف جنيه إنكليزي فأقلع راجعًا إلى إنكلترا ولما بلغها حسَّن قوم للملك أن يقبض عليه وعلى المال الذي رجع به زاعمين أنه لما أخبرهم بهذا الأمر لم يفصله كما ينبغي فلم ينقد الملك إليهم بل قال أنا أعلم أن فبس أمين صادق ولذلك هو والذين ساعدوهُ أحق بهذا المال من كلّ أحد. فاقتسم فبس وأعضاء اللجنة المال فكان لهُ منهُ عشرون ألف جنيه. ثم إن الملك منحهُ لقب نيط إظهارًا لأمانته ونشاطه فخدم الدولة خدمًا كثيرة ثم جُعل واليًا على ولاية مستشوستس وبعد ذلك رجع إلى إنكلترا ومات فيها سنة 1695 ولم يكن يخجل من ذكر أصله الوضيع بل كان يفتخر أنهُ رُبّي نجار مراكب فصار نيطًا ثم واليًا.

وحين كانت تشكل عليه المهام السياسية كان يقول إنه يفضل الرجوع إلى قدومه على تولي الولاية. وقد ترك اسمًا مخلدًا في الاستقامة والشجاعة ومحبة الوطن يحق لبيت نرمنبي أن يفتخر به مدى الأجيال.

ووليم بتي أصل بيت لنسدون ولد سنة 1623 وكان مثل فبس في الاجتهاد والنفع للجمهور. وكان أبوه خياطًا فقيرًا فلم يتعلم في صباه إلاَّ بعض المبادئ ثم انتقل إلى مدرسة كاين الكلية وكان يبيع شيئًا من البضاعة فيربح ما يقوم بنفقته ثم رجع إلى إنكلترا وخدم ربان سفينة لكي يتعلم سلك البحر فاحتقره الربان لقبح منظره- فترك البحر وعزم على درس الطب. فمضى إلى باريس وأخذ يمارس التشريح العملي وكان في غضون ذلك يرسم أشكالًا لهُبس إذ كان آخذًا في تأليف مقالاته في فنّ البصريات.. وكان ربحهُ من ذلك يسيرًا جدًّا فوصل إلى الفاقة الشديدة حتى إنهُ اقتات ثلاثة أسابيع بالجوز. فعاد إلى البيع والشراء ولم يمض عليه إلاّ القليل حتى ربح ما مكَّنهُ من العودة إلى إنكلترا فعاد إليها وأخذ يكتب في الفنون والعلوم ويستعمل الكيمياء والطبيعيات واشتهر أمرهُ فيهما. ثم عرض على البعض من أصحابه العلماء إنشاء جمعية علمية فوافقوهُ وأنشؤوا الجمعية الملكية وكانت جلساتها الأولى في بيته. ثم عُين نائبًا لأستاذ التشريح في أكسفُرْد. وسنة 1652 عين طبيبًا للجنود في إرلندا. وحين أخذت الحكومة تهب الأراضي المستصفاة للعساكر رأى أن مسحها لم يكن صحيحًا فأخذ على نفسه مسحها بالضبط ولما كثرت أعماله وأجورهُ اتهمهُ الحساد بالارتشاء فعزل ثم رد إلى منصبه بعد حين. وكان بتي من نوادر الزمان في الاجتهاد والإقدام والاختراع فقد اخترع اختراعات

كثيرة منها مركب مزوج القمر يسير ضد المد والنوء. ونشر كتبًا في الصباغة والفلسفة البحرية ونسج الصوف والحساب السياسي وفي مواضيع أخرى مختلفة وأسس معامل حديد وفتح مناجم رصاص وأنشأ تجارة في الأسماك والأخشاب ومع كلّ هذه الأعمال لم يتأخر عن القيام بما يطلب منهُ في الجمعية الملكية وترك لأولاده ثروة وافرة وأكبرهم صار بارون شلبرن. ووصيتهُ في غاية الغرابة وتظهر منها صفاتهُ بأجلى بيان فقد قال فيها «أما الفقراء والمساكين الذين يستعطون فلا أوصي لهم بشيء وأما المصابون من الله فعلى الأمة أن تعتني بهم، وأما الذين لا حرفة لهم ولا مقتنى فيجب أن يعتني بهم أنسباؤهم»..

إلى أن قال: «وإني قد ساعدت كلّ أنسبائي الفقراء ودربت بعضهم على تحصيل معيشتهم بكدهم وقد اشتغلت بالمصالح العمومية واخترعت اختراعات كثيرة قاصدًا بها خير البشر وإني أوصي الذين يرثون تركتي أن يفعلوا مثلي دائمًا. ولكني جريًا على العادة المألوفة أهب عشرين جنيهًا لأشد المساكين فاقة في القرية التي أموت فيها». ثم مات ودفن في كنيسة رُمزي حيث ولد ولم يزل قبره إلى الآن في تلك الكنيسة وعليه هذه الكتابة «ضريح السر ولم بتي» .

ومن البيوت التي ارتقت إلى مراتب الشرف في أيامنا بواسطة الاختراع والصناعة بيت سترت. وأول من أحرز لها الشرف جدّيا سترت سنة 1758 لما اخترع آلة لاصطناع الجوارب المضلَّعة فكانت سبب غناهُ وغنى نسله من بعده. كان أبوه فلاحًا ولم يعلّم أولادهُ إلاّ قليلًا ولكنهم أفلحوا جميعًا. وجديًّا هذا ثاني أولادهِ وكان يساعده في الفلاحة فأظهر من حداثته ميلًا إلى عمل الآلات وحسَّن

كثيرًا في أدوات الفلاحة التي كانت مستعملة وقتئذ. ثم مات عمهُ فأخذ حقله وتزوج بابنة رجل حرفته بيع الجوارب فأخبره أخوها أن كثيرين قد اجتهدوا في اختراع آلة لعمل الجوارب المضلعة ولم يقدروا فعزم أن يمتحن ذلك فاستحضر آلة لاصطناع الجوارب ونظر فيها مليًا حتى عرف كيفية العمل بها ثم أخذ يغير تركيب إبرها ويزيدها حتى صارت تنسج جوارب مضلعة فعرضها على الحكومة فأجازت له استعمالها ثم انتقل إلى دربي وأخذ يعمل الجوارب المضلعة فيها. واشترك مع آركريت المار ذكرهُ. وكان أولاد جدّيا مثله في الاجتهاد والمهارة وإدورد بن وليم اخترع العجلة المعلقة وصنع ثلاث مركبات عجلاتها معلقة. وقد اشتهرت هذه العائلة شهرة فائقة لأنها استخدمت ثروتها لأعمال حميدة ولاسيما لأنها لم تترك واسطة لتهذيب أخلاق العاملين في معاملها إلاّ استخدمتها. وكانت تشترك في كلّ الأعمال الخيرية بسخاء؛ من ذلك أن يوسف سترت وهب روضًا واسعًا لأهل مدينتهِ. وقد قال من خطبة وجيزة تلاها عليهم حينما وهبهم إياها «أن السعد قد خدمني مدة حياتي فلا يليق بي إلاّ أن أخصص قسمًا من ثروتي بالذين ربيت بينهم واعتضدت بهم».

وأكثر الذين أحرزوا الشرف والسيادة برًا وبحرًا قديمًا وحديثًا أحرزوهما بكدهم وجدهم فمنهم من أحرزهما في حومة الوغى كنلسن وسنت فنسنت وليونس ولنتون وهل وهردنج وكليد وغيرهم ممن نالوا شرفهم بذراعهم ولكن أكثر أشراف الإنكليز ارتقوا إلى سدة الشرف بالعمل والكدح لا بقيادة الجيوش. فإن نحو سبعين شريفًا حصلوا ألقاب الشرف وعملهم القضاء أو المحاماة. وكثيرون كانوا أبناء محامين وبداليين وقسوس وتجار وغيرهم من أهل

الكدح. فاللورد لندهرست ابن مصور وسنت ليونردس ابن مزيّن وإدورد صفدن كان خادمًا واللورد تنتردن ابن حلاق وقيل إنهُ أخذ مرةً ابنهُ تشارلس بيده وأراهُ دكانًا صغيرًا وقال لهُ انظر إلى هذا الدكان فإن أبي جدّك كان يحلق فيه ويأخذ على الرأس عشرين بارة وهذا هو فخري العظيم. وارتقاء كنيون والنبرو إلى منصب لورد تشنسلر[1] ليس أقل غرابة من ارتقاء اللورد تنتردن إلى هذا المنصب وكذا ارتقاء اللورد كمبل وهو ابن مغنّ.

وبين كلّ الذين ارتقوا إلى هذا المنصب ليس من ارتقاؤهُ أغرب من ارتقاء اللورد ألدُن فإنهُ ابن بائع فحم من نيوكاسل وكان في صغره مشهورًا بسرقة الجنائن فقصد أبوه أن يضعهُ صانعًا عند بدَّال ولكنهُ عدل عن ذلك وعزم أن يعلمهُ حرفتهُ وهي بيع الفحم. وحينئذٍ أرسل إليه ابنهُ وليم (وهو الذي دعي فيما بعد لورد ستول) وكان تلميذًا في أكسفرد؛ يقول: ابعث جاك إلي لعلي أدبر له عملًا مناسبًا، فمضى إلى أكسفرد، وتتلمذ فيها ولكنهُ لم يلبث طويلًا حتى أحب فتاة فخطفها ومضى بها وقطع الحدود بين إنكلترا وسكتلندا وتزوج بها ولا بيت لهُ ولا مال فرُفض من المدرسة ومن الكنيسة (لأنهُ كان معيّنًا للقسوسية) فعزم على درس الحقوق وكتب إلى صاحب لهُ يقول قد تزوجت جهلًا ولكني عازم أن أبذل جهدي لأقوم بحاجات المرأة التي أحببتها. ثم أتى لندن واستأجر بيتًا في زقاق كريستور وأقام فيه يدرس علم الحقوق برغبة شديدة فكان يقوم الساعة الرابعة صباحًا (قبل الظهر بثماني ساعات) ولا يلقي الكتاب حتى يمضي أكثر الليل وإذا داهمهُ النعاس ربط رأسه بمنديل مبلول بالماء حتى لا ينام ولم يكن قادرًا أن يدرس على

(1) لقب وزير الحقانية ورئيس مجلس الأعيان.

محام خاص فنسخ بيده ثلاثة مجلدات كبار من كتب الدعاوى ولما صار لورد تشنسلر قال لكاتم أسراره وهما مارَّان في ذلك الزقاق ههنا كان مقري الأول وكثيرًا ما يخطر ببالي كم كنت أمرُّ بهذه السوق وبيدي ثلاثة قروش لأبتاع بها عشائي. ثم مضى إلى المحكمة لكي يستعمل المحاماة فانسدت في وجههِ كلّ الأبواب ولم يربح في السنة الأولى أكثر من تسعة شلنات وبقي أربع سنوات ملازمًا محاكم لندن وغيرها وهو على مثل ذلك. فعزم أن يترك محكمة لندن ويقيم في بعض المدن الصغيرة محاميًا. ولكنهُ نجا من ذلك كما نجا من أن يكون بدالًا وفحامًا وقسيسًا لأنه صادف فرصة لإظهار كلّ معارفه القضائية وذلك أنه كان يحامي في دعوة فحكم لخصمه فاستأنف الدعوة إلى مجلس الأعيان فنقض اللورد ثرلو الحكم الأول وحكم لهُ وهذه أوَّل درجة في سلم ارتقائهِ.

قيل كان من عادة اللورد منسفيلد أن يقول لا أعرف أنهُ كانت فترة بين المدة التي كنت فيها بلا عمل والمدة التي صارت فيها أجرتي ثلاثة آلاف جنيه في السنة. وهذا يصح أن يقال في هذا الرجل فإن نجاحه كان سريعًا جدًا لأنهُ عين في النيابة العمومية وصار رئيس الدائرة الشمالية وعضوًا في البرلمنت قبل أن يناهز الثانية والثلاثين من عمره ومازال يرتقي من درجة إلى أخرى بجدهِ واجتهاده حتى صار لورد تشنسلر وهو أعلى منصب يستطيع الملك أن يرقي أحدًا إليه وبقي في هذا المنصب نحو خمس وعشرين سنة.

وهنري بكرستث كان ابن جراح ودرس الطب في إدنبرج وأظهر في درسه اجتهادًا عظيمًا. وبعد أن أكمل دروسه رجع إلى بيت أبيه وكان يساعده في الجراحة إلاَّ أنه كان يكرهُ هذه الصناعة فألحَّ

علـى أبيـه حتـى أرسـلهُ إلـى كمبـردج وكان مـراده أن يأخـذ ديبلومـا تلـك المدرسـة لكـي يسـوغ لـهُ التطبيـب فـي لنـدن إلاَّ أن اجتهـاده العظيـم فـي الـدرس ألقـاه فـي مـرض فعـرض عليـه أن يكـون طبيبًـا للـورد أكسـفرد وهـو مسـافر فارتضـى راجيًـا اسـترداد صحتـه وسـافر مـع ذلـك اللـورد فـدرس وهـو فـي السـفر اللغـة الإيطاليـة وأغـرم بآدابهـا ثـم رجـع إلـى كمبـردج ونـال الديبلومـا وكان عازمًـا أن يدخـل العسـكرية فلـم يتـح لـهُ ذلـك فدخـل مدرسـة الحقـوق وكل الذيـن رأوه تنبـؤوا بنجاحـه لمـا رأوا فيـه مـن الاجتهـاد. ولمـا صـار لـه ثمـان وعشـرون سـنة مـن العمـر، أذن لـهُ فـي المرافعـة ومضـت عليـه سـنوات قبـل أن يمسـك دعـوى فضـاق بـه الأمـر واشـتدت عليـه الفاقـة فكتـب إلـى أصحابـه الذيـن كانـوا يسـاعدونهُ أنـهُ قـد يئـس مـن النجـاح وعـزم أن يرجـع إلـى كمبـردج فأرسـلوا إليـه قليـلًا حتـى أقبلـت عليـه الدعـاوى. ونجاحـه فـي الدعـاوى الصغيـرة أتـاهُ بدعـاوى كبيـرة صـار يربـح مـا يكفيـه ثـم زاد ربحـهُ وكان مقتصـدًا فأوفـى كلّ مـا اسـتقرضهُ مـع الربـا ومازالـت تنقشـع الغيـوم عـن سـعده حتـى أضـاء كالبـدر وصـار عضـوا فـي مجلـس الأعيـان باسـم البـارون لنغدايـل وقـد نـال مـا نالـهُ مـن الشـرف والفخـر بسـبره وكـده ومواظبتـهِ.

فهـذه أمثلـة قليلـة مـن الرجـال العظـام الذيـن مهـدوا لأنفسـهم طريقًـا للبلـوغ إلـى أعلـى الرتـب باسـتعمالهم قواهـم الطبيعيـة وتقويتهـا بالصبـر والكـد والثبـات.

أمـا أهـل المشـرق فالصناعـة غيـر مكرَّمـة عندهـم غالبًـا ألا تـرى مـا قالـهُ أبـو العتاهيـة وهـو :

وليس على عبدٍ تَقِيٍّ نقيصة إذا صحَّح التقوى وإن حاك أو حَجَم

كأن الحياكة والحجامة من الموبقات . وما أبعد هذا عن قول الإمام عمر رضي الله عنه؛ قال: «إني لأرى الرجل فيعجبني، فأقول ألهُ حرفة؟ فإن قالوا: لا، سقط من عيني».

ولكن كان ذلك قبل أن يتسع ملك العرب ويستولوا على أموال القياصرة والأكاسرة ولذلك قلما تجد من الصناع من حاز مراتب الشرف إذا استثنينا صناعة الإنشاء.

أما أصحاب هذه الصناعة فلم يكن أحد أقرب منهم إلى دست الوزارة، كما ترى في قصة ابن الزيات وابن الأثير وابن مقلة وابن هبيرة وغيرهم ممن يضيق المقام عن ذكرهم، فابن الزيات كان جده يتجر بالزيت في بغداد، وكان هو كاتبًا بديوان الخليفة المعتصم، ويُقال إنه ورد على المعتصم كتاب من بعض العمال، فقرأه وزيره أحمد بن شاذي البصري، وكان في الكتاب ذكر الكلأ، فقال له المعتصم: ما الكلأ؟ فقال: لا أعلم، فقال المعتصم: خليفة أمي ووزير عامي، ثم قال: أبصروا من بالباب من الكتَّاب، فوجدوا ابن الزيات فأدخلوه إليه، فقال له: ما الكلأ؟ فقال: العشب على الإطلاق، فإن كان رطبًا فهو الخلا، فإذا يبس فهو الحشيش، وشرع في تقسيم أنواع النبات، وكان بليغًا عالمًا بالنحو واللغة، فعلم المعتصم فضله فاستوزره وحكمه وبسط يده، ولما ولي الواثق بعد المعتصم وكان قد سخط على ابن الزيات وحلف يمينًا مغلظة أن ينكبه إذا صار الأمر إليه، أمر الكُتَّاب أنْ يكتبوا ما يتعلق بأمر البيعة فكتبوا، فلم يرض بما كتبوه، فكتب ابن الزيات نسخة فرضيها وكفَّر عن يمينه، وقال: «عن المال والفدية عوض، وليس عن الملك وابن الزيات عوض». ولكن لم تدم له النعمة؛ لأنه لما ولي المتوكل بعد الواثق اعتقله وأماته شر ميتة. وابن الأثير

ضياء الدين صاحب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، اتصل بالملك صلاح الدين وخدمه، ثم انتقل إلى خدمة ابنه الملك الأفضل، فاستوزره واستقل عنده بالوزارة، وصار الاعتماد في جميع الأحوال عليه.

وابن مقلة الكاتب المشهور كان في أول أمره يتولى بعض أعمال فارس، ويجبي خراجها، وتقلبت أحواله إلى أن استوزره المقتدر، ثم صار وزيرًا للقاهر بالله والراضي بالله.

وابن هبيرة من قرية ببلاد العراق دخل بغداد في صباه، واشتغل بالعلم، ولازم الكتابة، وحفظ ألفاظ البلغاء، وتعلم صناعة الإنشاء، وتقلب في المناصب الدولية حتى ترقى إلى الوزارة عند الخليفة المقتفي، وتوفرت له أسباب السعادة، ولم تلهه مهام الوزارة عن الدرس والتصنيف، فصنف كتبًا كثيرة، منها: الإفصاح عن شرح معاني الصحاح، وكتاب المقتصد، واختصر كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت.

وقد قام في عصرنا كثيرون من أولاد الصناع والفلاحين، ورقوا أعلى مراتب الشرف بجدهم واجتهادهم، نخص منهم بالذكر العالم الشهير محمود باشا الفلكي، وُلِد هذا الفاضل ببلدة الحصة بمديرية الغربية، وأُرْسِل إلى مدرسة الإسكندرية سنة 1240هـ، فأقبل على اجتناء ثمار العلوم أيما إقبال، ثم أخذ يتنقل في المدارس العليا حتى تعين أستاذًا للعلوم الرياضية والفلكية بمدرسة المهندسين، ثم بعثته الحكومة المصرية إلى أوروبا سنة 1851 ليتمم دراسة العلوم الرياضية والفلكية، فمكث بها تسع سنوات مكبًّا على الدرس والتحصيل، ثم عاد إلى مصر وأُنيط به رسم خريطة للقطر المصري،

فرسم خريطة للوجه البحري لم يأت أحد بأحسن منها، وألّف كتبًا ورسائل كثيرة، ذكرنا أكثرها في السنة التاسعة من المقتطف، وناب عن الحكومة المصرية في المجمع الجغرافي بباريس سنة 1875 وبفنيسيا سنة 1881، وتقلب في الوظائف السامية إلى أنْ بلغ مسند الوزارة، فعُهد إليه بنظارة الأشغال، ثم عهد إليه بنظارة المعارف.

هذا، ومراكز الآستانة العلية والقاهرة المحمية غاصة بالرجال العصاميين، الذين شرَّفوا الفقر الذي وُلِدوا فيه، وصناعة الإنشاء التي اتخذوها سلمًا إلى أعلى مراتب الشرف، ويجب أنْ تجمع ترجماتهم في كتاب يُنْشَر على الملأ؛ لكي يكون أنموذجًا لمن يريد الترقي وذكرًا خالدًا لهمتهم وإقدامهم.

الفصل الثامن

في النشاط والشجاعة

قال جاكس كر: لا مستحيل على القلب الشجاع.
وقال المثل الألماني: الأرض للنشيطين.
وقيل عن الملك حزقيا: إنَّ كلّ عمل ابتدأ به إنما عمله بكل قلبه وأفلح

روي أنَّ أحد جاهلية الألمان قال: إني لا أركن إلى الأصنام، ولا أخاف من الشياطين، بل إنما ثقتي بقوة جسدي وعقلي. وقيل إنَّ أهالي أسوج ونروج كان لهم إله يحمل تمثاله مطرقة، وهذا دليل على اجتهادهم؛ لأن حمل المطرقة من علامات الهمة والنشاط، وقد يُستدل على أخلاق الإنسان وأحواله من أعمال طفيفة يعملها. حُكي أنَّ رجلًا فرنساويًّا قال لصاحب له، وهو عازم على الانتقال إلى ما بين قوم والسكنى في بلادهم: «إياك وهؤلاء الناس؛ لأني رأيت ضربة مطرقة أولادهم الذين يدخلون مدارس البيطرة ضعيفة؛ فهم ليسوا من ذوي النشاط، فإذا سكنت بلادهم خسرْتَ ولم تربح». ولقد أصاب فيما قال؛ لأنه كما يكون الآحاد يكون الشعب، وكما يكون الشعب تكون البلاد.

والنشاط والهمة أساس لكل نجاح، وما أحسن ما قاله بعض بلغاء العرب، قال: «الارتكاض باب الإفلاح، والنشاط جلبابهُ، والفطنة مصباحه، والقحة سلاحهُ، ويجب على طالبه أنْ يقرع باب

رعيه بسعيه، وأنْ يجوب كلّ فج، ويلج كلّ لج، وينتجع كلّ روض، ويلقي دلوه في كلّ حوض، وألّا يسأم الطلب، ولا يمل الدأب؛ لأن من طلب جَلَب، ومن جال نال، والكسل عنوان النحوس، ولبوس ذوي البوس، ومفتاح المتربة، ولقاح المتعبة، وشيمة العجزة الجَهلة، وشنشنة الوكلة النكلة، وما اشتار العسل مَن اختار الكسل، ولا ملأ الراحة مَن استوطأ الراحة، والخور صنو الكسل وسبب الفشل ومبطأة للعمل ومخيَبة للأمل».

والنشاط يوصل الإنسان إلى أعلى مراقي النجاح، مهما حال دونه من الموانع، ومن اتَّصف به سبق المتكلين على مواهبهم، غير معرِّض نفسه للفشل مثلهم، والموهبة من النشاط كالأهلية من الإرادة، فإذا كان الإنسان أهلًا لأن يعمل عملًا ما فلا يعمله ما لم يكن مريدًا، فكما أنَّ الإرادة هي التي تعمل كذلك النشاط هو العامل فينا، وهو الإنسان الأدبي. والأمل الحقيقي مبني على النشاط، قال الشاعر: «ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل»، وقال ابن سيراخ: «ويل لخائر العزم». فلا بركة تضاهي ثبات العزم وحسن الرجاء، فإنه وإنْ خابت أكثر مساعي الإنسان يبقى باله مطمئنًا بأنه قد فعل ما في طاقته، ومَن يضع ملاك الأمل نصب عينيه يحتمل المتاعب بالصبر الجميل، ويلقى المحن متهللًا مسرورًا، وأتعب الناس وأكثرهم شقاءً من قصرت مقدرته واتسعت مطامعهُ.

وأتعب خلق الله من زاد همُّه وقصَّر عمَّا تشتهي النفس وجده

ومن كان غذاؤه الأماني عاش خائر القوى، وأكثر الناس تعرضًا لهذا الداء العضال هم الشبان؛ فيجب أنْ يُدرَّبوا من صغرهم على إخراج كلّ شيء من حيز الأمل إلى حيز العمل.

قال آري شفر: لا شيء يثمر إلاَّ بتعب العقل والجسد، والحياة جهاد مستمر، كما أرى بنفسي، وما فخري إلا بنشاطي، فإن عزيز النفس شريف المطالب، يستطيع أنْ يفعل كلّ ما يشاء، وقال هيوملر: «إنَّ المدرسة الوحيدة التي تعلمت فيها العلم الحقيقي هي مدرسة العالم التي يُعلِّم فيها التعب والعناء معلمان صارمان ولكن شريفان». ومن يتردد في عمله، ولا يقتحم المصاعب بقدم راسخة، وعزيمة ماضية تحبط مساعيه ويعود بالفشل، وأمَّا إذا نهض لعمله بهمة وحزم انقشعت غيوم مصاعبه، كما ينقشع الضباب بحرِّ الشمس، قال الشاعر:

وإني إذا باشرتُ أمرًا أريده تدانت أقاصيه وهان أشده

والإكباب على الأعمال عادة كبقية العوائد والمواظبة تجعله ملكة، وكل من أكب على عمله بجدٍّ أفلح فيه ولو كان معتدل القوى. قيل إنَّ فول بكستن اتَّكل على الوسائط الاعتيادية والإكباب الشديد جاريًا على قول الحكيم: كلّ ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك، ونسب نجاحه إلى إكبابه بكليته على أمر واحد في وقت واحد، ولا يبلغ الإنسان أمرًا ذا طائل إلا بالعمل المقرون بالشجاعة، والإنسان يقوى باقتحام المصاعب، وهذا هو الجهاد، ونتائج هذا الجهاد تدهش كلّ من ينظر فيها، حتى إنَّ توقُّع المستحيل يصيِّر المستحيل ممكنًا، والآمال طلائع الأعمال، وأمَّا ضعيف الهمة والمتردد في أموره فيرى الممكن محالًا.

حُكي أنَّ جنديًّا فرنساويًّا كان يمشي في غرفته ويقول: لا بُدَّ من أنْ أصير مرشالًا، وما به من شدة الأمل هوَّن عليه كلّ أمر عسير، فنال مُنْيته وصار مرشالًا عظيمًا. وقيل إنَّ واحدًا مرض مرة فعزم أنْ يُشفَى فشُفِي من تلقاء عزمه، وإنَّ المولى مولك القائد المراكشي كان

مصابًا بمرض عضال حين انتشبت الحرب بين جيوشه والجيوش البرتوغالية، فلما سمع صرخات الحرب نهض عن سريره واقتاد جيشه، وبقي حيًّا حتى فاز بالغلبة على العدو.

والإرادة هي التي تُقدر الإنسان على عمل ما يريد عمله. قال بعض الأفاضل: الإنسان كما يريد. وحكى بعضهم أنه رأى نجارًا يصلح كرسيًّا لأحد القضاة، وكان يعتني بإصلاحه أكثر من المعتاد، فقال له: ما لك تعتني بإصلاح هذا الكرسي اعتناءً شديدًا؟ قال: لأني أريد أنْ أجلس عليه يومًا ما، وهكذا كان؛ لأن ذلك النجار درس الفقه، وجلس على ذلك الكرسي، ولا داعي لما أقامه المنطقيون من الأدلة على أنَّ الإنسان حر الإرادة؛ لأن كلّ إنسان يحس بأنه متروك إلى حريته، وله أنْ يختار الخير أو الشر، وليس الإنسان ورقة تُرمَى في النهر لتدل على سرعة مجراه، بل هو سباح نشيط يقاوم المجاري ويصارع الأمواج، ويسير إلى حيث أراد بقوة ذراعيه. نعم إننا أحرار، ولنا حرية أدبية لنعمل ما أردنا، ولسنا مرتبطين بطلسم أو سحر يربطنا بعمل من الأعمال، ومن لا يشعر هذا الشعور لا يُرجَى منه كبير فائدة.

ومهام الحياة وعلاقات البشر العائلية والمدنية والعلمية تصرِّح بلسان واحد أنَّ الإنسان حرُّ الإرادة، ولولا ذلك ما كان الإنسان مطالبًا، ولا كانت فائدة من التعليم، ولا من النصح، ولا من الوعظ، ولا من الحث، ولولا حرية الإرادة ما وُجدت الشرائع؛ لأن وجودها يستلزم كون الإنسان حرًّا أنْ يطيعها أو يعصاها حسب موافقتها أو مضادتها له، ونحن نحس في كلّ دقيقة من حياتنا أنَّ لنا إرادة حرة سواء استعملناها في المليح أو في القبيح، وليس الإنسان عبدًا لعوائده وتجاربه، بل سيد عليها، ويرى في نفسه ما يحثه على

مقاومتها، ولو أطاعها فلا يصعب عليه قهرها إذا أراد، قال لامنيس لأحد الشبان: قد بلغتَ السن الذي يجب أن تنهج فيه منهجًا لا تحيد عنه وإلا فستئنُّ داخل القبر الذي تحتفره لنفسك غير قادر أنْ تزحزح غطاءه عنه. والإرادة أسهل القوى انقيادًا وأسرعها تملكًا، لذلك تعلَّم من الآن أنْ تكون قوي الإرادة، شديد العزم لئلا تبقى:

كريشة بمهب الريح ساقطة لا تستقرُّ على حال من القلق

وكان بكستون يرى أنَّ الشاب يمكنه أنْ يكون كما يريد بشرط أنْ يكون حازمًا، وكتب مرة إلى أحد بنيه يقول له: قد حان لك أنْ تميل يمنة أو يسرة؛ فعليك أن تظهر حزمك وإقدامك وإلّا فستكون خامل الذكر، ضعيف الهمة، وتتملك منك صفات الكسل والتواني، وإذا سقطت في مثل ذلك - لا سمح الله - صعب عليك النهوض، وإني لمتيقن أنَّ كلّ شاب يقدر أنْ يكون كما يشاء، وأنا جربت هذا المجرى فنتجت كلّ سعادتي ونجاحي من المنهج الذي نهجته لنفسي وأنا في سنك، فإذا عزمتَ الآن أنْ تكون مجدًّا ومجتهدًا فستفرح كلّ حياتك بأنك عزمت هذا العزم». والإرادة هي الدأب والمزاولة والمواظبة والثبات، فلذلك لا تحتاج إلّا إلى التدريب فإذا دُرِّبت على الشر كانت شيطانًا مريدًا، وكان العقل لها عبدًا ذليلًا، وإذا دُرِّبت على الخير كانت ملكًا عادلًا، وكان العقل لها وزيرًا فاضلًا وعكفا كلاهما على خير الإنسان.

والإرادة لغة نزوع النفس وميلها إلى الفعل، بحيث يحملها ذلك الميل عليه، فمن أراد أمرًا فإرادته تحمله على عمله، بل تسهل له العمل، وتهوِّن عليه المصاعب، حتى إنَّ «من أطاق التماس شيء غلابًا واغتصابًا لم يلتمسه سؤالًا». والعزم لغة عقد القلب على

الشيء؛ فمن عقد قلبه على أمر وأراد عمله قدر عليه، ألا ترى أنَّ رشليه ونبوليون الأول طلبا أنْ تُلغى كلمة مستحيل من كتب اللغة، أمَّا نبوليون فكان أكره شيء لديه هذه الكلمات: «لا أقدر، لا أعرف، مستحيل»، فكان جوابه للأولى حاول، وللثانية تعلم، وللثالثة جرِّب، وكاتبو سيرة حياته يقولون إنها مثال للنشاط في استعمال القوى التي لا يخلو قلب من جراثيمها، ومن أمثاله: إنَّ من الحزم لحكمة. ولا يمكن أنْ يظهر مقدار ما تفعله الإرادة أكثر مما ظهر في حياة هذا الإنسان العجيب؛ لأنه صبَّ كلَّ قوى عقله وجسده على عمله فأخضع أممًا وقهر ممالك، وقيل له يومًا: إن جبال الألب الشاهقة تمنعك عن التقدم، فقال: يجب أنْ تُلغَى من الأرض. وهو الذي قال: إنَّ كلمة مستحيل لا توجد إلا في قاموس المجانين. وكانت أشغاله تفوق الوصف؛ فكان يشغل أربعة كتبة وينهكهم من التعب، وقد ألقى النخوة في قلوب كثيرين، وقال مرة: إنني صنعت قوادي من التراب. لكن يسوؤنا أنْ نقول إنَّ حبه لنفسه أضره وأضر قومه معه بعد أنْ تركهم فى فوضى، ويظهر من حياته أنَّ القوة غير المؤسسة على المبادئ الحسنة تضر بأصحابها، وأن الفطنة بدون الصلاح مبدأ شيطاني.

وأمَّا ولنتون الشهير فلم يكن أقل من نبوليون عزمًا وإقدامًا، ولكنه كان منكرًا نفسه عفيفًا محبًّا لوطنه، كان غرض نبوليون الأقصى المجد، وغرض ولنتون القيام بواجباته، حتى قيل إنَّ كلمة «المجد» لم ترد في كلِّ كتاباته، وأمَّا كلمة «واجبات» فكثيرًا ما وردت، ولكن ليس بالعُجب والافتخار. وأقوى الصعوبات لم توهن عزم هذا البطل، بل كانت قوته تعظم بتعاظم المصاعب المحيطة به، وما أظهره من الصبر والثبات والحزم في حرب إسبانيا يفوق

وصف الواصفين؛ لأنه أقام هناك قائدًا وحاكمًا، وكان غاية في حدة الطبع، إلا أنَّ عقله حكم على طبعه فظهر لمن حوله غاية في الصبر والجلد، ولم يشب أخلاقه الحميدة شيء من الطمع أو الحسد أو الهوى؛ فاجتمعت فيه خبرة نبوليون وجسارة كليف وحكمة كرمول وعفة وشنطون وخلَّد اسمه في رياض الحكمة والإقدام.

وأول ظواهر النشاط السرعة، قال الشاعر:

وربما فات قومًا جل أمرهم من التأني وكان الحزم لو عجلوا

قيل سألت اللجنة الأفريقية لديرد السائح: متى تسافر إلى أفريقية (بعد أنْ عينته للذهاب إليها)؟ فأجاب: غدًا. ولما سُئل جون جرفيس (وهو الذي لُقِّب بعدئذٍ أرل سنت فِنْسنت) متى تكون مستعدًّا للنزول في سفينتك؟ أجاب: «الآن». ولما عُيِّن السر كلون كمبل قائدًا للجيش الهندي سئل متى تكون مستعدًّا للسفر؟ فأجاب: غدًا. وبالسرعة وانتهاز الفرص يُكتسَب الظفر. قال نبوليون: إنني انتصرت في واقعة أركولا بخمسة وعشرين فارسًا، وذلك أنني انتهزت فرصة تعب العدو واقتحمتهُ بهم بعد أن أعطيت كلا منهم بوقًا فتغلبت عليه. والجيوش المتحاربة شبه رجلين يتصارعان، فإن أخطأ أحدهما خطأً صغيرًا وانتهز قرينه فرصة خطئه غلبه. وقال مرة أخرى إنه كسر النمساويين؛ لأنهم لم يعتبروا وقتهم.

والعرب تقول: الحرب خدعة؛ أي تنقضي بخدعة، ويقال إنَّ معنى كون الحرب خدعة أنَّ الظفر بها يكون بحسن التدبير والحزم، لا بمجرد الشجاعة والإقدام، كما قال أبو الطيب المتنبي:

ولربما طعن الفتى أقرانه بالرأي قبل تطاعن الأقران

ومن هذا القبيل ما حُكي عن عنترة العبسي أنه قيل له: أنت أشجع العرب وأشدهم بطشًا؟ فقال: لا. فقيل له: كيف شاع لك هذا الاسم بين الناس؟ قال: إني أقدم إذا رأيت الإقدام عزمًا، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزمًا، ولا أدخل مدخلًا إلا إذا رأيت لي منه مخرجًا، وأعتمد الضعيف الساقط فأضربه ضربة يطير منها قلب الشجاع فأنثني عليه فآخذه، والحرب خدعة.

ولقد كانت بلاد الهند في القرن الماضي ميدانًا للنشاط الإنكليزي، فإنه قام من كليف إلى هفلوك وكليد حكامٌ وقواد طارت شهرتهم في الآفاق كولسلي ومتكلف وأُترَم وإدواردس ولورنس وهستنس، وهستنس هذا من عائلة قديمة شهيرة دهمها الفقر لتبذيرها وانتصارها لآل ستورت فانحط شأنها، وساءت حالها، فألجأها الفقر إلى بيع دالسفرد التي استولت عليها مئات من السنين، ولما وُلِد هستنس كانت العائلة قد انحطت من درجة الأعيان إلى السوقة؛ فتعلم في مدرسة القرية مع أولاد الفلاحين، وكان يلعب في الأراضي التي كانت تخص أسلافه، إلا أنه لم يبرح من باله ما كان لهم من المجد والشرف، قيل إنه، وهو في السابعة، اتَّكأ على ضفة غدير جار في أملاك أسلافه، وجعل يتأمل في ما كانوا عليه فحتَّم على نفسه أنْ يسترجع أملاكهم واسمهم، وذلك فكر صبي غر، ولكنه عاش حتى أخرجه من حيز الفكر إلى حيز الفعل؛ لأنه رُبي معه، وأصبح جزءًا من حياته، وبعزمه وإقدامه صار من أعظم رجال عصره، فاستردَّ أملاك أجداده، وبنى بيت عائلته، قال فيه ماكولي: إنه فيما كان يتسلَّط على خمسين مليونًا من أهالي آسيا، ويقوم بإدارة أمورهم وحروبهم، كانت آماله موجهة

لـرد دالسـفرد، ولمـا انتهـت أتعـاب حياتـه اعتـزل إليهـا ليمـوت فيهـا.

والسر تشارلس نبير قائد آخر من قواد الهند يُضرَب به المثل في الشجاعة والحزم، قال مرة عن الشدائد الكثيرة التي كان محاطًا بها في إحدى المواقع: إنها لا تزيدني إلّا ثباتًا ورسوخًا. وواقعة ميانـي التي انتصر فيها من أعجب الوقائع التي حدثت على وجه الأرض؛ لأنـه تغلب فيها على خمسة وثلاثين ألف بلوخي شاكي السلاح بألفي رجل، وذلك أنه كان يثق بنفسه وبقوة جنوده، فاقتحم بهم الأعداء بقلب أشد من الحديد، وانتشب بينهم القتال، ودام ثلاث ساعات متواصلة فقهرهم، واضطرهم إلى الهزيمة بعد أنْ أهلك منهم خلقًا كثيرًا، ولم يفز إلّا بثباته، وكثيرًا ما يكون بين الغالب والمغلوب فرق يسير، وقد لا يوجد فرق سوى أنَّ الغالب يثبت بضع دقائق أكثر من المغلوب، وثبات خمس دقائق كافٍ للظفر، كما أنَّ السابق من خيل الرهان لا يفوت المصلي إلّا بمسافة يسيرة جدًّا. قال شاب إسبرطي لأبيه وقد قلده سيفًا: يا أبتِ هذا السيف قصير، فقال له: تقدم به خطوة فيصير طويلًا.

وما من وسيلة استخدمها نبير لبث الحماسة في قلب جنوده إلا شجاعته الشخصية، فكان يتعب كما يتعب كلّ جندي، ويقول: إنَّ القيادة لا تقوم إلا بمقاسمة الجنود أتعابها، ولا ينجح القائد ما لم يصبَّ كلّ قوة عقله وجسده على عمله، ويحتمل كلّ المتاعب، ويعرض نفسه لكل الأخطار. قال بعض الشبان في واقعة كتشي وكان تحت قيادته: «كيف يمكنني أنْ أتكاسل وأنا أرى هذا الشيخ (يريد به نبير) على ظهر جواده دائمًا، فلو أمرني أنْ أزج بنفسي في فم مدفع محشو لفعلت». وبلغ نبير هذا الكلام فقال: إنَّ هذا جزاء كافٍ لكل أتعابي. ومما يظهر شجاعة هذا البطل وإنصافه

الحادثة التي وقعت له مع المشعوذ الهندي، وهي أنَّ مشعوذًا هنديًّا شهيرًا لعب أمامه وأمام عائلته وحاشيته ألعابًا كثيرة، وفي جملتها أنه وضع ليمونة صغيرة كالجوزة في كف رفيقه وضربها بالسيف فقطعها شطرين فارتاب الجنرال نبير في صحة ذلك، ونسبه إلى مواطأة بين السياف ورفيقه، ودفعًا للريب طلب أنْ يمسك الليمونة بيده، ومد يمينه فنظر إليها السياف وقال: لا يمكني أنْ أضربها هنا، فقال نبير: هكذا ظننت، فقال السياف: مدَّ شمالك، فمدها، فقال له: إذا كنت قادرًا أنْ تثبتها فأنا أضرب الليمونة فيها، فقال: ولِمَ لا تضربها في اليمنى؟ فأجاب: لأن كفك اليمنى مقعرة فأخاف أنْ أقطع إبهامك، وأمَّا الشمال فليست كذلك؛ فيكون الخطر أقل. قال نبير: وحينئذٍ ارتعدت فرائصي؛ لأنني تأكدت أنه يضرب الليمونة حقيقة، ولو لم أكن قد نسبته إلى الخداع أمام حشمي لعدلت عن المخاطرة بيدي، فمددت شمالي ووضعت الليمونة في كفها، فاستل سيفه وضربها فقطعها شطرين، فشعرت كأن خيطًا باردًا مرَّ على يدي إلى أنْ قال: انظروا إلى مهارة فرسان الهند الذين غلبهم رجالنا في واقعة ميانى.

والحوادث الأخيرة التي حدثت في الهند أظهرت جليًّا همة الأمة الإنكليزية وتعويلها على نفسها، ففي شهر أيار سنة 1857 ثارت الفتنة في كلّ بلاد الهند، وكانت الجيوش الإنكليزية حينئذٍ على أقلها، وكانت مشتتة في كلّ أنحاء البلاد، والجنود البنكالية عصت رؤساءها وانطلقت إلى دلهي، وامتدت الثورة في كلّ الولايات، وأُلقِي النفير في كلّ البلاد، وقام جميع الأهالي على الإنكليز حتى خُيِّل لِعَيْن الرائي أنَّ الدولة الإنكليزية قد فقدت بلاد الهند، وفقدت رجالها الذين فيها، وقبلما تمتد الثورة استشار

أحد أمراء الهند المنجمين، فقالوا له إذا لم يبقَ من الأوروبيين إلا رجل واحد فلا بد من أنْ يتغلب علينا أخيرًا، وكان في لكنو قليل من الإنكليز فتحصنوا هم ونساؤهم، وبقوا عدة أشهر، ولا اتصال بينهم وبين الإنكليز الذين في باقي الجهات، وكانوا يجهلون ما إذا كانت البلاد باقية في حوزة دولتهم أم تحررت، إلّا أنه لم يخُر عزمهم، ولم تضعف ثقتهم برجال بلادهم، بل كانوا متأكدين أنه ما دام رجل إنكليزي في الهند فهو يفتكر فيهم، ولم يخطر على بالهم إلا الثبات، ولو إلى آخر نسمة من حياتهم، فأظهر الجميع شجاعة تفوق الوصف من قواد العساكر، حتى النساء والأولاد، ولم يكن هؤلاء الناس منتخبين من بني البشر، أو ممتازين عنهم، بل كانوا كغيرهم ممن يقع نظرنا عليهم كلّ يوم في الشوارع والمعامل والحقول والمزارع، ولكن لما انتابتهم المصائب أظهر كلّ منهم من البسالة والإقدام ما يفوق التصديق، قال منتالنبر: ما من أحد منهم خاف أو ارتعب، بل الجميع من القواد العظام حتى الأولاد الصغار دافعوا عن نفوسهم إلى آخر نسمة من حياتهم، ففي مثل هذه الأحوال تظهر فائدة التربية الإنكليزية التي تدعو كلّ إنكليزي لكي يستخدم قوته في كلّ حال من أحوال الحياة.

ويقال إنَّ دلهي أُخذت والهند أُنقذت بواسطة مناقب السر جون لورنس؛ لأن اسمه في الولايات الشمالية الغربية كان رمزًا للقوة، ومناقبه تساوي قوة جيش جرار، وما قيل فيه يقال في أخيه السر هنري لورنس، وكان الجميع يحبون هذين الأخوين محبة شديدة ويثقون بهما ثقة قوية لما رأوه فيهما من الشفقة والصلاح، قال القائد إدوردس: «إنهما طبعا في عقول الشبان من الأخلاق والمحامد ما فعل فعل الديانة، فكأنهما أنشئا ديانة جديدة». وكان

مع السر جون لورنس منتكمري ونكلصن وكُتن وإدوردس، وكلهم من النبلاء الحاذقين الحازمين، ونكلصن كان من أشجع الناس وأكملهم خَلقًا وخُلُقًا، حتى لقبه الأهالي حكيمًا، ودعاه اللورد دلهوسي برج قوة، وكانت كلّ أعماله من الطراز الأول؛ لأنهُ ما عمل شيئًا إلاَّ انصب عليه بكليتهِ ولذلك قام قوم من الدراويش وعبدوهُ فقاصَّ بعضهم لجهلهم إلاَّ أنه لم يقدر أن يردعهم عن عبادتهِ.

أمَّا حصار دلهي والضيقة التي صارت على الجنود الإنكليزية الذين لم يكونوا أكثر من ثلاثة آلاف وسبع مائة، وعدد جنود العدو المحصور أكثر من 75000 جندي، فمن الأمور النادرة المثال؛ لأن هذه الشرذمة من الإنكليز غلبت أخيرًا كلّ قوات الهند، وفتحت دلهي، ورفعت فوقها الراية الإنكليزية بعد أنْ هاجمهم العدو فردوه ثلاثين مرة، وقد أظهر كلّ جندي من الجنود الإنكليزية بسالة يعجز القلم عن وصفها، ولا ننكر أنَّ هذا الفصل من تاريخ الأمة الإنكليزية قد كلفها كلفة باهظة، ولكن إذا اعتبرنا الفوائد الجزيلة التي يحصدها مَنْ يطِّلع عليه من أولادها رأينا أنَّ المُثمَّن ليس دون الثمن.

وقد ذهب إلى الهند وبلاد المشرق أناس من أمم مختلفة، وأظهروا همة وإقدامًا في أمور أكثر نفعًا للجنس البشري من الحرب، وإذا ذكرنا أبطال السيف وَجَب أن لا ننسى أبطال الدين، فإننا إذا تتبعنا حياة هؤلاء الأفاضل من زفير حتى مرتين ووليمس رأينا عددًا من الدعاة الذين ضحوا حياتهم وصوالحهم على مذبح محبة الجنس البشري، غير مفتشين عن شيء من الفخر والشرف العالميين، وغير قاصدين سوى خلاص البشر، كيف لا وقد احتملوا كلّ نوع

من المتاعب والبلايا، وكانوا عرضة لكل نوع من المخاطر حتى الاستشهاد، ومع ذلك لم ينثنوا عن عزمهم، ولا خارت عزائمهم. ومن أوَّل هؤلاء الدعاة وأشهرهم فرنسيس زفير الذي وُلِد من عائلة شريفة، وكان محاطًا من صغره بالغنى والشرف، إلا أنه برهن بحياته وجود أمور أشرف من شرف العالم، أمور تستحق الاقتناء أكثر من كلّ مقتنياته، وكان من أفضل الرجال مناقب، وأشجعهم قلبًا، وألينهم عريكة، وأوطاهم جانبًا، وأصدقهم فعالًا، وأفحمهم حجة، وأكثرهم جلدًا.

ولما عزم الملك يوحنا الثالث ملك البرتوغال على نشر الديانة المسيحية في الولايات الهندية الخاضعة له اختار زفير لهذا العمل، فقام ورفأ جُبَّته الخلق، وأخذ معه كتاب الصلوات، وانطلق إلى لسبون وأقلع منها إلى المشرق، وكان ذاهبًا في السفينة التي ذهب فيها حاكم غوى، ومعه كتيبة من ألف جندي، فعُيِّنت لزفير قمرة لينام فيها، فاختار المنام على ظهر السفينة ووسادته لفَّة حبال، وكان يأكل مع الملاحين ويمرضهم، فأحبوه وأكرموهُ إكرامًا جزيلًا.

ولما وصل إلى غوى اندهش من فساد السكان من أوروبيين ووطنيين؛ لأن الأوروبيين جلبوا معهم كلَّ قبائح أوروبا، والوطنيين لم يقتدوا بهم إلا في القبيح فجال في الشوارع، وكان يدعو الناس ويستعطفهم ليرسلوا له أولادهم لكي يعلمهم، ولم يمضِ إلّا برهة قصيرة حتى صار عنده عدد وافر من التلامذة، فبذل الهمة في تعليمهم، وكان مواظبًا على افتقاد المرضى والمجذومين والبئسين من كلِّ صفٍّ ورتبة لكي يخفف مصائبهم، ويهديهم طريق الحق، ولم يسمع بإنسان مصاب إلا زاره وفرَّج كربه بقدر إمكانه، وسمع مرة أنَّ الغوَّاصين في منار في حالة يُرثَى لها، فمضى إليهم حالًا،

وكان يعمّدهم ويعلمهم بواسطة الترجمان، وأمَّا تعليمه الأعظم فكان بواسطة أعمال الرحمة التي عملها لهم، ثم طاف كلّ شطوط كومورن، وجال في المدن والضياع، ودخل البيوت والهياكل معلمًا ومبشرًا، وكان قد سعى في ترجمة التعليم المسيحي، وقانون الإيمان، والوصايا العشر، والصلاة الربانية، وبعض قوانين الكنيسة، فتعلم كلّ ذلك غيبًا بلغة الأهالي، وكان يتلوه على الأولاد حتى يتعلموه هم أيضًا، ثم يرسلهم لكي يعلموه لوالديهم وجيرانهم، وأقام ثلاثين كنيسة في رأس كومورن، وعين لها ثلاثين معلمًا، ومن ثمَّ انتقل إلى ترافنكور، وجال في قراها وهو يعمّد ويعلم حتى كَلَّتْ يداه وبح صوته، ولقد قال إنَّ نجاحه فاق انتظاره كثيرًا جدًّا، وكثيرون اعتنقوا الديانة المسيحية من نظرهم إلى طهارة سيرته.

ثم مضى إلى ملقا واليابان فوجد نفسه بين أقوام يجهل لغاتهم كلَّ الجهل، فكان يصلي ويبكي ويفتقد المرضى والمصابين، وكان مفعمًا من الإيمان والاجتهاد راجيًا كلّ شيء وغير خائف من شيء، ومن جملة ما قاله: إنني مستعد أنْ أحتمل كلَّ نوع من الموت والعذاب لأجل خلاص نفس واحدة. وما من أحد يقدر أنْ يصف مقدار الأتعاب التي كابدها، والمخاطر التي وقع فيها مدة إحدى عشرة سنة، وفيما كان عازمًا على الدخول إلى الصين أصابته حمى شديدة في جزيرة سنكيان قضت على حياته السعيدة وتوجتهُ بتاج المجد. ولعلهُ لم يدس دنيانا رجل أشجع منهُ ولا أنبل غاية.

وحذا حَذْوَ زفير مبشرون آخرون، منهم شورتر وكاري ومرشمن وكتزلف ومريصن ووليمس وكمبل ومُفات ولفنستون، أمَّا وليمس فكان في صباه صانعًا عند رجل يبيع الأدوات الحديدية، وكان ماهرًا في صناعة الحديد، ومغرمًا بتعليق الأجراس، وفي كلِّ عمل

يبعده عن دكان معلمه، وحدث أنه سمع عظة مؤثرة أثّرت فيه تأثيرًا عميقًا، وصيرته معلمًا في مدرسة من مدارس الأحد، ثم طرق أذنيه أمر التبشير في الأصقاع البعيدة، فعزم أنْ يُوقِف نفسه على هذا العمل، وعرض نفسه على جمعية التبشير الإنكليزية، فأرسلته إلى جزائر الأوقيانوس الباسيفيكي، وكان يعمل بيديه في الحدادة والحراثة وبناء السفن، واجتهد في تعليم الأهالي هذه الصنائع وهو يبشرهم بالديانة، وبينما هو في وسط أتعابه هجم عليه البرابرة في أرومنكا وبطشوا به، وإنه لجدير بلبس إكليل الاستشهاد.

أمَّا الدكتور لفنستون فكان أسلافه فقراء، ولكنهم من ذوي الاستقامة، وإن واحدًا منهم مشهودًا له بالحكمة والفطنة دعا أولاده عندما حضرته الوفاة، وقال لهم: إنني قد نظرت بالتدقيق في كلِّ أخبار عائلتنا التي وصلتُ إليها، فلم أجد بين كلِّ أسلافنا رجلًا عديم الاستقامة؛ فلذلك إذا سار أحدكم، أو أحد أولادكم في طرق معوجة فلا يكون ذلك لأصل وراثي، ووصيتي الأخيرة لكم أنْ تسيروا بالاستقامة.

ولما بلغ لفنستون العاشرة من عمره وُضِع في معمل قطن بالقرب من غلاسكو، فأخذ أجرة الأسبوع الأول، واشترى بقسم منها كتاب نحو لاتينيّ، وعكف على درس هذه اللغة في مدرسة ليلية، وكان يُحْيي أكثر من نصف الليل في الدرس، فقرأ فرجيل وهوراس، وكلَّ كتاب وصلت إليه يده إلا القصص والروايات، وكان مغرمًا بقراءة الكتب العلمية والرحلات، وعكف أيضًا على درس علم النبات - مع ضيق وقته - وطاف أراضي كثيرة ليجمع منها النباتات، وكان يأخذ كتبهُ معهُ إلى المعمل، ويضع الكتب أمامه وهو آخذ في عمله، فارتشف قدرًا جزيلًا من بحار المعارف، ولما

تقدم في السن قام فيه ميل شديد لتبشير الوثنيين، فعزم على درس الطب لكي يصير أهلًا لهذا العمل، فأخذ يقتصد في نفقته حتى صار معه ما يكفيه لدرس هذا الفن، فدخل مدرسة كلاسكو، وكان يدرس الطب واليونانية واللاهوت، ويعمل مدة الفرص في معمل القطن، ولم يقبل مساعدة من أحد، بل كان يحصِّل كلَّ ما يكفيه ويكفي لدفع أجرة المدرسة بتعب يديه، وقال بعد ذلك بسنين عديدة: إنني حينما التفت إلى حياتي الماضية، حياة التعب، أشكر الله؛ لأنني حَصَّلتُ ما حصلته بتعبي واجتهادي، وأود أنْ أبتدئ بحياتي جديدًا على المنهج الأول من التعب والاجتهاد. وكان في نيته أنْ يذهب إلى الصين، ولكن كانت الحرب منتشبة في تلك البلاد فعدل عن الذهاب إليها، وعرض نفسه على جمعية التبشير الإنكليزية فأرسلته إلى أفريقية، فوصلها سنة 1840 ولم يكن شيء يزعجه في ذهابه إلى أفريقية أو يكدر صفاء عيشه إلا ذهابه إليها على نفقة غيره؛ لأنه قال: لا يليق بشخص اعتاد أنْ يفتح طريقه بيده أنْ يعتمد على غيره. ولما وصل إلى أفريقية لم يرد أنْ يبشِّر حيث بشَّر غيره، بل اختط لنفسه قسمًا من البلاد لم يبشِّر فيه أحد قبله، وكان يبشِّر ويعلِّم ويعمل بيديه كلَّ الأعمال الممكنة من الفلاحة والتجارة والبناء وحفر الترع وتربية المواشي، وعَلَّم الأهالي هذه الصنائع أيضًا، ولم يدع دقيقة من الوقت تذهب سدًى.

وذات يوم سافر مع نفر من الأهالي ماشيًا، فسمع البعض منهم يقولون: إنه ليس قوي البنية، ولكن تظهر لهُ مهابة لأنهُ لابس كيسين (يعني بنطلونًا) وهو دوننا قوة فحرك فيه هذا الكلام النخوة الأسكتسية، فواصل السير أيامًا عديدة وهو دائمًا أمامهم إلى أن أعياهم التعب، وسمعهم يتعجبون من استطاعته على السير.

ومن الرجال العظام يوحنا هَوَرْد الذي دلِّلت حياته على أنَّ الضعف الطبيعي يقدر أنْ يزحزح جبالًا من المصاعب، كان كلّ اهتمام هذا الرجل موجهًا إلى إصلاح شأن المسجونين، وقد تمكَّن فيه هذا الاهتمام حتى صار ملكة، ولم يثنِه عنه تعب ولا خطر ولا مرض ولا أمر من الأمور، وكان خاليًا من المواهب الفائقة، ومعتدلًا في قواه العقلية، إلّا أنه كان ذا عزيمة ثابتة، وقلب رحب فحاز شهرة عظيمة، وأثَّر تأثيرًا عظيمًا في المحاكم الإنكليزية وغير الإنكليزية، ولم يزل تأثيره حتى يومنا هذا.

ويونس هنوي رجل آخر من الرجال العظام الذين أوصلوا إنكلترا إلى ما هي عليه بجدهم ودأبهم، وتركوا بعدهم ذكرًا جميلًا وأيادي لا تُنسَى، ولد هذا الرجل سنة 1712 ويُتِّم من أبيه وهو صغير فانتقلت أمه إلى لندن لكي تعلم أولادها، واجتهدت كثيرًا في تربيتهم وتهذيبهم، ولما بلغ السابعة عشرة أُرسل إلى لسبون؛ ليكون صانعًا عند تاجر من تجارها، وبحذاقته وتدقيقه واستقامته اكتسب محبة كلَّ من تعرَّف به، ثم رجع إلى لندن سنة 1743 ودخل في شركة تجار مركزهم في بطرسبرج وتجارتهم في بحر قزبين، فمضى إلى هناك، ولم يلبث أنْ وصل حتى انطلق إلى بلاد العجم ومعه حمل عشرين مركبة من الأنسجة الإنكليزية، فوصل إلى استراخان وأقلع إلى استراباد في الجنوب الشرقي من بحر قزبين، وحالما وصل إلى الشاطئ اعترضه قوم من العصاة ونهبوا بعض ما معه، ثم علم أنهم كانوا قاصدين القبض عليه وعلى الرجال الذين معه، فحذر الخطر قبل وقوعه ووصل إلى غيلان بعد ملاقاة أخطار كثيرة. ونجاته العجيبة في هذه النوبة جعلته أنْ يقول الكلام الذي صيَّره دستورًا لحياته، وهو: «لا تيأس قط».

ثم رجع إلى بطرسبرج، وأقام فيها خمس سنوات سائرًا في سبيل النجاح، وفي غضون ذلك مات أحد أنسبائه، وترك له ميراثًا ليس بقليل، وكان هو قد كسب غنًى وافرًا فرجع إلى وطنه سنة 1750 لإصلاح صحته المنحرفة، وعمل الخير لأبناء جلدته، فصرف باقي حياته في الأعمال الخيرية، وأول عمل خيري شرع فيه إصلاح طرق لندرة، فنجح في ذلك أيَّ نجاح، ثم شاع أنَّ الفرنساويين عازمون على غزو إنكلترا؛ فوجَّه اهتمامه إلى إيجاد وسيلة لتقوية رجال البحر، فاستدعى مجلس شورى من التجار وأصحاب السفن، وتذاكر معهم في هذا الشأن، وطلب منهم أنْ يعقدوا لجنة مآلها إعداد رجال متطوعين ليحاربوا في سفن الدولة، فلبوا طلبه فتألفت لجنة هي اللجنة البحرية، وعُيِّن هو مديرًا لها، ولم تزل هذه اللجنة قائمة حتى يومنا هذا، وقد أتت بفوائد عظيمة للأمة، وقبلما يمضي عليها ست سنوات أعدت 10238 من المتطوعة.

ثم التفت إلى إنشاء المباني العمومية في العاصمة، من ذلك إصلاح شأن مستشفى اللقطاء، وأنشأ مستشفى المجدلين، إلّا أنَّ معظم اهتمامه كان موجهًا إلى تربية أطفال الفقراء؛ فإن أولئك الأطفال كانوا بحالة يُرثَى لها من الشقاء، وكان يموت منهم عدد غفير لقلة الاعتناء بهم، فعقد قلبه على هذا العمل الخطير، وبحث في هذه القضية بنفسه حتى عرف اتساع خرقها؛ لأنه دخل مساكن الفقراء في لندن وسوادها، ولا سيما المرضى منهم، وعرف أحوالهم تمامًا، ثم انطلق إلى فرنسا على طريق هولندا، وزار بيوت الفقراء المقامة ملجأً لهم لكي يرى ما يمكن اقتباسه منها في إقامة بيوت مثلها في بلاد الإنكليز، فقضى في ذلك خمس سنوات، ثم عاد إلى إنكلترا، ونشر خلاصة بحثه في البلاد، فكانت

سببًا لإصلاح شئون فقرائها، وقضى حياته بأسرها يغيث الملهوف، ويعين المحتاج ويُنْهِض الدولة إلى سنِّ الشرائع التي تعود على الفقراء بالنفع، وكان لا يتعب، ولا يمل، ولا يأنف من أمرٍ مهما عده الناس زريًّا إذا كان هو متيقنًا نفعه، وهو أول من سار في شوارع لندن حاملًا مظلة، ولا يخفى ما لحقه بذلك من الإهانة لمخالفته زي البلاد، ولكنه ما انفك يحملها مدة ثلاثين سنة حتى شاع استعمالها كثيرًا، وكان صادقًا مستقيمًا ثقة، لا لوم في سيرته، خدم الدولة في منصبٍ أبوابُ الرشوة واسعة فيه، ولكنه كان يرد الهدايا إلى أصحابها قائلًا: إني حتمت على نفسي ألا أقبل شيئًا من مثل ذلك، ولما حضرته الوفاة تأهَّب لها تأهبه للسفر، فوفَّى كلّ ديونه، ورتب كلّ أموره، وودَّع أصدقاءه، وانضم إلى آبائه وهو في الرابعة والسبعين، ولم تبلغ تركته سوى ألفي جنيه، وكان قد أوصى بها لبعض الأيتام والبئسين؛ إذ لم يكن لهُ وارث.

وهاك مثالًا آخر للنشاط في حياة كرنفيل شَرْب الذي هو أول من اجتهد في إلغاء العبودية، ثم سلَّم هذا العمل العظيم إلى أناس مشاهير، منهم كلركسن وولبرفورس وبكستون وبروَم، وهؤلاء الرجال من الأفراد النادري المثال، ولكن كرنفيل أعظمهم شأنًا وبسالة، وقد ابتدأ في العمل صانعًا عند رجل يبيع المنسوجات، ولما انتهت خدمته عنده جُعل كاتبًا في بيت الأسلحة، وهناك شرع في هذا العمل العظيم؛ أي عتق الرقيق، وكان من صغره يُنتَدب لكل عمل نافع، من ذلك أنه - وهو صانع عند بائع الأنسجة - كان له رفيق من الموحدين (فئة من النصارى تنكر التثليث)، فتناظرا في بعض المواضيع الدينية فادَّعى الموحِّد أنَّ كرنفيل بنى اعتقاده في التثليث على آيات من الكتاب لا يفهمها؛ لأنه لا يعرف اللغة

اليونانية، فدبَّت الحمية في رأسه، وأخذ يدرس اليونانية باجتهاد شديد، فلم يمضِ عليه وقت طويل حتى صار يعرفها معرفة كافية لغرضه، ثم حدثت مناظرة أخرى بينه وبين رجل يهودي من جهة تفسير النبوات فتعلم اللغة العبرانية لكي يفحم خصمه.

وكان له أخ طبيب اسمه وليم كان يشاهد المرضى والمصابين، فاستشاره رجل أسود مسكين اسمه يوناثان سترن في مسألة جراحية، وكان هذا المنكود الحظ عبدًا لفقيه بربدوزي، وقد أساء معاملته حتى كاد يصيره أعمى وأعرج، ولما رأى أنه عديم النفع طردهُ من بيته ليهلك جوعًا، فأخذ يستعطي ليقوت نفسه - مع ما به من الأدواء - إلى أنْ ساقه سعده إلى وليم شَرْب فعالجه قليلًا، ثم أدخله مستشفى مار برثلماوس فبقي فيها إلى أنْ شُفِي، ولما خرج من المستشفى عالجه وليم وأخوه إلى أنْ وجدا له عملًا عند صيدلاني، فبقي في خدمة الصيدلاني سنتين، وحدث يومًا أنه كان ذاهبًا مع امرأة معلمه الصيدلاني فمر به سيده القديم؛ أي الفقيه، ولما رأى أنه قد تعافى استدعى اثنين من الحراس، وأمرهما بأن يقبضا عليه عازمًا أنْ يرسله إلى الهند الغربية، ففعلا ووضعاه في محرس، فلما رأى نفسه في هذه الحالة التعيسة تذكر كرنفيل شَرْب وما عمله معه من الإحسان فأرسل إليه كتابًا يخبره بحاله ويطلب مساعدته، أمَّا شَرْب فكان قد نسيه تمامًا؛ ولذلك أرسل رسولًا ليفحص ويرى من هو سترن هذا، فأنكر الحراس أنَّ عندهم رجلًا بهذا الاسم، ولما أُخبر شَرْب بذلك كثرت عنده الظنون، فقام لساعته وانطلق إلى المكان الذي كان فيه العبد، ولم يرجع حتى رآه فعرفه، وأوصى رئيس السجن أن لا يسلمه لأحد حتى يعرض أمره لحاكم المدينة، ثم مضى إلى الحاكم وعرض له

واقعة الحال، فاستدعى الحاكمُ العبدَ واللذين مسكاه، وكان سيده السابق قد باعه من رجل آخر فحضر هذا أيضًا وادَّعى به، وبما أنَّ الحاكم لم يكن قادرًا أنْ يحكم بحريته ولا بعبوديته، ولا كانت له دعوى جنائية، أطلقه، فتبع مستر شَرْب، ولم يجسر أحد أنْ يدنو منه إلّا أنَّ سيده استخرج أمرًا من الدولة بإرجاعه إليه.

وكانت حرية الرعايا في ذلك الوقت - أي نحو سنة 1767 - قائمة بالقول لا بالفعل؛ لأنه كان في كلّ المدن الكبار قوم دأبهم القبض على الناس، وإرسالهم إلى الهند خدامًا للشركة الهندية، وإذا استغنت الشركة عنهم في الهند كانت ترسلهم إلى المهاجر الإنكليزية في أميركا ليكونوا فيها عبيدًا، وكان بيع العبيد يُعلن في الجرائد، بل كان يعلن حُلْوان من دلَّ على عبد آبق، وكانت مسألة الاستعباد غامضة والحكم فيها متقلبًا غير ثابت، وكان الرأي العام أنَّ من دخل إنكلترا تخلص من ربقة العبودية إلّا أنَّ أناسًا كثيرين من ذوي الشهرة والمكانة كان رأيهم خلاف ذلك، وهذا كان رأي القضاة الذين استغاثهم شَرْب على عتق سترن حتى إنَّ قاضي القضاة اللورد منسفيلد، وأكثر أرباب المجلس كان رأيهم أنَّ العبد يبقى عبدًا ولو دخل إنكلترا، وإن أبق وجب رده إلى سيده شرعًا، وهذا كان يجب أنْ يقطع آمال شَرْب من إطلاق سبيل يوناثان، ومن الانتصار للعبيد، ولكنه زاده همَّةً ونشاطًا فعزم أنْ ينتصر للعبيد، ويدافع عن حريتهم إلى آخر نسمة من حياته؛ ولذلك رأى أنْ لا بد له من تعلم الفقه؛ لأن الفقهاء الذين التجأ إليهم لم يكونوا من رأيه، ولم يكن قد فتح كتابًا فقهيًّا قبل ذلك، فابتاع كتبًا كثيرة، وأخذ يطالع فيها صباحًا ومساءً؛ لأنه كان يعمل النهار كله في بيت الأسلحة - كما قدمنا - فصار عبدًا وهو يحاول تحرير العبيد، وكتب مرةً إلى أحد

أصحابه يقول له: اعذرني لعدم مجاوبتي كتابك في حينه؛ لأن الوقت الذي كنت أملكه من الليل قد ملكته لمطالعة بعض الكتب الفقهية، وهي تستدعي وقتًا طويلًا واجتهادًا عظيمًا.

ودام على مثل ذلك سنتين كاملتين، وهو يطالع كتبًا كثيرة، ويدون كلَّ ما يوافقه من أحكام مشاهير القضاة وقرارات البارلمنت، ولم يكن له مساعد ولا مرشد، بل لم يجد محاميًا واحدًا من رأيه، إلّا أنَّ نتيجة درسه كانت حسب رغبته، الأمر الذي انذهل منه كلُّ رجال القضاء. ومما كتبهُ حينئذ قوله: الحمد لله أنني لم أرَ في كلِّ شرائع دولتنا الإنكليزية ما يجيز استعباد البشر. ثم كتب نتيجة بحثه في ملخص سهل العبارة واضح الإشارة، سمَّاه بطلان إباحة العبودية في إنكلترا، ونسخ منهُ نسخًا كثيرة بيدهِ، ووزعها على أشهر محاميي عصره، فلما رأى سيد سترُن من شَرْب ذلك حاول تأخير المرافعة، ثم طلب أنْ تصير بينهم مراضاة بلا مرافعة، فلم يقبل شَرْب بذلك، واستمر على توزيع النسخ على القضاة، حتى إنَّ المحامين الذين اختارهم سيد سترن تنحوا عن المحاماة، فالتزم أنْ يدفع ثلاثة أضعاف النفقات؛ لأنه لم يمكنه إثبات دعواه، وحينئذٍ طُبعت رسالة شَرْب المار ذكرها.

ونحو ذلك الوقت حدثت في لندن حوادث كثيرة من اختطاف السود وإرسالهم للبيع في الهند الغربية، أمَّا شَرْب فكان يخلِّص كلَّ من عثر عليه من هؤلاء المنكودي الحظ بأمر الدولة، ومن ذلك امرأة رجل أفريقي اسمه هيلاس خطفها البعض وأرسلوها إلى بربادوز، فانتصر لها شَرْب، وخلَّصها بقوة الحكومة من النخاسين، وأجبرهم على رَدِّها إلى إنكلترا، وكان في إنكلترا زنجي اسمه لويس ادَّعى به رجل، وأرسل اثنين فمسكاه وقيداه، ومضيا به

إلى سفينة مسافرة إلى جمايكا، فسمع البعض صراخه، ومضوا وأخبروا شَرْب الذي كان قد اشتهر أمره حينئذ بتخليص العبيد، فعرض الدعوى للحكومة، وحصل على أمر بإطلاق العبد، ولما أُخْرِج الأمر كانت السفينة قد سافرت، فأخرج أوامر مشددة من الحكومة، تقضي باتباع السفينة ورد العبد، فاتُّبعت قبل أنْ تباين شواطئ إنكلترا، وإذا بذلك المسكين مقيد إلى السارية مغتسل بدموعه، فأُطلق وجيء به إلى لندن، وأُلقي القبض على النخاس، فرُفِعَت الدعوى إلى قاضي القضاة في منسفيلد، وقد تقدم أنَّ رأيه يخالف رأي شَرْب، فلم يرِد أنْ يحكم في هذه الدعوى لا سلبًا ولا إيجابًا، ولكنه أطلق العبد؛ لأن النخاس لم يقدر على تقديم بينة أنَّ العبد ملك له.

ولم تكن حرية العبيد مثبتة في لندن حتى ذلك الوقت غير أنَّ شَرْب لم يكفَّ عن إنقاذ مَن مكنته الفرصة من إنقاذه، وأخيرًا تصدرت دعوى جمس سمرست الشهيرة، ويقال إنَّ هذه الدعوى تصدرت بتواطؤ لورد منسفيلد ومستر شَرب؛ لكي يُبَتَّ الحكم في مسألة تحرير العبيد بتًّا شرعيًّا نهائيًّا، وسمرست هذا عبد جلبه سيده معه إلى لندن، ثم قصد أنْ يرسله إلى جمايكا ويبيعه فيها، فقام مستر شَرْب حسب عادته وانتصر له، فقال لورد منسفيلد: إنَّ هذه الدعوى مهمة جدًّا، فيجب أنْ يؤخذ فيها رأي كلّ القضاة. فقامت على مستر شَرب جميع قوَّات المملكة، إلّا أنه رأى نفسه كفؤًا لها لما عنده من ثبات العزم، ولحسن حظه وجد كثيرين من القضاة قد غيَّروا رأيهم، وصاروا من رأيه (من قراءتهم رسالته المار ذكرها)، فالتأم مجلس قضائي من لورد منسفيلد وثلاثة من رؤساء القضاة، وجرت المذاكرة فيه في أمر حرية الرعايا ولزومها،

وكيف أنها لا تفقد إلّا لعلة شرعية توجب النفي، وبعد مباحثة دامت أيامًا كثيرة خرج حكم لورد منسفيلد (الذي كان قد غير رأيه بواسطة رسالة شرب) أن لا شيء في الشرائع الإنكليزية يعضد العبودية أو يجيزها؛ ولذلك يجب أنْ يطلق سبيل سمرست، وبهذا الحكم نُقضت تجارة العبيد التي كانت جارية علانية في أسواق لندن ولفربول، وأثبت القول القائل: إنَّ العبد يُعتَق عندما تطأ رجله أرضًا إنكليزية. كلّ ذلك باجتهاد مستر شَرب وحده.

ولم يكتف هذا الشهم بالفوز العظيم الذي فاز به، بل لازم أعمال البر بهمَّة لا يخامرها كلَلٌ ولا ملل، وبهمته تأسَّس مهجر سرَّاليون لسكنى العبيد المعتقين، وأُصلح شأن هنود أميركا، وألغى إجبار الناس على الخدمة البحرية، واجتهد أيضًا في إرجاع الصلات الحبية بين الدولة الإنكليزية ومهاجرها في أميركا، ولما انتشبت حرب الحرية بين إنكلترا وأميركا كانت ضد رأيه على خط مستقيم، فتنحَّى عن وظيفته في بيت الأسلحة؛ لأنه لم يطق أنْ يعمل في عمل له شركة في تلك الحرب المشئومة، وبقي إلى آخر نسمة من حياته مهتمًّا بإلغاء العبودية، وبمساعيه انتظمت لجنة لإلغائها قام منها أناس مُتَّقِدون غيرةً واجتهادًا، وأكبوا على تنفيذ مآربه، ولا عجب إذا فعلوا ذلك؛ لأنهم كانوا مضطرمين بما بثَّه في صدورهم من محبة عمل الخير، ولم يساعده هؤلاء وحدهم بل كلّ الأمة، إلّا أن أخصَّ خلفائه هم: كلاركصن وولبرفورس وبروم وبكستون الذين اشتغلوا في هذه المسألة باجتهاد يوازي اجتهاده إلى أنْ أُلْغِيت العبودية من كلّ السلطنة الإنكليزية، والفضل الأول في إلغائها لكرنفيل شَرْب الذي شرع في هذا العمل وكل رجال المملكة ضده، فصارعهم جميعًا قضاة ورؤساء، وتغلب عليهم بثباته

واجتهاده وصيرهم له أنصارًا، والناس كلهم مدينون لهذا الرجل؛ لأنه نزع من الدنيا شرًّا عظيمًا حط شأن الإنسان زمانًا طويلًا، وكل ما حدث بعده هو نتيجة تعبه، فهو أول من مسك هذه الشعلة بيده، وأضرم بها بعض العقول، فاستنارت وعمَّ ضياؤها المسكونة.

وقبلما يتوفى شَرْب قام كلاركصن، ووجَّه اهتمامه إلى هذا الأمر، حتى إنه اختاره موضوعًا لرسالة مدرسية (رسالة ينشئها الطالب عندما ينتهي من المدرسة)، ثم ترجم هذه الرسالة من اللاتينية إلى الإنكليزية وطبعها، وكانت قد تألفت لجنة إلغاء العبودية، فانضم إليها، وضحَّى كلّ صوالحه لإتمام غرضها، وكان شغله جمع البيِّنات التي تعين على إبطال العبودية، وكان المحامون عن العبودية يدَّعون أنَّ العبيد إنما هم أسرى، أُخذوا في الحروب، وابتياعهم خير لهم من العذاب والقتل حسب عوائد بلادهم، إلا أنَّ كلاركصن كان يعرف أنَّ النخاسين يصطادون العبيد صيد الوحوش، غير أنه لم يقدر أنْ يثبت ذلك بالبينة، وحدث يومًا أنه التقى بصاحب له، وفيما هما يخوضان في الحديث قال له صاحبه إنه يعرف نوتيًّا كان عمله اقتناص العبيد إلا أنه لا يعرف اسمه، ولا يقدر على وصفه، ولا يعرف مقره، وكل ما يعرف من أمره أنه في إحدى السفن الحربية، فعزم كلاركصن أنْ يفتش عن هذا النوتي، ويأتي به شاهدًا، فتفقَّد كلّ المرافئ البحرية بنفسه، وفتش كلّ السفن، وأخيرًا وجد النوتي المذكور في آخر مرفأ وصل إليه وفي آخر سفينة دخلها، فأتى به شاهدًا على صدق دعواه، فكان من أقوى شهوده، وبقي سنين عديدة يفتش عن شواهد وأدلة أخرى، فكاتب أكثر من أربع مائة رجل، وسافر نحو خمسة وثلاثين ألف ميل حتى أضناه التعب وخارت قوته، ولكنه لم يترك هذا الميدان حتى

نبَّـه أفـكار الجمهـور إليـه، وحـرَّك ذوي الشـهامة إلـى المعاضـدة علـى الانتصـار للعبيـد والشـفقة عليهـم.

وبعـد معانـاة مشـقات كثيـرة أُلْغِيَـت تجـارة العبيـد تمامًـا، ولكـن بقـي أمـر أهـم مـن إلغـاء التجـارة، وهـو إلغـاء العبوديـة نفسـها وعتـق العبيـد، وهـذا أيضًـا تم بواسـطة نشـاط النشـيطين، وأشـهر الذين لهم اليـد الطولى فـي إتمامـه فـول بكسـتون. كان هـذا الرجـل فـي صبـاه مشـهورًا بالعنـاد والمكابـرة، فإنـه يُتِّـم مـن أبيـه وهـو حـدث، وكانـت أمـه امـرأة فاضلـة حكيمـة، فاجتهـدت كثيـرًا فـي تربيتـه تربيـة حسـنة وردع أهوائـه، ولكنها كانـت تبيـح لـه الحكـم فـي بعـض الأمـور الطفيفـة، مرتئيـة أنَّ الإرادة القويـة صفـة حميـدة، وكان معارفهـا يلومونهـا؛ لأنهـا ربَّـت فـي ولدهـا هـذه القـوة، فتجيبهـم بقولهـا: لا بـأس عليـه مـن ذلـك، فـإن هـذه الإرادة سـيكون منهـا إفـادة. ثـم أرسـلته إلـى المدرسـة، فلـم يسـتفد منهـا شـيئًا؛ لطيشـه وكسـله، ورجـع إلـى البيـت وهـو فـي الخامسـة عشـرة، وكان مولعًـا بالصيـد وركـوب الخيـل، وفيمـا هـو فـي السـن الـذي تبتـدئ فيـه حيـاة الشـاب إمَّـا فـي المليـح وإمَّـا فـي القبيـح، ألقتـه التقادير في بيتٍ مشـهور بالفضـل والتهذيـب، وقـد شـهد مـن فمـه فيمـا بعـد أنـه يَعْزي تقدمـه إلى دخولـه هـذا البيـت، وهو الذي سـاعده على تهذيب نفسـه وعلى الدخول إلـى مدرسـة دبلـن الكليـة، وقـد أفلـح في تلـك المدرسـة إفلاحًـا عظيمًـا، وكان أحـب شـيء لديـه أنْ يـرى أهـل ذلـك البيـت أنَّ تعبهـم لـم يذهـب سُـدًى، ثـم تـزوج بواحـدة مـن بناتهم، وصـار كاتبًـا عند أخوالـه في لندن. والملكـة التـي تأسسـت فيـه وهو ولد ظهرت الآن في كلِّ أعماله، وسـبَّبت كلَّ نجاحـه؛ لأنـه قـدر بواسـطتها أن يعمـل كلَّ مـا وصلـت إليـه يـده بـلا كلـل ولا ملـل، وكان يصـب كلّ قوتـه على كلّ عمـل أخـذ فيـه، ونجـح فـي كلّ أعمالـه؛ لأنـه عملهـا بـكل قوتـه، وبعـد أنْ بقـي مـدةً كاتبًـا صـار

شريكًا، ثم صار المعمل كله تقريبًا في يده، وكان نجاحه يزداد يومًا فيومًا، ولم يكتف بالتقدم والغنى، بل خصص لياليه لترويض عقله بالدرس، فقرأ بلاكستون ومنتسكيو ومؤلفات كثيرة في الفقه، وجعل دستورًا لحياته أنْ يأتي على آخر كلِّ كتاب شرع فيه وأن لا يحسب أنه أتم قراءة كتاب ما لم يكن قد استوعبه تمامًا.

ولما صار له اثنتان وثلاثون سنة من العمر صار عضوًا في البرلمنت، فاهتم بعتق العبيد في المهاجر الإنكليزية، وكان يقول: إنَّ الذي وجَّه أفكاره إلى هذه المسألة السيدة برسكلًا كرني، وهي امرأة مشهورة بالفضل وسموِّ العقل، ولما كانت على فراش الموت سنة 1821 استدعته مرارًا كثيرة، وحثَّته على جعل عتق العبيد غرضه من الدنيا، وهذا كان كلامها الأخير، فلم ينسَ وصيتها قط، وسمَّى واحدة من بناته باسمها تذكارًا لها، ولما تزوجت هذه الابنة في أول آب (أغسطس) من شهور سنة 1843 اليوم الذي صار فيه عتق العبيد، كتب إلى صاحب له يقول: الآن تركتنا برسكلًا وذهبت مع عريسها، وقد تمَّ كلّ شيء كما تحب، ولم يبق عبدٌ في كلِّ المهاجر الإنكليزية.

ولم يكن بكستون ذا موهبة فائقة ولا من ذوي العقول الثاقبة، ولكنه كان شديد العزم عالي الهمة، وتظهر أخلاقه من قوله الذي يحق له أنْ يُطبَع على قلب كلِّ شاب، وهو أنني أرى بالاختبار أنَّ الفرق بين البشر بين القوي منهم والضعيف وبين العظيم والحقير، هو في قوة العزم، حتى إذا عزم المرء على أمر لا يرتد عنه إلّا بالغلبة أو بالمنية، ومن كان ذا عزم قويٍّ أمكنه أنْ يفعل كلَّ ما يمكن فعله في هذه الدنيا، ولا يمكن للمواهب ولا للأحوال ولا للفرص أنْ تجعل الرجل رجلًا إذا لم يكن عزومًا.

وقد قام من بلاد المشرق رجال مشهورون بالهمة والإقدام، قادوا الجيوش، ودوَّخوا البلدان، وأقاموا لهم اسمًا بين أعظم الفاتحين مثل صلاح الدين وجنكيز خان وتيمور لنك وإبرهيم باشا وغيرهم من القواد العظام، وهاك طرفًا من سيرة كلٍّ من هؤلاء الأربعة:

وُلِد صلاح الدين بقلعة تكريت سنة 532 للهجرة الموافقة سنة 1137 للمسيح، ودخل مصر مع عمّه شيركوه، ولما مات شيركوه استقرَّت وزارة مصر له، فبذل الأَموال، وملك قلوب الرجال، وتقمَّص بقميص الجدِّ والاجتهاد.

وكان الإفرنج قد زحفوا على بلاد الشام منذ أكثر من ثمانين سنة، واستولوا على أنطاكية والقدس ومدن الساحل، وحاولوا الاستيلاء على دمشق والقطر المصري كله، فعزم صلاح الدين على طردهم من البلاد، فالتقاه بلدوين الرابع ملك القدس بالقرب من مدينة الرملة وكسره، فعاد إلى الديار المصرية، وأقام فيها ريثما لمَّ شعث أصحابه، ثم عاد يطلب الشام، فنازل حلب سنة 579، واستلمها من صاحبها عماد الدين زنكي، وسار إلى دمشق ومنها إلى الكرك، وكان صاحبها الأمير رينود ده شاتيليون قد نكث عهود الصلح، وقطع السابلة، فدافعه بعساكر الإفرنج، فرحل عنها ونازل الموصل، ومرض بعد ذلك مرضًا شديدًا حتى يئسوا منه ثم عُوفِي، وجمع ثمانين ألف محارب، ونازل عساكر الإفرنج بقرب طبرية، وحجز بينهم وبين الماء، فقتل منهم خلقًا كثيرًا وأسر غاي ده لوزينيان ملك القدس والأمير رينود صاحب الكرك، وسُمِّيت هذه الوقعة وقعة حطين نسبة إلى جبل هناك، ولم يُصَب الإفرنج من حين خروجهم إلى الشام بمصيبة مثل هذه.

ثم نازل عكاء وأخذها، واستنقذ من كان فيها من الأسارى، وتفرقت عساكره في بلاد الساحل، فأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة، وسار هو يطلب تبنين وكانت قلعة منيعة، ونصب عليها المجانق، فتسلَّمها وأسر من بقي فيها حيًّا ورحل إلى صيدا، فنزل عليها واستلمها وسار عنها إلى بيروت، ورَكَّب عليها المجانيق، وداوم الزحف والقتال حتى أخذها، وامتنعت عليه صور فتركها وقصد عسقلان، وحاصرها أربعة عشر يومًا، وأقام عليها المجانيق حتى تسلمها، ثم قصد القدس، فاجتمعت إليه العساكر التي كانت في الساحل، فنصب عليها المجانيق، وشدَّد عليها الحصار، فسلَّم أهلها له على أنْ يؤدي الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والطفل من الذكور والإناث دينارين. ويظهر من تاريخ الإفرنج أنه شفِق على السكان، وردَّ لهم أسراهم وعاملهم بالرفق أكثر مما تستدعيه شروط الصلح الذي عقدهُ معهم.

ثم خلَّف أخاه الملك العادل بالقدس، يقرر قواعدها ودوَّخ كلّ المدن والحصون التي في شمالي بلاد الشام وصالح أهل أنطاكية، ولم يمتنع عليه إلّا صور سيدة البحار. وكان شجاعًا مهابًا ماهرًا بفنون الحرب والجلاد، كريمًا حسن الأخلاق، صبورًا، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، حسن السياسة، عظيم الهيبة، وافر العدل، كثير التواضع واللطف، قريبًا من الناس، كثير الاحتمال والمداراة، وكان يحب العلم والشعر والعلماء والشعراء، ويقربهم إليه ويحسن إليهم، ولما ملك الديار المصرية لم يكن فيها شيء من المدارس، فعمَّر مدارس كثيرة، ووقف عليها أوقافًا واسعة، وبنى مدرسة بالقدس، ووقف عليها وقفًا كبيرًا.

وجنكيز خان ولد سنة 1155 للميلاد، وأبوه شيخ قبيلة صغيرة من

قبائل المغول، فيها نحو ثلاثين أو أربعين بيتًا، ومات أبوه وتركه صغيرًا في الثالثة عشرة من عمره، فتولى أمر القبيلة مكانه، ولكن لم يخضع له بعض رجال قبيلته استخفافًا به، بل ولَّوا عليهم رجلًا آخر منهم، وانتشبت بينهم الحروب، فانجلت عن انهزام جنكيز خان، وكان اسمه حينئذٍ تموجين، فالتجأ إلى أنغ خان صاحب كرايت، فأزوجه من ابنته، وولَّاه قيادة فرقة من جنوده، وكان جنكيز شجاعًا مقدامًا، فحسده أنغ خان حموه، ودَسَّ له من يقتله سرًّا، وبلغ جنكيز ذلك، فجمع جنوده، وهاجر بهم إلى بلاده، وجمع هناك جيشًا كبيرًا، وعاد لمحاربة حميه، فتغلب عليه، واستولى على مملكته، وخاف التتر منه، واعتصبوا عليه عصبة واحدة، فنازلهم ومزَّق شملهم، واستولى على كلِّ بلاد المغول، ثم طمحت نفسه إلى توسيع نطاق مملكته، فجمع نوَّاب قبائل التتر الخاضعين له، وكاشفهم بما في نفسه، فقام واحد من كهانهم وأمنه بأنه سيملك المسكونة، وغيَّر اسمه وسمَّاه جنكيز خان؛ أي عظيم الخانات تفاؤلًا بذلك، فهابته القبائل فحمل بهم على بلاد الصين، واكتسح شماليها وتسوَّر السور الصيني المنيع، وهاجم باكين وافتتحها، ثم عاد إلى بلاده، ووطَّد الأمن فيها، وعقد لابنه جوجي على سبع مائة ألف محارب وسيَّره على خوارزم، وصاحبها علاء الدين محمد، وكانت سلطنته ممتدة من الشام إلى بلاد السند، ومن نهر سيحون إلى خليج العجم، فالتقى به وانتشب بينهما القتال، فتغلَّب جوجي على سمرقند، وبخارا وأحرق مكتبتها الشهيرة.

وقسم جنكيز خان جيوشه ثلاثة أقسام: قسمًا أرسله إلى الشمال الغربي، فاكتسح كلَّ بلاد فارس والقوقاس، واجتاز إلى بلاد الروس، ونهب البلاد التي بين الفلغا والنيبر، وقسمًا أرسله

إلى الجنوب فاكتسح جنوبي آسيا، وقسمًا بقي يوغل في بلاد الصين، ثم جمع جنوده كلها، وقطع بهم صحراء كوبي قاصدًا مملكة طنجوت في الشمال الغربي من بلاد الصين، وحاصر فنهي قصبتها، وكان قد أنهكه الكبر، فوافته المنية قبل أنْ يستلمها، وكانت وفاته سنة 1227، وله من العمر اثنتان وسبعون سنة، وكان عالي الهمة شجاعًا مهابًا منصفًا في الرعية أباح الحرية الدينية لكلِّ المذاهب، وعفا الأطباء والكهنة والمشايخ من الجزية، وشدَّد الوطأة على أهل البغي والفساد، وكان يقاص الزناة والسَّرَقة أشد القصاص، وأنشأ البريد في سلطنته الواسعة، ووطَّد الأمن فيها حتى كان الواحد يسير وحده من طرفها الواحد إلى الآخر آمنًا. وكان يكرم العلماء، ويقربهم منه إلّا أنه كان سفَّاكًا للدماء كأكثر الفاتحين الأقدمين، فقد قيل إنه قتل في حروبه الكثيرة لا أقل من خمسة ملايين من النفوس، وتيمورلنك ولد قرب كش في الثامن من ابريل سنة 1336 للميلاد ، ولما صار له من العمر أربع وعشرون سنة، كان القلموق قد أخضعوا كلّ تركستان، وطردوا منها الأمراء الذين لم يخضعوا لهم، وكان عمه أميرًا على كش، فهرب من وجههم، فلم يتبعه تيمور بل قدم على رئيس القلموق، فأعجبته فصاحته وطلاقة وجهه، فأقطعه كش وجعله وزيرًا لابنه الذي أقامه على تركستان، ثم اجتمع أمراء تركستان، ونبذوا طاعة القلموق، وولوا عليهم الأمير حسين والأمير تيمور، فحكما بالاتفاق مدة، ثم انتشبت الحرب بينهما، فَقُتِل حسين، واستقل تيمور، فنصَّب واحدًا من نسل الملك على سرير السلطنة واكتفى بلقب أمير، وكان هو الآمر الناهي، فانتقم من الذين نقموا على القلموق، وغزا قبائل خوارزم التي كانت قد نهبت بخارا، ودعا أمير هرات وأمراء خراسان ليتحالفوا معه على ردِّ السلطنة إلى حدودها الأولى، فلم

يلبوا دعوته، فزحف عليهم وأخضعهم، ثم عصى عليه أهل هرات، وقتلوا رسله، فزحف عليها، وقبض على ألفين من حاميتها، وبنى هرمًا من أجسادهم والطين والآجر، واكتسح سجستان أيضًا، ثم عاد إلى سمرقند، وأقام فيها فصل الشتاء، وعاد في السنة التالية إلى الغزو، ولم تنصرم سنة 1387 حتى أخضع كلَّ البلاد التي عبر دجلة من تفليس إلى شيراز، وكان طقتمش خان قد اجتاح بعض ولاياته، فأغار عليه وطرده من بلاده، وتأثَّره إلى توبول، وقطع جبال أورال، وسنة 1398 شنَّ الغارة على البلدان الغربية، فعبر دجلة، وأخضع القبائل في شرقي الفرات، ودار إلى الشمال حتى وصل إلى الفلكا، وتحوَّل إلى الغرب حتى وصل إلى النيبر، ثم نزل إلى موسكو، وعاد بطريق استراخان، وأخضع كلَّ البلدان التي مرَّ بها، وسنة 1398 قصد بلاد الهند وأثخن في أهاليها وعاد بالغنائم الوافرة، وفي السنة التالية عاد إلى غربي آسيا، وفتح حلب وحماة وحمص وبعلبك ودمشق وحارب السلطان بيازيد العثماني بقرب أنقرة، وتغلب عليه، وأخذه أسيرًا، وفتح آسيا الصغرى كلها، وطرد فرسان مار يوحنا من أزمير، وضرب الجزية على إمبراطور القسطنطينية، ثم عاد إلى بلاد الكرج، وأقام فيها فصل الشتاء، وعاد منها بطريق مرو وبلخ، وبلغ سمرقند سنة 1404، واستعد لغزوة بلاد الصين، وزحف عليها بجيش جرار، ولكنه مرض في أثناء الطريق بالحمى، ومات في السابع عشر من ففريه (شباط) سنة 1405، وكان مع ما اشتُهر عنه من الفتك لِيِّن العريكة، محبًّا للعلم والعلماء، وله مؤلفات كثيرة باللغة الفارسية.

وإبرهيم باشا المشهور ابن محمد علي باشا عزيز مصر ولَّاه أبوه قيادة قسم من الجيش، وهو ابن ست عشرة سنة، وسيَّره سنة

1816 لمحاربة الوهابيَّة في بلاد العرب، وكانوا قد خرجوا على الدولة العلية، فذهب إليهم وقاتلهم وهزمهم وفتح مدنهم، وقبض على أميرهم عبد الله بن سعود، وكان يؤدي للعرب ثمن ما يعوزه من الميرة كما فعل ولنتن في إسبانيا فاستمال إليه قلوبهم، ولما قطع شأفة العصيان، وقتل شيوخ الوهابية صرف عنايته إلى إصلاح البلاد وتأمين السابلة، فانفتحت أبواب التجارة، ونُشِرت راية العدل بين الأهالي فدانوا له، واجتمعت قلوبهم على ولائه، فبنى قلاعًا منيعة لتأمين البلاد، واحتفر آبارًا كثيرة، وعاد إلى مصر ظافرًا غانمًا، ووقائعه في بلاد الشام مشهورة ومآثره فيها مبرورة، فإنه قصدها بثلاثين ألفًا، واستولى على كلِّ مدن الساحل من غزة إلى طرابلس، ثم استولى على دمشق وحمص وحلب وقونية، ولبث في سورية يدبر أمورها أحسن تدبير إلى أنْ اتفقت الدولة العلية مع دول أوروبا على إخراجه منها، فعاد إلى مصر وتولِّاها سنة 1847، وتُوفِّي فيها في السنة التالية، وكان عالي الهمة، ثابت العزم، يُعَد من أفراد هذا الزمان في النشاط والشجاعة.

الفصل التاسع

في رجال الأعمال

قال سليمان الحكيم: أرأيت رجلًا مجتهدًا في عمله أمام الملوك يقف.
وقال الإمام عمر بن الخطاب: إني لأرى الرجل فيعجبني فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا لا، سقط من عيني.
وقال أون فلثام: من لم يتعلم صناعة ولا عملًا فهو حقير

شبَّه هَزْلِت رجل العمل بإنسان محتقر مقيَّد بنير حرفته، لا يقدر أنْ يحيد عنهُ يمنة ولا يسرة، وليس عليه سوى أنْ يسير في السبيل المطروق الذي سار فيه من احترف هذه الحرفة قبلهُ، ولكن هذا القول على حرف بل هو عن الصحة بمعزل، ومع هذا لا ننكر أنه يوجد بين أصحاب الأعمال من عقله محصور في دائرة ضيقة لا يتجاوزها، كما يوجد بين أصحاب الأقلام ورجال العلم والسياسة، ولكن هذا لا ينفي أنَّ بين أصحاب الأعمال أناسًا كبار العقول، يستطيعون المعاطاة في أوسع أعمال الدنيا، كما قال بُرك: إنه يعرف رجالًا من أشهر رجال السياسة كانوا تجارًا وباعة.

ولو التفتنا إلى ما تستدعيه الأعمال لنجاحها من الأهلية والسرعة وحسن الإدارة والعلم بطبائع البشر ونحو ذلك، لرأينا جليًّا أنَّ مدرسة العمل ليست ضيقة النطاق بل واسعته، وتقبل الاتساع إلى ما شاء الله، ولقد أصاب مستر هلبس إذ قال: إنَّ رجال العمل الماهرين نادرون كالشعراء المفْلِقين، وأندر من القديسين والشهداء

الحقيقيين، إلّا أنَّ من الجهال من يزعم أنه لا يليق بذوي المواهب الفائقة أنْ يتعاطوا الأعمال الاعتيادية. ومن برهة وجيزة انتحر شاب؛ لأنه مولود على ما زعم ليكون من ذوي الوجاهة، وحكم عليه أنْ يكون بدَّالًا، فأثبت بعمله هذا أنه لا يستحق أنْ يكون شيئًا. والحرفة لا تحط شأن الرجل بل الرجل يحط شأن الحرفة، وكل الأعمال الجسدية والعقلية مكرمة على حدّ سواء بشرط أنْ يكون ربحها جائزًا، وقد تغوص الأصابع في الأقذار، ويبقى القلب طاهرًا؛ لأن النجاسة أمر أدبي لا مادي، قال المتنبي:

يهون علينا أنْ تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول

وقال أيضًا:

غَثاثة عيشي أنْ تغث كرامتي وليس بغثٍّ أنْ تغث المآكل

وأشهر الرجال لم يستنكفوا عن معاطاة الأعمال لأجل تحصيل معيشتهم، وهم يطلبون أسمى المطالب، فإن طاليس المليطي رأس الحكماء السبعة وصولون المؤسِّس الثاني لأثينا وهيبراتبس كانوا من رجال الصناعة، وأفلاطون الحكيم كان يبيع الزيت وهو يطوف بلاد مصر وينفق مما يربحه منه، وسبينوزا حصَّل معيشته بصقل زجاجات المناظر لمَّا كان آخذًا في أبحاثه الفلسفية، ولينيوس النباتي العظيم تتبَّع العلم وهو يعمل في السكافة، وشكسبير رأس شعراء الإنكليز كان يدير الملاعب ويفتخر بإدارتها أكثر مما بالنظم. وقد ارتأى الشاعر بوب أن قصارى ما كان يتوخاه شكسبير في إتقانه الشعر والإنشاء تحصيل معيشته، والظاهر أنه لم يقصد الشهرة ولا طبع شيئًا من نظمه، ولكنه كسب مالًا وافرًا من الملاعب حتى صار له منه دخل كافٍ، فاعتزل حينئذٍ إلى المدينة التي وُلِد فيها.

وتشوسر الشاعر كان في أول حياته عسكريًّا، ثم دخل بيت المكس، وصار ناظرًا على الأراضي الأميرية، وسبنسر كان كاتب سرٍّ لنائب أرلندا، ثم صار رئيس حرَس كرك. وملتن كان معلمًا، ثم ارتقى إلى رتبة كاتب سر لمجلس إدارة البلاد في أيام الثورة. والسر إسحاق نيوتن كان في مضرب النقود، والنقود التي ضربت 1694 ضُرِبت تحت مراقبته. ووردسورث كان يوزع أوراق البريد، وسكوت كان كاتبًا وكلاهما كان مثلًا في المحافظة على الوقت، وداود ريكرْدو كان تاجرًا، فحصل على ثروة وافرة، ووضع علم الاقتصاد السياسي وهو آخذ في عمله، فجاء علمًا نفيسًا مبنيًّا على اختبار تاجر حاذق وفيلسوف نقريس، وبيلي الفلكي كان سمسارًا، وألن الكيمياوي كان حائكًا.

وفي عصرنا هذا أناس كثيرون يبين منهم أن أسمى القوى العقلية حليف للعمل والتعب، فإن غروت المؤرخ كان صرَّافًا، ويوحنا ستورت مل الفيلسوف الشهير كان فاحصًا في شركة الهند الشرقية، وكان العاملون معه يعتبرونه اعتبارًا عظيمًا لا لآرائه الفلسفية بل لنشاطه في عمله، والنجاح في الأعمال مثل النجاح في العلوم تمامًا؛ لا يحصل إلّا بالصبر والتعب والانصباب. قال قدماء اليونان: لا ينجح الإنسان في عمل إلا بالرغبة والدرس والمزاولة. وسر النجاح المزاولة، ورب قوم ينجحون بالصدفة، ولكن نجاح الصدفة كربح المقامر آلة لخرابه، كان من عادة الفيلسوف باكون أنْ يقول: إنَّ الأعمال كالطرق فالمعاجيل أوعرها، ومن طلب الراحة فعليه بالطرق الطويلة، وإنْ أضاع فيها وقتًا طويلًا.

وما قيل في خرافات اليونان عن هرقل ومشقاته التي عاناها قبل أن ينجح، يصح أنْ يكون مثالًا لنجاح كلِّ البشر. فليعلم كلُّ شابٍّ أنَّ

سعادته وارتقاءه يتوقفان عليه وعلى اجتهاده لا على مساعدة الغير له. وما أحسن ما كتبه المرحوم اللورد ملبرن إلى اللورد جون رُسل جوابًا عن كتاب توصية بأحد أولاد الشاعر جون مور، قال: أيها العزيز، أرى أنَّ الأفضل لنا أنْ نساعد مور نفسه لا ابنه؛ لأن مساعدة الشبان تضر بهم، إذ تجعلهم يظنون أن عندهم أكثر مما يحتاجون إليه فلا يعولون على أنفسهم.

ويجب أن لا تخاطب الشاب إلا بقولنا له اعتمد أيها الشاب على نفسك فإن تكاسلت ومتَّ جوعًا فدمك على رأسك.

والأعمال المبنية على مبادئ صحيحة لغايات حميدة، لا بُدَّ من أنْ تنتج منها نتائج حميدة، هذا فضلًا عن أنها ترقّي شأن الإنسان، وتصلح أخلاقه، وتحرّك همة غيره للاقتداء به، ولا يمكننا أنْ نطمع بأن ينجح الجميع على حدٍّ سواء، ولكن كلٌّ ينجح على قدر اجتهاده واستحقاقه، كما قال المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام الكرائم

وعلى كلٍّ، لا يناسب للناس أنْ تكون طرقهم سهلة، والأفضل للإنسان أنْ يكون مضطرًّا أنْ يعمل بالكدح ويعيش بالتقتير من أنْ يرى رزقه سهلًا ميسورًا ومهده رطبًا طريًّا. ومن المؤكد أنَّ الذين يدخلون ميدان الحياة وزادهم قليل يكونون أكثر رغبة من غيرهم حتى إنَّ ذلك شرط لازم للنجاح. قيل: سُئل أحد القضاة: بِمَ يرتقي الناس إلى منصب القضاء؟ فقال: «البعض يرتقون بالذكاء، والبعض بالشرف، والبعض بالمعجزة، والأكثرون بالفقر».

والعمل أصل نجاح العباد وعمران البلاد، ولا بلية على الإنسان

أشد من أنْ يتمتع بكل أمانيه هنيئًا مريئًا بلا تعب ولا كد. والأمة التي ليس في أفرادها ميل إلى العمل والكد والاستقلال يجب حذفها من سلك الأمم. قيل: سأل المركيز ده سينولا السر هوراس فير قائلًا: مَّم مات أخوك؟ فأجابه: من عدم العمل، فقال المركيز: أصبت ولعل ذلك كافٍ لأن يميت كلَّ جنرال منا.

ومن الغريب أنَّ الذين تخيب مساعيهم ينسبون خيبتهم غالبًا إلى غيرهم، وحسبنا دليلًا على ذلك أنَّ أحد الكتاب ألّف كتابًا من عهد قريب، وعدَّد فيه الأعمال الكثيرة التي أخذ فيها ولم ينجح، وذكر من جملة ما ذكره أنه يجهل جدول الضرب، وبعد كلام طويل قال إنَّ عدم نجاحه حدث من أنَّ العصر الذي هو فيه عصر عبادة المال. ولمرتين الشاعر لم يخجل من ذكره ازدراءه بعلم الحساب، ولو اعتبر هذا العلم الشريف حق الاعتبار، فربما ما رأينا أصحابه يهتمون بجمع الإحسان له في شيخوخته.

ومن الناس من يزعم أنه وُلِد في طالع نحس، فلا يمكنه أنْ ينجح في عمل يأخذ فيه. قال واحد: إنه لو كانت صناعته عمل الطرابيش لَوُلِد الناس بلا رءوس. أمَّا المثل المسكوني فيقول: إنَّ النحس جار الكسل. وإذا دققنا النظر رأينا أنَّ الناس الذين يتشكَّون من النحس هم الذين يحصدون ثمر إهمالهم، وعدم اهتمامهم، وقلة انصبابهم، وهم الجديرون بأن يقولوا:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيبٌ سوانا
ونهجو دهرنا من غير ذنبٍ ولو نطق الزمان بنا هجانا

قال الدكتور جنسن (الذي أتى لندن وفي جيبهِ دينار واحد) إنّ شكوى الناس من الدهر باطل وظلم؛ لأنني لم أرَ رجلًا نشيطًا

مهمَـلًا، وكل مـن تخيـب مساعيهِ لومُـه غالبًـا علـى نفسـهِ. وقـال أبـو العـلاءِ:

يقولـون الزمـان بـه فسـاد وهـم فسـدوا ومـا فسـد الزمـان

وقـال وشـنطون أرفـن الكاتـب الأميركـي الشـهير: «إننـي كثيـرًا مـا أسـمع الكَسِـل الـوَكل يتشـكَّى مـن ظلـم الزمـان وجـوره علـى ذوي الفضـل، ومـا ذلـك إلا تعلَّـة باطلـة؛ لأنـه مـا مـن أحـد مـن ذوي الفضـل إلّا ويفلـح إذا كان مـن ذوي التدبيـر والسـعي لا مـن الجبنـاء الذيـن ينـزوون فـي بيوتهـم، ويتوقعـون أنْ يسـوق القـدر إليهـم رزقهـم. ومـن الأقـوال المتداولـة أنَّ الدهـر يخفـض الفضـلاء ويرفـع الجهـلاء، ولعـل ذلـك لا يخلـو مـن الصحـة؛ لأن جهـلاء القـوم قـد يكونـون مـن أهـل النشـاط والهمـة، «ألا تـرى أنَّ الكلـب النابـح أنفـع مـن الأسـد النائـم».

والنجـاح فـي العمـل يسـتدعي وجـود الانصبـاب فـي العامـل والانتبـاه والتدقيـق والترتيـب والمحافظـة علـى الوقـت، وإذا نظرنـا إلـى هـذه الصفـات رأيناهـا مـن أول وهلـة أمـورًا طفيفـة، ولكـن بعـد التـروي نجـد أنهـا أمـور جوهريـة لراحـة البشـر وتقدمهـم ونجاحهـم وإن كانـت صغيـرة، فالعالـم مركـب مـن الصغائـر، وصفـات الأمـم مؤلفـة مـن تكـرار أعمـال صغيـرة مثـل هـذه، ومـا مـن شـعب حُـطَّ شـأنه إلّا بسـبب إهمالـه هـذه الأمـور الصغيـرة وأمثالهـا، وعلـى كلّ أحـد واجبـات إمَّـا عائليـة كتدبيـر المنـزل أو خارجيـة كاحتـراف الحـرف، أو جمهوريـة كسياسـة الأمـة، ولا بـدَّ فـي كلّ حـال مـن القيـام بهـا.

أمَّـا الانصبـاب فقـد تقدمـت أمثلـة كثيـرة عليـه مـن الذيـن نجحـوا فـي كلِّ نـوع مـن الصنائـع والعلـوم والفنـون، فـلا حاجـة إلـى تكـرار ذلـك، والانتبـاه ليـس أقـل مـن الانصبـاب لزومًـا للنجـاح، والتدقيـق

صفة ضرورية وسمة من سمات حسن التهذيب، ولا بدَّ من التدقيق في الملاحظة وفي الكلام وفي إجراء الأعمال. وأفضل للإنسان أنْ يعمل عملًا صغيرًا بدقة من أنْ يعمل عشرة أضعاف ذلك العمل بغير دقة، ولكن كثيرين لا يبالون بهذه الصفة مع أنهم يشعرون بالمضار الناتجة من إهمالها، ومن لم يكن مدققًا في أعماله لا يُؤتمَن عليها ولو كان أمينًا ماهرًا؛ لأنه لا يعملها جيدًا. يُحْكَى أنَّ تشارلس جمس فكس لما عُيِّن كاتب أسرار البلاد عِيبت عليه رداءة خطه، فلم يستنكف أن أتى معلمًا يعلمه الخط، وواظب على ذلك حتى أجاد خطه، وتدقيقه في ذلك يُظْهر تدقيقه في الأمور الكبيرة، والترتيب ضروري؛ لأنه يُعين على إتمام قدر جزيل من العمل في وقت قصير إتمامًا مرضيًا. قال رتشرد سسل: إنَّ الترتيب في الأعمال يشبه وضع الأمتعة في الصناديق، فالإنسان الحاذق يضع في الصندوق مضاعف ما يضعه فيه غير الحاذق. وترتيب سسل هذا يُضْرَب به المثل حتى إنه جعل له دستورًا: «إنَّ الطريق الأخصر لإتمام الأعمال أن لا يُعْمَل في وقت واحد إلّا عمل واحد». ولم يترك عملًا حتى أكمله تمامًا، ولما كانت تتكاثر عليه الأعمال كان يواصل العمل بها حتى يتمَّها. وكان دستور ده وت مثل دستور سسل؛ أي أن يُعمل عمل واحد في الوقت الواحد. وقال إنه ما ترك عملًا وشرع في آخر إلّا بعد أنْ أتمَّ الأول جيدًا. سُئل أحد الوزراء الفرنساويين، وكان ينجز أعمالًا كثيرة في وقت قصير: بِمَ تنجز هذا المقدار من الأعمال؟ فقال: بعدم تأخيري إلى الغد ما يمكنني عمله اليوم، فكأنه قال بلسان الشاعر العربي:

ولا أُؤخِّر شغل اليوم عن كسل إلى غدٍ إن يوم العاجزين غد

وقال اللورد بروم: إنَّ أحد رجال السياسة أخذ هذا القول، وجرى

علـى عكسـه؛ أي إنـه لـم يعمـل فـي يومـه إلا مـا لا يمكـن تأخيـره إلـى غـده. والظاهـر أنَّ كثيريـن ينهجـون هـذا المنهـج ناسـين أنـه دأْب الكسـالى الذيـن يتكلـون علـى غيرهـم لإتمـام أعمالهـم، ولكـن اسـمع مـا قـال المثـل: إنْ أردتَ قضـاء حاجتـك فاقضهـا بنفسـك، وإذا لـم تُـرِد قضاءهـا فـوكِّل بـه غيـرك. ومـا حـك ظهـرك مثـل ظفـرك.

رُوِي أنَّ أحـد الأغنيـاء الكسـالى كان لـه أرض دَخْلُهـا خمـس مائـة جنيـه فـي السـنة، فكثـرت عليـه الديـون حتـى التـزم أنْ يبيـع نصفهـا لأحـد الفلاحيـن النشـيطين ويؤجـرهُ النصـف الآخـر. وبعـد مضـي مـدة مـن الزمـان أتـى هـذا الفـلاح إلـى صاحـب الأرض، وطلـب منـه أن يبيعـهُ النصـف الباقـي، فقـال لـه: وهـل تقـدر أنْ تشـتريهُ. قـال: نعـم، إذا اتفقنـا علـى الثمـن، فقـال: إنَّ فـي ذلـك عجبًـا، فأخبرنـي لمـاذا لـم يكـن الدخـل مـن مضاعـف هـذه الأرض يكفينـي، ولـم أكـن أدفـع إيجـارًا، وأمَّـا أنـت فتدفـع لـي مائتـي جنيـه كلَّ سـنة ضمانًـا، وقـد صـرت قـادرًا أنْ تشـتري كلّ الأرض، وليـس لـك مـدة طويلـة فيهـا؟ فأجابـه: إنَّ سـبب ذلـك واضـح جـدًّا، وهـو أنـك تجلـس فـي بيتـك وتقـول اذهـب، ولكننـي أنـا أقـوم وأقـول تعـال، أنـت تنـام فـي سـريرك وتبـذِّر أموالـك، وأنـا أقـوم صباحًـا وأدبِّـر أعمالـي.

كتـب أحـد الشـبان إلـى السـر ولتـر سـكوت يطلـب نصحـهُ، وكان قـد دخـل فـي منصـب، فكتـب لـه الجـواب بهـذه الصورة:احتـرس مـن البطالـة، ولا تؤخـر عمـلًا يجـب عملـه، ولْتكـن أوقـات الراحـة بعـد العمـل لا قبلـه، إذا سـار جيـش واضطربـت مقدمتـه قليـلًا حـدث اضطـراب عظيـم فـي سـاقته، وهكـذا الحـال فـي الأعمـال، فـإن لـم تُكْمِـل مـا بيـدك مـن العمـل فعمًّـا قليـل تزدحـم عليـك الأعمـال فتضيـق بهـا ذرعًـا.

أما المحافظة على الوقت فلا يهتم بها إلّا من يعتبر قيمة الوقت. قال واحد من الفلاسفة الإيطاليين: إنَّ الوقت عَقَار كلِّ إنسان، ولكن هذا العقار لا ينتج شيئًا ما لم يفلح ويُصلح، فمن اهتمَّ به جنى ثمر أتعابه، ومن أهمله لم يحصد منه سوى الشوك والحسك وكل المضار. ومن فائدة المحافظة على الوقت أنها تمنع ارتكاب الشرور. قال المَثَل: «رأسُ الكسلان خانُ الشيطان، وفي عقل البليد شيطان مريد». ألا ترى أنه إذا كان الإنسان بطالًا وكانت أبواب ذهنه مفتوحة تجد التجارب إليه سبيلًا وتتقاطر الهواجس إلى عقله. ولقد لوحظ أنَّ النوتية تكثر بينهم الفتن عندما يكونون بطالين؛ ولذلك كان من عادة أحد الربَّانين أنه إذا لم يبق عملٌ للملاحين أمرهم بصقل المراسي.

ومن عادة رجال الأعمال أنْ يعتبروا الوقت مالًا، ولكنه أكثر من مال، واغتنامه يزيد الإنسان علمًا وتهذيبًا وشهرة. ولو قضى الإنسان ساعة كلَّ يوم في تهذيب نفسه بدلًا من أنْ يقضيها في الكسل أو في أمور لا طائل تحتها، لصار حكيمًا في سنين قليلة. ومن خصَّص ربع ساعة كلَّ يوم بتوسيع معارفه رأى لها نتيجة كبيرة في سنة واحدة. والواسطة الفضلى لجعل الوقت كافيًا للعمل والراحة هي إنجاز الأعمال في أوقاتها وإلا تراكمت على الإنسان، فضاق بها ذرعًا، وصار عملها كلها فوق طاقته. ومن الناس من لا يعتبر الوقت حتى يفوت، كما أنَّ منهم من لا يعتبر المال حتى ينفد. فإذا اعتاد الإنسان على البطالة، تملكت فيه هذه الخلة حتى إذا أراد النهوض للعمل رأى نفسه مقيدًا بسلاسل الكسل التي ارتبط بها بإرادته. ومن يضيع ماله يسترده بالاجتهاد ومن يضيع علمه يسترده بالدرس، ومن يضيع صحته يستردها بالدواء، وأمَّا من يضيع وقته فلا يقدر أنْ يسترده بواسطة من الوسائط.

واعتبار الوقت يعين على المحافظة عليه. قال الملك لويس الرابع عشر: «المحافظة على الوقت من كمالات الملوك». وهي أيضًا من واجبات الأشراف وضروريات الصناع، ولا شيء يقوي ثقتنا بإنسان مثل وجود هذه الصفة فيه، ولا شيء يقلل ثقتنا به مثل إهماله إياها، فمن أنجز كلَّ شيء في وقته ظهر أنه معتبرٌ وقته ووقت غيره، ومن ارتبط بعمل ولم يأخذ فيه كلَّ يوم في الوقت المؤجَّل عُدَّ مخلفًا العهد حانثًا بل كاذبًا بل مجرمًا. ومن لا يهتم بالوقت لا يهتم بالعمل ولا يستحق أنْ يُؤتمَن على أعمالٍ ذات طائل. حُكي أنَّ كاتب أسرار وشنطون تأخَّر يومًا عن المجيء إليه في الوقت المعين وألقى اللوم على ساعته، فقال له وشنطون: أبدل ساعتك بأخرى وإلا بدلتك بآخر.

والذين يتأخرون عن عمل كلِّ شيء في وقته يذهبون إلى السفينة بعد أن تسافر، ويكتبون مكاتيبهم بعد أن يسير البريد، فتكون كلّ أعمالهم في ارتباك واضطراب دائمَيْن. والاختبار يرينا أن الذين لا يحافظون على الوقت لا يصلون إلى النجاح، بل يطرحهم العالم وراء ظهره؛ ليرثوا نصيب الكسالى البطالين الذين دأبهم التذمر من صروف الدهر.

وعلى رجال العمل أن يكونوا سريعي الخاطر أيضًا في إجراء مقاصدهم، شديدي الثبات في إتمامها. وسرعة الخاطر والثبات ضروريان جدًّا، وهما وإن كانا بالطبع لا بالوضع فالاختبار والملاحظة يقويانهما، ومن قاما فيه يرى من أول وهلة منهج العمل الذي يقصد الأخذ فيه، حتى إذا كان ذا عزم جرى في عمله وبلغ منه أمانيه، وهاتان الصفتان - أعني سرعة الخاطر والثبات - ضروريتان جدًّا لكل أحد، ولاسيما للذين عليهم إدارة الأعمال الكبيرة مثل

قيادة الجيوش؛ لأنه لا يكفي أنْ يكون القائد بطلًا محنكًا، بل يجب أنْ يكون نبيهًا خبيرًا بأحوال البشر وأخلاقهم، قادرًا على تنظيم عدد وافر من الرجال على أنْ يطعمهم ويكسوهم، ويدبّر أمر منامهم ورحيلهم ونزولهم وصكهم في الحرب والاعتناء بالجرحى منهم إلى غير ذلك. والمرجح أنه ليس بين قواد الأرض مَن هو أشهر من نبوليون وولنتون، فنبوليون كان قوي التصور متدبرًا للأمور وناظرًا في عواقبها نظر الخبير الحازم، وكان غايةً في الزكانة والفراسة، ينظر إلى الرجل فيعرف أطواره؛ ولذلك قلَّما أخطأ في اختيار رجاله، ولكنه لم يعتمد عليهم كثيرًا في المسائل الكبيرة ذات القدر.

ومن أراد الاطلاع على أطوار هذا الرجل العظيم بالتفصيل، فعليه بمراسلات نبوليون المطبوعة في باريس بأمر نبوليون الثالث وبالمجلد الخامس عشر منه، المتضمن مكاتيبه التي كتبها وهو في حدود بولونيا سنة 1807 بعد غلبة ايلو، فإنه كان في ذلك الوقت نازلًا على نهر بَسَرْج والروسيون أمامه والنمساويون عن يمينه والبروسيانيون وراءه، وكان عليه أنْ يراسل فرنسا في أمور مهمة جدًّا وهو في بلاد العدو، ولكنه كان قد سبق ودبَّر أمر ذلك، فواصل الرسائل ولم يُفقَد له كتاب واحد، وكان يلتفت إلى حركات العساكر وطَلَبِ النجدات من أقاصي فرنسا وإسبانيا وإيطاليا والمانيا، وفتح الخلجان، وتمهيد الطرق لجلب المؤونة من بولونيا وبروسيا، وكانت أوامره تصدر لجلب الخيل وعمل السروج والأحذية واستحضار المؤونة الكافية من الخبز والأشربة معيِّنًا أنواعها ومقاديرها، وفي الوقت نفسه كان يكتب إلى باريس في شأن ترتيب مدرستها الكلية وسن شرائع التعليم العمومي، ويكاتب

جريدة المونيتور، ويراجع تقارير وكلاء المال، ويرشد العاملين في التويلري وفي كنيسة المدلين، ويرد على جرنالات بروسيا، ويندد بمدام ده ستايل، ويسعى لإزالة النزاع من الملعب الكبير، ويكاتب سلطان الأتراك وشاه العجم إلى غير ذلك من الأشغال الكثيرة، فكان جسده في فنكنستن وعقله يشتغل في أكثر من مائة مكان في باريس وأوروبا وفي كلِّ الدنيا، وكان يهتم بالكبائر والصغائر على حدٍّ سواء، فإنك تراه يكتب إلى ناي يسأله عما إذا كانت البنادق وصلت إليه في حينها، وإلى البرنس جيروم يرشده في أمر القمصان والجبب والأحذية والشواكي[1] والأسلحة التي يريد إرسالها إلى كتائب ورتمبرج، وإلى كمبسرة ليسرع بإرسال الحنطة الكافية للجنود، قائلًا له: إنَّ «إنْ ولكن» لا محلَّ لهما في ذلك الوقت. وإلى دارو أن الجنود في احتياج إلى القمصان. وإلى غراندوك برج قائلًا: إنَّ الجنود تحتاج سيوفًا، فأرسل من يجلبها من بوزن، وخوذًا فمُرْ أنْ تُصنَع في إبلن. إلى أنْ قال: ولا يمكننا أنْ نتمم عملًا ونحن نيام. وقد فعل كلَّ ذلك في وقت واحد، ولم يترك أمرًا صغيرًا كان أو كبيرًا إلّا أعطاه حقه الواجب من التروي والإجراء، وكان يقضي أكثر أوقاته في افتقاد أحوال جيوشه، فيضطر أحيانًا أنْ يسير ثلاثين أو أربعين غلوة في اليوم راكبًا، ومع ذلك لم يهمل شيئًا من مهام السلطنة، بل كان يشتغل أكثر لياليه بمراجعة الحسابات، وتعديل الدخل والخرج، وكتابة الأوامر، وسن الشرائع، وتدبير بقية أحوال السلطنة التي كان مركز دولابها في رأسه.

ودوق ولنتون يُعَدُّ من رتبة بونابرت في الإقدام على الأعمال الكثيرة، ومن المعلوم أنَّه انتصر في كلّ حروبه بلا استثناء، وقد

(1) جمع شاكو كمة تلبسها الجنود.

نسب البعض ذلك إلى طاقته على العمل، فإنه لما كان جنديًّا لم يكتف بالتقدم البطيء، الذي كان يتقدمه، فانتقل من المشاة إلى الفرسان، ولكن بدون تقدُّم، فطلب من اللورد كمدن الذي كان حينئذ حاكمًا على أرلندا أنْ يستخدمه في الخزينة، ولو استخدمه فيها لأفلح وصار رئيس العمل، ولكنه لم يستخدمه، وإلّا لما صار أعظم قواد الإنكليز، وأول ما انتظم في الجند كان في جيش دوق بُرك والجنرال ولمودن في هولندا والفلمنك، فتعلَّم في وسط البلايا الكثيرة التي ألمَّت بذلك الجيش أنَّ سوء القيادة يفسد آداب الجند. ولما قضى عشر سنوات في الجندية صار كرنالًا في الهند وكان ممدوحًا من رؤساء الجيش الذين كانوا يقولون إنه غاية في الإقدام والانصباب، ثم أخذ ينظر في أسرار عمله واجتهد في ترقية شأن رجاله إلى أسمى الدرجات حتى إنَّ الجنرال هرِّس كتب سنة 1799 أنَّ كتيبة الكرنال ولسلي (ولسلي اسم دوق ولنتن) قدوة لبقية الكتائب في النظام والترتيب والتهذيب والانقياد حتى إنَّ القلم قاصر عن القيام بمدحه ومدحها. فأَعَدَّ نفسه لمناصب أسمى من منصبه، ولم يمض عليه إلا برهة يسيرة حتى عُيِّن حاكمًا لقصبة ميسور، ثم لما انتشبت حرب المهرتات جُعل جنرالًا وله من العمر أربع وثلاثون سنة، وانتصر في واقعة أساي الشهيرة، ولم يكن معه سوى 1500 عسكري من الإنكليز، و5000 من الهنود، وجيش المهرتا مؤَّلف من عشرين ألف راجل وثلاثين ألف فارس، ثم حدث ما أظهر حكمته وإنصافه، وذلك أنه ولي بُعَيد الغلبة إمارة ولاية ذات أهمية، وكان غرضه الأول تنظيم رجاله الذين أخذوا يتورطون في السكر والخلاعة بعد الظفر كما هو شأن الجنود، فقتل المذنبين منهم، فرجع النظام إلى الجيش كله، ومن نظر إلى هذا العمل رآه في بادئ الأمر قساوة بربرية إلّا أنه إذا تَرواه رآه

خيـرًا عظيمًـا للجنـود كفاهـم شـرَّ الانكسـار مـرارًا عديـدة، والقتـل أنفـى للقتـل، ثـم وجـه اهتمامـه إلـى فتـح الأسـواق وإرجـاع دولاب الأعمـال؛ لكـي يبتـاع مؤونـة كافيـة للجيـش بأثمـان مناسـبة فنجـح أي نجـاح، ومما يستحق الالتفات أنـه كان يمكنـه - وهـو فـي ميـدان الحـرب وحومـة الوغـى - أنْ يجمـع أفـكاره، ويوجههـا إلـى كلِّ أمـرٍ أراده.

وسـنة 1808 عُقـد لـه علـى عشـرة آلاف جنـدي مُعـدَّة لتحريـر البرتوغـال، فمضـى إليهـا، وحـارب العـدو، وانتصـر فـي واقعتيـن عظيمتيـن، وأمضـى معاهـدة سـنترا، ثـم عُقـد لـه علـى جيـش آخـر بعـد وفـاة السـر جـون مـور، ولكنـه كان كلّ مـدة بقائـه فـي إسـبانيا فـي مركـز خطـر لقلـة جيشـه فـي جنـب جيـش العـدو، فـإن جيشـه لـم يـزد علـى الثلاثيـن ألفًـا، وجيـوش العـدو كانـت تنيـف علـى ثـلاث مائـة وخمسـين ألـف جنـدي فرنسـاوي، ممَّـن حنَّكتهـم الحـروب المتواصلـة، وقوادهـم مـن أفضـل قـواد نبوليـون، إلّا أنـه سـلك منهجًـا يخالـف المنهـج الـذي سـلكته جنـود إسـبانيا؛ أي إنـه كـفَّ عـن ملاقـاة جنـود فرنسـا فـي السـهول، وارتـد إلـى البرتوغـال، ونظَّـم جنـودًا مـن البرتوغاليـن، وأقـام عليهـم رؤسـاء مـن الإنكليـز، وتـرك الحـرب مـدة مـن الزمـان؛ لكـي يضعـف حماسـة الجيـوش الفرنسـاوية التـي لا تثـور إلّا عنـد الانتصـار، عازمًـا أنْ يقـع عليهـا عندمـا يـرى جيوشـه مسـتعدة، وهـي - أي الجيوش الفرنسـاوية - متكاسـلة مـن جـري البطالـة ومتوغلـة فـي الشـرور، ومـن تتبـع الوسـائل التـي اسـتعملها ولنتـون فـي حـروب إسـبانيا، ونـال بهـا الظفـر رأى مقـدار الحكمـة المذخـرة فـي رأس ذلـك الرجـل العظيـم، كيـف لا وقـد كان محاطًـا بصعوبـات لا تُصـدَّق، وأكثرهـا ناتـج مـن النفـاق والمَيـن وسـوء التدبيـر، وغيـر ذلـك مـن الشـرور التـي كانـت رائجـة حينئـذٍ فـي الحكومـة الإنكليزيـة، ومـن جبانـة الشـعب الـذي

مضى لإنقاذه وبلادته وعجبه، حتى يمكنَّا أنْ نقول إنه أقام بحروب إسبانيا بنفسه وبثبات عزمه الذي لم يفارقه قط. ولم يكن عليه أنْ يحارب أبطال فرنسا فقط، بل أنْ يقاوم مجالس إسبانيا والبرتوغال، وكان أصعب شيء عليه تحصيل القوت والكسوة لجنوده، ومما يستحق الذكر أنَّ جنود إسبانيا التي هربت في واقعة تلافرا مرَّت على أمتعة عساكر الإنكليز ونهبتها وهو مع العدو في ساحة النزال، فاحتمل هذه البلية وغيرها بصبر وجلد عجيبَيْنِ، ولما رأى أن الطعام بطل ورودهُ من انكلترا ولا يرجى ورودهُ منها أخذ يتجر بالحنطة واتفق مع السفير البريطاني لي لسبون وأصدر سندات وابتاع بها الحنطة من لسبون، وغيرها، فجعلت السفن تجلب لهُ الحنطة من أساكل بحر الروم وجنوبي أميركا، فملأ مخازنه، وباع ما فاض للبرتوغاليين الذين كانوا حينئذٍ في احتياج شديد للحنطة، فأَعدَّ كلَّ شيء، واهتم بكلِّ شيء، ولم يتَّكل على الصُّدف، وكان يهتم بالأشياء الطفيفة أيضًا كالأحذية والقدور والعليق ونحو ذلك، وتغلب على إسبانيا بحسن إدارته التي جعل بها رعاع الناس من أفضل جنود أوروبا تعلُّمًا وتهذُّبًا، وكان مستعدًا أنْ يلقى بهم أقوى جيوش الأرض.

قد أشرنا سابقًا إلى صفة عجيبة فيه، وهي قدرته على سلخ أفكاره عن الأمور التي في يده مهما كانت مهمة، وتوجيهها إلى أمور بعيدة عنها كلَّ البعد، ومن ذلك ما حكاه نبير عنهُ، وهو أنه بينما كان آخذًا في الاستعداد لواقعة سلامنكا، كان يكتب إلى الوزراء في لندن مبرهنًا لهم عدم فائدة الاعتماد على القرض، وحينما كان في ساحة القتال على أعالي سان كريستوفال أثبت عدم إمكان إنشاء بنك برتوغالي، ولما كان محاصرًا في خنادق

برغُس حلَّل مذهب فنكل في المالية، وأظهر جهل مَنْ ارتأى بيع أوقاف الكنائس. والخلاصة أنه أظهر نفسه عارفًا بحقائق هذه الأمور مثل معرفته بقوانين الحروب.

ومما يُظْهِر كونه من رجال العمل المستقيمين أمانتهُ العظيمة وشرف نفسه، أنهُ حيثما سار سار على نفقته حتى في أرض العدو. ولما اجتاز تخوم فرنسا تبعه أربعون ألف إسبانيولي قاصدين الغنيمة فوبَّخ رؤساءهم، ثم لما قنط من إصلاحهم ردهم إلى بلادهم. ومما يستحق العجب أنَّ فلاحي فرنسا كانوا يهربون من وجه جنود بلادهم، ويحملون أمتعتهم ويأتون ويحتمون عند جنود الإنكليز، وفي ذلك الوقت نفسه كتب ولنتون إلى إنكلترا يقول:قد تراكمت علينا الديون من كلِّ ناحية، ولا أجسر على الخروج من بيتي؛ لأن عددًا وافرًا من المداينين ينتظرونني خارجًا طالبين وفاء ما لهم عليَّ.

قال يوليوس مرل: «إنَّ هذا البطل قد خاف من مداينيه وهو يقود عسكرًا جرارًا في بلادهم، فلا شيء أعجب من ذلك ولا أشرف منه، وهذا الخوف لم يخامر قلب منتصر قط». أمَّا هو فلم يفعل ذلك طمعًا بتخليد ذكره واكتساب المدح، بل حسب أنَّ وفاء ديونه في ميقاتها من أفعل الوسائل لإجراء مقاصده.

ومن الأمور الجوهرية لنجاح رجال الأعمال الأمانة، وهي لازمة للصانع لزوم الشجاعة للجندي، ولا ينجح صانع غير أمين. وكلُّ الصناع مهما اختلفت صنائعهم لهم باب واسع لإظهار أمانتهم. قيل إنَّ رجلًا صناعته عمل البيرة كان يجول في معمله ويذوق البيرة، وهي تُعمَل، فيقول للصناع: زيدوا خميرها؛ لئلا تخرج ضعيفة.

فاشتُهرت بيرته بجودتها في بلدان كثيرة، فربح أرباحًا وافرة، وصار من الأغنياء العظام. وقال هيوملر عن البنَّاء الذي تعلَّم منه صناعة البناء إنه كان يوقف أمانته أمامه كلما بنى حجرًا.

لا يخفى أن في التجارة امتحانًا لأمانة الإنسان وإنكاره ذاته واستقامته وصدقه والذين يخرجون من بوتقة هذا الامتحان ولا غش فيهم يستحقون إكرامًا نظير إكرام الجنود الذين أثبتوا بسالتهم أمام أفواه المدافع. ويحق للشعب الإنكليزي أنْ يفتخر بأن أكثر رجاله الذين يُمتحنون هذا الامتحان يثبت أنهم خالصون، كيف لا وأكثرهم يُؤتمَنون على أموال وافرة، وهم لا يملكون إلا جانبًا صغيرًا منها، والنقود التي تمر في أيديهم يوميًّا تفوق الإحصاء، وقلَّ من يختلس منها شيئًا، والأمانة أشرف الأخلاق إذا لم يرافقها العجب.

وإركان الناس بعضهم إلى بعض، الذي نراه كلّ يوم في أسواقنا، هو أعجب أعمالهم، ولو لم نكن قد اعتدنا عليه لحسبناه من الخوارق. قال الدكتور تشلمرس: إنَّ إركان التجار إلى عملائهم وائتمانهم إياهم على مبالغ كبيرة من المال، وهم لم يعرفوهم ولا دخلوا بلادهم أفضل نوع من الإكرام، بل يقرب من الإكرام الديني، ولكن لا تخلو قاعدة من شذوذ؛ لأن من الناس من يقتاده طمعه وخيانته إلى تلبيس الباطل بالحق وارتكاب الغش والخداع، فتراه يغش بضاعة بأخرى، ويجعل وجه البضاعة من نوع وباطنها من نوع آخر، إلى غير ذلك من ضروب الغش التي تزيد بازدياد العمران، ولكن الذين يفعلون ذلك لا يؤمل نجاحهم وإنْ نجحوا وكسبوا شيئًا من المال فكثيرًا ما لا يتمتعون به، وعلى كلٍّ يكون اسمهم مرذولًا مهانًا، أمَّا الأمناء فقد لا يتقدمون في أول أمرهم كالخداعين، ولكن تقدمهم يكون ثابتًا وإن كان بطيئًا، ولا بدَّ أنْ

يربحـوا كثيـرًا فـي الآخـر وإنْ لـم يكـن ربحهـم إلّا الاسـم الطيـب ففيـه الكفايـة؛ لأن الاسـم ثـروة ومجلبـة للغنـى والشـرف، قـال الشـاعر وردسـورث الإنكليـزي مـا معنـاه:

وإنما رجل الدنيا الذي شهدَتْ ... له التجاربُ أنَّ الصدق شيمتُهُ
يغارُ للحق لا قسْرًا ولا طمعًا ... بثروة أو بجاهٍ فيه رغبتُه
لكنما المال والجاه اختصاصهما ... بالحازم النَّدْب إنْ صحَّت طويته

وليـس بيـن التجـار - علـى مـا نظـن - مـن هـو أشـهر مـن داود بركلـي، الـذي يُضْـرَب المَثَـل بصدقـه واسـتقامته، فإنـه بقـي زمانًـا طويـلًا يتّجر بين إنكلترا وأميركا، ولما انتشبت الحرب بين الإنكليز والأميركانييـن سـاءه أمرهـا كثيـرًا، فعـزم علـى تـرك التجـارة مطلقًـا، وقـد اشـتُهر وهـو تاجـر بالـذكاء والخبـرة، كمـا اشـتُهر بعـد أنْ تـرك التجـارة بالشـهامة وعمـل الخيـر، وكان مثـلًا للصـدق والأمانـة وسـداد الـرأي، حتـى إنَّ الـوزراء كانـوا يستشـيرونه فـي المسـائل الكبيـرة، ثـم لمـا اعتـزل التجـارة لـم يختـر عيشـة الكسـل والتـرف، بـل عيشـة العمـل والتعـب فـي خيـر الجمهـور، فأقـام دارًا للصناعـة أنفـق عليهـا النفقـات الوافـرة، فجـاءت ملجـأً للفقـراء ومرقيـة لشـئونهم، ثـم ابتـاع أرضًـا فـي جاميـكا، وعتـق عبيدهـا، وثمنهـم عشـرة آلاف جنيـه إنكليزيـة، وأرسـل لهـم سـفينة نقلتهـم إلـى ولايـة مـن ولايـات أميـركا، فقطنـوا فيهـا، ونجحـوا نجاحًـا عظيمًـا، رغمًـا عـن الذيـن حاولـوا إقناعـه أنَّ العبيـد أجهـل مـن أنْ يسـتأهلوا العتـق، وعوضًـا عـن أنْ يتـرك أموالـه ليقتسـمها ورثـاؤه بعـد موتـه مدَّهـم بهـا فـي حياتـه، ولـم يمـت حتـى رأى كثيريـن منهـم راقيـن قمـم النجـاح، ولـم يـزل حتـى يومنـا هـذا رجـال أغنيـاء فـي إنكلترا مصـدر نعمتهـم منـه. فرجـل مثـل هـذا يحـق للتجـار أنْ يفتخـروا بـه ويتخـذوه مثـالًا لهـم.

وكان العرب في صدر الإسلام يكرمون العمل، ويجلون أربابه، ويعظمون قدر رجال السعي، قال الإمام عمر بن الخطاب: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقني، فقد علمتم أنَّ السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة. وقال أيضًا: إني لأرى الرجل فيعجبني، فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا لا، سقط من عيني. وقيل:

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة إن القعود مع العيال قبيح

وقيل أيضًا:

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر

وقيل في أمثالهم: «احذر من مجالسة العاجز، فإن من سكن إلى عاجز أعداه من عجزه، وأمده من جزعه، وعوَّده قلة الصبر، ونسَّاه ما في العواقب، وليس للعجز ضدٌّ إلّا الحزم». وقال الإمام الشافعي: «احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس، فإنه لا سبيل إلى السلامة من ألسنتهم». وقال بعض الحكماء: «من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير». وسأل بعضهم معاوية عن المروءة فقال: «هي العفة والحرفة». وقال رجل للحسن: إني أنشر مصحفي، فأقرؤه بالنهار كله، فقال: «اقرأه بالغداة والعشي، ويكون يومك في صنعتك وما لا بُدَّ منه».

فما بعد هذه الأمثال المفيدة والأقوال السديدة من ريب في أنَّ الأوائل كانوا يكرِّمون رجال الأعمال ويقدرونهم قدرهم. ولكن لم يطل الأمر حتى أسكرتهم خمرة الفتوحات، فلم يعودوا يرتاحون إلى غير الإمارة والإمامة، ولهذا لم يقم بينهم كثيرون من المشتهرين في الأعمال ولا طال زمان تمدنهم. أمَّا أهل هذا العصر فقد حذا

بعضهم حَذْوَ الإفرنج في الهمة والإقدام ولا سيما في بلاد الشام، والفضل الأوَّل في ذلك لبعض المرسلين الأميركيين الذين نزلوا الديار الشامية، وبهم همة تنال الثريَّا وعزم لا تردعه المصاعب، فتألّب حولهم بعض السوريين، وتعلموا منهم الحزم والإقدام، فعمَّ نفعهم بلاد المشرق؛ ولذلك اخترنا أنْ نذكر هنا طرفًا من سيرة كبير المرسلين الأميركيين في بلاد الشام، ومثال الهمة والفضل الذي انتدبنا إلى ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية؛ إفادة لأهليها أستاذنا العلامة المشهور الدكتور كرنيليوس فان دَيْك، وطرفًا من سيرة مقدام السوريين وأعلاهم همة الطائر الصيت في الآفاق المرحوم المعلم بطرس البستاني، فإن كلًّا منهما من نخبة رجال الأعمال الذين قاموا في كلِّ زمان ومكان.

أما المرحوم المعلم بطرس البستاني فقد وُلِد سنة 1819 في الدبية، قرية من قرى جبل لبنان من عائلة مشهورة بين عيال الطائفة المارونية، وتلقى العلوم العربية والفلسفة واللغات السريانية واللاتينية والطليانية في مدرسة عين ورقة، ثم جاء مدينة بيروت واتصل بالمرسلين الأميركيين، وتعلم فيها العبرانية واليونانية والإنكليزية، وقد سمعنا من أستاذنا الدكتور فان ديك أنهما كانا يسكنان بيتًا واحدًا ويدرسان اللغة العبرانية سوية، وسنة 1846 تعاضدا على إنشاء مدرسة عبيه الشهيرة، وفيها وضع المترجَم فيه كتابه الموسوم بكشف الحجاب في علم الحساب، فذاع وتداولته أيدي الطلاب، وعليه المعوَّل في هذا العلم إلى يومنا هذا، وألّف أيضًا كتابًا في النحو لا يزال غير مطبوع، وبعد أنْ أقام سنتين في مدرسة عبيه، يُدَرِّس فيها، عاد إلى بيروت، وجعل يعاون الدكتور عالي سمث في ترجمة التوراة من العبرانية إلى العربية، ثم تقدم إلى

تأليف قاموسَيه المشهورين بمحيط المحيط وقطر المحيط وشهرة هذين الكتابين تُغْنِي عن التطويل، وقد اتفق منذ مدة أنَّ بعض المتطاولين على أهل العلم المتطفلين على موائد الأدب علينا عاب استعمال بضع كلمات موجودة في محيط المحيط ولا توجد في قاموس الفيروزبادي، مدعيًا أنها غير عربية الوضع، فبحثنا عنها في كثير من كتب اللغة، فوجدناها بحسب ما هي مشروحة في محيط المحيط، وهذا يدل أنَّ مؤلفه - رحمه الله - لم يؤلفه إلّا بعد أنْ جمع كثيرًا من كتب اللغة وأطال البحث والتنقيب فيها، ولما فرغ من تأليف محيط المحيط قدَّمه إلى الحضرة السلطانية، فأجازته بالجائزة الأولى التي تجيز بها المؤلفين وهي النيشان المجيدي من الطبقة الثالثة و250 ليرة عثمانية.

وسنة 1863 أنشأ المدرسة الوطنية، وتولِّى رياستها بنفسه، فتقاطر إليها الطلبة من جهات سورية ومصر والعراق، وكانوا يعتبرونه اعتبارًا يقرب من العبادة، ويتخذونه مثالًا للهمة والنشاط، وسنة 1870 أنشأ صحيفة الجنان وهي الأولى بين الصحف العربية التي تضمنت ضروب المباحث السياسية والعلمية والأدبية والتاريخية والفكاهية، ولم تزل منفردة في هذه الخطة. وفي منتصف تلك السنة أنشأ صحيفة الجنة ثم الجنينة، وعام 1875 شرع في تأليف كتابه العام المشهور باسم دائرة المعارف على نسق الإنسكلوبيديات الإفرنجية، وأعد له مكتبة واسعة من الكتب العربية والإفرنجية وبقية المعدات اللازمة، وتُوفِّي وهو على بدء طبع الجزء السابع منه، وله - عدا ذلك - كتب أخرى، مثل مسك الدفاتر، ومفتاح المصباح، وبلوغ الأرب في نحو العرب، وقد وصفه صديقه الدكتور فان ديك «بالجبار»؛ لأنه كان جبارًا في التأليف والتصنيف وإدارة

الأعمال والأشغال وفي المسائل العلمية والسياسية والإدارية، وكان مع كثرة أشغاله التي تفوق أشغال أربعة رجال بشوشًا رحب الصدر طلق الوجه حسن المحاضرة مقصودًا في الحاجات لا يردُّ سائلًا ولا يخيب طالبًا، مكرَّمًا من رجال السياسة وولاة الأمور، مستشارًا منهم في المهام، بعيد النظر في العواقب، لسنًا فصيحًا، إذا استُشِير في أمرٍ أنبأ بمصادره وموارده كأنه من حوادث الأمس، ولبث بين الكتب والدفاتر والصحائف والمحابر إلى أنْ اختطفته المنية سنة 1883، فمات شهيد العلم والعمل، وقد هزَّ مَنْعاه البلاد، وقد ذكرت سيرته بالتفصيل في السنة السابعة من المقتطف.

وأما الدكتور كرنيليوس فان ديك فولد في 13 آب (أغسطس) 1818 في قرية كِنْدَرهوك من أعمال ولاية نيويورك بأميركا ووالداه هولانديًّا الأصل، هاجرا إلى الولايات المتحدة بأميركا، وولدا غيره سبعة هو أضغرهم، وكان في صغره يتعلَّم في مدرسة في قريته، فامتاز من ثمَّ بالاجتهاد والثبات، وبرع في اليونانية واللاتينية حتى حاز قصَب السَّبْق على رفقائه الذين كانوا كلهم أكبر منه سنًّا، وينقل لنا أولاده ما سمعوه من بعض أعمامهم عن اجتهاد والدهم في صباه، وكلَفِه بالعلم والعمل معًا، وهو أنه حفظ لذاته أسماء كلّ النباتات البرية التي تنمو في تلك النواحي، وتعلَّم بنفسه ترتيبها وتقسيمها إلى رتبها وصفوفها وفصائلها وأنواعها حسب نظام لينيوس النباتي الشهير، وجمع رواميزها وجففها ورتَّبها وسماها بأسمائها، حتى صار عنده منبتة ذات شأن وهو صبي صغير، وكل ذلك رغبة منه في العلم لا إجابة لطلب ولا امتثالًا لأمر.

وأصابت أباه مصيبة ذهبت بماله وأورثته الفقر، وذلك أنه كفل صديقًا له على مبلغٍ من المال، فخان الصديق وغدر، فاضطُر كفيله

إلى بيع كلِّ ما يملكه من متاع وعقار صونًا لشرفه من العار، ووفاءً لدين الغادر، ولذلك لم يستطع أنْ يوازر ابنه إلا بالنزر اليسير مما يحتاج إليه من الكتب ولوازم التعلم، فكان مدة بقائه في بيت أبيه يدبر الكتب بوسائط شتَّى، فتارة يستعيرها من رفاقه وتارة يستأجرها بدريهمات قليلات يجمعها، وتارة يحفظ ما فيها بالسماع من قارئيها، وتارة يتذرَّع بالسعي في مصلحة إنسان إلى قراءة كتاب يقتنيه، وتارة يجدُّ ويرجع خائبًا. وكان في تلك القرية طبيب كريم الأخلاق يقتني مكتبة، فلما رأى اجتهاد الصبي كرنيليوس في تحصيل المعارف وجهاده للتغلب على مصاعب الفاقة أخذته الحمية، ففتح له أبواب مكتبته وأمتعه بمشتهى نفسه وأماني صباه، وكان فيها كتاب كيفيه الشهير في علم الحيوان، فأكبَّ على درسه، ولم ينثنِ عنه حتى اغترف كلَّ ما فيه، ثم تعلم بنفسه كلَّ ما تيسر له علمه عن حيوان بلاده، ولم يمض عليه زمان طويل حتى جرى في ميدان المعارف شوطًا يذكر، فجعل يخطب في علم الكيمياء على صفٍّ من بنات بلاده وهو ابن ثماني عشرة سنة، وربما توهَّم الذين يعرفونه اليوم، أو الذين اطَّلعوا على مؤلفاته، وسمعوا بواسع علمه أنه كان كلّ أيامه محفوفًا بوسائط العلم والتعليم، حاصلًا على ما يلزم من معدات التأليف والتدريس، حتى حصَّل ما حصَّل وألّف ما ألّف، ولكن الذين يعرفون أحواله حقَّ المعرفة يعلمون أنه قاسى في صغره أشق المصاعب حتى تسهَّل له تحصيل المعارف، وأنه قضى أكثر أيامه في ضنكٍ فصار ابن خمسين، وهو لا يقدر أنْ يبتاع إلّا ما ندر من الكتب المستجدة، ولم يسعه الإنفاق على تحصيل ما يشتهي من الكتب والجرائد العلمية والأدوات إلا بعد سنة 1867.

وكان أبوه طبيبًا فجعل يدرس الطب في صباه عليه، وكان يخدم في صيدليته فأتقن فن الصيدلة فيها علمًا وعملًا، ولما حصَّل ما تيسَّر له الحصول عليه عند أبيه، جعل يتلقى الدروس الطبية في سبرنكفيلد، ثم أتم دروسه في مدرسة جَفَرْسن الطبية بمدينة فيلادلفيا من مدن الولايات المتحدة؛ حيث نال الدبلوما والرتبة الدكتورية في الطب، وكان تعلُّمهُ في هذه المدرسة على نفقة ذويه، فكانت مساعدتهم هذه له أساسًا للأعمال العظيمة، التي عملها في سورية من التعليم والتهذيب والبرِّ والخير والإحسان.

وفي الحادية والعشرين من عمره فارق الخلان والأوطان، وأتى إلى سورية مرسلًا من قِبَل مجمع المرسلين الأميركيين، وحلَّ في بيروت في 2 نيسان (أبريل) سنة 1840، ولكن لم تطل إقامته فيها حتى قام منها بإيعاز المجمع المذكور، وأتى القدس طبيبًا لعيال المرسلين الذين كانوا فيها أيام فتوح إبراهيم باشا في برِّ الشام، فأقام فيها تسعة أشهر، ثم قفل راجعًا إلى بيروت؛ حيث شرع في درس العربية، وحينئذ تعرَّف بالمرحوم بطرس البستاني، وكانا كلاهما عزبين، فسكنا معًا في بيت واحد، وارتبطا من ذلك العهد برباط المودة والصداقة، وبقيا على ذلك طول الأيام حتى صار يُضرَب المثل في صداقتهما، ولما تُوفِّي البستاني كان صديقه فان ديك أشد الناس حزنًا على فقده، حتى إنه لما طُلب منه تأبينه خنقته العبرات، وتلعثم لسانه عن الكلام، وبقي برهة يردد قوله: «يا صديق صباي». حتى لم تعد ترى بين الحاضرين إلّا عينًا تدمع وقلبًا يتوجع، وقد انتقلت صداقته من الوالد إلى أولاده، فغيرته على بيت البستاني في أيامنا لا تقل عن غيرته على بيت أبيهم في زمانه.

وجعل يدرس العربية على الشيخ ناصيف اليازجي، ثم على الشيخ يوسف الأسير وغيرهما من علماء اللغة، وبذل الجهد في درسها والأخذ بحذافيرها، حتى صار من المعدودين في معرفتها، وحفظ أشعارها وأمثالها وشواهدها ومفرداتها واستقصاء أخبار أهلها وعلمائها وتاريخها وتاريخهم، فهو بلا ريب أول إفرنجي أتقن معرفة العربية والنطق بها والبيان والتأليف فيها، حتى لم يعد يمتاز عن أولادها، وبقي على ذلك إلى خريف سنة 1842، ثم انتقل إلى عيتات، وهي قرية بلبنان واقترن هناك بالسيدة جوليا بنت مستر آبت قنصل إنكلترا في بيروت المشهورة بلطفها وحسن أخلاقها، ثم انتقل من عيتات إلى قرية عبيه، وهناك أنشأ مع صديقه بطرس البستاني مدرسة عبيه الشهيرة، وشرع من يومه في تأليف الكتب اللازمة للتدريس في تلك المدرسة، فألّف كتابًا في الجغرافية، وآخر في الجبر والمقابلة، وآخر في الهندسة، وآخر في اللوغارثمات وفي المثلثات البسيطة والكروية وفي سلك الأبحر والطبيعيات، وقد طُبع بعضها وبعضها لم يطبع، وبعد أنْ قضى في عبيه أربع سنوات على ما ذكرنا من التدريس والتأليف دعاه مجمع المرسلين إلى صيدا، وعهد بمدرسة عبيه إلى المرحوم سمعان كلهون رجل اشتُهر بالفضل والاستقامة والتقوى، وبقي الدكتور فان ديك مع صديقه الفاضل الدكتور طمسن في صيدا وتوابعها معلمًا واعظًا مبشرًا جائلًا من مكان إلى مكان حتى تُوفِّي المرحوم عالي سمث سنة 1857، فانتُدب الدكتور فان ديك لترجمة التوراة والإنجيل مكانه.

فإن عالي سمث المذكور كان قد باشر ترجمة الكتاب من اللغتين الأصليتين بمعاونة المعلم بطرس البستاني، وأتمَّ ترجمة

سفر التكوين وسفر الخروج إلا الإصحاح الأخير منه، وراجعهما وصححهما، وترجم أسفارًا أخرى، ولكن لم يراجعها، فلما انتُدب الدكتور فانديك مكانه أبقى السفرين الأولين على حالهما، وترجم وراجع ما بقي، وعانى في غضون الترجمة من الأتعاب ما لا يعرفه إلا الذين يعرفون تدقيق النصارى في التفتيش عن أصل كلِّ لفظة من ألفاظ كتابهم، وعن معنى كلِّ آية من آياته. وتولَّى مع الترجمة إدارة المطبعة الأميركانية المشهورة وحسَّن فيها، وزاد الحركات على الحروف، حتى صارت من أحسن مطابع المشرق وأشهرها، وأتم الترجمة سنة 1864، وبعثه مجمع المرسلين إلى الولايات المتحدة سنة 1865 ليتولَّى أمر طبعها وعمل الصفائح بالكهربائية لها هناك، فأقام في الولايات المتحدة سنتين حتى أتمَّ ذلك، وعاد إلى سورية سنة 1867، وليس من غرضنا الآن أنْ نصف هذه الترجمة التي شهد لها أعظم علماء الأرض بالدقة والصحة ومطابقة الأصل، وقد صارت النسخ المطبوعة منها ألوفًا وألوف الألوف حتى لم يبقَ مكان في المشرق إلّا بلغت إليه وانتشرت فيه.

وكان أثناء وجوده في أميركا يدرِّس العبرانية في مدرسة بونيون اللاهوتية، وكان الطلبة يعافون درس هذه اللغة قبل تدريسه لها، ويأبون الحضور في ساعة تدريسها لصعوبتها وعدم مناسبة أسلوب تدريسها، فلما شرع في تدريسها غيَّر أسلوب التدريس، ولطول باعه فيها جعل يعلمهم إياها كلغة حية لا ميتة، بحيث صار الطالب يجد في درسها معنًى ولذة، ويرغب في تحصيلها، فتقاطر الطلبة إلى صفه وتكاثر عددهم، فلما رأت عمدة المدرسة ذلك عرضت عليه أنْ يشغل منصب أستاذ العبرانية فيها، وعينت له راتبًا كبيرًا فاعتذر عن قبوله، قائلًا: «إني تركت قلبي في سورية، فلا لذة لي

إلّا بالعودة إليها». وفي تلك الأثناء تم أمر إنشاء المدرسة الكلية السورية في بيروت على نفقة جماعة من أهل الخير في الولايات المتحدة بأميركا، فعرضت عليه عمدة تلك المدرسة الكبرى في أميركا أنْ يكون أستاذًا فيها فأجابها إلى ذلك، ثم طلبت إليه أنْ يُعيِّن راتبه السنوي بنفسه، فكتب 800 ريال مع أنَّ راتب أصغر أستاذ فيها، لا يقلُّ عن 1500 ريال، وقد فعل ذلك حبًّا بخير البلاد ونفع أهلها.

ولما وصل إلى بيروت باشر تأسيس المدرسة الكلية الطبية مع صديقه الفاضل الدكتور يوحنا ورتبات، ووضعا وحدهما نظامًا لدروسها وشرعا في التعليم من ساعتهما، لا يحاسبان على أتعاب، ولا ينتظران من أحد تبجيلًا لقدرهما ومدحًا لاسميهما، بل إنَّ الدكتور فان ديك لما رأى أنَّ المدرسة تفتقر إلى أستاذ يدرِّس الكيمياء فيها أقبل من فوره على تدريسها حال كونِه معينًا أستاذًا لعلم الباثولوجيا لا لغيره، ولم يكن في المدرسة حينئذٍ من كلِّ أدوات الكيمياء إلا قضيب من زجاج وقنينة عتيقة، فأنفق من ماله مائتي جنيه إنكليزية على ما يلزم من الأدوات. وألّف كتابه المشهور في مبادئ الكيمياء لتدريس التلامذة، وطبعه على نفقته، وهو يعلم أنه لا يسترجع نفقات طبعه قبل مماته، وبقي يدرِّس هذا الفن ست سنوات متوالية، وينفق على لوازم التدريس من جيبه، وجاء أستاذ الكيمياء وبقي سنتين من الزمان يدرس العربية ويقبض أجرته، والدكتور فان ديك يدرِّس مكانه مجانًا حبًّا بصالح المدرسة وخير أبناء البلاد، ولما تولَّج أستاذ الكيمياء أشغاله اعتزل الدكتور فان ديك عنها، وترك للمدرسة كلَّ ما أنفق عليها.

ولم يقتصر على هذا التبرع، بل إنه تولَّج منصب أستاذ ثالث

وهو أستاذ علم الفلك، وذلك أنَّ المدرسة لم يكن عندها مال يقوم بنفقة أستاذ، فتبرَّع الدكتور فان ديك بتدريس هذا الفن مجانًا، وألف له كتابًا، وطبعه على نفقته أيضًا، كما طبع كتاب الأنساب والمثلثات والمساحة والقطوع المخروطية وسلك الأبحر، ولم يكن في المدرسة آلات فلكية يُعْتَد بها، فما لبثت أنْ شرعت في بناء مرصدها حتى ابتاع له آلات بقيمة سبعمائة جنيه إنكليزية من ماله الخاص، وأثثه وفرش فيه على نفقته.

وأنشأ للمرصد اسمًا كبيرًا حتى صار معروفًا في المشارق والمغارب، مقصودًا من القريبين والبعيدين مراسلًا لأشهر مراصد الأرض، ولما خلفه معاونه في تدريس علم الفلك الوصفي ألّف كتابًا في الفلك العملي، وجعل يعلم به الطلبة على الآلات، وكان مع تدريسه علم الباثولوجيا وعلم الكيمياء وعلم الفلك يتولى إدارة المطبعة الأميركانية، فينتقد ما يطبع فيها من الكتب، ويهتم بتأليف النشرة الأسبوعية، ويطبب في مستشفى ماري يوحنا؛ حيث كان يتقاطر إليه المرضى أفواجًا أفواجًا حتى يبلغ عددهم الألوف في السنة، وما بقي من الوقت الذي يخصصه غيره بالنزهة والرياضة والراحة والنوم كان يقضيه في تأليف الكتب العلمية والطبية والدرس والمطالعة، والامتحانات العلمية، وحضور الجمعيات النافعة، ومراسلة العلماء في سائر أقطار الأرض، حتى كان أهل بيته لا يرون منه أكثر مما يرى منه الغريب، وكل ذلك قيامًا بالواجبات التي يعجز جماعة من الرجال عن القيام بها.

ومن مزاياه أنه لا يؤخر للغد عملًا يقدر أنْ يعمله اليوم؛ ولذلك تراه معدًّا كلَّ ما يُطلَب منه قبل زمان طلبه، وكان كلما طلب منه أهل بيته أيام اشتغاله في المدرسة الكلية أنْ يرتاح بين عمل وآخر،

ويؤخر الأشغال إلى أوقاتها حرصًا على صحته، يجيبهم: أخاف أنْ يفاجئني مرض أو يعارضني معارض، فأكون سبب خسارة لكل من تتعلق أشغالهم ومصالحهم بي، فالواجب عليَّ أنْ أكون سابقًا في إنجاز أشغالي حذرًا من ذلك، ولكثرة اهتمامه في أشغال المدرسة واشتغاله بمصالحها عن غيرها كان أصحابه يكلمونه في ذلك، فلا يسمع لهم حتى صار من الأقوال الشائعة بين معارفه أنك إذا رمتَ أنْ تكون على رضًى مع فان ديك، فإياك أنْ تشغله بشاغل عن المدرسة الكلية، وإذا أردت أنْ تسرَّ قلبه فكلمه عن المدرسة والصفوف والمرصد والتأليف. وقد ألّف أثناء وجوده في المدرسة الكلية كتابه في الباثولوجيا وهو مجلد ضخم، وفي التشخيص الطبيعي وفي الكيمياء وفي الفلك الوصفي والمثلثات والمساحة وغيرها، وطبع هذه الكتب، وألف كتابًا في الفلك العملي، وآخر في تخطيط السماء، وآخر في أمراض العينين.

وفيما هو لاهٍ بأشغال التأليف والتدريس والرصد والمراسلات العلمية عمَّا سواها من مطامع البشر، نُكبَت المدرسة الكلية بحادث لا نحب أنْ نسوِّد صفحات هذا الكتاب بذكره، فلما رأى أن بقاءه في المدرسة بعد ذلك يخالف مبادئه قال على المدرسة وما فيها السلام واعتزل عنها محتملًا آلام فراقها وملام ذوي الأغراض محافظةً على مبادئه، فعوضته المدرسة عما ترك في مرصدها خمسمائة جنيه إنكليزية دفعتها له أقساطًا، وبقي يطبب في مستشفى ماري يوحنا على جاري عادته، حتى سعى البعض في صدِّ فوائده عن بني الوطن، فترك المستشفى على غير رضًى منه، لكنه إنما تركه ليحيي في الوجود مستشفى طائفة الروم الأرثوذكسيين الذي صار له الآن أيادٍ تُذْكَر في الرحمة بالمساكين ومعالجة المرضى والبائسين.

وقد صار الدكتور فان ديك (حينما نشرنا ترجمته هذه في سر النجاح سنة 1886) شيخًا، ومنظره يوهم أنه أكبر من سنه، فقد وهن جسمه، وكلَّ بصره من طول السهر ومشقات التأليف وتراكم الأشغال، ولكنه لا يزال من أبشِّ خلق الله وجهًا، وألطفهم معشرًا، وأكثرهم أنسًا، يقتحم الأشغال بهمة الفتيان، فتراه تارة في الكنائس واعظًا، وتارة في المجمع العلمي الشرقي خطيبًا يحث أعضاءه على التبحر في العلوم وتنشيط المعارف، وتارة في احتفالات جمعية الشبان المعروفة بجمعية شمس البر حاثًّا على اتباع الفضيلة والاقتداء بالأفاضل، وتارة في المدارس ممتحنًا، وتارة في الجمعيات الخيرية مشيرًا فضلًا عن أشغاله في مجمع المرسلين الذي لا يزال متعلقًا به، ولم تفتر همته عن التأليف، فقد ألّف منذ عهد قريب كتبًا متسلسلة في العلوم قصد بها تعليم الصغار مبادئ العلوم في المدارس البسيطة، وهي لا تزال تحت الطبع، والقارئ يعلم بالطبع أنَّ إنسانًا مثله قد قضى العمر في خدمة العالم، وأتمَّ أحسن الأعمال يكون عَلَمًا مقصودًا من الأقارب والأباعد وغرضًا منظورًا لرسائل القوم ومسائلهم، وزِد على ذلك مكاتبات تلامذته المتفرقين في أقطار المشرق، فهو مع ادعائه باعتزال الأشغال والانقطاع إلى الراحة لا يزال يشتغل ما لا يشتغله إلّا الفائقون جدًّا واجتهادًا العظيمون همَّة وإقدامًا.

فهذه صورة أوضحنا بها للقارئ مثال هذا الرجل العظيم من حيث ارتقائه بجده وعلو همته حتى صار أعظم نعمة أُنعم بها على الشرق بعد أنْ كان في صبوته لا يملك ما يبتاع به كتابًا، ولو أردنا أنْ نورد سيرته من أوجه أخرى لاستغرق الكلام معنا فصولًا أطول مما يحتمله هذا المقام، فالذين يعرفونه عن بعد إنما

يرون عظمته واقتداره على الأعمال، وهذا سبب ما له في نفوسهم من المهابة والوقار، ولكن الذين يعرفونه عن قرب، يرون فيه مع العظمة مناقب من أشرف ما تتجمل به الفطرة البشرية، وهذا سبب محبة معاشريه له، واشتياق تلامذته إلى القرب منه، وتسابق الناس إلى إبداء ثنائهم عليه واعترافهم بفضله عليهم، فإذا تأملناه من حيث معاملته للناس لم نجد معاملًا له إلّا كان (إذا صفا طبعه) من أحب الناس إليه، وأولهم اعترافًا باستقامته وحسن طويته، والعارف بأخلاق البشر يعلم أنَّ ذلك لا يحصل عليه الإنسان إلا بعد أنْ يتحقق الناس أنه يؤثر مصلحة غيره على مصلحته، وإذا اعتبرناه من حيث إنصافه وجدناه مثلًا في الاعتراف بما له وما عليه، بل عندنا من الشواهد ما لا يُحصَى على ظلمه نفسه في إنصاف غيره حذرًا من أنْ يكون حب النفس قد حاد به عن جادة الإنصاف، وحسبنا أنْ نذكر منها شاهدًا واحدًا، وهو اعترافه بفضل زميله المرحوم عالي سمث في ترجمة التوراة، فالظاهر أنَّ موت عالي سمث قبل أنْ يتمَّ من الترجمة شيئًا كثيرًا حوَّل أذهان العموم عن ذكره حتى خيف أنْ يُنْسَى فضله، وذلك ساء الدكتور فان ديك أكثر مما ساء غيره، فصار أحرص الناس على ذكر اسم عالي سمث قبل اسمه، ولا نتذكر أننا سمعناه مرة يذكر ترجمة التوراة إلّا قدَّم فيها اسم عالي سمث بقوله: «لما ابتدأ فيها فلان وأتممتها أنا». واتفق أنه لما أتى إمبراطور البرازيل إلى سورية سنة 1877، قصد الدكتور فان ديك إلى مرصد المدرسة الكلية، وقال له على مسمعٍ منا: «إني سمعت بترجمتك الشهيرة للتوراة»، فقاطعه الدكتور فانٍ ديك قائلًا: «لعله لم يبلغ جلالتكم أني أنا لست مترجمها الوحيد، فقد شرع في ذلك المرحوم عالي سمث، وأتممت أنا ما بقي بعد موته».

وإذا نظرنا إليه من حيث إخلاص الطوية وصفاء النية وحب حرية الضمير وجدناه مثالًا لها بين عارفيه، بل لم نسمع أحدًا خالي الغرض يعيبه إلّا بالمدح في معرض الذم مثل قوله إنه لِسلامة طويته يجوز عليه خبث الخبثاء ولِصفاء جبلته يغلبه أهل الدهاء، ولحريته قولًا وفعلًا لا يقدر أنْ يجازي أهل البغي والرياء.

وهو أبعد الناس عن ذكر شيء تشم منه رائحة المدح لنفسه، فقد قضينا معه عشر سنوات في عِشرة مستمرة، فلم نسمع منه ذكر أدنى عمل من أعماله في معرض الاستحسان، وحاولنا المرار الكثيرة أنْ نستشف منه القليل عن سيرة حياته، فكان يحوِّل مسائلنا إلى غير المقصود، ثم يستطرد منها إلى ما يتخلص به من الجواب، ويسد علينا باب السؤال، ولذلك عانينا المشقات حتى وقفنا على طرف من سيرته نقلًا عن أولاده وأقاربه، ولاتضاعهِ يجتنب كلَّ معرض يمدحه الناس فيه، ويرتبك أمام من يقابله بالمدح، فإمَّا أنْ يصرفه عن مدحه بجواب حسن، أو يتخلص منه بوجه آخر. أتاه جماعة من علماء دمشق يومًا وفي صدرهم شيخ كبير، يُعَدُّ بينهم من الفطاحل فمدحه وأطنب، ثم قال متعجبًا: وبأي المواهب يبلغ الناس هذا المبلغ؟ فأجابه الدكتور فان ديك: «يبلغه أحقرهم بالاجتهاد، فمن جدَّ وجد». واستطرد من ذلك إلى وجوب الاجتهاد في تسهيل إحراز العلم على الطلاب، ووصف بعضهم يومًا علوَّ همته وعجيب سرعته في إنجاز أعماله وصبره على المشاق، واستشهد على ذلك بأنه كان يقوم في الصباح من بيروت إلى صيدا في نحو أربع ساعات، ثم يعود منها إلى بيروت في مثل ذلك، ويقضي بقية نهاره ومساءه في التطبيب والتأليف، فاستغربنا الخبر وسألناه عن ذلك، فأجاب: «إني كنت أركب حينئذٍ حصانًا قويًّا سريع العدو

فلا أبطئ على الطريق»، كأنه لا يريد أنْ يبقي لنفسه فضلًا.

ولهذه المناقب وأمثالها مما يصح الاستشهاد به في كلِّ فصل من فصول هذا الكتاب ولحبه لأهل المشرق، حتى اقتبس عوائدهم وتزيَّا بزيهم زمانًا في المأكل والملبس والمشرب تجد سكان بر الشام قد أجمعوا على حبه وولائه، واعترفوا بكونه مصدر فضلٍ وعلم وخير في بلادهم، وإذا بحثت وجدت شبَّانهم وشاباتهم يحترمونه احترامًا يقرب من العبادة، ولا عجب فإنه مع تقدمه عنهم سنًّا وعلمًا وعقلًا يجري في مقدمتهم، ويسهِّل الصعاب أمامهم، ويقوي عزائمهم، ويبقي في صدره محلًّا رحبًا لاعتبار ما يجدُّ من الأمور المختصة بزمانهم وعدم احتقار آرائهم ومشاربهم وعاداتهم، خلافًا لما يُعهَد في أكثر الذين يتقدمون سنًّا، فإنهم لا يرضون إلّا عما كان في زمانهم، ولا يعتبرون إلّا عوائد عصرهم.

وإذا رُمْتَ أنْ تعرف اعتبار القوم له وحكمهم فيه فاسمع ما قالته جمعية الروم الأرثوذكسيين في تقريرها لسنة 1885 وهو: «ولا ترى (أي الجمعية) للملامة محلًّا إذا وضعها الحقُّ ترجمانًا عن المحسنين جميعًا، في تجميل الثناء على الدكتور كرنيليوس فان ديك فهو موازرها ومناصرها وطبيب مرضاها ومرشد مستشفاها والمتصدق إليها فوق ما لم يُعرَف، بما يُرى في هذه الباكورة من صداقته المنفردة في بابٍ لها لتفرُّده في هذا الباب.

وحسبه أجرًا وفخرًا وجوده، على رغم الشيخوخة، في مخدع التطبيب والمرضى شاخصون إليه شخوص الملسوعين إلى موسى ورمزه، هذا يستنيله قليلًا، وذاك يسأله الدواء عجولًا، وذلك يرجوه الشفاء عليلًا، وهو يحبو هذا بالعطاء، وذاك بالدواء، وذلك بكلمة أشفى من دواء.

والجمعيـة - وإن تكـن لا تزيـد النـاس علمًـا بـه - تجنـي إذا لـم تعتـرف علنًـا فـي هـذا المعـرض أنـه لا تنفتـح فـي الصبـح عينـاه إلّا علـى لائـذ بجنابـه، ولا تسـير فـي النهـار قدمـاه إلّا إلـى معونـة أعدائـه وأصحابـه، ولا يُغلَـق فـي المسـاء بابـه إلّا علـى منصـرف مرتـضٍ واقـف فـي بابـه، ولا يـأوي فـي ليلتـه غرفتـه إلّا لينكـبَّ علـى مكتوباتـهً وكتابـه، حيـاةٌ امتـلأت بطاعـة الحداثـة ونشـاط الصبـا ومـروءة الفتـوة وإقـدام الشـباب ومقـدرة الكهولـة وحكمـة الشـيخوخة، وهـي فـي كلّ أدوارهـا ذكاء وفطنـة، ودرس ومعرفـة، وعلـم وعمـل، واسـتفادة وإفـادة، وعبـادة لـه، وحـب للقريـب، وخدمـة للإنسـانية.

«نعـم، ولـولا اشـتهار فضلـه ونبلـه والعجـز عـن إيـراد مـا يصلـح لمثلـه؛ لقامـت الجمعيـة إلـى مديحـه قيامـه إلـى نصـرة البشـرية، فهـي تجتـزئ بالذكـر والشـكر، وتسـأل اللـه أنْ يسـره فيمـا يسـوؤه، وأن لا يسـوءَه فيمـا يسـره وربنـا المنَّـان».

الفصل العاشر

في استعمال المال

قال الشاعر برنس ما ترجمته:

وما المال للإخفاء في طي حفرةٍ ولا للتباهي بالمواكب والعليا
ولكن ليغني المرء عن مال غيره وهذا قصارى الحر في دارنا الدنيا

وقال شكسبير ما معناه:

لا أستدين ولا أدين فإنما الدين طريق للخراب

وقال السر بلور لنون:

إياك واحتقار المال؛ لأن المال كالصيت

اكتساب المال وحسن القيام به وإنفاقهُ أمور تستدعي حكمة وافرة، ولا يليق بأحد أنْ يزدري بالمال كما يفعل كثيرون من المدَّعين الفلسفة، ولا يحسن أيضًا أنْ يعتبره كغايته العظمى، والمال أصل لكثير من الفضائل والرذائل؛ فيهِ الكرم والأمانة والاستقامة والإحسان والاقتصاد والتدبير، وبهِ أيضًا الطمع والبخل والرشوة ومحبة الذات والإسراف، قال الحريري في مدح الدينار:

أكـرم بـهِ أصفـر راقـت صفرتُـهْ جـوَّاب آفـاق ترامـت سـفرتُهْ
قـد قارنـت نجـح المسـاعي بهِ يصولُ من حوته صرتُهْ
خطر تُـهْ
كـم آمـرٍ بـهِ اسـتتبت إمرتـه وجيـش هـمٍّ هزمتـه كرَّتُـهْ

وقال أيضًا في ذمه:

وحبـهُ عنـد ذوي الحقائـقِ يدعـو إلى ارتكاب سـخط الخالقِ
لـولاه لـم تقطـع يميـن سـارقِ ولا بـدت مظلمـة مـن فاسـقِ

ولا اشـمأزَّ باخـل مـن طـارقٍ ولا اسـتعيذ مـن حسـود راشـقِ

وكل الناس جديرون بنوال الراحة في هذه الدنيا بشرط أنْ يستعملوا لذلك وسائط محللة لأنهم إذا نالوا راحتهم المادية تمكنوا من إصلاح شأنهم الأدبي والقيام بواجباتهم العائلية، ومن لا يعتني بأهل بيته فهو شرٌّ من غير المؤمن. ومما يستحق الالتفات أنه بمقدار ما يستفيد الإنسان من فرصه ووسائطه يزداد احترامهُ في عيون الناس. قال ابن كثير:

النـاس أتبـاع مـن دانـت لهـم نعمٌ والويـل للمـرء إن زلـت بـه القـدمُ

ومن سار واضعًا نصب عينيه اجتناء الفائدة من كلِّ فرصة تقوَّت قواه العقلية، وازدادت ثقته بنفسه وتعويلهُ عليها، وتملكت فيه أفضل الصفات المعدَّة للنجاح كالاجتهاد والصبر والمواظبة وما أشبه، ومن كان عليه أنْ يهتمَّ بغيره، ويذخر لمستقبله يصير حريصًا مقتصدًا منكرًا على النفس لذَّاتها. قال جون سترلسن: عِلْم رديء يعلِّم إنكار الذات خيرٌ من علم جيد يعلم كلَّ شيء إلا إنكار الذات، ومنزلة إنكار الذات من القوى الأدبية منزلة الشجاعة من القوى الجسدية، ونريد بإنكار الذات تضحية اللذة الحاضرة لأجل نوال الخير المقبل.

وعلى الذين يعملون الأعمال الشاقة أنْ يحرصوا على الدراهم اليسيرة التي يربحونها، ولكنهم بشرههم في المعيشة ينفقون حالًا ما يصل إلى يدهم، فيُمْسُون في غاية العوز وتضرسهم أنياب الحاجة، ومنهم من دخله يكفي لنفقته، ويزيد عليها إذا تدبره جيدًا، ولكنه يتوغل في الإسراف غير ناظر إلى المستقبل، فإذا حدث ضيق أو انقطع عمله أمسى في أسوأ حال. قيل: تشكَّى بعضهم إلى اللورد يوحنا روسل من الضريبة التي وضعتها الدولة على الفعلة، فقال لهُ اللورد: يا هذا، إنَّ الحكومة لا تأخذ من الفعلة ربع ما تأخذهُ منهم المسكرات.

وإصلاح شأن الفقراء معضلة، لم يهتد الناس إلى وجهها حتى الآن، ولكنهم مُجْمِعون على أنَّ علاجها تعليم الفقراء الاقتصاد والتدبير.

قال صموئيل درو الفيلسوف الإسكاف: «الفطنة والاقتصاد والتدبير من خير مصلحات الأحوال، وهي تشغل حيزًا صغيرًا من المنزل، ولكنها أفعل من كلِّ لائحات الإصلاح، ولا إصلاح إلا إذا أصلح كلُّ امرئ نفسه، وهذا يخالف أميال البشر؛ لأنهم إلى إصلاح غيرهم أميل منهم إلى إصلاح نفوسهم».

وكل من لا تلبث الدراهم أنْ تصل إلى يده حتى ينفقها يظل في الذل عرضة لصروف الزمان، قال مستر كبدن: «الناس رجلان مقتصد ومسرف أي موسر ومعسر، فالبيوت العظيمة والمعامل الوسيعة والسفن الكبيرة والقصور الشاهقة عملها المقتصد الموسر على كتف المسرف المعسر هذه هي شريعة طبيعية، وكل من يَعِد الناس بالتقدم بواسطة الإسراف والكسل فهو كذَّاب خدَّاع». ويماثل ذلك ما قاله مستر برَيت وهو: «ليس إلّا سبيل واحد لبقاء الإنسان في الحالة التي هو فيها إذا كانت حسنة ولارتقائه إلى أحسن منها إذا كانت رديئة، وهو ممارسة الاجتهاد والاقتصاد والنزاهة والاستقامة، هذا هو السبيل الوحيد للتقدم، وهذه هي الواسطة التي يتقدَّم الناس بها على الدوام». وما من مانع يمنع الفقراء عن الجري بحسب ذلك، وبالنتيجة عن الارتقاء إلى أسمى المراتب، وقد ارتقى بعضهم إليها، وما كان ممكنًا للبعض فهو ممكن للكل؛ لأن الأسباب الواحدة نتائجها واحدة، ولا بدَّ من قوم يعيشون بتعبهم؛ لأن ذلك ضروري للهيئة الاجتماعية، وهو ترتيب إلهي، ولكنَّ بقاءهم في الجهل والاحتياج إلى الغير ناتج من ضعفهم وطمحهم وإعطائهم النفس هواها، ولا سيما لأن افتقارهم للكدح من الأسباب القوية التي يجب أنْ تربِّي فيهم قوة التعويل على النفس التي تتكفل بمساواتهم مع مَنْ هم

أرقى منهم شأنًا. قال منتانيه: «كل إنسان حقيق بالجري بموجب قواعد الفلسفة الأدبية؛ لأنه حاوٍ كلَّ شروط الإنسانية».

وعلى العاقل أنْ يستعد للقاء ثلاثة؛ العطلة، والمرض، والموت، أمَّا الأوَّلان ففي طاقته تجنبهما وليس كذلك الثالث، ولكنه على كلِّ حال يجب أنْ يعيش عيشة تمكنه من مقابلة كلِّ بلية من هذه البلايا الثلاث، حتى يحلِّي مرارتها ما أمكن، سواء كانت نتيجتها عائدة عليه فقط أو على عائلته معه، وبناءً على ذلك يكون اكتساب المال بالحق وإنفاقه بالقصد من أهم الأمور؛ لأن الأول عنوان الاجتهاد والاستقامة، والثاني عنوان سداد الرأي والنظر في العواقب، وما المال لسدِّ الحاجات من أكل وكسوة فقط، بل هو أساس عزة النفس والاستقلال.

وما رفعَ النفسَ الدنيئةَ كالغنى ولا وضعَ النفسَ النفيسةَ كالفقر

والمال المذخور لطوارق الدهور حصن منيع، يُلجأ إليه عند الحاجة، فيسد الاحتياج ويزيل الهم إلى أن تنقضي أيام الشدة وتنفتح أبواب الفرج، وما أحسن ما قاله أحيحة بن الجُلَّاح:

كل النداء إذا ناديتُ يخذلني إلا ندائي إذا ناديت يا مالي

وما قاله الآخر:

والمال يرفع بيتًا لا عماد له والفقر يهدم بيت العز والشرف

ومن كان غرضه ارتقاء المعالي، وشمَّر له ذيل الاجتهاد علت همته، وتقوت عزيمته، فيذل له الدهر، وتتمهد أمامه الصعاب، وأمَّا من كان دائمًا على حافة الفاقة فهو عبد وقَيْده بيد مستخدميه يشترطون عليه ما شاءوا، فيرونه أطوع من مطية الركاب، وإذا نزلت به طوارق الأيام اضطُر إلى التسول أو الموت جوعًا، والموت خير من سؤال بخيل، وإذا انقطع عمله من مكان لا يمكنه الرحيل إلى مكان آخر؛ لأن ليس بيده ما يقوم

بنفقة سفره، فيتربَّص في مكانه كرهًا متجرعًا غصص الهوان.

ومن أراد أنْ يكون غير مفتقر إلى غيره، فما عليه سوى الاقتصاد والتقدير، وليس الاقتصاد أمرًا صعبًا، ولا يقتضي قوًى خارقة ولا عقولًا ثاقبة، بل هو في طاقة كلّ إنسان[1]، وقد أثبت السيد المسيح وجوب الاقتصاد بقوله لتلاميذه «اجمعوا الكِسَر الفاضلة لكي لا يضيع شيء»، بعد أنْ بيَّن قدرته على كلِّ شيء. ولم يبيّن اهتمامه بتلك الكسر الطفيفة؛ إلّا ليعلم الشعب وجوب الاعتناء بكلِّ شيء.

ويدخل تحت مفهوم الاقتصاد ترك اللذة الوقتية لأجل إحراز الخير المقبل، الأمر الذي يمتاز به عقل الإنسان عن غريزة الحيوان الأعجم، وبين الاقتصاد والتقتير بَوْن شاسع؛ لأن المقتصد مستعد دائمًا للكرم، ولا يحسب المال معبودًا بل آلة لقضاء أغراضه، ولقد أصاب دِيَن سوفت؛ إذ قال: يجب أنْ نحمل الدراهم في رؤوسنا لا في قلوبنا. ويمكننا أنْ نعد الاقتصاد ابنًا للحكمة وأخًا للنزاهة وأبًا للحرية وحافظًا للصيت والراحة العائلية والنجاح الأهلي وعنوانًا للتعويل على النفس. قال شبيب بن شية لبنيه: إنْ كنتم تحبون المروءة والفتوة فأصلحوا أموالكم. وقال أبو فرنسيس هرنر لابنه عند أول خروجه إلى الدنيا: إنني أودُّ من كلِّ قلبي أنْ أراك متمتعًا بالراحة والرفاهية، ولكن لا يمكنني إلا أنْ أحضَّك على الاقتصاد، وإن احتقره بعض سخفاء العقول؛ لأنه يقود إلى الاكتفاء، والاكتفاء غاية كلِّ شهم عزيز النفس، والأفضل لمن قصد الإثراء أنْ

(1) الاقتصاد لغة التوسط بين الإسراف والتقتير قال الأصمعي: سمعت بعض العرب يقول مَن اقتصد في الغنى والفقر فقد استعد لنوائب الدهر، ويقال اقتصد في إنفاق الدراهم؛ فإنها لجراح الفاقة مراهم، وقال بعضهم:

أنفق بمقدار ما استفدت ولا تسرف وعش فيه عيش مقتصد
من كان فيما استفاد مقتصدًا لم يفتقر بعدها إلى أحد

يتوقع نجاحه من التقدير لا من الربح الكثير، كما قال اللورد باكون؛ لأن الدراهم اليسيرة التي تنفقها يوميًّا لغير فائدة قد تصير ثروة وافرة تغنينا زمن الاحتياج. والمسرفون أعداء ألدَّا لنفوسهم، ومن لم يكن لنفسه صديقًا فكيف ينتظر صداقة الغير؟! والمدبِّرون عندهم دائمًا ما يساعدون به غيرهم وأمَّا المسرفون فلا. على أن التقتير أخو الإسراف والكرم أفضل المناقب ومرقاة الفلاح، ولا حاجة لتعداد الشواهد على ذلك؛ لأنها كثيرة.

وعلى كلِّ إنسان أنْ يجتهد لكي يعيش على قدر دخله، ولا يمكن أنْ يكون مستقيمًا إلا إذا فعل ذلك؛ لأن من لا يقصر نفقته على دخله، فهو عائش من دخل غيره، ولا يخفى ما بذلك من مخالفة الذمة والدين، ومن كانت هذه الحال حاله لا يلبث طويلًا حتى يرى لزوم المال، ولكن عندما يكون قد فات الوقت فيأخذ يستدين ويستعير بعد أنْ يكون قد بذَّر ماله، فيغرق في بحر من الدين لا خلاص له منه، ويفقد صيته وحريته ومروءته، قال المثل: «العدل الفارغ لا يستقيم». وهذا حال المدين. ويصعب على المدين أنْ يتكلم بالصدق، لذلك يقال إنَّ الكذب راكب على متن المدين كيف لا، ودأْبه تلفيق الأعذار لدائنه لسبب تأخره عن دفع ما له عليه فضلًا عن مماطلته إياه. وكل أحد يستطيع أنْ يتجنَّب الدين أول مرة، ولكن سهولة استدانته في المرة الأولى تيسره عليه ثانية وثالثة، فلا يلبث أنْ يغرق فيه، فيُمْسي عاجزًا عن الوفاء، ومن يخطو الخطوة الأولى في هذا السبيل يتهافت إلى هوة لا خلاص له منها كمن يخطو الخطوة الأولى في الكذب. قال هيدن المصور: إنَّ انحطاطي ابتدأ في الوقت الذي استَعْرت فيه شيئًا من الدراهم، فصدق فيَّ قول المثل: العارية عار. ووُجد في الكتاب الذي كتب فيه حوادث حياته الكلام الآتي: «هنا ابتدأ ديني الذي لا يمكنني أنْ أتخلص منه مدة الحياة». ومن يطلع على سيرة حياته يرَ مقدار ما يحدثه الاحتياج من ضعف العزم وقلق

الفكر، قيل: طلب منه بعض الشبان نصيحة، فكتب إليه يقول: لا تبتع شيئًا لا تستطيع ابتياعه بلا اقتراض، ولا تستعر فالعارية عار. وقد ارتأى الدكتور جنصن أن الدين الباكر خراب، وكلامه بهذا الشأن جدير بالذكر قال: لا تعتبر الدين أمرًا غير لائق، بل مصيبة كبيرة، واجتنب الفقر بكل قوتك؛ لأن الفقر يمنع عن أعمال البر، ويعرِّض الإنسان لشرور كثيرة مادية وأدبية، ولْيكن اهتمامك الأول تجنُّب الدين والفقر؛ لأن الفقر عدو الراحة ومبطل الحرية ومزيل الفضائل، ومن يفتقر إلى مساعدة الناس له لا يقدر أنْ يساعد أحدًا، وقال بعضهم:

عرفتُ صروف الدهر كهلًا وناشيًا وجربتُ حالَيْه على العسر واليسر
فلم أَرَ بعد الدِّين خيرًا من الغنى ولم أَرَ بعد الكفر شرًّا من الفقر

وقال آخر:

رزقت لبًّا ولم أُرْزق مروءته وما المروءة إلّا كثرة المال
إذا أردت مساماة تقيدني عما ينوه باسمي رقة الحال

وقال آخر:

أرى نفسي تتوق إلى أمور يقصر دون مبلغهنَّ مالي

وقال آخر:

إذا قلَّ مال المرء قلَّ صديقه ولم يحلُ في عين الصديق لقاؤه

وعلى كلّ أحد أنْ يلتفت إلى أعماله بعين التدقيق، ويكتب كلَّ ما يكسبه وكلَّ ما ينفقه؛ لأن الحكمة تستدعي أنْ يعرف الإنسان مقدار دخله، ويجعل نفقته أقل منه، وما من سبيل إلى ذلك إلا بكتابة الدخل والخرج كما أشار يوحنا لوك. قيل إنَّ دوق ولنتون الشهير كان يقيِّد كلَّ دخله ونفقته بالتفصيل، وقال مرة لمستر كليك: إنني كنت مخوِّلًا وفاء القوائم المطلوبة مني لخادم أركن إليه، وأمَّا الآن فأدفعها بيدي، وأشير

على كلّ أحد أن يقتدي بي، ومن كلامه على الدين قوله: «الدَّين يستعبد البشر، أَمَّا أنا فلم أستدن قط مع أنني كنت محتاجًا إلى المال مرارًا».

ومن الذين كانوا يدققون في هذا الأمر، مثل ولنتون، وشنطون الشهير الذي لم يستعب أن يتفقَّد كلَّ شيء في بيته؛ لكي يعيش ضمن دائرة دخله حتى لما كان رئيسًا على الولايات المتحدة الأميركانية.

قال الأدميرال جرفس ـ وهو المعروف بأرل سنت فنسنت: «كان أبي من المتوسطي الحال إلّا أنَّ عائلته كانت كبيرة، ولذلك لما انطلقتُ من عنده إلى عملي (في البحر) لم يعطني إلا عشرين ليرة، وهذا كلّ ما أخذته منه من الأول إلى الآخر، إلا أنني بعد برهة من الزمان سحبت عليه تحويلا بمبلغ عشرين ليرة، فأرجعها مقيمًا الحجة عليَّ (بروتستو)، ولا يخفى كم تكدرتُ من ذلك إلا أنني حتمت على نفسي ألّا أسحب تحويلاً آخر إلا إذا كنت متأكدًا أنه يقبل حالًا، وللوقت غيَّرتُ شكل معيشتي، وتركت رفاقي الذين كنت أتناول الطعام معهم، وصرت آكل وحدي، وأخذت ما سُمح لي به من السفينة، فوجدته كافيًا وفائضًا، وصرت أغسل ثيابي وأرفَؤها بيدي، وعملت بعض الأكسية من غشاء فراشي، وما زلت على مثل ذلك حتى وفَّرت قيمة ذلك التحويل، ومن ذلك الوقت حتى الآن لم يزد خرجي على دخلي قط». ا.هـ. وقد ارتقى هذا الرجل إلى أعلى المراتب باجتهاده، وتحمله ضنك المعيشة بالصبر الجميل.

وقال مستر هيوم: إنَّ نسق المعيشة في لندن شاطَ، فإن المتوسطين ينفقون كلَّ دخلهم أو أكثر منه، ولا سيما لأنهم يرفهون أولادهم ويلبسونهم كالأغنياء حاسبين ذلك شرطًا للكياسة مع أنه ما من آفة للكياسة والأمانة مثل التظاهر بما ليس في الواقع، فإن من لم يكن غنيًّا ولبس ما يوهم الناس أنه غني لا يفرق عن المزوِّر، أَوَ يخجل الإنسان أن يظهر بالحال

التي هو فيها إرضاءً للزي؟! أَوَ لا يرى نتائج التظاهر بالغنى وشروره الطامية على هامة الأبرياء؟! فإن العالم بأسره يئنُّ من أثقالها.

لما استعفى السر تشارلس نبير من قيادة الجنود في الهند، أقام الحجة على رؤساء الجند الشبان على توغلهم في الإسراف والدَّين، وقال: إنهم ليسوا رجالًا؛ لأنهم ـ وإن كانوا لا يهابون الموت ـ يخافون أن ينكروا على نفوسهم لذاتها ولو تمتعوا بها دَينًا، فترى القائد الباسل يرافعه خادمه لأجل مال استدانه منه وعجز عن وفائه.

والشاب الشارع في خوض بحر هذه الحياة مُحاط من كلِّ ناحية بتجارب متنوعة، فإذا غلبت عليه حطته إلى أدنى دركات الهوان، وإذا جاراها نزعت منه قوة الدفاع رويدًا رويدًا، حتى تجعله غير قادر على تجنُّبها أصالةً، فعليه أن يبتعد عنها أوَّل ما تتصدى له غير مبال بما إذا كانت عواقبها شديدة الضرر أم قليلته، بل عليه ألّا يقف ويتأمل في نتائجها؛ لأن التأمل في مثل ذلك الحين غير سليم العاقبة، ومن سلَّم للتجربة، ولو مرة واحدة، ضعف عن مقاومتها، وأمَّا من يقاوم التجربة حالما تعرض له فيتخلص من طائلتها حياته كلها، ثم لا تلبث مقاومته للتجارب أنْ تصير عادة فيه، ولا يخفى أنَّ أكثر أعمال الإنسان مرجعها إلى العادة، فمن درَّب نفسه على العوائد الحسنة تملكت فيه ونجته من مخاطر كثيرة، وسهلت أمامه سبيل النجاح.

أخبر هيوملر أنه حتم على نفسه مرةً أن يتجنب تجربة واحدة، فنجا من أكبر الشرور، وذلك أنه لما كان يعمل في صناعة البناء قُدِّمَ له مرة كأسان من الهوسكي (نوع من المسكرات)، فكرعهما، وانطلق إلى بيته، وفتح كتابًا كان يحب المطالعة فيه، فللحال أخذت الحروف ترقص أمام عينيه من فعل سورة المسكر برأسه، فحتم على نفسه من تلك الساعة أن لا يذوق مسكرًا فيما بعد، ولا يضحي قواه العقلية على مذبح اللذة الوقتية، فكان

هذا الحتم كَدَفَّة أدَار بها سفينته في بحر هذه الحياة نحو المجد والشرف حالما رأى الصخر العظيم الذي اصطدمت به سفنٌ كثيرة فتكسَّرت، وتجربة السكر قائمة في طريق كلِّ شاب، وهي من أشد التجارب خطرًا، والسعيد من نجا منها. كان من عادة السر ولتر سكوت أنْ يقول: «لاشيء يحط شأن الإنسان مثل السكر». والسكر آفة الاقتصاد، وعدو الاستقامة، ومخرب الصحة، والامتناع المطلق عنه أسهل من الاعتدال، قال ابن الوردي:

واهجر الخمرة إن كنت فتًى كيف يسعى في جنون من عقل

وعلى العاقل أنْ يتجنب كلَّ خلة ذميمة، ولكن لا يليق به أنْ يقف على هذا الحد، بل يجب عليه أنْ يجدَّ في طلب كلِّ منقبة حميدة. والوعود والعهود قد تنفع ولو بعض المنفعة، ولكن ما من شيء أنفع من الاجتهاد على بلوغ أعلى درجات المجد وإحراز أسمى المناقب، ولا يتم ذلك إلّا بالسهر ومعرفة الذات والاحتراس من كلِّ زلة، والامتناع عن كلِّ لذة وقتية إذا كانت تمنع خيرًا مقبلًا؛ لأن من لا يقوى على كبح جماح نفسه فالعبد أكثر حرية منه.

ولقد أُلِّفت كتب كثيرة تدَّعي أنها تعلم الناس سرَّ اكتساب الغنى، ولكن ليس في ذلك سرٌّ؛ لأن لغات البشر ملآنة من الأمثال التي تبين أنَّ الاجتهاد باب الغنى مثل: من جدَّ وجد، ومن سعى رعى، ومن جال نال، ومن تأنَّى نال ما تمنَّى، ومن حرص على الدراهم اجتمعت عنده الدنانير، ونحو ذلك من الأقوال الحكيمة التي جمعت خلاصة اختبار قرون عديدة، وجرت على ألسنة الناس قبل تأليف الكتب بزمان مديد، ومع تقادم عهدها لا تزال توافق اختبارنا، وهذا يزيدها ثباتًا، وأمثال سليمان مملوءة من الحكم التي تناسب موضوعنا، مثل قوله: «المتراخي في عمله أخو المسرف». وقوله: «اذهب إلى النملة أيها الكسلان، تأمل

طرقها وكن حكيمًا». وقوله: «الكسلان يأتي فقره كساعٍ وعوزه كغازٍ». وقوله: «العامل بيد رخوة يفتقر أمَّا يد المجتهد فتُغْني». وقوله: «السكير والمسرف يفتقران، والنوم يكسو الخِرَق». وقوله: «أرأيت رجلًا مجتهدًا في عمله أمام الملوك يقف». وفوق كلّ ذلك «قنية الحكمة كم هي خير من الذهب وقنية الفهم تُختار على الفضة، وهي أثمن من اللآلي، وكل جواهرك لا تساويها».

بالاجتهاد والاقتصاد يقدر كلُّ أحد أنْ يعيش مكتفيًا، ويذخر شيئًا لشيخوخته، وكلٌّ من الصانع والعامل يقدر أنْ يدبر نفقته حتى تمكنه من أنْ يذخر ولو شيئًا يسيرًا، واليسير يصير مع الزمان كثيرًا، ومن لم يتدبر اليسير لم ينل الكثير، وأمَّا من يذخر شيئًا قليلًا كلَّ يوم ويضعه في بنك أو عند صراف أمين، فلا تمضي عليه سنون كثيرة حتى يرى له سندًا يعتمد عليه في طلب الارتقاء، ويلتجئ إليه وقت الشدة، ويصير قادرًا على تعليم أولاده والاشتراك في الأعمال النافعة، وهذا الأمر ممكن لكل أحد ولو كان صانعًا أو فاعلًا، ودليله ما قيل عن توما ريط المنشستري الذي كان صانعًا في مسبك، وأمكنه في الوقت نفسه إصلاح شأن كثيرين من المجرمين المنقضي وقت سجنهم وغيرهم، فإنه حدث أمر اقتاده إلى الاهتمام بهذا الأمر الذي أشغل كلَّ قوى عقله، غير أنه كان يعمل في مسبك ـ كما تقدم ـ من الصباح حتى المساء، فلم يكن له إلا دقائق يسيرة من النهار مع أيام الآحاد، فخصصها لخدمة أولئك المجرمين الذين كان أمرهم مهملًا بالكلية في تلك الأيام، ومن المؤكد أنه لم يمضِ عشر سنوات حتى ردَّ أكثر من ثلاث مائة منهم إلى طريق الاستقامة والراحة، وصار يُعَدُّ طبيب السجون الأدبي، وكان ينجح في الأماكن التي تُعْجِزُ القسوس وغيرهم، وأرجع كثيرين من الفتيان والفتيات الضالين إلى والديهم، وجعلهم يتعاطون أعمالًا مفيدة، ولولاه لاتصلوا إلى أقصى دركات الشر، ولم تكن هذه الأعمال سهلة؛ لأنها تقتضي مالًا ووقتًا

واجتهادًا وحكمة واستقامة، ومن العجب أنه أنقذ كثيرين من الضالين بما كان يذخره من أجرته، وكانت أجرته زهيدة لا تزيد على مائة ليرة في السنة، ومع ذلك كان يعول عائلته، ويذخر شيئًا من دخله إلى زمان الشيخوخة، ويُرْوَى أنه كان يجلس كلَّ أسبوع، ويقسم دخله على خرجه، فيعين قسمًا للطعام واللباس، وقسمًا أجرة للبيت الذي كان ساكنًا فيه، وقسمًا لمعلم المدرسة الذي يعلم أولاده، وقسمًا للفقراء والمحتاجين، وبهذه الواسطة أمكنه أنْ يعمل ما عمله من الخير العظيم، وحياته من أصدق الأمثلة لقوة العزم والتدبير، ولما يستطيعه الإنسان باليسير الذي يذخره، ولتأثير استقامة الإنسان واجتهاده في حياة غيره.

كلُّ عمل محلل شريف سواءٌ كان حراثة الأرض، أو عمل الأدوات، أو نسج النسيج، أو بيع الأثمار، ولا عار على الرجل إذا تعاطى هذه الأعمال، أو ما هو أدنى منها، بل إذا حصر أفكاره ضمن دائرتها الضيقة، قال فلر: «لا يخجل مَن يعمل في حرفة بل من لا يعمل». وقال المطران هُل: «حبذا الصنائع ونتائجها». والذين ارتقوا من احتراف الحرف الدنيئة إلى مناصب أعلى منها يجب أن لا يستحيوا بل يفتخروا بتغلبهم على المصاعب. قيل: سأل بعضهم أحد رؤساء أميركا قائلًا: ما شعار عائلتكم؟ وكان الرئيس مشقق حطب فقال: ردنان قصيران. وقيل: عيَّر بعضهم فلاشيه أسقف نسمس بدناءة أصله؛ لأنه كان شمَّاعًا (صانع الشمع)، فأجابه: لو وُلِدْتَ شمَّاعًا مثلي لبقيتَ شماعًا مدى حياتك.

وكثيرون يجمعون المال، وليس لهم من غاية سوى جمعه، فمن كانت هذه غايته، وأكبَّ عليها بكليته يندر أن لا ينال مراده. والسبيل إلى جمع المال سهل جدًّا؛ لأنه يتم بجعل الخرج أقل من الدخل. قيل إنَّ استرولد رئيس البنك الباريزي كان في أول أمره فقيرًا جدًّا، وكان من عادته أنْ يأتي كلَّ مساء إلى بعض الحانات، ويشرب شيئًا من البيرة، ويلتقط كلَّ ما يجده

من الفلين المرمي، فجمع في ثماني سنين مقدارًا من الفلين باعه بثماني ليرات، وهذه الثماني الليرات أساس ثروته الوافرة التي بلغت عند موته ثلاثة ملايين فرنك.

ذكر يوحنا فستر مثالًا لتحصيل الغنى بواسطة مثل هذه، فقال: إنَّ شابًّا باع ميراثه من أبيه، وصرف ثمنه في ارتكاب المعاصي، ولما شعر بما داهمه من الفاقة الشديدة خرج هائمًا على وجهه، عازمًا أنْ ينهي حياته التعيسة، فوصل إلى مكان يشرف على ما حوله من الأراضي التي كانت قبلًا ملكًا له، فجلس هنيهة يتأمل فيها، وعزم أنْ يجتهد على استرجاعها، فقام ورجع إلى المدينة، فرأى عدلًا من الفحم ألقته عجلة أمام بيت، فعرض نفسه على أهل البيت؛ لكي ينقله لهم إلى داخل البيت، فقبلوه وأعطوه أجرته، فطلب منهم شيئًا من الطعام، فأعطوه فأكله وأبقى الأجرة، وأخذ يعمل في مثل هذا العمل حتى صار معه دراهم كثيرة، فاشترى بها بعض المواشي، وباعها بربح كثير، واستمر يوسع دائرة أعماله حتى صار من الأغنياء، فاسترجع أملاكه وزاد عليها، وكان يمكنه أنْ يعيش مفيدًا لنفسه ولغيره، ولكنه صار شديد البخل، فعاش عيشة الذل، ومات غير مأسوف عليه.

وكل مـن لا خيـر منـه يُرتجَـى إن عـاش أو مـات علـى حدٍّ سـوى

والذخر للبنين وللشيخوخة محمود جدًّا، ولكن إذا لم يُقصَد به إلا ثراء المال فهو قبيح إلى الغاية، ولا يفعل ذلك إلا الحمقى والبخلاء، وعلى الحكيم أنْ يتجنب التطرف في الاقتصاد كلَّ التجنب؛ لأن الزائد أخو الناقص، ومتى زاد الاقتصاد صار شحًّا بل بخلًا، ومَن كان مقتصدًا في شبيبته لا يبعد أن يصير بخيلًا في شيخوخته، فيمسي المحمود مذمومًا. ومحبة المال أصل كلِّ الشرور، فإنها تعمي البصر، وتظلم الفكر، وتفسد الأخلاق، لذلك قال السر ولتر سكوت: إنَّ الدرهم يقتل نفوسًا أكثر مما يقتل السيف أجسادًا.

ومن الشوائب المعرض لها رجال العمل السارون في سبل النجاح تضييق أفكارهم بل حصرها في منفعتهم، فلا ينظرون إلى الغير إلا بما يعود إلى نفعهم، انزع ورقة من دفاتر هؤلاء الناس تزهق أرواحهم منهم. والنجاح في ثراء المال يروق لنظر أكثر الناس، والمجتهد الدئب الحاذق العاري من صفات البذخ والإسراف ينال الغنى المادي، ولكن قد لا ينال من الغنى الأدبي شيئًا، بل يبقى جاهلًا خامل الذكر، ومن لا يضع نصب عينيه إلا الدينار يغتن غالبًا، ولكنه يبقى من أفقر الناس عقلًا وأدبًا، لأن الإنسان لا يُثَمَّن بماله بل كثيرًا ما يكون لمعان الذهب واسطة لإظهار دناءة مالكه كما أن لمعان الحُباحب يظهر شكلها الشنيع:

وقد يُهلك الإنسان كثرة ماله كما يُذبَح الطاووس من أجل ريشه

وإذا التفتنا إلى كثيرين من الناس الذين يضحُّون بكلّ شيء على مذبح المال، رأينا ما يذكرنا بجشع طائفة من القرود. ذلك أنَّ أهالي الجزائر إذا أرادوا مسكها ربطوا يقطينة مجوفة إلى شجرة، ووضعوا فيها شيئًا من الأرز، وجعلوا لها ثقبًا يكفي لدخول يد القرد فارغة، فيأتي إليها ليلًا، ويدخل يده في ثقبها، ويحفن مِلأها من الأرز، فلا يعود قادرًا على إخراجها، ولا يترك الأرز جهلًا وجشعًا، فيتربص في مكانه حتى الصباح، فيأتون ويقبضون عليه.

والناس يعتبرون الغنى أكثر مما يحق له؛ لأن أكثر الأمور العظيمة التي عُملت في هذه الدنيا لم يعملها الأغنياء بل الفقراء، ألا ترى أنَّ الديانة المسيحية امتدت في المسكونة ودعاتها من أفقر الناس، أوَ لا ترى أنَّ المخترعين والمكتشفين والمصنفين كلهم رجال متوسطو الحال، وأكثرهم أناس يحصلون خبزهم اليومي بعرق جبينهم، وما كان فهو الذي سيكون. والغنى يصعِّب الأعمال أكثر مما يسهلها، وكثيرًا ما تكون مضاره أكثر من منافعه، فإذا ورث الشاب ثروة وافرة انقاد بها إلى حياة الكسل والتراخي؛

إذ ليس ما يدعوه إلى الاجتهاد، فتكرُّ عليه الأيام وهو لا يعرف قيمتها، ولا يكتسب منها حكمة، بل قد يجتهد على التخلص منها بأي واسطة كانت، فهو كحيوان حلميّ نام في الهيئة الاجتماعية، يمص من دمها، ولا يجديها نفعًا، والتخلصَ منه أسلم. على أنَّ ذوي الثروة المبثوثة في قلوبهم روح الإنسانية الصحيحة يتجنبون الكسل كأمرٍ مخلٍّ بالمروءة وعزة النفس، ويشعرون أنهم مطالبون بكثير؛ لأن وسائطهم كثيرة، ويرون أنهم مضطرون إلى العمل أكثر من غيرهم، ولا أفضل من الصلاة التي صلاها أجور، وهي قوله: لا تعطني فقرًا ولا غنًى، أطعمني خبز فريضتي. قال الإمام الشافعي في هذا المعنى:

غنيٌّ بلا مال عن الناس كلهم وليس الغنى إلّا عن الشيء لا به

وقال أيضًا:

قنعتُ بالقوت من زماني وصنت نفسي عن الهوان
خوفًا من الناس أنْ يقولوا فضلُ فلان على فلان

قيل إنَّ يوسف برذرتُن ـ أحد أعضاء البرلمنت ـ أمر أنْ يُكتَب على ضريحه هذه العبارة:لم يقم غناي بكثرة ثروتي بل بقلة احتياجي.

وهذا الرجل ارتقى من أدنى الرتب إلى أعلى المناصب، فإنه كان صانعًا في معمل، فصار من أعضاء البرلمنت المكرمين باستقامته واجتهاده ومحافظته على وقته وإنكاره لنفسه، وكان حينما ينفض البرلمنت يخدم في إحدى الكنائس الصغيرة كقس لها، والذين يعرفونه يشهدون أنه لم يطلب مدح الناس على ما عمله، بل قام بكل واجباته إتمامًا لمقتضيات المحبة والشهامة.

لا لوم على من أراد أنْ يكون غنيًّا ليكون مكرمًا بين أقرانه، إلّا أنه لا ينال الإكرام حقيقة إلّا إذا كانت صفاته الأدبية تستحقه، وأمَّا إذا جاوز

غناه غنى قارون ولم يكن ذا أخلاق حميدة فالفقير خير منه. والفقير العاقل المفيد أفضل من الغني الجاهل ولو كان مكرمًا بين أقرانه. وغاية الإنسان العظمى في هذه الحياة القيام بالأعمال التي يطلبها جسده وعقله وضميره، هذا هو الغرض العظيم من حياة الإنسان، وما بقي فوسائط معدَّة لذلك، فليس الناجح من ينال أفضل لذة وأوفر ثروة وأعظم سطوة وأبعد شهرة، بل من ينال أعظم نصيب من المروءة، ويتمم القدر الأعظم من الأعمال المفيدة، الغنى قوة ـ ولا يسعنا أنْ ننكر ذلك ـ ولكن العقل والأدب قوتان أيضًا، وهما أفضل من الغنى بما لا يُقدَّر. كتب اللورد كُلِنْوُد إلى صديق له يقول: دع الناس يطلبون الأرزاق من الدولة، فأنا لا أنحو نحوهم؛ لأنني أقدر أن أكون غنيًّا بتساميَّ عن الدنايا، ولا أرتضي أن أشين خدمتي لوطني بفوائد ذاتية، فإني أعمل في بستاني بيدي وأجتزي بالقليل من النفقة عن الكثير.

والثروة تمكن صاحبها من الدخول بين الناس على ما يقال، ولكن لا يمكن أن يكون صاحبها معتبرًا منهم ما لم يكن عاقلًا أديبًا ذا مناقب حميدة، ومن الناس من هم أغنى من قارون في زمانه ولكن لا يلتفت إليهم أحد، بل الجميع يعتبرونهم كأكياس من الذهب الصامت، وأمَّا الذين يُشار إليهم بالبنان أصحاب الرأي والتدبير، وبيدهم الأمر والنهي فليسوا من ذوي الثروة ولا يلزم أنْ يكونوا أغنياء، بل أنْ يكونوا من ذوي الأخلاق والآداب الصحيحة والمعارف الوسيعة. والقليل المالِ المهذب الأخلاقِ الباذل ما في وسعه لنفع البشر، يتطلع إلى الأغنياء الذين ثروتهم في دنانيرهم ولا يحسدهم على شيء منها.

الفصل الحادي عشر

في تعليم الإنسان لنفسه
وما في ذلك من السهولة والصعوبة

قال غبن: لكل إنسان نوعان من العلم؛ الواحد يأخذه عن غيره، والآخر يناله بنفسه، والثاني أفضلهما.

وقال يوحنا هنتر: من تُوهِن المصاعب عزمه لا يفلح، ومن يتغلب عليها ينجح.

وقال رو الشاعر ما معناه: إنَّ الحكماء وأولي العزم يغلبون المصاعب، وأمَّا الحمقى فيعتريهم الرعب حالما ينظرون المشقة والخطر، وهم يخلقون المصاعب

قال السر ولتر سكوت: إنَّ أفضل معارف الإنسان ما اكتسبهُ بنفسهِ. وكان من عادة السر بنيامين برُودي أنْ يعجب بهذا الكلام، ويفتخر بأنه لم يدرس على أستاذ، وذلك يصدق على كلِّ الذين امتازوا في العلوم والفنون؛ لأن الإنسان لا يتعلم في المدارس إلّا المبادئ، فإن علوم المدارس باب يدخله التلميذ، ومنه يستطرق باجتهاده إلى حياض المعارف، ومن بلغ هذه الحياض بجده فهو الخليق بورودها، ومن اقتيد إليها اقتيادًا كان استقاؤه منها كرهًا، ومن حصَّل علومه بجده كانت علومه ملكًا له. وقوى العقل تقوى باستعمالها حتى إذا حل الإنسان قضية بنفسه، تأهل لحل قضية أخرى وصار العلم فيه ملكة، وأفضل ما في الإنسان اجتهاده لنفسه، فإذا انتسخ منه هذا الاجتهاد لم تنفعه الكتب ولا المعلمون، ولا الدروس، ولا شيء غيرها.

وأفضل المعلمين أقربهم إلى الإقرار بأهمية التعلُّم الذاتي، وأميلهم إلى إنهاض همة التلميذ؛ لكي يقرع باب جَده بجده،

فتراهم على الدوام يدرِّبون تلاميذهم على اجتناء ثمار المعرفة بيدهم، وبذلك يرفعون شأن التعليم، ويحولونه من قواعد غثَّة ضيقة المبحث يراد طبعها في عقول التلامذة إلى أصول سامية المطلب، تنير عقل التلميذ وتدعوه إلى البحث والتنقير، وعلى هذا الأسلوب جرى الدكتور أرنلد الذي كان يعلم تلامذته أنْ يعولوا على نفوسهم ويمارسوا قواهم، ولم يكن عمله إلّا تدريبهم وتشجيعهم وإنهاض همتهم، ومن قوله: إذا كان شيء يروق للنظر على وجه هذه الأرض، فيكون بركة الله على القوى الطبيعية المثقفة بالحق والغيرة. ويُروَى أنه لما كان في لَلْهام كان يعلِّم ولدًا غير نجيب فوبخه بصرامة، فالتفت الولد إليه، وقال له علامَ توبخني يا مولاي؟ أؤكد لك أنني باذل كلّ جهدي. فأثَّر فيه هذا الكلام تأثيرًا عميقًا، حتى قال بعد زمن طويل إنني لم أنس ذلك المنظر، وتلك الكلمات التي أثَّرت فيَّ تأثيرا لا يمحى بكرور الأيام.

ويظهر من الأمثلة المتقدمة في هذا الكتاب عن الناس الذين ارتقوا من الدرجات السفلى وامتازوا في العلوم والفنون، أنَّ العمل باليدين لا ينافي تهذيب العقل، بل يساعدهُ ويقوي الجسم على احتماله، والعمل للجسد كالعلم للعقل، وأسعد الناس من له عمل في أوقات الراحة، وراحة في أوقات العمل، وكثيرون من الذين هم في غنًى عن العمل، يعكفون على عمل وإن لغير الربح، أو لمجرد التسلية مثل الذين يولعون بالصيد وركوب الخيل، وقد جرت العادة الآن في مدارس أوروبا أنْ تُقام أماكن فسيحة لتمرين الطلبة على أنواع مختلفة من اللعب، والقصد من ذلك ترويض أعضائهم وتقويتها وتمرينها على الرشاقة، وفائدته أعظم من أنْ توصف. حُكي أنَّ دوق ولنتون نظر مرة إلى ساحة لعب، رأى الأولاد

يتمرنون على الألعاب، فقال: في هذه الساحة فزت بواقعة وطرلو. يريد أنه تمرن على اللعب صغيرًا، فقوي جسدًا وعقلًا حتى فاز على بونابرت في واقعة وطرلو الشهيرة.

قال دانيال ملثس لابنه وهو في المدرسة العالية: أودُّ جدًّا أنْ أراك مجتهدًا وناجحًا في كلّ دروسك التي توسع دائرة عقلك، ولكني أرغب أيضًا في أنْ أراك ناجحًا في اللعب وحركة الأعضاء؛ لأن كلّ معرفة سواء كانت طبيعية أو صناعية تلذ للعقل وتهذبه. ومثل ذلك ما قاله جرمي تيلر وهو: «تجنَّب الكسل والبطالة، ولا تستعفِ من عملٍ مهما كان شاقًّا؛ لأنه إذا كان العقل بطّالًا والجسد في راحة وجدت الشرور إليه سبيلًا، وما من رجل بطّال قوي البنية قدر على مقاومتها، ولا عمل أفضل من الأعمال الجسدية لمقاومة الشر». هذا فضلًا عن أنَّ النجاح يتوقف على صحة الجسد أكثر مما يُظَن؛ لأنه ما من أحد يقدر على مزاولة أعماله إذا كان مريضًا أو منحرف المزاج. وقد تصيب طلبة العلوم شرور كثيرة من جري عدم الرياضة الجسدية، منها الضجر واليأس والخمول، واحتقار الحياة، والاستنكاف من السير في كلِّ سبيل مطروق، وتسمَّى هذه الصفة في إنكلترا بيرنزم (نسبة إلى اللورد بيرن)، وفي ألمانيا ورْتَرِم (نسبة إلى ورتر المشهور في خرافات القوطيين بِكارِهِ الحياة)، وقد بيَّن الدكتور كنغ أنَّ هذا الداء سارٍ في شبان أميركا بقوله: إنَّ كثيرين من شبابنا يتربون في مدارس اليأس، والعلاج الوحيد لهذا الداء العضال الرياضة البدنية.

ثم إنَّ من الناس من يميل طبعًا إلى معاطاة الأعمال والحرف، وإنْ لم يكن مفتقرًا إليها، وإذا أخذت هذه القوة مفعولها تمكَّن منه هذا الميل عن صغر، حتى صار ملكة وأدَّى إلى نتائج معتبرة جدًّا،

يُحكَى أنَّ السر إسحاق نيوتن المخلد الذكر لما كان في المدرسة، لم يكن نجيبًا كغيره من التلامذة، كان مكبًّا على استعمال القدوم والمنشار والمطرقة، حتى لم يُسمَع من مخدعه غير صوت هذه الآلات، وكان يقضي كلَّ الفرص وهو يعمل المطاحن الهوائية الصغيرة والمركبات والآلات المختلفة، ولما تقدَّم في السن صار يتسلَّى بعمل الموائد الصغيرة، ويهديها إلى أصدقائه. وسميتُن ووط وستفنسن كان كلُّ منهم حاذقًا في صغره بعمل الآلات، ولولا ذلك ما ارتقوا إلى ما ارتقوا إليه بعدئذٍ على ما يُظَن. وهكذا كان حال كلِّ المخترعين والمكتشفين المتقدم ذكرهم فيما مضى من هذا الكتاب، فإنهم كانوا كلهم مشهورين في صباهم بصناعة اليد، والذين ارتقوا من بين الفَعَلة وانتظموا في سلك العلماء، وجدوا نتيجة تمرنهم على أعمالهم الأولى في أعمالهم الأخيرة. قال إليهوبَرت: إنه وجد العمل الجسدي الشاق ضروريًّا لمداومة أشغاله العقلية. وكثيرًا ما كان يترك التدريس في المدرسة ويرتدي بمئزر من الجلد، ويذهب إلى مسبك الحديد ليعمل في حرفته الأولى؛ أي الحدادة لأجل استرداد صحته الجسديَّة والعقليَّة.

وإذا تربَّى الشبان على استعمال الأدوات استفادوا صناعة، وتعلموا استعمال أياديهم، واعتادوا على الأعمال الصحيَّة، وتربَّت فيهم ملكة محبة العمل، وكره البطالة، وانغرست فيهم سجية المواظبة. ونرى هذه الصفات متغلبة على الذين يمارسون الأعمال اليديَّة أكثر مما على غيرهم، ولا سبب لذلك إلّا ما ذكر. وما من ضرر على الفعلة والصناع سوى أنهم يرتبطون بأعمالهم إلى درجة تجعلهم يهملون قواهم العقلية. فالموسرون يأنفون من الأعمال ويربون في الجهالة، والمعسرون يقتصرون على أعمالهم ولا يتخطونها إلّا ما ندر فيبقون

في جهلهم، إلّا أنه يمكن اجتناب هذين الشرين باتحاد الأعمال الجسدية بالأشغال العقلية، أو باتحاد الترويض الجسدي بالتثقيف العقلي، وكثيرون قد سلكوا هذا السبيل في أوروبا وأميركا ونجحوا نجاحًا عظيمًا.

ونجاح رجال العلم والمتفرغين للطب والفقه وما أشبه يتوقف بنوع خاص على صحتهم الجسدية. ولقد أجاد بعض الإنكليز؛ إذ قال: «إنَّ شهرة كثيرين من رجالنا العظام هي عقلية وجسدية معًا». فالقاضي والحاكم يحتاج كلٌّ منهما إلى رئة قوية كما يحتاج إلى عقل ثاقب؛ لشدة العلاقة بين الدم والدماغ، وما من أمر يتعرض له رجال السياسة مثل ضيق الصدر؛ لأنهم يقيمون في المجالس المزدحمة الفاسدة الهواء يتلون الخطب والمباحث المتوقفة تلاوتها على أعضاء الصوت والصدر، وقد يتعبون في ذلك أكثر مما يتعبون بأشق الأعمال، فعلى رَجُل السياسة أنْ يكون ذا قوة جسدية تضاهي قوته العقلية وتزيد عليها. وقد تمَّ هذا الشرط في وزراء الإنكليز بروَم ولندهرست، وكمبل، وبيل، وغرهم، وبامرستون وغيرهم من رحاب الصدور.

يُروَى أنَّ السر ولتر سكوت لما كان في مدرسة أدنبرج الكلية كان من أحذق الناس في الصيد وركوب الخيل، ثم لما أكبَّ بعدئذٍ على الإنشاء لم يترك هذين الأمرين، بل انتهز كلَّ فرصة لصيد الأرانب، فتمكن من مداومة أشغاله العقلية كما تقدَّم عنه، والأستاذ ولسن كان ماهرًا بالمصارعة، كما كان ماهرًا بالنظم والنثر، وبرنس الشاعر كان مشهورًا في صغره بالمصارعة، وبعض المشهورين في علم اللاهوت اشتُهروا في صغرهم بقوتهم الجسدية، مثل إسحاق برو، وأندراس فُلَّر، وآدم كلَرْك وغيرهم.

وإذا كان ترويـض الجسـد ضروريًّـا لطلبـة العلـم، فكـم بالأولـى ترويـض العقـل وتقويته على الانصباب على أشغاله، وسبيل المعرفة مفتوح لكل من أراد السير فيه على شرط أنْ يبذل جده واجتهاده، وليس فيه صعوبةٌ لا يمكن للإنسان الحازم أنْ يتغلب عليها. قال تشترتن: إنَّ الله خلق الإنسان بذراعين تصلان إلى كلِّ ما تمدان إليه. والاجتهاد أس النجاح في العلم وفي العمل، وقد قيل في المثل: «طرِّق الحديد ما دام حاميًا». ولكن ذلك لا يكفي، بل يجب تطريقه حتى يَحْمَى، وإذا التفتنا إلى ما يستفيده المجتهدون المواظبون من تهذيبهم لذواتهم بانتهازهم كلّ فرصة وكل دقيقة مما يضيعه غيرهم سدًى انذهلنا من ذلك كلّ الانذهال، فإن فرغوسن تعلم علم الهيئة وهو مرتد بجلود الغنم على رءوس التلال، وستون تعلم الرياضيات وهو يعمل في البستان، ودرو درس الفلسفة وهو يعمل في السكافة، وملر تعلم الجيولوجيا وهو يعمل في المقالع.

رأينا فيما مضى أنَّ السر يشوع رينلدز كان يركن إلى فعل الاجتهاد كلّ الإركان، وقال: إنَّ كلّ الناس يمكنهم أنْ يشتهروا في أيِّ أمر أرادوه، على شرط أنْ يلازموا ذلك الأمر بالاجتهاد والصبر. وقال أيضًا: إنَّ التعب طريق الموهبة، وأنْ لا حدَّ للتقدم، فيمكن للإنسان أنْ يتقدم إلى أي درجة أرادها. وقد علَّق كلّ شيء على الاجتهاد، فمن جملة أقواله الحكمية: «الشهرة ثمرة الاجتهاد، وإذا كانت القوى عظيمة فالاجتهاد يحسنها، وإنْ كانت ضعيفة فالاجتهاد يجبر نقصها، ومن تعب على تحصيل أمر بطريقه حصَّله، ولا يُحصَّل شيء بلا تعب». والسر فوَل بكستن كان يعتقد بفاعلية الاجتهاد، ويقول إنه قادر أنْ يحصِّل كلَّ ما حصَّله غيره، بشرط أنْ يتعب على تحصيله ضعف ما اجتهد ذاك. وكانت كلّ ثقته بوسائطه الاعتيادية

وأتعابه النادرة المثال. وقال الدكتور رُس: «أعرف كثيرين من معاصريَّ الذين سيُعدُّون في الأزمنة المقبلة من أصحاب النبوغ، وهم الآن يجتهدون اجتهادًا جزيلًا في كل ما يعملونهُ. ولا نعرف النبوغ إلّا بالعمل وهو بدونه لا شيء. والأعمال العظيمة نتيجة الصبر والمزاولة، ولا يمكن أنْ تتم بمجرد القصد أو الميل، وكل عمل عظيم هو نتيجة استعداد طويل، والسهولة في الأعمال تنتج من المزاولة الدائمة، ولا شيء سهل إلّا وقد كان صعبًا في أول أمره حتى المشي. فالخطيب المفلق الذي عيناهُ تقدحان شررًا، وشفتاه تتدفقان بلاغة، وكلامهُ بحر من الحكمة، قد تعلم سرَّ هذه الصناعة بالدرس والتكرار الدائم بعد أنْ خاب مرارًا كثيرة».

وعلى كلّ طالب علم أنْ يكون مدقِّقًا محققًا في كلِّ شيء يدرسهُ، يُروَى أنَّ فرنسيس هُرنر لمَّا وضع القواعد لتثقيف عقله، اعتنى كثيرًا بقاعدة الانصباب على موضوع واحد، حتى يتقنه جيدًا قبل أنْ ينتقل إلى غيره؛ ولذلك حصر درسه في كتب قليلة، وقاوم صفة الانتقال من الدرس قبل إتقانه، ولا تقوم المعرفة بالمقدار الذي يحصله الإنسان منها، بل بالمنافع التي يجتنيها منها، ولذلك تفضل المعرفة القليلة العميقة على الكثيرة الرقيقة. قال إغناطيوس لويولا: «من يفعل جيدًا عملًا واحدًا في وقت واحد يفعل كثيرًا». وأمَّا من بسط قوته على سطح متسع أضعف تأثيرها وتعذر نجاحه. أخبر اللورد سنت ليونردس السر فول بكستن بالطريقة التي جرى عليها في درسه، فكانت سر نجاحه بقوله: عزمت عندما شرعت في درس الفقه ألا أترك مسألة حتى أتقنها جيدًا، وكثيرون من أقراني كانوا يقرءون في يوم واحد ما أقرؤه أنا في أسبوع، ولكن عند نهاية السنة كانت دروسي في ذاكرتي كما كانت يوم درستها،

وأمَّا دروسهم فكانت تذهب من عقولهم بذهاب الأيام.

ولا يصير الإنسان حكيمًا بكثرة الدروس، بل بتطبيقها على الغاية التي دُرست لأجلها، وحصر العقل في موضوع الدرس حتى يصير ملكة فيه. قال إبرنثي إنَّ في عقله قابلية إلى درجة معلومة، فإذا أدخل إليه أكثر مما يحتمل دفع ما فاض عنه إلى الخارج. وقال مرة أخرى: إنَّ من يعلم جيدًا ما يرغب فيه قلَّما يخيب في إيجاد الوسائط اللازمة لبلوغه.

وأفضل الدروس وأكثرها فائدة ما كانت غايته محدودة، ومن أتقن فرعًا من العلوم إتقانًا كاملًا استفاد منه في كلِّ حين، والاقتصار على الكتب ومعرفة مواضيعها والرجوع إليها عند الاحتياج غير كاف؛ لأن من كان علمه في كتابه كان خطؤهُ أكثر من صوابه، بل على العالم العامل أنْ يستصحب علمه في كلِّ أيْن وآن وإلّا فلا يُعَد عالمًا؛ لأنه ما المنفعة إذا كان للإنسان بَدْرة من المال وليس في يده درهم منها.

وعلى من شاء أنْ يهذِّب نفسه أنْ يكون حازمًا ندْبًا (أي سريعًا في قضاء الحاجات)، وهاتان الصفتان تقويان بترك الشبان يعتمدون على نفوسهم، وإعطائهم كلّ ما يمكن من الحرية، أمَّا الإرشاد والتدريب فالزيادة منهما تضر كثيرًا؛ لأنها تصرف الشاب عن الاعتماد على نفسه، وقلة ثقة الإنسان بنفسه مانع قوي من موانع التقدم، ولا نعني بالثقة الاستبداد بالرأي ولا الخيلاء؛ لأن كثيرين يثقون بنفوسهم وليس فيهم شيء يوثق به، ومع ذلك فلا شيء يعيق النجاح ويمنعه أكثر من فتور الهمة، وضعف العزم، وقلة الحزم. وعدم تقدُّم الأكثرين ناتج من عدم محاولتهم التقدُّم،

وكل أحد يرغب في تثقيف عقله ولكن الأكثرين ينفرون من التعب الذي لا بُدَّ منه للحصول على ذلك، والجميع يرومون إدراك المعالي رخيصةً ناسين أنْ لا بُدَّ دون الشهد من إبر النحل. قال الدكتور جنصن: إنَّ عدم الجلد على الدرس من أمراض الجيل الحاضر العقلية. وما صدق على جيله يصدق على جيلنا هذا، ولا سِكَّة سلطانية لنوال العلم، ولكن له سِكَّة مطروقة، ومع ذلك ترى الجميع يتوخون أخصر الطرق وأقلها تعبًا، فيرغبون في أنْ يتعلموا لغةً في برهة قصيرة وعلى غير أستاذ، أو كما يقال عن إحدى السيدات إنها طلبت من معلم أنْ يدرسها لغة ولكنها اشترطت عليه أن لا يعلمها شيئًا من الأسماء والأفعال. وعلى هذا المنوال يتعلم كثيرون ما لا يُستحَق أنْ يُسمَّى رسم العلم. ألا ترى أنَّ كثيرين يدرسون الكيمياء باستماعهم بعض الخطب فيها، ونظرهم إلى بعض الاستحضارات والامتحانات، وهذا أفضل من لا شيء ولكنه لا يفيد شيئًا. وكثيرون يظنون أنهم آخذون في تعلم العلوم وما هم غير متسلّين تسليًا، وما لا يحصل بالدرس والتعب لا يستحق أنْ يُدعَى علمًا؛ لأنه وإنْ أشغل العقل لا يغنيه، وإنْ نتجت منه نتائج وقتية لا يُرتجَى منه كبير فائدة، وما هو إلّا تأثير وقتي زائل، ولذة حسية غير عقلية توقع سباتًا عميقًا على أفضل العقول وأكثرها اجتهادًا، حتى لا تنتبه إلّا إذا أصابتها مصيبة باغتة.

وأكثر الشبان يطلبون اللهو تحت رداء طلب العلم فلا يسلّمون بعلم يستدعي تعبًا وكدًّا، وبما أنهم يحصّلون العلم في ميدان اللعب واللهو يكون علمهم لعبًا ولهوًا، ولا بُدَّ من أنهم يجتنون ثمر تهاونهم الذي هو ضعف عقولهم وتعطيل اسمهم. قال روبرتصن البريتوني: إنَّ درس دروس مختلفة في وقت واحد يضعف العقل

ويجعله عقيمًا، وهذا الشر عظيم إلى الغاية وله درجات مختلفة، فأقلها ضررًا عدم التعمق والتضلُّع، وأكثرها أذًى النفور من كلِّ ما يقتضي تعبًا وعناءً، ثم خمود الذهن، وعلى طالب الحكمة الحقيقية أنْ يكبَّ بكليته عليها؛ لأن التعب ثمن لكل ثمين، فيجب أنْ يكد ويتعب واضعًا نصب عينيه غرض تعبه، ومتوقعًا نواله بالصبر الجميل، والنجاح بطيءُ الحصول، ولكن من يتعب بأمانة وغيرة يَنَلْ أجره في وقته، ومَن كانت حياته حياة الاجتهاد يَقْوَ على مدِّ سلطته إلى ما حوله، وإحراز المجد لنفسه والنفع للبشر، وليس للتهذيب حدٌّ يُوقَف عليه، بل على الإنسان أنْ يواظب على تهذيب نفسه ما دام حيًّا؛ لأن ذلك ضروري لكلِّ إنسان، بل به تقوم سعادته وللراحة وقت طويل بعد الموت.

والإنسان يستحق الإكرام والاعتبار بمقدار استعماله للقوى التي منحه إياها الباري، ولا يُعتبَر من كانت قواه العقلية عظيمة إلّا كمن كان ميراثه من أبيه عظيمًا، فإذا استعمل هذا قواه وذاك ميراثه حقَّ الاستعمال اعتُبروا وإلّا فلا، وقد يتضمن العقل خزائن وافرة من العلم ولكنها تكون بلا منفعة؛ لأنه إذا لم يرتبط العلم بالفضل والحكمة والاستقامة، لم يُحسَب شيئًا، قال بستالوزي: إنَّ العلم العقلي المجرد مضر إلى الغاية، وإنه يلزم أنْ تنغرس أصول المعرفة في تربة الإرادة المذلَّلة وتَغْتذي منها. وقد يحفظ العلم صاحبه من ارتكاب الفواحش والتمرُّغ في الدنايا، ولكن لا يحفظه من الافتخار ومحبة الذات ما لم يُحصَّن بالمبادئ الصحيحة والعوائد الحميدة؛ لذلك نرى كثيرين من أصحاب العقول الكبيرة المملوءة من العلم والمعرفة، فاسدي السيرة، وعارين من الحكمة الحقيقية، وهم مثال للتحذُّر منهم لا للاقتداء بهم، ومن الأقوال الجارية

على ألسنة الناس في هذه الأيام أنَّ العلم قوة، ولكن التعصُّب قوة والظلم قوة والطمع قوة. والعلم إذا لم يُصاحَب بالحكمة قوَّى الأشرار على الشر، بل قد يزيد شره حتى تصير محافله مثل محافل الأبالسة.

ولعلنا حتى يومنا هذا نغالي في أهمية التهذيب العلمي، وأكثرنا يظنُّ أننا بلغنا درجة سامية من النجاح؛ لأن عندنا مكاتب واسعة ومدارس عديدة، ولكن كثيرًا ما تكون التسهيلات موانع تصدُّ الكثيرين عن اكتساب العلم؛ لأن نسبة العلم إلى المكاتب نسبة الكَرَم إلى الغنى، فإن كان الغنى يُنتِج الكرم ضرورة فالمكاتب تنتج العلم. لا ريب أنَّ التسهيلات العلمية عديدة الآن، ولكن الحكمة والفهم لا يُنالانِ إلّا بعد السير إليهما على سبيل الملاحظة والتمعُّن والمواظبة والاجتهاد، والمعرفة شيء والحكمة آخر، والحكمة لا تُنال بقراءة الكتب؛ لأن قارئ الكتب يقتصر غالبًا على اقتباس أفكار الغير، واقتباس الأفكار ليس له تأثير عظيم في العقول، وكثير من الدروس مثل شرب المسكر يُطْرِب العقل برهة، ولكنه لا يفعل شيئًا في تثقيفه؛ ولذلك نرى كثيرين ينخدعون بأنهم آخذون في تهذيب عقولهم، وهم مشتغلون بإضاعة الوقت وجهد ما يقال عنهم أنهم ملتهون بذلك عن فعل ما هو أقبح منه.

ويجب ألّا يُنسَى أنَّ كلّ ما يُستفاد من الكتب من الاختبار هو من نوع التعلُّم، وأمَّا الاختبار الشخصي فهو من نوع الحكمة، وقليل من الثاني خيرٌ من كثير من الأول، ولقد أجاد اللورد بولنبروك إذ قال: إنَّ كلّ علم لا يرفع شأن الإنسان فهو نوع من الكسل، وكل ما يُكتسَب منه إنما هو جهل. ومطالعة الكتب هي دون الاختبار من أوجه كثيرة ولو كانت مفيدة ومهذبة. فقد كان في البلاد الإنكليزية

رجال حكماء أشداء العزم، سديدو الرأي قبل انتشار الكتب، وكان في كلِّ أمة رجال حكماء لا نظير لهم في هذا العصر، وكلهم حصَّلوا ما حصَّلوا باختبارهم. فإن البراءة العظمى التي للشعب الإنكليزي أمضاها قوم لا يعرفون الكتابة، فأمضوها بالعلامات وأسسوا حرية الإنكليز وهم يجهلون القراءة والكتابة، ومن المُسلَّم أنَّ التهذيب لا يقوم بإملاء العقل من أفكار الغير، بل بتوسيع المعرفة الشخصية والإقدام على إتمام واجبات الحياة، وأكثر مشاهيرنا (أي مشاهير الإنكليز) كانوا من قليلي المطالعة، فإن برندلي وستفنصن لم يتعلما القراءة حتى صارا رجلين، ومع ذلك عملا أعمالًا عظيمة يعجز عنها فحول العلماء، وحياتهما أنفع من حياة ألوف من العلماء، ويوحنا هنتر بلغ العشرين من العمر قبلما يتعلم القراءة.

والأمر المعتبر في العلم هو غايته لا مقداره، فيجب أنْ تكون غاية العلم تحصيل الحكمة وإصلاح الصيت؛ لكي يصير الإنسان به أفضل مما كان، وأسعد وأكرم وأنشط، وإذا تقدم الناس ماديًّا وأهملوا تقدُّمهم الأدبي ركبوا طريق الانحطاط، وعلى كلّ عاقل أن لا يكتفي بالتأمل فيما فعله غيره، بل أنْ يفعله بنفسه، وأنْ يرفع شأن نفسه بيده بالوسائط التي خولته إياها العناية الإلهية.

وتدريب الإنسان لنفسه وضبطه لها أساسان للحكمة العملية، ويجب أنْ يتخللهما إكرام النفس الذي يصدر عنه الأمل رفيق القوة وأبو النجاح؛ لأن من كان أمله وطيدًا قدر على عمل الغرائب. وإكرام الإنسان لنفسه وتدريبه إياها من أعظم واجبات هذه الحياة؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - يطلب منا أنْ نعتبر أجسادنا وعقولنا وقوانا. وارتباطنا بالبشر يطلب منا ذلك أيضًا، بل إنَّ قوانا نفسها تستدعي أنْ نعطيها حقها اللازم من الاهتمام، فعلينا أنْ ننقض ما

فينا من الشر ونبني عوضًا عنه الخير، وكما أنه علينا أنْ نكرم نفوسنا، كذلك علينا أنْ نكرم الآخرين وعليهم أنْ يكرمونا، ومن ثمَّ ينتج الإكرام المتبادل والعدل، وينتفي كلّ ما يخل بالراحة العمومية.

وإكرام النفس من أفضل ما يتجلبب به الإنسان ويتحلى به عقله. نصح فيثاغورس للتلميذ أنْ يكرم نفسه؛ لأن من فعل ذلك نزه جسده عن الخسائس وعقله عن الدنايا.

والمنايا ولا الدنايا وخير من ركوب الخنا ركوب الجنازة

وهذه الصفة أصلٌ لكل الفضائل، فهي أصل للطهارة والعفة والتعقل والتقوى والديانة. قال ملتن: إنَّ إكرام النفس الصحيح ينبوع ينبثق منه كلّ عمل صالح محمود، ومن لم يكرم نفسه احتقرها، وأمسى محتقَرًا في عيني الغير، ومن كان دأبه الذل لا يفلح، وأمَّا من يكرم نفسه فترى وجهه متهلِّلًا ولو كان مكتنفًا بالفقر، ولا يسلم لتجربة، ولا يرتكب دنيئة، قال الشاعر:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانًا بها هانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وإنْ ضاق مسكن عليك بها فاطلب لنفسك مسكنًا

وقال زهير بن أبي سلمى:

ومن يغترب يحسب عدوًّا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يُكرَّم

وتثقيف الإنسان لعقله إذا اعتبر واسطة للتقدم فقط انحطَّت قيمته الأدبيَّة، ولكنه يبقى من خير ما يبذل فيه الوقت والعقل، والتثقيف يساعد الإنسان على توفيق نفسه للأحوال التي هو فيها،

وعلى اختراع الأساليب الجديدة لإتمام الأعمال، ويزيدهُ مهارة وحذاقة في كلِّ عمل يأخذ فيه، والإنسان الذي يعمل عمله بيده وعقله يعمله جيدًا، ويرى من نفسه ذلك ويشعر أنَّ مهارته آخذة في الازدياد، وهذا الشعور من ألذ ما يتمتع به البشر، ويقوى فيه اعتماده على نفسه، واعتماد الإنسان على نفسه وإكرامه لها يرفعانها عن الدنايا، وما أحسن ما قاله الطغرائي، وهو:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحيلة الفضل زانتني لدى العطل
غالى بنفسيَ عرفاني بقيمتها فصنتها عن رخيص القدر مبتذلِ

والإنسان الذي يعتبر نفسه هذا الاعتبار ينظر إلى البشر بصدر رحب، ويرى في خدمته أبناء نوعه لذة متجددة، فيعمل لنفسه ولغيره، ويحيا للناس ليحيا الناس لهُ.

وقد لا ينتهي العلم بالشهرة؛ لأنه على الفريق الأكبر من الناس أنْ يتعاطوا الأعمال، ومهما ازدادوا تعلمًا وتهذُّبًا لابد لهم من تعاطي الأعمال الشاقة، ولكن لا سبيل لإصلاح ذلك إلّا برفع شأن العمل بتوجيهه إلى الأغراض المجيدة التي تشرف العمل الدنيء والشريف معًا، ومن يفعل ذلك فهو خليق أنْ يعاشر أكثر العلماء فضلًا، وأسماهم عقلًا، وأبعدهم صيتًا، ولو كان فقيرًا ووضيعًا. فيصير الدرس المبني على أسس صحيحة مصدرًا للذة عظيمة، ومنشأً لنتائج مجيدة، ومصلحًا للسيرة والسريرة، وإنْ كان الناس المهذبون في شكٍّ من نوال الغنى فهم على يقين من الحصول على الأفكار السامية.

وما المال إلّا عارة مستردةٌ فهلّا بفضلي كاثروني ومحتدي

قيل سأل بعضهم فيلسوفًا: ماذا كسبت بكل فلسفتك؟ فأجابه: كسبت من نفسي رفيقًا لي.

ولكنَّ كثيرين ييأسون وتخور قواهم وهم آخذون في تثقيف عقولهم؛ لأنهم لا ينجحون بسرعة كما يظنون أنهم مستحقون، ولعلهم ظنوا المعرفة بزرة تصير شجرة في يوم فخاب ظنهم. أخبر مستر ترمنهير عن معلم مدرسة تركه تلامذته وعند الفحص عن السبب، وجد أنَّ أكثر الوالدين أخرجوا أولادهم؛ لأنهم ظنوا أنَّ التعليم يصلحهم حالًا، وإذ لم يتم ذلك أخرجوهم وأهملوا أمر تعليمهم. وكثيرون يحطون قيمة العلم إمَّا بجعله واسطة للسبق في الدنيا - كما ذكر - أو سبيلًا للهو والتسلي، لكن اسمع ما قاله باكون الشهير، وهو: «ليس العلم حانوتًا للبيع والكسب، بل مخزن بضاعته تمجيد الخالق وخير المخلوق». ولا ريب في أنه يليق بالإنسان أنْ يتعب ويجتهد للتقدم في الدنيا، ولكن لا يحق له أنْ يضحي نفسه لأجل ذلك. ولا أجهل ممن يجعل عقله عبدًا لجسده أو آلة له ثم يأخذ يندب سوء حظه؛ لأنه لم ينجح النجاح المطلوب، هذا فضلًا عن أنَّ النجاح لا يتوقف على العلم، بل على القيام الواجب بالأعمال، ومن كان هذا الحال حاله يناسبه ما قاله روبرت سوثي لرجل طلب منه النصح، فكتب إليه يقول: «يحدث كثيرًا أنْ يغضب الحكيم على الدنيا ويحزن لأجلها، ولكنه لا يتذمر منها البتة إذا كان قائمًا بواجباته، فإذا وجد إنسان متعلم صحته جيدة ولهُ عينان ورجلان ويدان وهو مع ذلك في احتياج، فيكون الله - سبحانه وتعالى - قد وهب هذه البركات لرجل لا يستحقها».

وهناك سبيل آخر يحط شأن العلم، وهو استعماله لمجرد اللهو والتسلية العقليَّة، وهذا الأمر شائع في عصرنا وأتباعه لا يُحصَون. ألا

ترى أنَّ الكتب والجرائد قد انشحنت من كلِّ سخيف وركيك؛ لكي توافق ذوق الجمهور. حتى متى لا ينتبه الناس من رقادهم بل من جنونهم هذا، حتى متى يميلون إلى الهزل والسخافة والركاكة، وما لا طائل تحته، وما لا يصدقه عاقل ولا جاهل، ألا يعلمون أنَّ ذلك يفسد الذوق السليم. قد ذكرنا الكتب والجرائد ولكن ما القول في الروايات والفكاهات، على أنَّ من الروايات ما هو فصيح العبارة بليغ المعنى، حتى إذا تصفحه الذين أشغالهم شاقة في أوقات الراحة، وجدوا فيه لذة عقليَّة عظيمة، وجميع الناس كبارهم وصغارهم لهم ميل غريزي إلى التفكه بمثل ذلك، ولا يحسن أنْ يحرموا هذه اللذة إذا استعملوها إلى حدٍّ موافق، ولكن من جعل ذلك طعامه وشرابه، أضاع وقته وأفسد ذوقه، وقد يفسد آدابه، هذا فضلًا عن أنه لا يُرجَى من قراءة هذه الروايات كبير فائدة؛ لأن التأثير الذي تؤثره وقتي زائل، وقد يعتاد الإنسان عليه حتى لا يعود يُصدِّق منها شيئًا ولا يتأثر بها البتة.

واللهو مفيد أحيانًا، ولكنه كثيرًا ما يفسد الأخلاق، فيجب أنْ يُحتَرس منه غاية الاحتراس. نعم إنه يقال في المثل من اشتغل دائمًا ولم يلعب صار بليدًا، ولكن من لم يشتغل قط صار شرًّا من البليد، ولا شيء أضر بالشبان من الانهماك في الملاهي؛ لأنه يفسد عقولهم ويفتح لهم بابًا للتهور في كلِّ نوع من القبائح، ثم إذا دعتهم الأحوال إلى معاطاة الأعمال شعروا بكره شديد لها، فيعدمون قوى الحياة، وتنضب في وجوههم ينابيع السعادة، ويخسرون اسمهم وجسمهم وما من حالة أتعس من حالة الشاب الذي أضاع شبابه في التنعم والانهماك في اللذات. قال ميرابو عن نفسه: «إنَّ أيام حداثتي بذَّرت كثيرًا من قواي، وحرمت

أيـام شـيخوختي مـن ميراثهـا». ولا بُـدَّ مـن أنَّ خطايـا الشـبيبة تضـر بالشـيخوخة. قـال جيوسـتي الإيطالـي لصديـق لـه: إنَّ الوجـود نفسـه لا تحصـل عليـه عفـوًا، والطبيعـة تدعـي أنهـا تعطينـا الحيـاة مجانًـا فـي صبانـا، ولكنهـا تطالبنـا بثمنهـا فـي شـيخوختنا، والبليـة الكبـرى أنَّ مـن يبـذر قـواه فـي شـبيبته يلـوِّث اسـمه بأقـذار قلَّمـا يسـتطيع أنْ يتخلـص منهـا فـي كهولتـه ولـو أراد ذلـك، ومـا أحسـن مـا قيـل:

إنَّ الشـباب والفـراغ والجـدة مفسـدة للمـرء أي مفسـدة

كان بنيامين كنستان من أكبر رجال فرنسا عقلًا، ولكنه لم يبلغ العشرين من العمر حتى فسد، وصارت بقية حياته سلسلة من الشقاء عِوَضًا عن أنْ تكون كنزًا من الخير، وما ذلك إلّا لأنه أهمل الاجتهاد وغلبة النفس، ولا يخفى أنَّ هذين الأمرين كانا بوسعه كما أنهما بوسع كلّ أحد، ويقال إنه عزم على إتمام أعمال كثيرة، ولكنه كان عديم الحزم فلم يتمم شيئًا منها؛ ولذلك دعاه الناس كنستان المتقلب، وكان سريع الخاطر، قوي القريحة، وكتاباته من الطراز الأوَّل، ولكنه كان يشغل عقله في أسمى المواضيع ويمارس أدنى الأعمال، حتى إنَّ سمو تآليفه لا يكفِّر عنه دناءة حياته، فإنه كان يقامر - يلعب بالقمار - عندما كان يكتب في الديانة، وكان مع كلِّ قواه العقلية كمن لا قوة له؛ لأنه لم يعتبر الفضيلة ولا العفة، وقال ذات مرة: «ما هو الشرف والمجد؛ لأنني بمقدار ما أتقدم في السن أرى بطلهما». وقال مرة أخرى: «إنما أنا تراب ورماد، وأمر على الأرض كظلٍّ زائل مصحوبًا بالشقاء وانكساف البال». وتمنَّى لو كان له نشاط فُلْتر عِوَضًا عن كلِّ مواهبه الطبيعية، وبما أنه كان كثير التمني عديم الحزم، انقضت حياته بغير نفع، وقد شبَّه نفسه مرة برجل ذي رِجلٍ واحدة، وأقرَّ بأنه خالٍ من الآداب، وبعد أنْ

عـاش سـنين عديـدة بالتعاسـة والشـقاء مـات ميتـة الـذل والهـوان.

أمـا حيـاة أغسـطينوس ثيـري مؤلِّـف تاريـخ الغلبـة النرمنديـة فمضـادة لحيـاة كنسـتان علـى خـط مسـتقيم؛ لأنهـا كانـت مؤلفـة مـن المواظبـة والاجتهـاد وتثقيـف العقـل، والحـرص علـى طلـب الحكمـة، ومـن شـدة انصبابـه علـى الـدرس فقـد بصـره وصحتـه، ولكنـه لـم يفقـد محبتـه للعلـم، وهـاك مـا قـال فـي آخـر حياتـه:إذا عُـدَّت فوائـد العلـم مـن الفوائـد الوطنيـة أكـون قـد صنعـت لبـلادي مـا صنعـه الجنـدي الدامـي فـي حومـة القتـال، وآمـل أنْ أبقـى مثـالًا لغيـري فـي هـذا الأمـر مهمـا كانـت نتيجـة أتعابـي مثـالًا يعيـن علـى مقاومـة الضعـف الأدبـي، الـذي هـو داء الجيـل الحاضـر، ويـرد إلـى جـادة الحيـاة كثيريـن مـن خائـري القـوى الذيـن يتشـكون مـن عـدم الثقـة، ولا يعلمـون مـا يفعلـون، بـل يلتمسـون فـي كلِّ مـكان أمـرًا يحترمونـه ويعبدونـه ولا يجـدون، وعـلامَ يُقـال إنَّ بـلاد اللـه ضيقـة بسـكانها، وإنـه لا هـواء بهـا يكفـي لتنفُّـس الجميـع، ولا أشـغال تكفـي عقـول الجميـع؟ أليـس فيها مواضيـع للدرس والتأمـل؟! أوَ ليـس ذلـك ملجـأً ميسـورًا لـكل إنسـان؟! هنـاك تنقضـي أيـام الشـر ولا يُشـعَر بهـا، وهنـاك يمكـن لـكل إنسـان أنْ ينـال غايتـه ويصـرف حياتـه، وهـذا قـد عملتـه، ولـو أُبدئـت ثانيـة لعملتـه أيضًـا، ولا أختـار إلّا مـا أوصلنـي إلـى مـا أنـا عليـه الآن، ومـع أننـي أعمـى وآلامـي لا تنقطـع، أشـهد أنَّ فـي العالـم شـيئًا ألـذ مـن كلّ اللـذات الحسـيَّة، وأشـرف مـن الغنـى، وأفضـل مـن الصحـة، وهـو طلـب المعرفـة.

ومـن الذيـن يشـبهون كنسـتان كُلْـردج الـذي كان ذا مواهـب سـامية إلّا أنـه كان ضعيـف العـزم، ومـع كلِّ مواهبـه العقليَّـة كان فاقـدًا موهبـة الاجتهـاد، بـل كان عـدوًّا للعمـل، وفضـلًا عـن ذلـك كان فاقـدًا محبـة الاسـتقلال، فلـم يسـتنكف أنْ تـرك امرأتـه وأولاده علـى سَـوْذِي الـذي

كان يشتغل بكل جهده لكي يعولهم، واعتزل مع تلامذته إلى غابة، وكان يتطلع على الدخان الخارج من معامل لندن بكرهٍ واحتقار للأعمال الجارية فيها، ثم تعاطى أعمالًا رفعت أثقاله عن غيره، ولكنه تنازل إلى أمور كثيرة يأنف منها أحقر الناس مع ما كان عليه من سموِّ الحكمة، وكم كان سوذي مخالفًا له؛ لأنه صرف حياته في العمل والاجتهاد، حتى في أعمال لا توافق ذوقه مالئًا عقله بكنوز الحكمة الثمينة، وعاش بالسعة من شق قلمه الضيق.

كتب روبرت نيكول إلى أحد أصدقائه بعد أنْ قرأ مذكرات كُلردج يقول:«يا لهُ من عقل ثاقب ضاع في هذا الإنسان بسبب احتياجه إلى قليل من الهمة والحزم». أمَّا نيكول هذا فمات شابًا، ولكنه كان ممن تُعقَد لهم الخناصر ويشار إليهم بالبنان، ولم يمت حتى تغلب على كثير من مشاق الحياة، ولما كان يتعاطى بيع الكتب وجد نفسه مدينًا بعشرين جنيهًا، فكان يشعر كأن عنقهُ مطوق بحجر رحى وعزم أنه لا يستدين شيئًا من مخلوق بعد ما يوفيها. ونحو ذلك الوقت كتب إلى أمه يقول: «لا ينشغل بالك من نحوي أيتها الأم الحنونة؛ لأن همتي تزيد يومًا فيومًا، وأملي يقوى، وكلما أفتكر وأتأمل أرى أنني متقدم في الحكمة، فلذلك لا يهمني سواء صرت غنيًّا أم بقيت فقيرًا، والتعب والفقر وغيرهما من بلايا الحياة التي لا يُستطاع عليها صبرًا أقابلها بالصبر الجميل والاتكال على العناية، وهذه خطة تقتضي تعبًا جزيلًا للحصول عليها، ولكن من نالها يمكنه أنْ يلتفت إلى ما وراءه كسائح يتطلع على تيارات البحر الخضم وهو ماشٍ على الأرض اليابسة، ولا أقول إني بلغت هذه الدرجة ولكني أشعر في نفسي أني آخذ في الاقتراب منها يومًا فيومًا».

فالمتاعب والمشاق تصيِّر الناس رجالًا أو كما قال أرسطو: بالصبر على مضض السياسة يُنال شرف الرياسة. ولا منصب في هذه الحياة إلّا وهو محفوف بالمتاعب حتى لا يرتقي إليه إلّا من تغلَّب عليها. والمتاعب تربي فوق تربية الأب كما أنَّ الخطأ يقود إلى الصواب. كان من عادة تشرلس جمس فكس أنْ يقول: إنَّ رجائي في مَن لم ينجح في بادئ أمره أقوى منه في من نجح، فالشاب الذي ينجح في أول خطبة يلقيها تقتاده حلاوة الظفر غالبًا إلى التهامل فلا يفلح، وأمَّا من يرجع بالخيبة في خطبته الأولى ثم يستمر على ممارسة الخطابة، فينجح نجاحًا ثابتًا أكيدًا.

والناس يتعلمون الحكمة من الخيبة أكثر مما يتعلمونها من النجاح؛ لأنهم كثيرًا ما يعرفون المفيد إذا عرفوا غير المفيد، ومن لا يغلط لا يتعلم، قيل إنَّ الذي دعا غاليليو وطورشلي وبويل إلى درس الهوائيات، هو خيبة البعض في إصعاد الماء بالطلمبا فوق ثلاث وثلاثين قدمًا، وقال يوحنا هنتر: إنَّ صناعة الجراحة لا تتقدَّم حتى يشهر الجراحون الحوادث التي لم يصيبوا فيها كما يشهرون الحوادث التي أصابوا فيها. وقال وط: إنَّ أهم ما تمس إليه الحاجة في علم الهندسة العملية تاريخ أغلاط المهندسين. قيل أُطْلِع السر همفري دافي مرة على امتحان طبيعي في عمله حذاقة شديدة، فقال: أحمد الله؛ لأني لست حاذقًا في إجراء الامتحانات؛ ولأني توصلت إلى أكثر اكتشافاتي بعدم نجاحي، وقال آخر ممن لهم في العلوم الطبيعية أطول باع إنه كان يكتشف اكتشافًا جديدًا كلما عرضت أمامه صعوبة في امتحاناته، وأعظم الاختراعات والاكتشافات كان محفوفًا بالأحزان والمشقات.

قال بتوفن: إنَّ في روسيني ما يكفي لجعله من أفضل الموسيقيين

لو ضُرِب في صغره، ولكنه لم ينجح؛ لأنه لم يصادف شيئًا من المصاعب. ولا يخَفْ أولو العزم من مناقضة الغير لهم وتنديده بهم، كما يجب أنْ يخافوا من المدح في غير موقعه. يُروَى أنَّ مندلسن عندما باشر تطريب ألحانه المسماة «إيليا» قال لبعض أصحابه المنتقدين: لا تشفق عليَّ في الانتقاد ولا تخبرني بشيء أستحسنه، بل بكل ما لم تستحسنه. ويقال إنَّ الانغلاب يفيد قواد الجيش أكثر من الغلب. فوشنطون مثلًا كانت الوقائع التي كُسِر فيها أكثر من التي ظفر فيها، ولكنه نال الظفر التام أخيرًا، وكل الحروب التي نجح فيها الرومانيون كانت بدايتها انغلابًا. وقد شبَّه بعضهم القائد مورو بطَبْل لا يُسمَع صوته ما لم يُضرَب، والصعوبات الكثيرة الشديدة ربَّت القائد العظيم ولنتون، الذي لاقى منها أكثر مما لاقاه من أعدائه، فقوت عزمه وعودته الثبات، فصار من أفضل القواد، وكلُ ربَّان ماهر في سفر البحر بلغ ما بلغ إليه في وسط الزوابع والعواصف التي علمته الشجاعة والإقدام، ولعل تقدم الملاحين الإنكليز في سلك البحار حدث مما صادفوه فيها من المخاطر. والحاجة قاسية صارمة، ولكنها مفيدة جدًّا، والمصائب والمحن بلايا شديدة تقشعر منها الأبدان خوفًا، ولكن إذا أصابت الندب قابلها بالصبر الجميل. وخطوب الدهر وعناد الزمان مُرَّة المذاق، ولكن نتيجتها أحلى من العسل؛ لأنها تنبه المرء وتحرك همته، ومن كان فيه ذكاء ظهر بالفرك كالنباتات العطرية، قال المثل: الخطوب سلالم السماء، وقال الشاعر:

تريدين إدراك المعالي رخيصة ولا بُدَّ دون الشهد من إبر النحل

وقال بعضهم: الفقر أشبه شيء بالألم الحاصل من ثقب أذن فتاة لتعليق حلقة من الجوهر الثمين، وكثيرون قاوموا المشقات بشجاعة،

واحتملوا البلايا بالصبر الجميل، ولما نجحوا لم يقدروا أنْ يقاوموا الشرور الكثيرة التي صحبت نجاحهم، وعلى هذا نقول: إنَّ الغنى يستدعي حكمة وافرة للتحفظ من الشرور التي يؤدي إليها. نعم، إنَّ البعض تُحمَد أفعالهم عندما يحصلون على سعة المعيشة، ولكن الجانب الأكبر لا تنفعهم السعة قدر ما تضرهم؛ لأن كثيرين يقلبهم الغنى من البلادة إلى الطيش، ومن الذل إلى الكبرياء بخلاف الضيق، فإنه يربي أصحاب الحزم على الصبر والجلد. قال بُرك: «المصاعب معلم صارم أقامته لنا العناية الإلهية بمحبة أبوية، وهي تعرفنا أكثر مما نعرف نفوسنا، وتحبنا أيضًا أكثر مما نحب نفوسنا». والبلايا تفعل فعل المُصارِع في تقوية أعضاء خصمه. ورخاء المعيشة أسهل من ضنكها، ولكنه لا يربي رجالًا. قيل إنه لما وُشِي بهدصن زورًا ففُصِل عن وظيفته في الهند، قال لصديق له: «إنني بالغ جهدي في مقابلة كلِّ شرٍّ يصيبني بجسارة تضاهي جسارتي على مقابلتي العدو، وفي إتمام واجباتي على أحسن ما يمكنني، معتقدًا أنه لا بُدَّ من سبب لكلِّ ما أصابني، وأنَّ الواجبات الصعبة تنال جزاءً حسنًا إذا عُمِلَت حق العمل وإلّا فلا تزال واجبات».

وحرب الحياة كثيرًا ما تشب في نجود صعبة المسلك، لا يغلب فيها إلّا البطل الذي لا يبالي باقتحام المصاعب، وإذا لم تكن صعوبات فلا نجاح؛ لأنه إنْ لم يكن شيء يُغلَب فلا شيء يكسب، والمصاعب توهن عزم الجبان، ولكنها تزيد همة الشجاع، والاختبار يعلمنا أنَّ كلَّ الموانع التي تحول دون تقدُّم البشر لا تقدر أنْ تثبت أمام الاستقامة والنشاط والهمة والمواظبة، وخصوصًا أمام من يعزم ويحزم على مقاومة كلّ مصيبة تنزل به.

ومدرسة المصاعب أحسن المدارس لتربية المبادئ الأدبية، وتاريخ المصاعب عبارة عن تاريخ كلِّ الأمور العظيمة التي فعلها البشر. ومن ينكر كم استفادت القبائل الساكنة شمالي أوروبا من محاربتها عناصر الطبيعة ومَحْل الأراضي، الأمر الذي لا يعرفه سكان البلدان الحارة فلا يستفيدون منه، ومع أنَّ أفضل غلَّات البلاد الإنكليزية مما لا ينمو فيها أصلًا، فالاجتهاد الذي بُذِل في إنمائها في تلك البلاد ربَّى فيها رجالًا لا يفوقهم أحد همة.

وحيثما وُجِدت المصاعب قوَّت مقاومها وزادت حذاقتهُ، ونشَّطت همته على مقاومة ما ينزل به من خطوب الدهر، وجَبَل الحياة صعب المرتقى، ولكن من مرن على ارتقائه ازدادت همته فلا يألو جهدًا حتى يبلغ قمته، والاختبار يعلمنا أنَّ ما من طريق للتغلُّب على المصاعب إلّا مصارعتها، ألا ترى أنَّ من خطف القرَّاص بيده وقبض عليه شديدًا شعر أنَّ ملمسه كالحرير، ولا يقوى على أمر إلّا من اقتنع في نفسه أنه قادر على إتمامه وعازم عليه، وكثيرًا ما تتلاشى المصاعب من مجرَّد هذا العزم قبل الشروع في مقاومتها.

وكثيرون يتوهمون الصعوبة في هذا الأمر أو ذاك قبل أنْ يباشروه، ولكنهم لو باشروه لوجدوه أسهل مما ظنوا كثيرًا، وأمَّا التمني والترجي فلا ينفعان شيئًا، ومباشرة أمر واحد خير من ألف «لو، وليت، ولعل»، بل إنَّ هذه الأحرف مصدر اليأس، وأصل المستحيل، وسبب الإهمال، قال اللورد لندهرست: الصعوبة أمر يجب التغلب عليه، فيجب أنْ نصارعها حالما تظهر لك، والسهولة نتيجة المزاولة، والقوَّة نتيجة الممارسة، وبهما يبلغ العقل درجة من الكمال لا يقدر أنْ يتصورها من لم يختبرها بنفسه.

والحـزم والتدبيـر روح العـزم ... لا خيـر فـي عـزم بغيـر حـزم
والحـزم كلّ الحـزم فـي المطاولة ... والصبـر لا فـي سـرعة المزاولـة
وفـي الخطـوب تظهـر الجواهـر ... مـا غلـب الأيـامَ إلّا الصابـرُ
ليـس الفتـى إلّا الـذي إن طرقَـهْ ... خطـبٌ تلقَّـاه بصبـرٍ وثقـهْ

وتعلُّـم العلـم نـوع مـن التغلـب علـى المصاعـب، والتغلـب علـى صعوبـة واحـدة يقـوي الإنسـان علـى غلبـة غيرهـا، ومـا لا تظهـر منـه فائـدة فـي بـادئ الـرأي كـدرس اللغـات القديمـة والرياضيـات هـو كبيـر الفائـدة؛ بسـبب فعلـه فـي العقـل لا بسـبب فائدتـه العمليَّـة؛ لأن درس هـذه العلـوم يوسـع العقـل ويزيـد قـوَّة الانصبـاب، وبقيـة القـوى التـي لـولا الـدرس لبقيـت ضعيفـة، وكل أمـر يقـود إلـى آخـر ولا تنقضـي مقاومـة المصاعـب مـا لـم تنقـض الحيـاة، ولكـن الخـوض فـي بالوعـة اليـأس لـم يُعِـن أحـدًا علـى المصاعـب ولـن يعيـن، ومـا أفضـل النصيحة التـي نصـح بهـا دلمبـر طالـبَ علـم تشـكَّي مـن عـدم نجاحـه فـي مبـادئ الرياضيـات، بقولـه: اجتهـد تجـدً الثقـة والقـوة مقبلتَيْـن عليـك.

الذيـن يلعبـون علـى آلات الطـرب لـم يبرعـوا إلّا بعـد تعـب يفـوق التصديـق، قيـل مـدح بعضهـم كريسـمي علـى إتقانـه فـن الغنـاء وجريـه فيـه بسـهولة، فقـال لـه: إنـك لا تعلـم بكـم مـن الصعوبـة حصلـت هـذه السـهولة. سُـئل السـر يشـوع رينلـدز كـم مـن الوقـت قضيـت علـى تصويـر هـذه الصـورة فقـال حياتـي كلهـا، وقـال هنـري كلاي الخطيـب الأميركانـي لبعـض الشـبان يصـف سـر براعتـه فـي فـن الخطابـة: إننـي أنسـب كلَّ نجاحـي إلـى الحادثـة الآتيـة، وهـي أننـي لمـا بلغـت السـابعة والعشـرين شـرعت أقـرأ بعـض الكتـب التاريخيـة والعلميـة، وأتلـو مضمونهـا بصـوت عـالٍ فـي الحظائـر والحقـول والغابـات، وليـس لـي مـن سـامع سـوى البهائـم والطيـور والحشـرات هـذا هـو العمـل الوحيـد

الـذي لـه أنـا مديـن؛ لأجـل براعتـي فـي هـذا الفـنّ.

وكان كـرَّان الخطيـب الأرلنـدي قليـل الإفصـاح أولًا، حتـى لُقِّـب وهـو فـي المدرسـة بالألكـن، ولمـا كان يـدرس الفقـه ويجتهـد علـى إصـلاح منطقـه حدثـت حادثـة أصلحتـه تمامًـا؛ وذلـك أنـه دخـل بعـض المجامـع العلميـة وجـاء دوره للمناظـرة، فقـام ولكـن لـم يمكنـه التكلـم، فقـام خصمـه ودعـاه باسـم الخطيـب الأخـرس، فأثَّـر فيـه هـذا التهكُّـم فقـام ودافـع عـن نفسـه بـكلام فصيـح إلـى الغايـة حتـى أذهـل الحاضريـن، ولمـا رأى مـن نفسـه ذلـك تقـوَّى عزمـه واسـتمر علـى درس الفقـه بأكثـر رغبـة، وكان يقـرأ أبلـغ الكتابـات بصـوت عـالٍ سـاعات عديـدة، وكل ذلـك لتصليـح منطقـه دارسًـا حركاتـه علـى مـرآة، وكان يفـرض بعـض المسـائل ويناظـر فيهـا وحـده أمـام المـرآة، ومـا زال علـى مثـل ذلـك إلـى أنْ صـار خطيبًـا مِصْقَعًـا، ثـم دخـل المحاكـم محاميًـا فـي الدعـاوى، وفـي أحـد الأيـام قـال للقاضـي: إنـي لـم أرَ الفتـوى التـي أفتيـت فيهـا فـي كتـاب مـن كتـب الفقـه، فقـال لـه القاضـي بتهكُّـم: لعـل ذلـك صحيـح؛ لأن الكتـب التـي اطلعـت عليهـا قليلـة جـدًّا. وكان القاضـي المذكـور مـن رجـال السياسـة المتعصبيـن، وقـد ألّـف رسـائل مشـحونة بالقـذف والتشـنيع ولـم يضـع عليهـا اسـمه، فنهـض كـرَّان والغيـظ آخـذ منـه كلَّ مأخـذ، وقـال لـه: «حقيـق أيهـا المولـى أننـي فقيـر الحـال، ولذلـك كتبـي قليلـة، ولكـن كلهـا نُخـب، وقـد تصفحتهـا مليًّـا، وتأهلـت لهـذا المنصـب السـامي بـدرس كتـب قليلـة معتبـرة لا بتأليـف كتـب كثيـرة قبيحـة، ولا أخجـل مـن فقـري، بـل أخجـل مـن غنـاي إذا كنـت أحصلـه بالظلـم والبطـل، وإذا لـم أرتـقِ إلـى مرتبـة أمـراء الأرض فسـأرتقي إلـى مرتبـة أشـرافها، وإننـي أرى الغنـى المكتسـب بطـرق محرمـة يشـهر الإنسـان ولكـن شـهرة رديئـة».

ومهما كان الفقر مدقعا لا يعيق الإنسان عن التقدُّم في تثقيف عقله، فإن الأستاذ إسكندر مري اللغوي تعلم الكتابة بالفحم، ولم يكن في بيت أبيه من الكتب سوى كتاب واحد ثمنه عشر بارات، وهو مختصر أصول الإيمان، وكان أهله يحفظونه بكل حرص ولا يمسكونه إلّا من أحدٍ إلى أحدٍ. والأستاذ مور لما كان فتًى لم يكن معه دراهم لابتياع كتاب الأصول لنيوتن فنسخه كله بيده. وكثيرون من طلبة العلم المساكين المضطرين أنْ يعملوا كلَّ النهار لكي يحصِّلوا قُوتَهم، كانوا يستغنمون كلَّ دقيقة يمكنهم استغنامها لأجل الدرس، ولم يكن لهم من مشجع ولا معزٍّ سوى الأمل والثقة. قصَّ وليم تشمبرس الأيدنبرجي سيرة تقدمه على فئة من الشبان في تلك المدينة، فقال: «إنني أقف أمامكم الآن كرجلٍ علَّم نفسه؛ لأنني أتيت أيدنبرج وأنا صغير وفي غاية المسكنة، وكنت أعمل كلَّ النهار وجزءًا من الليل عند بائع كتب لتحصيل قوتي الضروري، وأمضي الساعات الأخيرة من الليل التي كنت أسرقها من النوم في تهذيب العقل الذي منحتني إياه العناية الإلهية، وانصببت بالأكثر على درس العلوم الطبيعية، وفي غضون ذلك درست اللغة الفرنساوية وحدي، والآن ألتفت إلى تلك الأيام بلذَّة لا تُوصَف، وأود لو كانت أحوالي الآن متعسرة كما كانت حينئذٍ؛ لأنني وجدت لذة في حياتي لما كنت أدرس في بيت صغيرٍ، ولم يكن معي شيء من الدراهم أكثر مما أجد الآن وأنا في أفخر القاعات».

وهاك قصة مفيدة جدًّا لطلبة العلم المحاطين بالمصاعب، وهي قصة تعلُّم وليم كوبت النحو الإنكليزي، قال: إنني تعلمت النحو وأنا جندي، ومقعدي سريري، ومائدتي قطعة لوح وأتممته في أقل من سنة، ولم يكن لي من المال شيء لأبتاع سراجًا أدرس في

نـوره ليـلًا، فكنـت أدرس علـى نـور النـار عندمـا تأتـي نوبتـي للقيـام أمامهـا، فإذا كنـت قـد بلغـت مرامـي وأنـا فقيـر ولا أب لـي ولا صديـق ولا منشـط، فمـا عـذر غيـري مهمـا كان فقيـرًا متعبًـا متضايقًـا، وكنـت ألتـزم أنْ أبقـى بـلا أكل لكـي أشـتري قلمًـا وقرطاسًـا، ولـم أكـن أحصـل علـى دقيقـة مـن الوقـت، وكنـت أكتـب بيـن قهقهـة عشـرات مـن الرجال الطائشين وصفيرهـم وخصامهـم، ولا تحتقـر الفلـس الـذي كنـت أدفعـه ثمـن الحبـر أو الـورق أو القلـم؛ لأن ذلـك الفلـس كان عنـدي بمثابـة بَـدْرة مـن المـال عنـد غيـري؛ إذ لـم أُعْـطَ فـي الأسـبوع غيـر غـرش واحـد، وأذكـر الآن أنـه فـاض معـي مـرة قطعـة بعشـر بـارات لا غيـر؛ فحفظتهـا لكـي أشـتري بهـا طعامًـا لليـوم التالـي، ولكـن لمـا نزعـت ثيابـي فـي المسـاء وكنـت أكاد أمـوت جوعًـا، نظـرت فـإذا القطعـة ضائعـة فغطيـت رأسـي بردائـي وأخـذت أبكـي كالطفـل، فـإن كنـت أنـا قـد تغلبـت علـى ذلـك الضنـك الشـديد ونجحـت، فهـل بقـي عـذر لأحـد مـن الشـبان.

وهـاك حادثـة تشـبه هـذه أصابـت أحـد المهاجريـن الفرنسـاويين، كانـت حرفـة هـذا الرجـل البنـاء، وقـد وجـد عمـلًا يعمـل بـه حالمـا أتـى البـلاد الإنكليزيـة، ولكـن بعـد قليـل انتهـى عمله ولـم يجـد عمـلًا آخـر، فأمسـى فـي حالـة يرثـى لهـا مـن العـوز، وفـي غضـون ذلـك زار أحـد أصحابـه المهاجريـن، وكان يعلِّـم اللغـة الفرنسـاوية واستشـاره فـي الطريقـة الممكنـة لتحصيـل معيشـته، فقـال لـه: رأيـي أنْ تصيـر معلِّمًـا، فقـال أأصيـر معلمًـا وأنـا بنَّـاء ولا أعـرف غيـر الباتـوا (فرنسـاوية ركيكَـة) فحقًّـا إنـك تمـزح، فقـال: كلَّا، بـل أتكلـم معـك كلام الجـد، ولا أرى لـك سـوى أنْ تصيـر معلِّمًـا فهلـمَّ إلـيَّ وأنـا أعلمـك كيـف تعلـم الغيـر، فقـال البنـاء: إنَّ ذلـك ضـرب مـن المحـال؛ لأنـي كبيـر السـن واهـن

الذهن. قال هذا ومضى في طريقه، وأخذ يفتش عن عمل ليعمل به، فطاف أماكن عديدة ولم يجد عملًا، فرجع إلى لندن وانطلق إلى صاحبه، وقال له: قد بذلت جهدي في التفتيش عن عمل فلم أجد، والآن سأجتهد لكي أصير معلمًا. ثم انعكف على الدرس وكان شديد المواظبة، سريع الإدراك، كثير الجلد، فتعلم مبادئ الصرف والنحو والبيان في برهة قصيرة، وأصلح لفظه حسب الاقتضاء، وعندما تعلَّم ما يكفيه ليكون معلمًا للغة الفرنساوية صار أستاذًا في ضواحي لندن؛ حيث كان يعمل سابقًا في صناعة البناء، وكانت كوة غرفته تطل على كوخ بناهُ بيدهِ، فكان حالما يفتح عينيه صباحًا يقع نظره على هذا الكوخ، فخاف أنْ يشتهر أمره فيلقي اللوم على المدرسة، وهي ذات اعتبار في تلك الأنحاء، ولكن خوفه لم يكن في محله؛ لأنه كان من أفضل المعلمين، وقد اعتبره الجمهور وباقي الأساتيذ كثيرًا ولا سيما حينما أخبرهم بقصته.

والسر صموئيل روملي بن جوهري من المهاجرين الفرنساويين أيضًا، وقد تعلم قليلًا في حداثته، ولكنه بلغ ما بلغ إليه باجتهاده وانصبابه، قال في سيرة حياته: «عزمت وأنا بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة أنْ أتعلم اللغة اللاتينية، ولم أكن أعرف منها شيئًا تقريبًا إلّا أنه لم يمضِ ثلاث سنوات أو أربع حتى قرأت أكثر المؤلفات الفصيحة النثرية والشعرية، مثل ليفي، وسَلُست، وتاشيتس، وشيشرون، وأوميروس، وتيرنس، وفرجيل، وهوراس، وأوفيد، ويوفنال، وقد تصفحت أكثرها مرارًا عديدة». ودرس عدا ذلك الجغرافية والتاريخ الطبيعي والفلسفة الطبيعية، ولما بلغ السادسة عشرة عُين كاتبًا فأظهر نشاطًا عظيمًا، حتى إنه أُدخل إلى المجلس، ثم صار مدعيًا عموميًا في مدة وزارة فكس سنة 1806

وقام بأعباء منصبه، إلّا أنه كان دائمًا يتوهم أنه غير أهل لشيء، وقد تعب من هذا الوهم تعبًا عظيمًا، وتاريخ حياته الذي كتبه بيده يستحق أنْ يقرأه كلُّ أحد بتمعُّن.

كان من عادة السر ولتر سكوت أنْ يقول: إنَّ في حياة صديقي يوحنا ليدن مثالًا من أتم الأمثلة على قوَّة المواظبة الشديدة، أمَّا يوحنا هذا فهو كغيره من الاسكتلنديين الذين ارتقوا من رعاية الغنم إلى أعلى المناصب باجتهادهم، مثل هوغ الذي تعلم الكتابة بتمثيل حروف كتاب مطبوع، وهو يرعى القطعان في البراري أو ككرنس الذي ارتقى من رعاية الغنم إلى منصب أستاذ في مدرسة كلية أو كمري وفرغوسن، وغيرهما ممن يضيق بنا المقام عن استيفاء أسمائهم، ولنرجع إلى يوحنا ليدن فنقول: إنه أظهر تعطُّشًا شديدًا للمعرفة وهو صغير، فكان يمشي ثمانية أميال كلَّ يوم حافيًا إلى مدرسة صغيرة؛ لكي يتعلم القراءة، ثم توجه إلى إدنبرج وصار يتردد على مدرستها الكلية مع ما هو عليه من الفاقة الشديدة، وكان يتردد على مبيع كتب لأرشيبلد كنستابل، فيقيم فيه ساعات عديدة واقفًا على سُلَّم عالٍ وبيده كتاب ضخم يطالع فيه، وما زال يقاوم الصعوبات بهمة تفوق التصديق حتى تغلب عليها وأزاحها من وجهه، فانفتحت أمامه أبواب المعرفة، وقبلما يبلغ التاسعة عشرة حيَّر أساتذة إدنبرج بمعرفته في اليونانية واللاتينية وفي كثير من العلوم، ثم وجَّه أفكاره نحو الهند وطلب منصبًا سياسيًّا فلم يجد إلّا أنه أُخْبِر بإمكان صيرورته معاونًا لجرَّاح، ولم يكن يعرف شيئًا من علم الجراحة، وكان عليه أنْ يتقلد المنصب المذكور بعد ستة أشهر، فأخذ في درس هذا العلم الذي يقتضي ثلاث سنوات فتعلمه في ستة أشهر، وامتُحن فيه ونال الشهادة،

ثم توجه إلى الهند بعد أنْ طبع قصيدته المشهورة المعروفة بمناظر الطفولية، فأظهر في الهند ما يدل على صيرورته من البارعين في اللغات الشرقية، ولكن وافته المنية وهو في عنفوان الشباب.

وسيرة الدكتور لي أستاذ العبرانية في مدرسة كمبردج من أعجب ما حدث في هذا العصر، وأقوى الأمثلة على فعل الصبر والمواظبة والعزم، فإنه تعلَّم مبادئ القراءة في مدرسة مجانية، ولم يكن نجيبًا على الإطلاق حتى قال معلمه إنه أبلد ولدٍ رآه في حياته. فوُضع صانعًا عند نجار وعمل في النجارة حتى بلغ أشده، وعكف على القراءة ساعات الفراغ، وكان يعثر على بعض الاقتباسات اللاتينية، فعزم أنْ يعرف معناها فاشترى غراماطيقا لاتينيًّا وشرع يدرس اللاتينية، وكان يقوم باكرًا وينام متأخرًا فأتقن اللغة اللاتينية في مدة قصيرة، وبينما هو يعمل في بعض المعابد عثر على نسخة من الإنجيل باليونانية، فتحركت فيه رغبة شديدة لتعلُّم هذه اللغة، فباع بعض كتبه اللاتينية واشترى غراماطيقا يونانيًّا وكتابًا في متن اللغة، ولم يلبث طويلًا حتى أتقن اليونانية، فباع كتبها واشترى كتبًا عبرانية، وتعلم تلك اللغة بلا أستاذ غير طامع بالشهرة، بل تابعًا ميل طبيعته، ثم أخذ يتعلم الكلدانية والسريانية والسامرية، وحينئذٍ أثَّرت دروسه في صحته؛ فأصابه مرض في عينيه من درس الليل، حتى اضطرَّ أنْ يترك الدرس ريثما يملك صحته، وفي كلّ هذا الوقت كان آخذًا في حرفته، ونجح فيها نجاحًا مكَّنهُ من أنْ يتزوج وهو في الثامنة والعشرين، وحينئذٍ تفرغ لتحصيل ما يقوم بنفقة عائلته، فترك الدرس وباع كلَّ كتبه، ولو لم يحترق صندوق أدواته لبقي نجارًا كلّ حياته إلَّا أنه احترق ولم يكن قادرًا على ابتياع أدوات أخرى، فعزم أنْ يفتح مدرسة صغيرة لتعليم الصغار،

ومع أنه تعلم كثيرًا من اللغات كان قاصرًا في أبسط فروع العلم، فلم يقدر أنْ يعلِّم في هذه المدرسة، ولكن علوَّ همته وشدة حزمه هوَّنا عليه كلَّ عسير، فتعلَّم من الحساب والكتابة ما يكفي لتعليم الأولاد، وكان واطئ الجانب، ليِّن العريكة؛ فجذب إليه قلوب كثيرين من الذين بُهِتوا من معرفته باللغات، وكان له جار صديق يُدعى الدكتور سكوت فساعده على إيجاد مركز في مدرسة شوبري المجانية، وعرَّفه برجل عالم باللغات الشرقية فقدَّما له كتبًا، فرجع إلى الدرس وتعلم العربية والفارسية والهندية، ثم دخل مدرسة كمبردج الملكية بمساعدة الدكتور سكوت، وبعد أنْ درس مدة واشتهر فيها بالرياضيات، أُخْلِي منصب أستاذ العربية والعبرانية في تلك المدرسة فقلدوه إياه، فقام بعبئه وكان يعلم اللغات الشرقية للمبشرين المزمعين على الانطلاق إلى الشرق، وترجم التوراة إلى كثير من لغات آسيا، ثم تعلم لغة زيلندا الجديدة، وصنَّف لها غراماطيقا وكتاب لغة، وهما المعوَّل عليهما الآن في مدارس زيلاندا الجديدة، هذه خلاصة ترجمة هذا الفاضل الذي هو واحد من كثيرين من المشاهير الذين تعلموا باجتهادهم ومواظبتهم.

ومهما تقدم الإنسان في السن لا يفوت وقت علمه، ولنا على ذاك شواهد كثيرة، فإن السر هنري سيلْمَن لم يباشر درس العلوم إلّا بين السنة الخمسين والستين من عمره، وفرنكلين الأميركاني كان ابن خمسين سنة لما شرع في درس الفلسفة الطبيعية، ودريدن وسكوت لم يظهرا كمؤلفين حتى بلغ كلٌّ منهما الأربعين، وبكانشو كان ابن خمس وثلاثين سنة لما شرع في دروسه العلمية وألفيري كان ابن ست وأربعين سنة لما أخذ في درس اليونانية، والدكتور أرنلد تعلم الألمانية بعد أنْ طعن في السن؛ لكي يقرأ نيبور بلغته الأصلية،

وجمس وط تعلم الفرنساوية والألمانية والإيطالية وهو ابن أربعين سنة؛ لكي يقرأ الكتب المؤلفة فيها في الفلسفة الميكانيكية، وتوما سكوت كان في السادسة والخمسين عندما شرع يتعلم العبرانية، وروبرت هُل تعلم الإيطالية وهو شيخ طاعن في السن ومكتنف بالأوجاع؛ لكي يرى صحة المقابلة التي عملها الشهير ماكولي بين ملتن الشاعر الإنكليزي ودنتي الشاعر الإيطالي، وهندل كان في الثامنة والأربعين قبلما يُشْهِر شيئًا من كتبه الشهيرة، ويمكننا أنْ نذكر ألوفًا من الرجال الذين فتحوا لنفوسهم سبيلًا جديدًا بعد أنْ تقدموا في السن، وما من أحد يقول إنني كبرت عن العلم إلّا الجبان أو الكسلان.

والآن نعيد ما ذكرناه قبلًا، وهو أنَّ الرجال الذين غيروا هيئة العالم وأحرزوا قصَب السَّبْق لم يكونوا من ذوي المواهب الفائقة، بل من ذوي الحزم والاجتهاد، وكثيرون من أذكياء العقول اشتُهروا في صغرهم، ولكن الاشتهار في الصغر لا يلزم عنه الاشتهار في الكبر، بل إنَّ النمو الباكر علامة على المرض؛ لأنه أين التلامذة النجباء الذين نالوا الجوائز واكتسبوا المديح، فتش عنهم في العالم ترَ أنَّ الذين كانوا دونهم بدرجات عديدة قد سبقوهم بمراحل، أمَّا هم فكانوا أذكياء العقول سريعي الخاطر، فنالوا الجوائز الحسنة مجازاة لنجاحهم، ولكن كان يجب أنْ تُعطَى هذه الجوائز للمجتهدين الباذلين جهدهم، وإنْ لم تكن قواهم العقلية في درجة عالية، ويمكننا أنْ نكتب فصلًا كبيرًا عن الأولاد البلداء الذين صاروا رجالًا أفاضل إلّا أنَّ المقام لا يسمح لنا إلّا بذكر بعضهم، فنقول: إنَّ بيترو دي كُرتونا المصور كان معدودًا من أبلد الأولاد حتى لُقِّب برأس الحمار، وتوماسو كويدي لُقب توما الثقيل، ولكنه

ارتقى باجتهاده فيما بعد إلى أسمى المراتب، ونيوتن لما كان في المدرسة كان آخر أولاد صفه ما عدا واحدًا، وحدث يومًا أنَّ الصبي الذي فوقه في الصف رفسه برجله فخاصمه نيوتن، ثم عزم أنْ يغلبه بالدرس، فانصب بكلِّيَّته على دروسه ولم تمضِ عليه مدة طويلة حتى ارتقى إلى رأس الصف، وأكثر لاهوتييتنا لم يكونوا أذكياء في صغرهم، فإن إسحاق بَرُو كان مشهورًا بشراسة الأخلاق ومحبة النزاع، وكان يُضرَب المثل بكسله حتى إنَّ أباه قال مرارًا كثيرة إذا شاءت العناية الإلهية أنْ تأخذ ولدًا من أولادي فأحب أنْ تأخذ إسحاق الذي لا يُرجَى منه نفع، وآدم كلرك نعته أبوه بالأبله، ودِبَن سوفت طُرد من مدرسة دبلن الكلية، والدكتور تشلمرس الشهير والدكتور كك طردهما معلمهما زاعمًا أنهما أبلهان لا يقبلان الإصلاح أبدًا، وشريدن الشهير لم يكن نجيبًا في صغره حتى إنَّ أمه لما أخذته إلى المكتب قالت لمعلمه ها قد أتيتك بهذا الأبله البليد، والسر ولتر سكوت كان أبله أحمق محبًّا للخصام، حتى إنَّ الأستاذ دلزل قال: إنه أبله وسيبقى أبله كلَّ حياته، وتشترتن طُرد من المدرسة كأحمق لا يُرجَى منه نفع، وبرنس كان بليدًا لا ينفع إلّا للعب، وكُلد سمِث قال عن نفسه إنه نبتة أزهرت متأخرًا، وألفيري خرج من المدرسة جاهلًا كما كان عندما دخلها، ولم يبتدئ في دروسه التي اشتُهر بها إلّا بعد أنْ طاف نصف أوروبا هربًا، وروبرت كليف كان مشهورًا بالشقاوة والكسل، فأرسله والداه إلى الهند لكي يتخلصا منه، ولكن هو الذي وضع أساس السلطنة الإنكليزية في الهند، ونبوليون وولنتن كان كلٌّ منهما بليدًا في صغره، وأولهما لم يشتهر بشيء في المدرسة سوى بجودة صحته، والجنرال غرنت رئيس الولايات المتحدة الأميركانية لقبته أمه «يوزلس» أي عديم النفع؛ لبلادته وبلهه، وستُنول جكسن القائد الشهير اشتُهر ببلادته

وهـو صغيـر، وكان آخـر ولـد فـي صفـه وهـو سـبعون تلميـذًا، ولكـن لمـا أكمـل دروسـه فـي المدرسـة لـم يكـن فوقـه سـوى سـتة عشـر منهـم والبقيـة دونـه، وقيـل إنـه لـو طـال وقـت المدرسـة سـت سـنوات أخـرى لخـرج وهـو رأس صفـه، ويوحنـا هـورد الشـهير كان بليـدًا أيضًـا، ومـع أنـه أقـام سـبع سـنوات فـي المدرسـة لـم يتعلـم شـيئًا، وسـتفنصن لـم يشـتهر وهـو فـي المدرسـة إلّا بالمصارعـة، والسـر همفـري دافـي لـم يكـن أنجـب مـن غيـره مـن التلامـذة، ووط كان بليـدًا إلّا أنـه كثيـر الانصبـاب؛ وذلـك قـدَّرهُ علـى إتمـام الآلـة البخاريـة.

ويمكننـا أنْ نقـول عـن الصغـار كمـا قـال الدكتـور أرنلـد عـن الكبـار: إنَّ الفـرق المعتبـر بينهـم ليـس فـي جـودة العقـل، بـل فـي الاجتهـاد؛ لأن البليـد المجتهـد خيـر مـن الذكـي الكسـلان. ومـن العجيـب أنَّ بعـض النجبـاء الأذكيـاء العقـول لا ينجحـون بخـلاف البلـداء، فإنهـم إذا كانـوا شـديدي الاجتهـاد والانصبـاب نجحـوا دائمًـا. وأنـا (المؤلـف) لمـا كنـت حدثًـا كان معـي فـي صفـي تلميـذ بليـد الذهـن، حتـى إنَّ كلَّ المعلميـن أعيـوا ولـم يقـدروا أنْ يجعلـوه يسـتفيد شـيئًا، فيئسـوا منـه وتركـوه بعـد أنْ اسـتخدموا كلَّ واسـطة لتحريـك ذهنـه، ولكـن كان فيـه شـيء مـن العـزم الـذي نمـا بنمـوه، فلمـا دخـل فـي مهـام الحيـاة فـاق كثيريـن مـن أبنـاء صفـه، وآخـر مـرة سـمعت عنـه كان رئيـس المحكمـة فـي بـلادهِ.

ولا يخفـى أنَّ السـلحفاة المشـهورة ببـطء الحركـة إذا سـارت فـي طريـق قويـم سـبقت الفـارس السـائر فـي طريـق معـوج، فـلا خـوف علـى ولـد بطـيء الفهـم إذا كان مجتهـدًا، علـى أنَّ الـذكاء قـد يكـون مضـرًّا؛ لأن مـن تعلـم سـريعًا نسـي سـريعًا، هـذا فضـلًا عـن أنَّ الذكـي لا يـرى موجبًـا للاجتهـاد والمواظبـة وأمـا البليـد فيـرى لزومهمـا لـهُ ويمارسـهما،

ولا يخفى أنهما أصلٌ لكلِّ نجاح.

والخلاصة أنَّ التعلُّم لا يتوقف على المدارس والمعلمين، كما يتوقف على الاجتهاد بعد الدخول في ميدان الحياة؛ ولذلك لا يليق بالآباء أنْ يخافوا من تأخُّر بنيهم وهم في المدارس، ولا ينبغي أنْ ينتظروا منهم نجاحًا سريعًا، بل عليهم أنْ يكونوا صبورين، منتظرين فعل القدوة الحسنة والتربية الصحيحة فيهم، وتاركين ما بقي للعناية الإلهية، ويحرصوا على صحة أولادهم وتدريبهم في جادة التهذيب الذاتي، مربِّين فيهم روح الانصباب والمواظبة، فينجحون إذا كانوا أهلًا للنجاح، ولو بعد أنْ يتقدموا في السن.

هذا، وإنَّا نعرف كثيرين في بلاد الشام من الذين تركوا صناعة الحياكة أو السكافة، أو البناء، أو تقطيع الحجارة، ودخلوا المدارس العالية وتعلموا فيها، ورقوا إلى أعلى المناصب، ويحق لكلٍّ منهم أن يردد قول الشاعر:

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

ونعرف أيضًا كثيرين من الذين وصفوا بالذكاء وهم في المدارس، وكانوا في مقدمة صفوفهم، ثم أهملوا الدرس فضاع علمهم ونُسِي اسمهم، وغيرهم من الذين لم يشتهروا بسرعة الفهم وقوة الذاكرة، ثم اشتُهروا بالاجتهاد والمواظبة لمَّا تعاطوا مهام الحياة، فأفلحوا وأثروا وسبقوا الذين كانوا فوقهم في المدرسة بمراحل، واللبيب إذا أمعن نظره رأى بين جيرانه ومعارفه أمثلة كثيرة تؤيِّد كلَّ ما تقدم.

الفصل الثاني عشر

في القدوة

قال جون سنرلن ما معناه:

كأنا وطيف الأقربين يزورنا وإنْ أبعدتهم عن حمانا المقابر
جيوش إلى كسب الفخار تسابقوا وأملاكهم تحتثّهم أنْ يحاضروا

وقال جورج إليوت: أولادنا يموتون وأفعالنا تحيا، وحياتها خالدة في نفوسنا وفي غيرنا.

وقال توما الملمسبري: لا عمل من أعمال الإنسان إلّا وهو بداية سلسلة من النتائج التي تقصر عن إدراك نهايتها الحكمة الإنسانية

القدوة معلم من أقدر المعلمين، مع أنها تعلم بلا لسان وهي مدرسة البشر العملية، وتعليم العمل أفعل من تعليم القول، والإرشاد يري الطريق، ولكن القدوة البكماء تسيِّر فيه، والنصيحة ثمينة ولكنها لا تفيد كثيرًا ما لم توافقها سيرة الناصح، وخير النصح: افْعَلْ كما أَفْعل، لا كما أقول. وكلُّ الناس مائلون طبعًا إلى أنْ يتعلموا بعيونهم أكثر مما يتعلمون بآذانهم، والمرئي يؤثر أكثر من المقروء والمسموع، ويصدق هذا القول بنوع خاص على الأحداث؛ لأن عيونهم هي الباب الأوسع للمعرفة، فما يرونه يقتدون به وإنْ عن غير قصد، ولذلك تراهم يتمثلون بالذين حولهم، كما أنَّ الحشرات الصغيرة تتلون بلون النباتات التي تقتات منها، وإذا كان الأمر كما ذكرنا فلا شيء أفعل من التربية البيتية؛ لأنه مهما كان تأثير المدارس قويًّا يبقى تأثير البيوت أقوى، وعليه تتوقف صفات رجالنا ونسائنا، البيت جرثومة الهيئة الاجتماعية وأصل الصفات الأهلية، ومن هذا الينبوع تنبثق الآداب والأخلاق المتسلطة على الخاصَّة والعامَّة، وصفاء الدنيا وكدرها يتوقفان على

صفاء البيت وكدره، والمحبة العائلية مصدر المحبة الوطنية، ومن هذه الدائرة الصغيرة تتولد دوائر كبيرة تعم العالم أجمع، وبما أنَّ القدوة تؤثر في حياة الناس تأثيرًا بليغًا بهذا المقدار وتميل بهم إلى الصلاح أو الطلاح؛ لذلك هي مهمة جدًّا حتى في الأمور الطفيفة، وصفات الوالدين تظهر في أولادهم، وأفعالهم المختلفة التي يمارسونها يوميًّا كالمحبة والاجتهاد وإنكار الذات وحسن السياسة، تحيا في أولادهم بعد أنْ يكونوا قد نسوا تعاليمهم التي سمعوها منهم بآذانهم من زمان طويل، ونظرة واحدة من الأب قد تبقى مؤثرة في الولد مدى الحياة، وكثيرون قد تجنَّبوا شرورًا كبيرة لئلا يهينوا اسم والديهم، وكلُّ أمر مهما كان طفيفًا يؤثر تأثيرًا بليغًا في أخلاق البشر، قال وست المصور: «إنَّ قبلة واحدة من أمي جعلتني مصورًا». وعلى هذه الأمور الطفيفة تتوقف سعادة الصغار عندما يصيرون رجالًا. كتب فول بكستن لأمه بعد أنْ ارتقى منصبًا عاليًا يقول: «إنني أشعر على الدوام بنتائج المبادئ التي غرستِها في عقلي». وكان بكستن هذا يقر بفضل رجل أمي يُسمَّى إبراهيم بلاستو، وكان هذا الرجل من الحكمة والاستقامة على جانب عظيم حتى شبَّه بكستن كلامه بخطب سنيكا وشيشرون، ولما التفت اللورد لنديل إلى قدوة أمه الصالحة، قال: إذا وضعت العالم بأسره في كفة ميزان وأمي في الكفة الأخرى رجحت عليه رجوحًا بليغًا. وكانت إحدى السيدات تذكر في شيخوختها ما كان لأمها من الهيبة في قلوب معارفها، فقالت إنها لم تدخل بيتًا إلّا طهَّرت ما فيه وجعلت حديث أهله جليلًا قويمًا، وما ذلك إلّا لاستقامتها التي جعلت لها هذا التأثير في قلوب الجميع.

ومن الأمور المهمة بل الرهيبة جدًّا أنَّ كلَّ عمل يعمله الإنسان

وكل كلمة يتفوه بها، هي أساس نتائج عديدة لا يعرف نهايتها إلّا الله وحده، ولكلٍّ منها تأثير في حياتنا وحياة غيرنا، فكل عمل صالحًا كان أم طالحًا يحيا ويثمر، وإنْ لم نرَ ثمره بعيوننا، وأرواح البشر لا تموت ولكنها تبقى حيَّة وتجول بين الأحياء، ولقد أصاب مستر دزرائيلي؛ إذ قال في مجلس العامّة عند وفاة رتشرد كبدن: إنَّ هذا الرجل من الرجال الذين وإنْ غابوا عنا لا يزالون بيننا أعضاء في هذا المجلس.

وفي حياة الإنسان شيء من الخلود حتى في هذه الدنيا؛ لأنه ليس فرد من أفراد البشر إلّا وهو عضو من أعضاء جسد العائلة البشرية، يعمل لزيادة خيرها أو ضَيْرها، وكما أنَّ الحاضر متصل بالماضي وحياة آبائنا لا تزال تؤثر فينا، فكذلك نحن سنؤثر في الأجيال الآتية بسيرتنا وأفعالنا اليومية، وما الإنسان سوى ثمرة أنضجتها القرون السالفة وأوصلتها إلى حالتها الحاضرة، وللجيل الحاضر هذا الفعل نفسه في الأجيال التالية، وهكذا سيرتبط الماضي الدابر بالمستقبل البعيد، وأفعال البشر لا تموت وإنْ ماتت أجسادهم وصارت هباءً منثورًا، بل تحيا إلى الأبد وتؤثر في حياة الأجيال العتيدة، وتثمر إثمارًا من نوعها إنْ خيرًا فخير وإنْ شرًّا فشر، وقد أظهر ذلك مستر ببادج بعبارات بليغة لا بأس من إيرادها هنا. قال: «إنَّ كلّ ذرة تتحرك بالحركة التي حرَّكها بها الحكماء الفلاسفة، حتى إنَّ الهواء نفسه يشبه كتابًا كبيرًا، كُتِبَ على صفحاته كلُّ ما تفوه به بنو البشر، كلّ ما قالوه ولم يفعلوه أو وعدوا به ولم يفوه، فهو شاهد أزلي على تقلب إرادة الإنسان، ولكن إذا كان الهواء شاهدًا على أقوالنا فالأرض والبحار والهواء شهود أبدية على أفعالنا، وكما وضع الله القدير على جبهة القاتل

الأوَّل علامة ظاهرة لجرمه، فكذلك سنَّ شرائع تُلْزِم كلَّ مذنب أنْ يقر بذنبه؛ لأن كلّ ذرة من جسده مهما تغيَّر وضعها لا تزال تتحرك بالحركة الأولى التي ارتكب بها ذلك الذنب». لذلك كلّ فعل نفعله وكل كلمة نقولها، بل كلّ عمل نراه وكل قول نسمعه يؤثر في حياتنا تأثيرًا مستمرًّا، ويمتد تأثيره إلى الجنس البشري إجماعًا، ولا نقدر أنْ نتبع هذا التأثير بتفرعاته المختلفة بين أولادنا وأصحابنا ورفاقنا، لكن لا بُدَّ من أنه يتصل إليهم ويدوم امتداده مدى الأيام. ومن هنا نرى أهمية القدوة الحسنة التي هي مهذِّب أخرس - كما قلنا سابقًا - ويقدر عليها أفقر الناس وأحقرهم، ومهما كان الإنسان حقيرًا لا يزال مديناً لغيره بهذا النوع من التعليم، ولا يُستغنَى عن تعليمه مهما كان حاله دنيئًا؛ لأن المنارة الموضوعة على رأس جبل تنير والموضوعة على سفحه تنير أيضًا، والرجل الحقيقي يُرى في كلّ أين وآن في أكواخ المزارع وقصور المدائن. ومن يحرث قطعة أرض تُقاس بالشبر يمكنه أنْ يكون قدوة لغيره في الأمانة والاجتهاد كمن يملك الألوف، وأحقر الحوانيت يمكن أنْ يكون مدرسة للاجتهاد والأدب أو وهدةً للشر والجهل. وكل شيء يتعلق على الإنسان واستخدامه للفرص التي تسنح لهُ.

ومن ترك لأولاده وللناس سيرة حسنة وقدوة صالحة، فقد ترك لهم إرثًا فاضلًا يردعهم عن الشر، ويحرضهم على الخير، ويغنيهم أدبيًّا وماديًّا، وحبذا من يقدر أنْ يقول كما قال بوب للورد هرفي: حسبي فخرًا أنني لا أخجل بوالديَّ ولم يخجلا بي. ولا يكفينا أنْ نقول للناس اعملوا كذا وكذا، بل علينا أنْ نعمل أمامهم، وما أحسن ما قالته إحدى السيدات وهو: إذا أردنا فعل شيء فعلينا أن نشرع فيه بيدنا. والكلام وحده لا يكفي، فإن كثيرين يحثون

غيرهم على فعل هذا الشيء أو ذاك، ولكن كلامهم لا ينفع شيئًا ولو كانوا من ذوي البلاغة والحجة البالغة ما لم يعززوهُ بفعلهم. وما أحسن ما قيل:

إنْ قلتَ وَيْحك فافعل أيها الرجل فكم رجال لنا قالوا وما فعلوا

وذوو الهمة والمروءة لا يقدرون أنْ يحركوا الناس للعمل ما لم يكونوا هم من أهل العمل، فلو قام توما ريط وتبوأ كلَّ منبر وخطب في إصلاح شأن المجرمين، ولو قام يوحنا بوندس وملأ جرائد البلاد من الحث على إنشاء المدارس للمنقطعين، ولم يفعلا شيئًا ما استفادا شيئًا، ولكنهما لم يتكلما بشيء، بل شرعا في عمليهما بأيديهما، فنجحا وحرَّكا غيرة الناس للاقتداء بهما. وهاك ما قاله الدكتور غثري الواعظ البليغ الذي يُدعَى رسول مدارس المساكين، قال: «إنَّ رغبتي الشديدة في هذا العمل العظيم تبيِّن كيف أنَّ العناية الإلهية تجعل الأمور الطفيفة تؤثر في حياة البشر ومقاصدهم؛ لأنني انتبهت إلى وجوب إنشاء المدارس للمنقطعين من نظري إلى صورة في برج قديم، فإنني دخلت هذا البرج فوجدت فيه غرفة فيها كثير من الصور، وبينها صورة تمثِّل حانوت إسكاف، والإسكاف جالس وعويناته على أنفه وبين ركبتيه حذاء عتيق، وعلى وجهه أمارات الهيبة والوقار وعلو الهمة، وعيناه شاخصتان إلى جمٍّ من الصبيان والبنات الجالسين أمامه بثياب أخلاق وكتبهم في أيديهم، ثم التفتُّ وإذا بجانب الصورة كتابة يقول فيها: هذا هو يوحنا بوندس الإسكاف، وقد أخذته الشفقة على الأولاد المنقطعين المتروكين من القسوس والحكام والأسياد والسيدات لكي يجولوا في الأزقة في حالة يُرثَى لها، فجمعهم مثل راعٍ صالح وعلَّمَهم وهذبهم؛ لأجل خيرهم ومجد الله، فانتشل من

وهـدة الهـلاك مـا ينيـف علـى خمـس مائـة ولـد، وهـو يحصـل خبـزه بعـرق جبينـه. فعندمـا قـرأت هـذا الـكلام خجلـت مـن نفسـي والتفـتُّ إلـى رفيقـي وقلـت لـه: حقًّـا إنَّ هـذا الرجـل فخـر للبـلاد ويجـب أنْ يقـام لـه نصـب مـن أرفـع الأنصـاب التـي أقيمـت فـي البـلاد الإنكليزيـة، ثـم راجعـت تاريـخ حياتـه فرأيـت أنَّ قلبـه كان مملوءًا مـن الشـفقة والحنـو، وعقلـه مـن الحكمـة والدرايـة فـي اجتـذاب النـاس، وأنـه كان يطـوف الشـوارع يسـتدعي الأولاد المنبوذيـن ليأتـوا إلـى مدرسـته، ولـم يكـن يجبرهـم علـى ذلـك بقـوة الحكومـة، بـل بإطعامهـم قليـلًا مـن الطعـام، وإنـي لإخـال عظمـاء الأرض وأشـرافها الذيـن أطنـب الشـعراء بمدحهـم وأقيمـت لهـم الأنصـاب، قـد وقفـوا فـي سـاعة الحسـاب الرهيبـة وانقسـموا إلـى شـطرين؛ لكـي يجتـاز بينهـم هـذا الرجـل الخامـل الذكـر، وينـال ثوابـه مـن ذاك الـذي قـال: بمـا أنكـم فعلتمـوه بأحـد هـؤلاء الأصاغـر فبـي فعلتـم».

لا شـيء يؤثـر فـي الأخـلاق مثـل القـدوة؛ لأن البشـر مائلـون طبعًـا إلـى الاقتـداء بمـن حولهـم فـي العوائـد والأخـلاق والآراء، وإنْ لـم يقصـدوا ذلـك. نعـم، إنَّ الإنـذار الحسـن يفعـل كثيـرًا، ولكـن القـدوة الحسـنة تفعـل أكثـر منـه؛ لأنهـا مهـذب عامـل، ومـن ينـذر بكلامـه وهـو فاسـد السـيرة كمـن يبنـي بيـد ويهـدم بأخـرى؛ لذلـك كان اختيـار الرفـاق أمـرًا ضروريًّـا ولا سـيما فـي سـن الصبـوة؛ لأن فـي الشـبان قـوة خفيـة تجعلهـم يتخلقـون بأخـلاق رفقائهـم، ولـه در القائـل:

عـن المـرء لا تسـأل وأبصـر قرينـه فـكل قريـن بالمقـارن يقتـدي

وهـذا الأمـر قـد أوجـب علـى بعضهـم أنْ يقـول إمَّـا رفقـة حسـنة وإمَّـا الانفـراد، ومـا أحسـن مـا قالـه المثـل: اسـأل عـن جـارك قبـل دارك،

وعـن رفيقـك قبـل طريقـك. قيـل كتـب اللـورد كُلِنْـود إلـى صديـق مـن الشـبان يقـول: الانفـراد خيـر مـن مرافقـة أدنيـاء القـوم، فـلا تصاحـب إلّا مـن كان مثلـك أو أعلـى منـك؛ لأن الإنسـان يُعـرَف بأصحابـه. وقـد آلـى السـر بطـرس لِلـي المصـور علـى نفسـه ألّا ينظـر إلـى صـورة قبيحـة؛ خوفًـا مـن أنْ يكتسـب قلمـه منهـا شـيئًا يفسـد ذوقـه، وكذلـك مـن ينظـر إلـى شـخص فاسـد لا يلبـث أنْ يكتسـب منـه شـيئًا يضـر بـه. قـال الحكيـم: المسـاير الحكمـاء يصيـر حكيمًـا، ورفيـق الجهَّـال يُضَـر. فعلـى الشـبان أنْ يعاشـروا أفاضـل القـوم ويقتـدوا بهـم. وقـال فرنسـيس هرنـر عمـا اسـتفاده مـن معاشـرته للعقـلاء لا يسـعني أنْ أنكـر أننـي اسـتفدت منهـم إفـادة عقليـة أكثـر ممـا اسـتفدت مـن كلِّ الكتـب التـي تصفحتهـا فـي حياتـي. قيـل: إنَّ اللـورد شـلبرن زار، وهـو فتًـى، الفاضـلَ ملشـرب واسـتفاد مـن هـذه الزيـارة فائـدة كبيـرة، حتـى إنـه قـال فيمـا بعـد إننـي قـد جلـت فـي بلـدان كثيـرة، ولـم أسـتفد مـن مخلـوق قـدر مـا اسـتفدت مـن تذكـري مسـيو ده ملشـرب، وفـول بكسـتون كان مـن أكثـر النـاس إقـرارًا بفضـل عائلـة كرنـي عليـه؛ لأنهـا ربَّـت فيـه كلَّ صفاتـه الحميـدة، حتـى إنَّ نجاحـه فـي حياتـه توقَّـف بنـوع خـاص علـى الأخـلاق التـي اكتسـبها مـدة إقامتـه فـي بيـت تلـك الأسـرة.

والالتصـاق بالأفاضـل يـورث الفضـل، كمـا أنَّ المـرور بيـن النباتـات العطريـة يعطـر ثيـاب السـيَّاح، فـإن الذيـن يعرفـون يوحنـا سـترلن مثـلًا يقولـون إنـه لـم يجالسـه أحـد إلّا اسـتفاد منـه. وكثيـرون مدينـون لـه؛ لأنهـم بواسـطته انتبهـوا إلـى رفـع شـأنهم، قـال فيـه مسـتر ترنتـش: إنـه لمـن المحـال أنْ تقتـرب منـه إلّا وتشـعر أنَّ أفكـارك قـد ارتقـت ارتقـاءً عجيبًـا، وهـذا هـو فعـل العقـول العجيـب بعضهـا ببعـض.

وبيـن الموسـيقيين والمصوريـن فعـلٌ وانفعـال مثـل هـذا. قيـل إنَّ هيـدن

سمع هندل يغني فاضطرمت في فؤاده رغبة شديدة في الغناء، ولما كان نرثكوت فتًى رأى المصور رينلدز في محفل، فاخترق الجمع المزدحم إلى أنْ وصل إليه، ولَمَس هدبَ ثوبِه، وقال إنه لما فعل ذلك اطمأن بالهُ.

ومن ينكر أنَّ قدوة الأبطال تبث الشجاعة في قلوب الجبناء، حتى إنَّ الرجال المتوسطي القوة قد فعلوا العجائب؛ لأن قوادهم كانوا أبطالًا بُسَّلًا، قيل إنَّ زسكا أوصى بجلده أنْ يصنع طبلًا؛ لكي يحرك شجاعة البوهيميين، ولما مات إسكندر بك أمير أبيروس طلب الأتراك عظامه؛ لكي يحملوها بجانب قلوبهم فتتصل شجاعته إليهم، ولما كان البطل دكلس في إسبانيا رأى واحدًا من فرسانه محاطًا بالمسلمين وقد سدوا عليه طرائقه، فنزع ذخيرة قلب بروس من عنقه وطرحها في وسط العدو صارخًا: حارب وانتصر حسب عادتك فسأتبعك أو أموت. قال هذا وهجم إلى حيث سقطت الذخيرة ولم يرتد حتى قُتِل.

وفائدة ترجمات البشر تخليد ذكر الرجال الذين يحق أنْ يُقتَدى بهم، فإنا نجد فيها آباءنا أحياء في سيَر حياتهم وفي الأعمال التي عملوها نعم، ونراهم يحثوننا على المعروف وينهوننا عن المنكر، ومن مات وترك وراءه مثالًا حسنًا، فقد ترك لنسله وغيرهم أفضل تركة، وستبقى أثمارها مدى الأيام. وأنفع الكتب كتاب يتضمن حياة رجل فاضل، وقلَّ من يقرأ سيرة الرجال الأفاضل إلّا ويشعر كأن حياة جديدة قد دخلت عقله وقلبه، وكثيرًا ما يحدث أنَّ سيرًا كهذه تنبه القوى الخامدة، فينتبه الإنسان إلى نفسه، ويرى أنَّ فيه موهبة لبعض الأمور وهو غير شاعر بها، كما حدث لكرجيو لما قرأ مؤلفات ميخائيل أنجلو. قال السر صموئيل روملي في تاريخ

حياته إنه استفاد كثيرًا من قراءة سيرة الفاضل داكسُّو الفرنساوي، ونسب فرنكلين شهرته إلى قراءته مقالات ماثر، وقال صموئيل درو إنه درَّب حياته على أنموذج فرنكلين. فانظر كيف يتصل فعل القدوة الحسنة بالتسلسل، ولا يمكننا أنْ نحكم أين تكون نهايته إذا كانت له نهاية، لذلك علينا أنْ نختار الكتب الفضلى ونقتدي بالشيء الأحسن فيها، كما أنه علينا أنْ نختار العشراء الأفضلين. قال اللورد ددلي: إنني مغرم بالاقتصار على الكتب المفيدة التي طالعتها وعرفت فائدتها، وأشهد أنَّ قراءة كتاب عتيق مرة ثانية أفضل من قراء كتاب جديد لم يُقرَأ قبلًا، وإنْ لم تكن ألذ منها.

ويحدث أحيانًا أنْ يأخذ إنسان كتابًا لمجرد التسلية، فيرى فيه سيرة تؤثر فيه تأثيرًا بليغًا، وتنبه فيه قوة كانت خاملة، مثال ذلك أنَّ ألفياري مال إلى الإنشاء بقراءة سيرة فلوطرخس. ولويولا لما كان في الجند انجرح جرحًا بليغًا في رجله ونُقِل إلى المستشفى، فطلب كتابًا يتسلَّى به فدفع إليه كتاب حياة القديسين، فتأثر تأثيرًا بليغًا من مطالعته، حتى إنه عزم من ذلك الوقت أنْ ينشئ طغمة دينية جديدة. ولوثر تحرك إلى الإصلاح بقراءة سيرة يوحنا هس. والدكتور ولف تحرك إلى التبشير بقراءة حياة فرنسيس زفير. ووليم كاري انبعث إلى فوائده أول ميل إلى التبشير بقراءة أسفار القبطان كوك. وكان من عادة فرنسيس هُرنر أنْ يذكر في مفكرته ومكاتيبه أسماء الكتب التي استفاد منها أكثر ما يكون، ومن جملة ما ذكره ترجمة هلر لكندُرْسَت، ومحاورات السر يشوع رينلدز، ومؤلفات باكون، وسيرة السر متى هال لبرنت، فهذه الكتب ولا سيما الأخير حرَّكت نشاطه، بل أضرمته غيرة واجتهادًا، ولقد قال عن ترجمة هلر: إنني لا أقرأ سيرة إنسان مثل هذا إلّا وأشعر بنوع من خفقان

القلب، ولا أعلم إلى أي شيء أنسبه إلى الانذهال، أم إلى الطمع، أم إلى اليأس. وقال عن محاورات السر يشوع رينلدز ما من كتاب بعد كتب باكون اقتادني إلى تهذيب نفسي مثل هذه المحاورات، وإني أعدُّ الرجل الذي يظهر للعالم كيفية البلوغ إلى العظمة من أحكم الناس. وهذا شأن هذا المؤلف، وهو يثبت أنَّ البشر قادرون على عمل كلّ شيء يجتهدون فيه إثباتًا يضطر القارئ إلى الاعتقاد بأن الموهبة الفائقة ليست هبة خاصّة ببعض الناس، بل ملكة مكتسبة، وأنَّ الجميع قادرون على نوالها، ومن الغريب أنَّ السر يشوع نفسه تحركت فيه محبة التصوير بقراءته سيرة واحد من مشاهير المصورين، وكذلك تحركت محبة التصوير في هيْدَن بقراءته سيرة رينلدز هذا، فكانت سيرة الواحد شعلة لإضرام قوى الآخر وبعثها في سبيل المجد، وإذا دققنا النظر رأينا في الدنيا سلسلة غير منقطعة من الناس الذين تمثَّلوا بمن قبلهم، وكانوا مثالًا لمن بعدهم.

ومن الأمثلة التي يمكننا أنْ نعرضها على الشبان ليقتدوا بها، مثال العامل المسرور بعمله؛ لأن السرور زيت النفس يسهل حركتها ويزيد مرونتها، وبه تزول المصاعب، ويزداد الرجاء، وتُغتَنم الفرص، والروح الحارة تكون مسرورة دائمًا ونشيطة، وتعمل أعمالها بسرور، وتحرك الغير إلى الاقتداء بها، وترفع شأن أحقر المصالح. وأتم الأعمال ما يعمله الإنسان من قلبه ويعمله بسرور. كان من عادة هيوم أنْ يقول إنه يفضل الطبع الميال إلى السرور على عقارٍ دخله عشرة آلاف جنيه مع طبع ميال إلى الغم. وكان كرنفيل شَرْب يسلي نفسه في وسط أتعابه الشاقة في أمر تحرير العبيد باللعب على آلات الطرب والرسم، وفول بكستن كان دائمًا جزلًا، وكان

يشترك مع أولاده في اللعب واللهو وركوب الخيل، والدكتور أرنلد كان يفرح بكل أعماله، وكل ما عمله عمله بكل قلبه، قيل في ترجمته: «إنَّ أغرب ما في مدرسة للهام حيث كان يُعْلم نشاطُ من فيها وهمتهم، حتى إنَّ كلّ من يدخلها يرى أنَّ أهلها عاملون عملًا عظيمًا، وكل تلميذ مشترك فيه، وكل منهم مسرور سرورًا لا يوصف؛ لكونه عاملًا عملًا نافعًا وقلبه شغوف بعمله الذي علَّمه أنْ يعتبر الحياة والعمل المعيَّن لها، وأساس ذلك كله استقامة أرنلد وحسن إرشاده واعتباره للعمل، ولم يصدر هذا عن هوًى ولا عن ميل لعمل دون آخر، بل عن شعور عميق ثابت بأن العمل من واجبات الإنسان، وهو الغاية من قواه المختلفة، والميدان الذي تتروض فيه طبيعته وتترقَّى فيه نحو السماء».

لم يقم في هذه الدنيا على ما نظن رجل أفاد أهله وجيرانه بسيرته واجتهاده الممزوج بالسرور، أكثر من السر يوحنا سنكلر. كان لهذا الرجل أملاك متسعة في شمالي اسكتلندا اتصلت إليه بالإرث من أبيه، ولما بلغ الثامنة عشرة أخذ يصلح أملاكه بنشاط لم يسبقه إليه أحد، فامتدت إصلاحاته حالًا في كلِّ اسكتلندا، وكانت الزراعة حينئذٍ في حالة يُرثَى لها؛ لأن الحقول كانت تُغمَر بالمياه مدة طويلة، وكان الفلاحون في غاية المسكنة ولم يمكنهم أنْ يشتروا شيئًا من الدواب، بل كانت نساؤهم تحمل كلَّ الأحمال، حتى إنَّ من احتاج دابة كان يتزوج بامرأة، وكانت البلاد بدون طرق والأنهار بدون قناطر، وكان هناك طريق وعرة في لحف جبل يشرف على البحر، فعزم على فتح طريق أخرى فازدرى به أصحاب الأملاك، ولم يصدقوا أنه يفعل ذلك لكنه جمع نحو ألف ومائتي رجل، واقتادهم إلى هذا العمل العظيم بنفسه، وقبل أنْ يخيم الليل

فتح طريقًا طوله ستة أميال تسير فيه المركبات بسهولة، مع أنه كان يتعسر سلوكه على المعزى، فانذهلوا منه وانقادوا إلى رأيه، ثم جعل يفتح الطرق ويقيم المطاحن، ويبني القناطر على الأنهر، ويحسن حال الزراعة بزرع الأرض أنواعًا عديدة بالتعاقب، وإعطاء الجوائز تشجيعًا للمجتهدين، فأحيا الهيئة الاجتماعية في كلِّ البلاد المجاورة له، حتى صارت تلك البلاد جنة يُضرَب بها المثل في الخصب وحسن الطرق، ولما كان حدثًا كان البريد يحمل إلى ثرسو مرة واحدة كلّ أسبوع، فعزم على جعله يحمل كلّ يوم، وفي أول الأمر لم يصدق أحد بإمكان ذلك، حتى صار قولهم: «متى رأى السر جون البريد في ثرسو يوميًّا». مثلًا يضربونه للمستحيل أو البعيد الوقوع، ولكنه لم يمت حتى رأى البريد في ثرسو يوميًّا.

ثم اتسع نطاق أعماله المفيدة؛ لأنه لما رأى أنَّ الصوف الإنكليزي الذي هو فرع معتبر من تجارة البلاد قد انحطَّ كثيرًا، عزم أنْ يصلحه، ولم يمضِ عليه إلّا مدَّة قصيرة حتى أنشأ مجمع الصوف البريطاني، وجلب ثماني مائة رأس غنم على نفقته من البلدان البعيدة، وكانت النتيجة إدخال الجنس الشفيوتي إلى اسكتلندا، وأول ما جاهر بهذا الأمر استهزأ به مربو المواشي، زاعمين أنه لا يمكن لمواشي البلدان الجنوبية أنْ تنمو في الشمال، ولكنه لم يبالِ بهم، بل أصرَّ على إتمام ما قصده، ولم يمضِ إلّا سنون قليلة حتى صار في البلاد ما ينيف على ثلاث مائة ألف رأس من الغنم الشفيوتية، فارتفعت أسعار الأراضي الصالحة للمراعي ارتفاعًا كبيرًا.

ثم انتُخب عضوًا في البرلمنت لمقاطعة كثنس، وبقي في هذا المنصب ثلاثين سنة، فصارت لهُ فرص كثيرة لإظهار فوائده، فإنه لما رأى مستر بت الوزير مواظبته واجتهاده في كلّ أمر مفيد

للجمهور، دعاه وعرض عليه مساعدته في كلِّ ما يريد، فأجابه على الفور: إنني أطلب مساعدتك في إنشاء مجلس وطني للزراعة. ويروى أنَّ آرثر ينغ تراهن مع السر يوحنا على أنَّ هذا الأمر لا يتم أبدًا، وهذا كلامه حرفيًّا: «إنَّ مجلس الزراعة الذي تحلم به سيكون في القمر». ولكن السر يوحنا أخذ في هذا الأمر بهمته المعتادة، فحرَّك ميل الجمهور وأكثر أعضاء البرلمنت، ولم ينفك عن عزمه حتى أنشأ هذا المجلس وانتُخب رئيسًا له، ونتائج هذا المجلس وفوائده أوضح من أنْ تُبيَّن وأكثر من أنْ تعدَّد. ولما سمع أنَّ فرنسا عازمة على الحملة على إنكلترا، عرض على مستر بت تجهيز كتيبة من الجند على نفقته، ثم مضى إلى الشمال وجرَّد نحو ألف من المتطوعة واستلم قيادتهم، وكان حينئذٍ مديرًا لبنك اسكتلندا، ورئيسًا لمجمع الصوف البريطاني، وحاكمًا لوِك، ومديرًا لمجمع صيد السمك البريطاني، وعضوًا في مجلس القوائم الدولية وفي البرلمنت لمقاطعة كثنس، ورئيسًا لمجلس الزراعة، وفيما كان يشتغل في هذه الأشغال الكثيرة التي لا يقوم بها رجلان ولا ثلاثة، وجد وقتًا لتأليف كتب تكفي وحدها لتخليد اسمه. قال مستر رش سفير أميركا في لندن إنه سأل مستر كوك: ما أفضل كتاب في الزراعة؟ فأجابه: كتاب السر يوحنا سنكلر، ثم سأل مستر فنسترت: ما أفضل كتاب في مالية الدولة الإنكليزية؟ فهداه إلى كتاب للسر يوحنا في هذا الموضوع، ولكن الكتاب الذي خلَّد ذكره أكثر من غيره هو كتابه في حالة اسكتلندا السياسيَّة والماليَّة في واحد وعشرين مجلدًا، وهو من أفضل ما سمحت به قريحة إنسان في كلّ أين وآن، وقد قضى في تأليفه ثماني سنوات قرأ في غضونها أكثر من عشرين ألف مكتوب في موضوع هذا الكتاب، ولم يكن له منه فائدة شخصية سوى شرف الاسم؛ لأنه وهب دخله لتهذيب

أولاد القسوس الاسكتلنديين، ولقد نتج من طبع هذا الكتاب نتائج كثيرة حميدة، منها إلغاء بعض الامتيازات المضرة بصالح الجمهور، ورفع أجرة القسوس والمعلمين، وترقية شأن الزراعة، ثم قصد أنْ يباشر عملًا أعظم من هذا، وهو جمع كتاب شبه الأول في أحوال إنكلترا السياسيَّة والماليَّة، فلم يوافقه رئيس أساقفة كنتربري؛ مخافة أنْ يتعرَّض لأعشار القسوس.

ومن الأمور الكثيرة التي تظهر علوَّ همته، ومضاء عزيمته الحادثة الآتية، وهي أنه في سنة 1793 توقف دولاب الأعمال بواسطة الحرب، فأفلس كثير من تجار منشستر وكلاسكو، وأضحت بيوت كثيرة عظيمة على حافة الإفلاس لا لقلة مقتنياتها، بل لانغلاق باب التجارة والأمانة (كرديتو)، فارتأى السر يوحنا في البرلمنت أنْ تصدر الدولة أوراقًا دولية بقيمة خمسة ملايين جنيه، وتدبِّنها للتجار الذين يقدرون أنْ يقدموا ضمانة، فقُبِل هذا الرأي وفوِّض إليه مع بعض الأعضاء الذين انتخبهم بنفسه إتمام هذا العمل، وكان الوقت حينئذٍ ليلًا، وبما أنه خافَ من تأجيل الأمر، قام صباحًا ومضى إلى الصيارفة واستقرض منهم بكفالتهِ سبعين ألف جنيه وأرسلها في ذلك اليوم إلى التجار، ثم التقى بهِ مستر بت في المجلس وأخذ يتأوه؛ لأنه لا يمكن أنْ تفرج منشستر وكلاسكو في وقت قصير كما كان يظن، زاعمًا أنه يلزم عدة أيام لجمع الدراهم اللازمة، فأجابه السر يوحنا أنَّ الدراهم قد مضت من يومين، ثم قصَّ عليه واقعة الحال فانذهل بت كلَّ الانذهال، وما زال هذا الفاضل آخذًا في أعماله باجتهاد وسرور إلى آخر حياته، فصار مثالًا حسنًا لعائلته ولأهل بلاده، بل شامة في وجنة بريطانيا، وقد أحرز الخير لنفسه وهو يطلب خير غيره لا في الثروة، بل بما ناله من السرور والراحة

الداخلية، والسلام الذي يفوق كلَّ عقل، وتمَّم واجباته لوطنه، ولم ينسَ واجباته لأهل بيته، وبنوه وبناته ارتقوا في درجات المجد، وأعظم ما كان يفتخر به عندما ناهز الثمانين أنه ربَّى سبعة بنين، وما منهم من استدان مالًا لا يقدر على إيفائه، أو أحزن أباه بعمل شيء وكان تجنبه ممكنًا له.

الفصل الثالث عشر

في الأدب واللطف[1]

قال الشاعر تنسن ما معناه:

ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها سوى الفاضل الندب الأديب المجرب
تراه بماء اللطف طهر ثوبه وزين حوباه بخلق مهذَّب

وقالت جريدة التيمس: إنَّ ما يرفع البلاد ويقويها ويعظمها ويمد سطوتها المادية والأدبية، ويجعلها معتبرة مطاعة، ويخضع تحتها أممًا وممالك، هو الأدب، آلة الطاعة، وأساس العظمة، وتاج الرئاسة، وعرش السلطنة، وصولجان القوة

(1) الأدب لغة ملكة تعصم من كانت فيه عما يشينه وقد ترجمنا بها كلمة Character واللطف معاملة الناس بالرفق واللطيف الذي يعامل الناس بالرفق وقد ترجمنا به كلمة Gentleman.

الأدب تاج الحياة ومجدها، وأفضل ما يملكه الإنسان، وهو الشرف بالذات والمال بالاعتبار. هو الذي يرقّي الأمة، ويرفع شأن جميع المناصب، ويغني أكثر من الثروة، ويشرّف أكثر من الشهرة، وليس هو تحت الخطر مثل الأولى ولا عرضة للحسد مثل الثانية، وهو نتيجة الصدق والاستقامة والثبات، الصفات التي يعتبرها الجميع أكثر من أي صفة كانت. الأدب مظهَر الطبيعة الإنسانية في أفضل معانيها، وأحسن مبانيها وأهله روح الهيئة الاجتماعية ومصدر قوة الدولة الحسنة السياسية؛ لأن الصفات الأدبية هي الحاكمة على الكون، قال نبوليون: إنَّ نسبة فائدة القوى الأدبية في الحرب إلى القوى الجسدية كنسبة عشرة إلى واحد. وقوة الأمم واجتهادهم وتمدنهم تتوقف على أدب أفرادهم، وما الشرائع والأحكام سوى ظواهر الأدب، وميزان الطبيعة العادل لا يُنيل الأفراد والأمم والشعوب إلا ما يستحقونه، فذو الآداب الرائعة يُجَازَى بالحسنى والضد بالضد، وتلك نتيجة ضرورية لا مفر منها، الأدب صفة تعصم من قامت به عما يشينه، فإن كان الإنسان قليل العلم والثروة ولكنه

أديب كان له نفوذٌ في كلّ مكان في المعمل وفي المخزن وفي المكتب وفي الديوان. كتب كَنِن سنة 1820 يقول: سبيلي إلى القوَّة إنما هو في الأدب، ولست بسالك سبيلًا آخر، وهو ليس السبيل الأقرب ولكنه الجادة المثلى.

إننا نفتخر بذوي العقول الحاذقة، ولكنَّا لا نتكل عليهم ما لم نرَهم أدباء، ولقد أصاب اللورد يوحنا رسل؛ إذ قال: إنَّ من طبيعة الأحزاب في لندن أنْ يستعينوا بذوي العقول الحاذقة، ويتبعوا إرشاد ذوي الآداب الحسنة. وقد ظهر الأدب ظهورًا جليًّا في حياة فرنسيس هُرْنَر الذي قال فيه سدني سمث: إنَّ الوصايا العشر كانت مطبوعة على جبينه. وتُوفِّي هُرْنَر هذا في الثامنة والثلاثين من عمره، ولكن كان محبوبًا ومؤتمنًا من الجميع، وما من أحد إلا وقد تأسَّف عليه ما عدا الأنذال، ولم يُقِم البرلمنت إكرامًا لعضوٍ وقتَ وفاتِه كما أقام لهذا الرجل، وما هو سبب ذلك؟ أشرفه؟ كلَّا؛ لأن أباه كان تاجرًا متوسط الحال، أغناه؟ كلَّا؛ لأنه لم يُعْرَف عنه ولا عن واحد من أقاربه أنه فاض معهم درهم واحد، أمنصبه؟ كلَّا؛ لأنه لم يكن له إلا منصب واحد، أقام فيه مدة قصيرة، وكانت أجرته طفيفة، أذكاؤه؟ كلَّا؛ لأنه لم يكن ذكيًّا بل حذورًا بطيئًا ولم يطمع إلا بالاستقامة، أفصاحته؟ كلَّا؛ لأنه كان يتكلم بهدوء وسكينة، ولم يكن في كلامه شيء من الفصاحة التي تُذهِل السامعين، أسحر معانيه؟ كلَّا؛ لأنه كان كغيره من الناس، فبماذا إذن؟ باجتهاده وحسن مبادئه وصفاء قلبه، الصفات التي يقدر على كسبها كلُّ إنسان سليم العقل، فلم يرتق إلا بحسن آدابه، ولم تكن آدابه وضعيَّة فيه بل مكتسبة، وهو الذي أكسبها لنفسه، وكان في مجلس العامّة أناس كثيرون أسمى منه عقلًا وأكثر فصاحة، ولكن ما من أحد منهم فاقه في الجمع

بين مقدار كافٍ من جودة العقل والفصاحة مع الآداب السامية، وقد وُلِد هذا الرجل لكي يظهر مقدار ما تفعله القوى المعتدلة المُعزَّزة بالتهذيب والاستقامة، وفرنكلين الأميركي نسب نجاحه إلى حسن آدابه لا إلى قوى عقله، ولا إلى فصاحة لسانه، وقال عن نفسه: إنني ركيك العبارة متردد في اختيار الكلمات كثير الغلط اللغوي لكنني أقنع غيري غالبًا بما أريد.

الأدب يؤهل صاحبهُ لأن يكون محل ثقة مهما كان مقامهُ رفيعًا أو وضيعًا، فإنه يقال عن إسكندر الأول إمبراطور روسيا: إنَّ آدابه كانت بمثابة دستور البلاد، وفي أيام حروب الفرُنْد لم يبق أحد من أشراف فرنسا فاتحًا أبوابه إلا منتاني، ويقال إنَّ آدابه الشخصية كانت أفضل لحمايته من كتيبة من الفرسان.

الأدب قوة ويصدق عليه هذا الوصف أكثر مما يصدق على المعرفة. والعقل بلا قلب والفهم بلا سلوك والاجتهاد بلا صلاح جميعها قوات، ولكن كثيرًا ما تكون قوات للشر، وقد نستفيد من هذه القوات، ولكنَّ مَن يمدحها إذا كانت كذلك كمن يمدح اللص على مهارته.

والصدق والاستقامة والصلاح هي جوهر الأدب، ومن اجتمعت فيه هذه المناقب واجتمعت معها قوة العزم، كان ذا قوة لا تُقاوَم وقَوِي فيه فعل الخير ومقاومة الشر واحتمال البلايا المختلفة والمصاعب المتنوعة بالصبر الجميل. يُروَى أنه لما وقع إستفانوس الكولوني في يد خصومه سألوه على سبيل التهكم: أين حصنك المنيع؟ فوضع يده على قلبه، وقال: «هنا». وأفضل فرصة لظهور الآداب أزمنة الضيق والشدائد، فإنها تظهر حينئذٍ بكلِّ بهائها،

وتثبِّت الإنسان على كماله واستقامته حينما يخذله كلُّ صاحب، وتفرغ يدُه من كلِّ حيلة، «وفي الخطوب تظهر الجواهر».

ومما يستحق أنْ يُنقَش على قلب كلِّ شاب قواعد السلوك التي جرى بموجبها اللورد أرسكن المشهور باستقامة السيرة وعلو الهمة. قال هذا الفاضل: إنني اجتهدت منذ نعومة أظفاري في فعل كلِّ ما حثَّني على فعله ضميري تاركًا النتيجة إلى الله تعالى، ولقد جريت بموجب هذا القانون إلى هذه الدقيقة من حياتي ولست بنادم، ولم يلحقني منه أدنى ضرر، بل وجدته طريقًا للنجاح والغنى، وسأدرِّب أولادي فيه أيضًا.

وعلى كلِّ إنسان أنْ يضع نصب عينيه اكتساب أفضل الآداب حاسبًا ذلك أفضل غايات حياته، ومن اجتهد في نوال هذه الغاية بالوسائط الحميدة تمكَّن من نوالها، والأفضل أنْ نطلب الغايات السامية وإن لم نحصل عليها كلها. قال مستر دزرائيلي: إنَّ الشاب الذي لا يلتفت إلى أعلى يلتفت إلى أسفل، والنفس التي لا تطلب العُلى تميل إلى الدنايا، وقال الشاعر جُرْج هنبرت: إنْ شئت أنْ تُدعَى واطئ الجانب عزيز النفس فكن وضيعًا في السلوك وكن رفيعًا في المقاصد تكن وضيعًا رفيعًا؛ لأن من يسدد سهمه إلى العُلى يرمي فوق من يسدده إلى شجرة، وقال أبو الطيب:

إذا غامرتَ في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

وقال المثل الأسكتسي: تمسك بحلة موشَّاة بالذهب تنل ردنًا منها. ومن قصد غاية سامية وطلبها باجتهاد فلا بدَّ من أنْ يرتقي من الحالة التي كان فيها ويقترب نحو تلك الغاية، وإن لم ينلها تمامًا فلا بدَّ من أن يستفيد من اجتهاده في طلبها فائدة دائمة.

كثير من الآداب ليس إلا صورة الآداب الصحيحة، ولكن لا يمكن أنْ يشتبه فيه؛ لأن أصل الآداب الصحيحة الاستقامة في القول والعمل وفرعها التزام بالحق والنزع عن الباطل. وأفضل شهادة تقدمت في حق إنسان الشهادة التي شهد بها ديوك ولنتون في السر روبرت بيل في مجلس الأسياد بُعَيد وفاته، قال: لا بدَّ من أنكم تشعرون، أيها السادة، بسموِّ آداب المرحوم السر روبرت بيل، الذي اشتركتُ معه مدة طويلة في مصالح الجمهور، وكان كلانا في دواوين ملكنا، وقد تمتعت مدة طويلة بصداقته، ولا أعرف إنسانًا أقدر أنْ أثق باستقامته أكثر من هذا الفاضل، كما أني لا أعرف إنسانًا يحب رفع شأن الأمة مثله، ففي كلّ مدة معاملتي معه لا أعرف حادثة واحدة لم يرِ فيها تمسكه التام بالحق، ولم أرَ أيضًا أنه حكم بشيء لم يعتقده من كلِّ قلبه. والصدق في العمل كالصدق في القول وهو ضروري للآداب، ويجب أنْ يكون باطن الإنسان كظاهره، قيل: كتب أحد الأميركيين إلى كرانفيل شَرْب يقول: بناءً على اعتباري الكلي لمناقبك الحميدة سميت ولدًا من أولادي باسم عائلتك. فأجابه شَرْب يقول: «أطلب إليك أنْ تعلِّم ابنك قاعدة تجري بموجبها العائلة التي سميته باسمها، وهي: «اجتهد لكي تكون كما تريد أنْ تظهر». فقد أخبرني أبي أنَّ أباه جرى بموجب هذه القاعدة، فكان أساس أخلاقه الإخلاص والبساطة والاستقامة». وكل من يعتبر نفسه ويعتبر غيره يجري بموجب هذا القانون واضعًا شرف نفسه نصب عينيه غير مفتخر بشيء إلا باستقامته ومروءته؛ لأن من خالف عملَه قولُه خسر اعتبار الناس له وأُلغِي كلامه ولو كان حقًّا محضًا، ولله در القائل:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ومن طابت سيرته وحسنت سريرته لم يحد عن سبيل الاستقامة لا سرًّا ولا علنًا. قيل: سُئل ولد لِمَ لَمْ تأخذ شيئًا من تلك الكمثرى، ولم يكن هناك أحد ليراك؟ فقال: بلى كان. فقيل له: ومَن؟ قال: كنت أنا هناك، وأكره أنْ أراني أرتكب القبيح. هنا ما يُدعَى ضميرًا أو ذمة، وهو يحكم على آداب الإنسان في الحض على المعروف والنهي عن المنكر، وبه تتدرب الأخلاق يومًا فيومًا، وإذا خلا الإنسان منه لم يكن لأخلاقه من مدرب ولا حافظ، بل استولى عليها الضعف، وكانت تحت خطر الخضوع للتجارب، وإذا خضعت لها مرة واحدة صارت عرضة للخضوع لها دائمًا، وآل الأمر إلى انحطاط شأن صاحبها. ولا فرق أُشُهِر أمره أم لم يشهر؛ لأنه لا بدَّ من أنْ يشعر بنفسه بالذل واضطراب البال من تلقاء ما ندعوه بالضمير الذي هو أشد معذب للمذنبين.

والآداب متوقفة كثيرًا على العوائد حتى قيل إنَّ الإنسان حزمة من العادات. والعادة طبيعة ثانية. قال ميتستاسيو: كلّ ما في الإنسان ناتج من العادة حتى الفضيلة نفسها. وقال بطلر: كما أنَّ عوائد الجسد تُكْتَسب بالأعمال الخارجية، كذلك عوائد العقل تُكْتَسب بالمقاصد الداخلية كالطاعة والصدق والعدل والمحبة أي بإخراجها إلى حيز الفعل. وقال اللورد برُوَم: كلّ شيء موكول إلى العادة بعد الله تعالى، العادة تسهل كلّ أمر عسير، وتدك الصعوبات ولو كانت جبالًا، فمن تعوَّد الصحو كره السكر، ومن تعود الحكمة والرصانة كره الجهل والطيش، فعلى كلّ أحد أنْ يسهر كلّ السهر؛ لكيلا يدع عادة رديئة تغلب عليه لأنه إنْ انغلب مرة واحدة صار عرضة للانغلاب دائمًا، ومن اعتاد أمرًا صار فيه ملكة، وصار يفعله بدون روية وعن غير قصد، ولم يعرف قوة العادة التي فيه

حتى يضادها، وما فُعل مرة وثُنِّي صار فعله سهلًا والانقطاع عنه صعبًا، والعادة في أولها ضعيفة أوهن من خيط العنكبوت، ولكن متى تملكت في الإنسان قيدته بسلاسل من حديد. وإكرام النفس والتعويل عليها والانصباب والاجتهاد والاستقامة جميعها عادات، وما يدعوه البعض مبادئ ليس إلا عوائد، وكلما تقدم الإنسان في السن تملكته العوائد، ونزعت قسمًا كبيرًا من حريته بل قيدته بسلاسل صنعها لنفسه. فمهما أطنبنا في وجوب تربية الأولاد على العوائد الحسنة لا نَفِي الموضوع حقه؛ لأن الصبوة أفضل سن لتربية العوائد، والعوائد الراسخة في الصغر كالحروف المنقوشة على جذع شجرة صغيرة تكبر وتتسع بنموها. قال الحكيم: ربِّ الولد في طريقه، فمتى شاخ لا يحيد عنها، ومن البداية تُعرَف النهاية. وقال اللورد كُلِنُود لشاب: لا تنس أنك قبل أنْ تبلغ الخامسة والعشرين يجب أنْ تربي فيك آدابًا تعتمد عليها كلَّ حياتك. وبما أن العوائد تتمكن بالتقدم في السن فتركها يتصعب شيئًا فشيئًا، والهدم أعسر من البناء غالبًا. يُروَى أنَّ مغنيًا يونانيًّا كان إذا أتاه تلميذ متعلم شيئًا من الغناء على أستاذ غير بارع طلب منه أجرة مضاعفة. ونزْع العوائد المتمكنة أصعب من نزع الأسنة، فمن اعتاد السكر مثلًا أو الكسل أو الإسراف لا يُرجَى إصلاحه؛ لأن العادة تكون قد تمكَّنت منه، وامتزجت فيه كلّ الامتزاج حتى لا يُرجَى استئصالها. لذلك قال مستر لنتش: إنَّ أفضل العوائد عادة التطبع على العوائد الحسنة، والسرور نفسه قد يصير عادة؛ لأن لكل أمر طرفين سارًّا ومكدرًا، ومن الناس من يعتاد النظر إلى هذا، ومنهم النظر إلى ذاك، قال الدكتور جنصن: إنَّ من اعتاد النظر إلى الطرف السار كان ذلك خيرًا له من كسب ألف جنيه سنويًا.

ما من شيء ألزم من التطبع على الآداب أي الأخلاق الفاضلة، فإنه ألزم من تحصيل العلوم والفنون، ومهما كانت أفعال الإنسان طفيفة فلا بدَّ من أنها تُظهر آدابه كما أنَّ الثقوب الصغيرة تكفي لإظهار شروق الشمس، وما الآداب سوى الأعمال المستقيمة، ولو كانت طفيفة في حدِّ ذاتها، وأفضل طريق لإظهار كونها محمودة أو مذمومة هو السلوك؛ لأن مَن أحسن سلوكه مع المساوين له والأعلى والأدنى تمتع بسرور دائم وسُرَّ غيره معه، قال الشاعر العربي:

فما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف فضله ... وأتبع فيه الحقَّ والحقُّ لازم
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن ... إجابته نفسي وإن لامَ لائِم
وأما الذي مثلي فإن زلَّ أو هفا ... فضلتُ إن الحلم بالفضل حاكم

وكل إنسان قادر على تحسين سلوكه وإظهار اللطف ورِقَّة الجانب وإن لم يملك فلسًا، واللطف في المعاشرة فاعل خفي كالنور، وهو واسطة لإظهار بهجة الطبيعة وأسرار الإبصار مثله، وهو من أقوى المؤثرات، فلا يقوى شيء على مقاومته، وكم من قلب منكسر قد انتعش بنظرة واحدة من وجه بشوش.

الآداب أهم من الشرائع؛ لأن الشرائع لا تتبعنا دائمًا، وأمَّا الآداب أي الأخلاق الحميدة فمعنا كلَّ حين، والأخلاق الحميدة هي السلوك الحسن؛ لأن السلوك لغة تطهير العبد نفسه عن الأخلاق الذميمة مثل حب الدنيا والجاه إلى غير ذلك، واتصافه بالأخلاق الحميدة مثل العلم والحلم واللطف والكرم وما أشبه. قالت السيدة منتاكي: إنَّ رقة الجانب لا تكلِّف شيئًا وتُرْبِح كلَّ شيء، وقال برلي للملكة إليزابث: «امتلكي قلوب رعاياك فتمتلكيهم هم وأكياسهم».

ولكن يُشترَط أن لا يكون في ذلك شيء من التصنع وإلا فسد كله. ومن الناس من يفتخر بشكاسة أخلاقه، ولكن الشكس الأخلاق لا يُطاق، ولو كان من ذوي العلم والفضل؛ لأن الإنسان لا يحب من لا يعتبره ولا من يتكلم كلامًا لا يسره، ومنهم من يتنازل كلّ التنازل، ولكن يكون متصنعًا في تنازله، ولذلك لا يدع فرصة تُظْهِر عظمته إلا ويغتنمها، من ذلك ما يُروَى عن أبرنثي الجراح أنه كان مرة يكتب أسماء الذين يرغبون في أن يكونوا أطباء لمستشفى مار برثلماوس، فأتى رجلًا غنيًّا لكي يكتب اسمه، وحالما وصل إلى حانوته لاقاه ذلك الغني بعجب وافتخار، وقال له: أظنك آتيًا لتكتب اسمي لكي يمكنك أن ترتقي إلى هذا المنصب السامي. وكان أبرنثي يكره التمليق والتمنين، فقال له: «كلَّا، بل مرادي أنْ أبتاع كذا وكذا، هلمَّ أعطني مطلوبي، ودعني أذهب في سبيلي».

والتأدب في السلوك ضروري جدًّا للذين عملهم المعاطاة مع غيرهم على أنه إذا بُولغ فيه صار تصنُّعًا قبيحًا. والبشاشة والاقتراب من الناس ضروريان للنجاح أيضًا، ومن كان فاقدًا هاتين الصفتين لا يُؤمل نجاحه كثيرًا ولو كان مجتهدًا أمينًا؛ لأن أكثر الناس يحكمون على الظواهر أكثر مما يحكمون على البواطن، ومن أوجه اللطف اعتبار آراء الغير وعدم التنديد بها، فإنه ما من خلة أقبح من التصلُّف والاستبداد بالرأي، والادعاء والتنديد بعيوب الناس، ولولا هذه الصفات ما وقع شيء من الجدال والخصام، وطعْن اللسان أشد من وخز السنان، وما أجهل من استعمل لسانه آلة للطعن والتنديد:

فإن لسان المرء ما لم تكن له حصاة على عوراته لدليل

والأدب لا ينحصر بفئة من البشر، بل يمكن أنْ يتصف به العامل الفقير والأمير الخطير، قيل إنَّ روبرت برنس التقى بفلاح أديب فسلم عليه، وكان برفقة برنس شريف اسكتلندي، فلامه على ذلك، فالتفت إليه برنس، وقال: إني لم أعتبر اللباس بل الرجل الذي فيه، فإن هذا الرجل أثمن مني ومنك ومن عشرة مثلنا، ولله در القائل:

وإن كان في لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمده والخمائل

كان وليم وتشارلس غرنت ابني فلاح، فطغى الماء على أملاكهما، وجرف كلّ شيء حتى تراب الأرض التي كانا يعيشان منها، فقاما مع أبيهما، واتجهوا نحو الجنوب في طلب الرزق، وما زالوا في سيرهم حتى وصلوا إلى تلةٍ بالقرب من بري في لنكشير، تشرف على ما حولها من البلاد الفسيحة، ولم يكونوا يعرفون إلى أي جهة يتجهون؛ لأنهم كانوا يجهلون تلك الأرض فأطبق رأيهم على أن يوقفوا عصًا ويتركوها لتسقط من نفسها، فيأخذوا الجهة التي تسقط فيها ففعلوا وأخذوا الجهة التي دلتهم عليها العصا، فوصلوا إلى قرية رمسبوثام ووجدوا عملًا في دار طباعة المنسوجات، واشتُهر ذانك الأخوان بالاجتهاد والنزاهة والاستقامة وسارا خطوة بعد أخرى في سلم النجاح إلى أن صار لهما معامل كبيرة، واستأجرا عَمَلَةً كثيرين يعملون تحت يدهما، وبعد سنين عديدة صارا باجتهادهما وتدبيرهما وشهامتهما غنيين مكرمين من كلِّ مَن يعرفهما، وصار لهما معامل لنسج القطن وطبعهِ، فيها عدد وافر من العمال حتى أصبحت النواحي التي نزلا فيها دارًا للعمل، وازدادت ثروة السكان، وتحسنت صحتهم، ولم تكن ثروتهما سببًا لتربية البخل فيهما كما يحدث مرارًا كثيرة؛ لأنهما ازدادا سخاءً وكرمًا فأقاما كنائس،

وأسسا مدارس، وعملا أعمالًا كثيرة خيرية؛ لرفع شأن العمال لأنهما لم ينسيا أصلهما، ثم أقاما برجًا شاهقًا على رأس التلة التي تشرف على ولمرسلي؛ حيث أوقفا العصا تذكارًا لتلك الحادثة، وما زالا يزدادان شهرة وكرمًا حتى صار المثل يضرب بهما. ويُروَى أنَّ تاجرًا منشستريًّا كتب رسالة طعن فيهما فأُخبر أحدهما (وليم) بذلك، فقال: إنَّ الرجل سيندم على ما فعل، فأُخبر الكاتب بما قاله وليم، فقال لعله يظن أنني سأستدين منه، ولكنني ما كنت لأفعل ذلك، ثم دار دولاب الدهر، وأفلس ذلك الرجل وساءت حاله، ولما أراد أنْ يشرع في العمل ثانية اضطرَّ إلى كنكرداتو فيه ختم بيت غرنت، فظهر له أنْ ذلك ضرب من المحال، ولكن ضيق الحال ألجأه إلى ذلك؛ فمضى إلى محل وليم غرنت الذي هجاه بتلك الرسالة، وعرض له واقعة الحال وأعطاه ورقة الشهادة؛ لكي يضع ختمه عليها فأخذها وليم وقال له: إنك كتبت مرة رسالة في هجائنا ثم ختم الشهادة وقال: إن من قوانينا أن لا نأبى وضع ختمنا على شهادة لتاجر أمين ولا نعرفك إلّا أمينًا، فعندها اغرورقت عينا الرجل بالدموع، فقال مستر غرنت: ألا ترى أن قولي إنك ستندم على ما فعلت كان صحيحًا، ولم أقل ذلك على سبيل التهديد بل عنيت أنك ستعرفنا يومًا ما كما نحن، وحينئذ تندم على قصدك الإضرار بنا؟ فقال: نعم نعم، قد ندمت، فقال غرنت: إن ذلك لأنك عرفتنا، ولكن كيف أنت الآن؟ فقال: إنَّ لي أصدقاء وعدوني بالمساعدة عندما أحصل على الشهادة، فقال غرنت: وكيف أهلك في الوقت الحاضر؟ فقال: إني بعد أنْ أعطيت جميع أموالي لأصحاب الديون التزمت أنْ أحرم أهل بيتي بعض الأمور الضرورية؛ لكي أنال هذه الشهادة، فقال غرنت: يا صاح، لم تصب لأنه لا يجب أن يتضايق امرأتك وأولادك بسببك، فألتمس إليك أنْ تأخذ

هـذه العشـر الليـرات منـي إلـى امرأتـك هديـة فكفكـف عبراتـك، واتَّكل علـى الله فسـتفلح. فاجتهـد ذلـك المسـكين؛ لكـي يظهـر شـكره، ولكـن انقطـع صوتـه وخنقتـه العبـرات، فغطـى وجهـه بيديـه، وخـرج وهـو يبكـي كالطفـل الصغيـر.

والإنسـان الحقيقـي منطبـع علـى المحامـد والآداب الحقيقيـة، أو كمـا وصفـه صاحـب الزبـور بأنـه يمشـي بالاسـتقامة ويفعـل البـر ويتكلـم الحـق فـي قلبـه ويكـرم نفسـه ويكـرم الآخريـن أيضًـا، ويكـون وضيعًـا رءوفًـا حليمًـا. يُحكـى عـن اللـورد إدورد فتزجرلـد أنـه بينمـا كان مسـافرًا فـي كنـدا مـع قـوم مـن هنـود أميـركا فـرأى امـرأة هنديـة حاملـة حمـلًا ثقيـلًا مـن الحطـب وزوجهـا مـاشٍ فارغًـا، فأخـذ الحمـل عنهـا، وحملـه علـى ظهـره، فهـذه هـي الإنسـانيةُ فـي أفضـل معانيهـا، والإنسـان الحقيقـي يقـول المنايـا ولا الدنايـا وخيـر مـن ركـوب الخنـا ركـوب الجنـازة، فـلا يخاتـل ولا يحـاول ولا يَـرُوغ ولا يـواري ولا يكابـر ولا يمـاري، ولكنـه يسـير دائمًـا بالإخـلاص والاسـتقامة إنْ قـال نعـم أو قـال لا كان قولـه حجـة بـل سـنَّة. الإنسـان الحقيقـي لا يُرشَـى ولا يبيـع نفسـه بالمـال كمـا يفعـل الجهلـة الأدنيـاء. يحكـى عـن دوق ولنتـون أنـه أتـاه يومًـا وزيـر بـلاد حيدرأبـاد بعـد واقعـة أسَّـاي؛ لكـي يسـتعلم منـه عـن المعاهـدة التـي جـرت بيـن أمـراء المهرتَّـا والنظـام، وقـدَّم لـه مبلغًـا مـن المـال يفـوق مائـة ألـف جنيـه، فالتفـت إليـه الـدوق ولنتـون وقـال: أظنـك تكتـم السـر؟ فقـال: نعـم، فقـال: «وأنـا كذلـك». وصرفـه ولـم يقبـل منـه بـارة ولـم يخبـره حرفًـا. هنـا الشـهامة وعـزة النفـس، ومـع أنّ ولنتـون حـارب حروبًـا كثيـرة فـي الهنـد، وظفـر فيهـا كلهـا، رجـع إلـى إنكلتـرا وليـس معـه شـيء مـن المـال، ومـن قبيـل ذلـك مـا يُحكَـى عـن نسـيبه مركيـز ولسـلي الـذي رفـض مائـة ألـف جنيـه قدمهـا

لـه مديـرو شـركة الهنـد الشـرقية عنـد غلبـة ميـزرو، وقـال لا يقتضـي أنْ أخبركـم عـن شـيمتي وشـهامتي وشـرف منصبـي الأمـور التـي تضطرنـي إلـى رفـض مـا تعرضونـه علـيَّ، وممـن فعـل كذلـك السـر تشـرلس نبيـر؛ لأنـه رفـض كلَّ الهدايـا التـي قدمتهـا لـه أمـراء السـند، وكانـت تنيـف علـى الثلاثيـن ألـف جنيـه.

ولا علاقـة للغنـى والشـرف بالإنسـانية؛ لأنهـا فـي الفقـراء كمـا فـي الأغنيـاء، أوَ لا يمكـن أن يكـون الفقيـر أمينًـا صادقـا مسـتقيمًا أنيسًـا نزهًـا شـجاعًا معتبـرًا لنفسـه ومعتمـدًا عليهـا؟ بلـى، وهـذه هـي الإنسـانية بعينهـا، ومـا الفقيـر فقيـر المـال ولا الغنـي مـن يملـك الألـوف؛ لأنـه قـد يكـون الإنسـان فقيـرًا ويملـك كلّ شـيء، وقـد يملـك كلّ شـيء وليـس لـه شـيء، والأول يرجـو كلَّ شـيء ولا يخـاف شـيئًا، والثانـي يخـاف كلّ شـيء ولا يرجـو شـيئًا، ومـن خسـر كلّ مالـه وبقيـت فيـه مروءتـه وأنسـه وفضلـه وأملـه وشـهامته لـم يـزل غنيًّـا ولسـان حالـه يقـول:

مـا الفخر بالمـال إن الفخر بالرجل مـالًا جمعنا مضـى والفخر لم يزل

وكم من رجل فاضل وثيابه أخلاق واسمه بين الناس مجهول.

حُكِـي أنـه طغـى نهـر عظيـم فـي إيطاليـا، فهـدم قنطرتـه مـا عـدا جزءًا منهـا، عليـه بيـت صغيـر يسـكنه رجـل وأولاده، وكان لا بـدَّ مـن أنْ ينهـدم هـذا الجـزء أيضًـا، فيهلـك ذلـك المسـكين مـع أولاده، فوقـف الكنـت سـبلفريني، وقـال: إننـي أعطـي مائـة دينـار لمـن يخاطـر بنفسـه، وينقـذ هـذه العائلـة التعيسـة، فتقـدم فـلاح مـن الجمهـور الحاضـر، وأنـزل قاربًـا إلـى النهـر، واقتحـم الخطـر العظيـم، وبعـد برهـة يسـيرة رجـع ومعـه العائلـة بأسـرها، فقـال الكنـت: هلـمَّ أيهـا الشـاب الشـجاع، وخـذ الدنانيـر، فقـال الشـاب: كلَّا، مـا كنـت لأبيـع حياتـي بالمـال،

أعـطِ مالَـك لهـذه العائلـة المسـكينة؛ لأنهـا فـي احتيـاج إليـه. هنـا المـروءة وعـزة النفـس هنـا الإنسـانية وإن تَـكُ تحـت ثـوب الفـلاح.

أثبـت مسـتر ترنبـل فـي كتابـه عـن النمسـا حادثـة عـن الإمبراطـور فرنسـيس، قـال فيهـا: إنـه لمـا فشـا الهـواء الأصفـر فـي فِينّـا كان الإمبراطـور يجـول فـي الأسـواق والشـوارع، وليـس معـه سـوى رجـل واحـد، فـرأى مـرة ميتًـا محمـولًا إلـى القبـر، ولـم يكـن معـه أحـد مـن النائحيـن، فسـأل عـن سـبب ذلـك، فوجـد أنَّ الميـت مـن الفقـراء وقـد مـات بالوبـاء، فخـاف أهلـه أن يرافقـوه إلـى القبـر، فقـال لنَسِـرْ وراءه عِوَضًـا عنهـم؛ لأننـي أكـره أن أرى واحـدًا مـن رعيتـي المحببـة يُدْفَـن بـدون أن تصـادف جثتـه العلامـة الأخيـرة مـن علامـات الإكـرام، فذهـب معـه إلـى المدفـن، وكان المدفـن بعيـدًا، ووقـف فـوق قبـره مكشـوف الـرأس إلـى أن تـمَّ تجنيـزه ودفنـه حسـب شـعائر كنيسـته.

ومـن دلائـل الإنسـانية أيضًـا الصـدق الـذي هـو أسـاس نجـاح البشـر. كتـب دوق ولنتـون إلـى كلرمـن عـن الأسـرى الإنكليـز المسـتأمنين، يقـول: إذا كان شـيء يفتخـر بـه القـواد الإنكليـز غيـر الشـجاعة يكـون الصـدق فثـق بكلامهـم؛ لأنهـم لا يكذبـون ولا يخلفـون الوعـد.

ومـن مقتضيـات الإنسـانية أيضًـا العفـو عنـد المقـدرة. قيـل إنَّ جنديًّـا فرنسـاويًّا اختـرط سـيفه فـي واقعـة البـودن فـي إسـبانيا وهـمَّ بضـرب السـر فلتـن هرفـي، ولكـن لمـا رآه أقطـع شـفِق عليـه وأحنـى لـه سـيفه حسـبما يفعـل الجنـد عنـد التسـليم وسـار فـي طريقـه، ومـن قبيـل ذلـك مـا حـدث لتشـرلس نبيـر فـي مـدة تلـك الحـرب، وهـو أنـه أُخـذ أسـيرًا فـي كرونـا بعـد أنْ جُـرح، وكان أصحابـه فـي إنكلتـرا لا يعلمـون أمـات أم بقـي حيًّـا، فأرسـلوا رسـولًا خاصًّـا فـي سـفينة حربيـة؛

ليبحث عنه، فوصل الرسول إلى البارون «كلوه» وكلموه في أمره، فأخبر القائد ناي بذلك، فقال له: دع الأسير ير الرسول وأخبرهُ أننا نعامله بالحسنى، فتأخر كلوه فقال ناي مالك فقال يقولون إن للأسير أمًا أرملة عمياء، فقال ناي إذا كان الأمر كذلك فليذهب بنفسه ويخبرها بسلامته. ولم تكن مبادلة الأسرى جارية في ذلك الوقت وكان ناي يخاف أن يغتاظ نبوليون حينما يسمع ذلك لكن نبوليون مدحهُ على شهامته، وفي هذه الأزمنة أمثلة كثيرة للمروءة وعزة النفس وكرم الأخلاق كما في الأزمنة الغابرة؛ تشهد بذلك نجود سبستوبول وسهول الهند فإن زحف نيل على كنبور وهفلوك على لكنو لإنقاذ النساء والأولاد من أعجب ما جاء التاريخ بذكره. وموت هنري لورنس البطل وقوله حال وفاته لا تهتموا بدفني بل ادفنوني مثل سائر الجنود. وماعاناهُ السر كولون كمبل وهو جالب النساء من لكنو إلى كنبور ومن ثمَّ إلى الله اباد- أمور تضيق الصحف بذكرها ويحق للأمة الإنكليزية أن تباهي بها أمم العالم. ولم يكن آحاد الجند أقل شهامة من قوادهم كما تشهد الوقائع التي حدثت في تلك البلاد ومعاملة الجرحى للنساء الممرّضات.

ومن ذلك أيضًا ما حدث في سنة 1852 على شواطئ أفريقية عند انكسار السفينة المدعوة بركنهد فإنهُ كان فيها 472 رجلًا و166 من النساء والأولاد وكان أكثر الرجال من الجنود الإنكليزية المقيمة في رأس الرجاء الصالح. وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل، إذ كان الجميع نيامًا، لطمت السفينة صخرًا مخفّى فانثغر جوفها وكان لابد من غرقها فنبّهت الجنود بصوت الطبول فاصطفوا على ظهر السفينة وأمروا بأن يخلصوا النساء والأولاد فأنزلوا القوارب وأنزلوا إليها النساء والأولاد وأكثرهم بثياب النوم ثم بعد أن سارت القوارب

قليلًا أمر مدير السفينة كل القادرين على السباحة أن يرموا بنفوسهم إلى البحر ويصعدوا إلى القوارب فاعترضهُ قائدهم رَيط قائلًا: إنْ فعلوا هلكوا هم والقوارب فوقف الرجال في مكانهم ولم يبدوا حركة ولم يتذمروا قط بل ثبتوا في أماكنهم إلى أن غرقت بهم السفينة وقبل أن يغرقوا أطلقوا سلاحهم طلق الفرح. هنا الشجاعة وكرم الأخلاق فإنهُ وإن مات أولئك الأبطال لا يزال ذكرهم خالدًا.

والأدلة كثيرة على الإنسان الحقيقي ولكن الدليل الأقوى كيفية استعمالهِ سلطتهُ على الذين دونه أو على المتعلقين به مثل معاملته للنساء والأولاد ومعاملة القائد لجنوده والرئيس لخدمه والمعلم لتلامذته والمتسلِط للمستلَّط عليهم. فالحلم والحنو ورقة الجانب في أحوال مثل هذه من الشروط اللازمة للإنسانية وأمّا من طغى وبغى على الذين دونهُ فهو نذل جبان ولله در من قال:

وأسعد العالم عند الله ... من ساعد الناس بفضل الجاه
ومن أغاث البائس الملهوفا ... أغاثهُ الله إذا أخيفا
وإن من شرائط العلو ... العطف في البؤس على العدو
قد قضت العقول أن الشفقة ... على الصديق والعدوِّ صدقة
وقد علمت واللبيب يعلمُ ... بالطبع لا يُرحم مَن لا يرحم
والبغي داء ما لهُ دواء ... ليس لملك معهُ بقاءُ
والبغي فاحذره وخيم المرتع ... والعُجْب فاتركه شديد المصرعِ

رُوِى أنهُ لما جرح السر رلف أبركرمبي في معركة أبي قير وحُمل إلى سفينة الفدرويان وضع حرام تحت رأسهِ لإراحتهِ فقال ما تحت رأسي؟ فقيل لهُ حرام، فقال: حرام من؟ فقيل له حرام واحد من الرجال، فقال: أخبروني باسمه، فقيل له: حرام دنكن روي من

رجال السر رلف، فقال لهم: أعطوهُ إياهُ هذه الليلة. فانظر كيف أن هذا الجنرال وهو على حافة القبر أشفق على واحد من رجاله أن ينام بلا غطاء ليلة واحدة.

وقد جمع فلر صفات الإنسان الكامل في كلامه عن السر فرنسيس دراك بقوله إنه كان عفيفًا عادلًا شفوقًا على الذين دونه مبغضًا للكسل لا يعتمد على غيرهِ ولا يجزع من خطر ولا يستعفي من عمل يستدعي بسالة ومهارة واجتهادًا. انتهى

هذا ومَن يطِّلع على كتب الأدب العربيّة والفارسية والهندية والصينية يجد فيها منار الآداب مرفوعًا وعلم مكارم الاخلاق منشورًا.

ويجد هنالك من الحكم والأمثال والنوادر ما تضيق به بطون الدفاتر ويُضعف حجة من قال كم ترك الأوَّل للآخر. وكأن لسان حال أدباء المشرق يقول لو أنني خُيرتُ كلَّ فضيلة ما اخترتُ إلاّ مكارمَ الاخلاق وكنَّا نودُّ أن نحلي جيد هذا الكتاب ببعض هذه الأقوال والنوادر لولا أنهُ قد بلغ الحدَّ الذي عيناهُ له عند إعادة طبعه فلم نر بدًّا من ختمه هنا والشروع في المعجم الذي وعدنا أن نضيفهُ إليه.

غير أنه لا يحسن بنا أن نختم هذا الفصل بدون أن نضيف إليه شيئًا من ترجمة إمام تحلى بالفضائل والفواضل وخلد لنفسه اسمًا بين الأكارم الأماثل ألا وهو الأستاذ المغفور له السيد محمد القصبي شيخ الجامع الأحمدي والد الإمام الغيور على نشر المعارف والآداب الأستاذ محمد القصبي خليفته في الجامع الأحمدي.

أما المترجَم به فهو ابن السيد حسن طلحة القصبي أحد مدرسي الأزهر الأنور ابن محمد طلحة بن مصطفى طلحة بن عيسى طلحة الشريف الحسيني أول من حضر مصر من طرابلس الغرب حيث توطن أجدادهُ من عصر السيد الشريف إدريس الأصغر الحسيني. ولد في قرية بمديرية الغربية اسمها نشا سنة 1230 للهجرة وكان أبوهُ قد انتقل إليها بدعوة من أهاليها ومن جاورهم لتعليم الشعائر الدينية وتلقين أصول الطرق الصوفية. ولما بلغ من العمر عشر سنوات أرسلهُ والدهُ إلى الجامع الأحمدي لتجويد القرآن وحفظ المتون فاستمرَّ على تلقي العلوم حتى سنة 1251 فأذن لهُ في التدريس من مشايخه الأعلام كالشيخ محمد الطوخي شيخ المشايخ بالجامع الأحمدي والشيخ محمد أبي النجا المجاهدي وغيرهما. وكان أبوهُ قد توفي فأرسل يطلب والدتهُ وإخوتهُ وأخواته فحضروا إليه إلى طنطا وفي ذلك يقول مخاطبًا الشريف العلوي السيد محمد البدوي:

كنتُ ابنَ تسعٍ وخمسٍ وقد فقدتُ أبي
وقد رجوتكَ لي مولى فكنت أبًا

وما انفكَّ يفيد ويستفيد ويزيد ويستزيد حتى أطلع من العلماء شموسًا وأهلَّة وأعلامًا أجلَّة، وشهد بفضله القريب والبعيد، وكان مشهورًا بحبه للعلماء والفضلاء، لا ينفك عن تعليم علم أو إقراء ضيف، أو فصل خصومة، أو إسداء معروف، أو إحسان إلى مسكين، وكان له ثروة عظيمة، ودخل وافر إلا أنه كان ينفقه كله في سبيل المبرَّات، فلا يدخل عليه عامٌ ولديه من دخل سابقه شيء، وقد بلغنا عنه نوادر كثيرة تُظْهِر فضله وكرمه، منها أنَّ رجلًا حُكم عليه بالنفي من القطر المصري، ولم يكن معه مال ليستعين به على

أمره، فقصده إلى طنطا، وشكا إليه حاجته، ولم يكن لدى الشيخ شيء من النقود حينئذ، فاستقرض مائتي دينار وأعطاه إياها، وقيل له حينئذ: إنَّ الرجل منفيٌّ من البلاد ولا أمل بإرجاعه للمال فقال: حاشا لنا أنْ نردَّ طالبًا، ثم عُفي عن الرجل قبل أن يخرج من ثغر الإسكندرية، فعاد إليه بالمال، فقال له الشيخ: إننا لم نعطك مالًا حتى نسترده، فخذه واستعن به على أمرك فأنت أحوج منا إليه.

وقد قيَّض لنا الله أن زرناه في أثناء زيارتنا للقطر المصري سنة 1880، فرأينا منه شيخًا جليل القدر، أنيس المحضر، يرفع أقدار الناس، ويجلُّ المشتغلين بخدمة العلم، فذكر المقتطف بالخير، وأثنى على المنهج الذي نهجناه فيه، فخرجنا من لدنه وقد ثبت لنا أن سيماء الفضلاء في وجوههم، وأن الناس لا يُجْمِعون على مدح إنسان ما لم يكن حقيقًا بكلِّ مدح.

وتولِّى مشيخة الجامع الأحمدي بالأمر العالي سنة 1282، وفي تلك السنة تمَّم بناء مسجده الجامع بطنطا أمام منزله، وأحكم تشييده، ووقف عليه الأوقاف الجمَّة، وسنة 1288 بنى مدفنه الذي دُفن فيه أمام منزله بجوار مسجده المذكور، ودام متقلبًا في حُلَل الكمالات حتى استأثرت به رحمة مولاه، وكانت وفاته في السابع والعشرين من ربيع الآخر سنة 1298 فدُفِن بما يليق به من التعظيم والتكريم، وكانت الحضرة الخديوية قد أصدرت أمرها الكريم إلى جميع مأموري الحكومة بمدينة طنطا أنْ يشيِّعوا جنازته بما يليق بها.

وله شعرٌ رقيق لم يعتنِ بجمعه، ومنهُ قولهُ:

ولي همةٌ يستوقف البرق خطوها وعند سكوني ربما يثبُ الطودُ

ومن شعره أيضًا القصيدة المشهورة التي مطلعها:

أفؤادي متى المتاب ألمَّا تصحُ والشيب نحو فودي ألمَّا

ومنها:

أفؤادي متاع دنياك فانٍ شأْنه نقصه إذا قيل تمَّا

وهي طويلة، وله مؤلف منظوم في علم الفرائض سمَّاه «نتيجة الفارض في علم الفرائض»، شرحه العلامة المرحوم الشيخ أحمد الشرقاوي، وحشاه، وشرحه أيضًا أحد تلامذته العلامة الكبير الشيخ أحمد الحلواني.

أما ولده الإمام محمَّد القصبي الذي تولَّى بعده مشيخة الجامع الأحمدي، فمن أعلام هذه البلاد الذين تُعقَد لهم الخناصر، ويُشار إليهم بالبنان. وقد ظهر هذا الكتاب في حلَّتهِ الشرقية الحاضرة بكرم هذا الشهم الفاضل، فإنه أعاننا على طبعه رغبة في تعميم فوائده، ونشر المبادئ الفاضلة التي ينطوي عليها، أثابه الله عنا، وعن جميع المستفيدين منه جزاء الخير وخير الجزاء، وختم عواقبنا بالخير، وله الحمد أولًا وآخرًا.

الفهرس

تمهيد	5
الفصل الأول - في الاعتماد على النفس	7
الفصل الثاني - في أرباب الصنائع	33
الفصل الثالث - في الخزافين الثلاثة العظام	59
الفصل الرابع - في المزاولة والثبات	81
الفصل الخامس - في الفُرص ومعدَّات النجاح	107
الفصل السادس - في المصورين والنقّاشين	139
الفصل السابع - في العمل وأعيان الأمة	177
الفصل الثامن - في النشاط والشجاعة	195
الفصل التاسع - في رجال الأعمال	231
الفصل العاشر - في استعمال المال	267
الفصل الحادي عشر - في تعليم الإنسان لنفسه	285
الفصل الثاني عشر - في القدوة	323
الفصل الثالث عشر - في الأدب واللطف	341

إصدارات سلسلة كتاب الدوحة

1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرّية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنيّة	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسيّة	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللّغة العربيّة	مجموعة مؤلفين
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنّان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلى العائلة	ترجمة: ياسر شعبان

43	إلياس أبو شبكة «العصفور الصغير»	مختارات شعرية
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبَّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زِينة المعنى (الكتابة، الخط، الزخرفة)	يوسف ذنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة وتقديم: بوداود عمير
55	مأساة واق الواق	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
56	بين الجِزْر والمدّ (صفحات في اللّغة والآداب والفنّ والحضارة)	محمد محمود الزبيري
57	ظلّ الذاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	مي زيادة
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصريّة (1932) تحقيق: رشيد العفاقي	قسم التحرير «مجلّة الدوحة»
59	قيصر وكليوبترا	أليكسي شوتان -تعريب: عبد الكريم أبو علو
60	الصين وفنون الإسلام	إسماعيل مظهر
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكليوف
64	من والد إلى ولده	أحمد حافظ بك
65	التلـــميذ	بول بُورجيه
66	ملحَمة جلجامِش	تقديم وترجمة: طه باقر
67	أريجُ الزّهر	الشيخ مصطفى الغلاييني
68	اعترافات إنسان	محمّد فريد سيالة
69	مريود	الطيب صالح
70	المقالات الصحفية	عبدالله كنون
71	قصص قصيرة	نجيب محفوظ
72	بول بولز - يوميات طنجة	إبراهيم الخطيب
73	فنّ الحَياة	سلامة موسى
74	أَقْوَمُ الْمَسَالِكِ فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْمَمَالِكِ	خير الدين التونسي
75	كتاب الأخلاق	أحمد أمين
76	رِحْلَةٌ جَبَلِيَّةٌ رِحْلَةٌ صَعْبَة	فدوى طوقان
77	قِطاف (مُختَارَات مِن الْقِصَّةُ الْقَصِيرَةُ فِي قَطر)	مجموعة من الكتاب
78	الرحلة الجوية في المركبة الهوائية (من شرقي إفريقية إلى غربيها) ج: 1	جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف اليان سركيس
79	الرحلة الجوية في المركبة الهوائية. ج: 2	جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف اليان سركيس
80	مذكرات دجاجة	إسحق موسى الحسيني
81	ماذا يقول غاندي عن اللاعنف والمقاومة والشجاعة؟	نورمان ج. فينكلستاين- ترجمة: أحمد زراقي
82	نشأة اللوحة المسندية في الوطن العربي	د. نزار شقرون
83	مِن سِيَر الأَبْطال والعُظَماء القُدَماء	إس. إس. بيو - ترجمة: يعقوب صروف - فارس نمر
84	مقالاتٌ في الأدب العربيّ	إغناطيوس كراتشكوفسكي

من إصدارات سلسلة كتاب الدوحة











